المتكبر

المتكبر اسم من أسماء الله الحسنى، ويعني ذاته العلية، المرتفعة عن المقارنة أو الشبه، وفي ذلك يقول لسان العرب: "المتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده"[1]. وقال ابن الأثير: "المتكبر العظيم ذو الكبرياء، والمتعالي عن صفات الخلق"[2].

والكبرياء في لسان العرب: "العظمة والمُلك وهي كمال الذات ولا يوصف بها إلا الله تعالى. وكَبُرَ تعني عَظُمَ، والتكبير التعظيم. أمَّا الاستكبار فهو الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرا"[3].

الاستكبار استعلاء عن الحقيقة وجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجَّة دامغة، فالمستكبر يقف على الحقيقة ويغض النظر عنها، بعدم اعترافه بأنها الحق. وهذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حق.

قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[4].

قال الزجاج: "معنى يتكبرون أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة"[5].

ومن الآية السابقة يتضح أنَّ الذين يتكبرون في الأرض هم الذين يتكبرون بغير الحق، وهذا يعني أن للتكبر صفتان:

الصفة الأولى: هي التكبر بالحق، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الخالق والخلفاء المتصفين بصفاته، الذين يقولون الحق ويعملون

---

[1] لسان العرب المحيط، ، ج ٣، ص ٢١٠.

[2] المصدر السابق، ج ٣ ، ص ٢١٠.

[3] المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٠.

[4] الأعراف، ١٤٦.

[5] مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. مكتبة العلم، ١٩٩٩، ص ٧٨.

على إحقاقه ولو كره الكافرون والمجرمون، أي أنهم الذين يتعالون بإعلائهم كلام الله تعالى في الأرض، وإن حكموا بين الناس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وأن عملوا أصلحوا.

الصفة الثانية: التكبر عن الحق، بالحياد عنه والميل كل الميل إلى ما يؤدي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبرين عن الحق هم الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي الله ورسوله ولا تُرضي المؤمنين المستخلفين في الأرض، وهؤلاء هم الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا.

إنَّ المفسدين هم الذين يتكبرون عن الإصلاح، أمَّا المصلحون فهم الذين يتكبرون بفعله، وفي هذا الأمر قال تعالى في إبليس عندما استكبر عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٦]. إنَّ استكبار إبليس كان استكبارا عن الحق، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرا بالحق. والسجود يدل ويُعبِّرَ عن الطاعة وفي هذا الأمر ظهرت الاحتمالات الآتية:

الاحتمال الأول: أن السجود طاعة لمن أصدر الأمر وهو الله تعالى.

الاحتمال الثاني: أنَّ السجود اعتراف بتميز آدم في خلقه قال عز وجل: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧].

الاحتمال الثالث: أنَّ السجود استغفار لله عما قاله الملائكة عندما قال لهم جل جلاله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٨].

الاحتمال الرابع: التسليم بالعلم الذي يعلمه الله عز وجل، والذي أظهر شيئا منه لآدم حتى أظهر لهم منه شيئا وهو مقدرته على إنباء الملائكة بما لا يعلمون.

---

[٦] البقرة، ٣٤.

[٧] التين، ٤.

[٨] البقرة، ٣٠.

وفي كل الاحتمالات الأربع السابقة فالسجود لله تعالى سواء لطاعة أمره، أو الاعتراف له فيما اختاره وفضَّله، أو لعلمه بالغيب الذي لا يعلمون منه شيء، أو لأنه استغفار له جل جلاله.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[9]. الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى، هم الذين لا يلتزمون بما يأمر وبما ينهى، أي أنهم العاصون غير الطائعين لعبادته، وهؤلاء هم الذين سيدخلون جهنم. فالاستكبار: عدم الاعتراف بالشيء برغم وجوده، إنه الجحود والميل إلى ارتكاب ما يخالف الحق، وفي هذا الأمر تواطؤ مع ما لا يرضي الله عز وجل مما يجعل الاستجابة لهؤلاء هي الدخول في جهنم. وفي مقابل ذلك تكون الاستجابة لمن يسأل الله أو يدعوه بالعبادة المدخلة إلى الجنة. وعليه فالذين يستكبرون عما أمر الله به ونهى عنه، يكونون في أسفل سافلين والذين يتكبرون مع ما أمر الله به ونهى عنه سيكونون في عليين. ولذلك فالله المتكبر جل جلاله يودُّ لعباده الذين استخلفهم في الأرض أن يتكبروا عن النواقص فيكونوا من المتكبرين مع تكبره، ولذا فهم لا يتكبرون إلا بالحق.

يقول الله تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[10]. لن يستنكف المسيح تعني: لن يأنف ولن يحتشم في كونه عبدا لله تعالى، بل إنه المتكبر بالعبادة أي المتعالي بها عن النواقص، ولذا فإن العبادة تعالي مع وحدانية المتكبر ورفعته. وكذلك الحال مع الملائكة الذين هم في حالة تكبر مع ما يأمر به المتكبر الأعظم، أي أنهم الملتزمون بالطاعة والعبادة لأمر الله تعالى. وفي حالتي التكبر مع والتكبر عن، تكون المجازاة إمَّا بوفرة في الأجور وزيادة من فضل الله للذين يعملون الصالحات، وإما بالعذاب الأليم للذين يعملون السيئات.

---

[9] غافر، ٦٠.

[10] النساء، ١٧٣.

الذين يعملون السيئات هم المتكبرون عن الطاعة والعبادة لله تعالى، وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة أحدُ في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ولا يدخل النار أحدُ في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان"[11].

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}[12]. المتواضعون من عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض هونا، أي بلين وثبات مخافة من تكبر في غير محله، واحتراما للأرض التي منها خلقوا وفيها استخلفوا. وهؤلاء هم الذين يلتزمون بما أمر الله تعالى، ويتصفون بالطاعة والعبادة، مع دعائهم بما يدفعهم إلى الإصلاح ويُحفزهم عليه، ويبعدهم عن الإفساد في الأرض التي أمرهم الله بالإصلاح والإحسان فيها.

وحتى لا يسود التكبر وتفسد الأرض جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدكم على أحد ولا يبغي أحد على احد"[13]. وفي حديث آخر رواه الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ . أو تحرم عليه النار . تحرم على كل قريب هين لين سهل"[14].

---

[11] صحيح ابن حبان، ج ١، ص ٤٤٠.

[12] الفرقان، ٦٣ . ٦٨.

[13] سنن الترمذي، ج ٧، ص ٢٧٩.

[14] المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٨.

وقال عروة ابن الزبير رضي الله عنهما: "رأيت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. فقال: لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها"[١٥].

المتكبر الحق هو المتكبر بصفاته الحسان المتعالي بها إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل، والمتكبر بالإضافة هو المقتدي بما ترمي إليه صفات المتكبر جل جلاله، أما المتكبر أو المستكبر بغير حق فهو الظالم لنفسه وعقله وبدنه وروحه، وهذا الظلم المُركَّب يجعله في الدنيا يعيش القلق والألم معا، وفي الآخرة يذوق العذاب الشديد، ولهذا فهو لم يستخلف في الأرض ولن يُستخلف في الجنة.

المتكبر المطلق: هو المتعالي على عرشه، والمتكبر عن ظلم عباده، وملكه لا يزول، وهو لا يخشى أحداً. أمَّا المتكبر بالإضافة فهو الذي يخشى الله ولا يخشى غيره في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهو المتكبر عن الرذيلة والسيئات ونقيصة الآخرين أو ظلمهم. ولهذا فهو المعني بالاستخلاف في الأرض دون غيره، وهذا الأمر يجعل من الاستخلاف خصوصية تحتوي كل المؤمنين الطائعين العابدين الحامدين الشاكرين المسبحين المتكبرين بحمد الله تعالى.

والمتكبر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة ولا يأبى إظهارها ولا يأخذ بها، ويشرك آخرون فيها وهم لا علاقة لهم بها، وهؤلاء إذا دعاهم لا يستجيبون له قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ

[١٥] بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية، ج ٣، ص ٣٠٢.

ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[١٦]. بطبيعة الحال لا برهان لهم إلا التكبر بغير حق، ولهذا فالتكبر بغير حق جرم كبير يُدخل مرتكبه النار. والذين أمنوا وأطاعوا وعملوا الصالحات واقتدوا بصفات المتكبر الحسان نالوا الأجر الكبير المدخل للجنة.

قال تعالى: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٧]. وله الكبرياء تعني: المتعالي بآياته العظام القابلة للملاحظة والمشاهدة والإدراك العقلي دون لبسٍ أو غموض، فالنجوم والكواكب والشروق والغروب آيات عظام في السماء، والكنوز التي تكوِّن الأرض من ماءٍ دافقٍ ومعاشٍ طيب ومعادنٍ نفيسة ذات وفرة بين أيدي الناس. والمستخلفون في الأرض هم الذين يوقنون أنه الحق فيزدادون إيمانا والذين كفروا بنعمة ربهم يجحدون. ومن يجحد نعمة ربه، لن يكون لله خليفة في الأرض، فخلفاء الله في الأرض هم الذين يتصفون بصفات من الله تعالى. أما أولئك الجاحدون الناكرون ليس لهم من صفات الله شيء، ومن لا يتصف بصفات الله الحسان لا خير فيه.

قال تعالى: {إنَّ الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويُسبحونه وله يسجُدون}[١٨]. الاستكبار من عمل الشيطان، مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}[١٩] إن امتناع إبليس عن السجود لآدم كان معصية لأمر الله وهذا الامتناع هو تكبر عن الطاعة وعدم الاعتراف بقول الحق وفعل الحق، وهذا التكبر هو المعصية التي بها لُعِنَ إبليس. أما أولئك الذين لا يستكبرون فهم الطائعون لأمر الله تعالى وغير المتكبرين عليه، وفي الآية السابقة المعنيين بالطاعة هم الملائكة الكرام الذين سجدوا لله تعالى اعترافا وإيمانا بأنه الحق وقوله الحق سبحانه وتعالى عما يصفون.

---

[١٦] النمل، ٥٩ . ٦٤.

[١٧] الجاثية، ٣٦، ٣٧.

[١٨] الأعراف، ٢٠٦.

[١٩] البقرة، ٣٤.

قال تعالى: {إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين}[20] قلوبهم منكرة تعني، جاحدة للحق، ولا تعمل على إظهاره وهم في ذلك مستكبرون مع أنه الحق من المتكبر جل جلاله. ولهذا دائما الاستكبار لا يخفي الحقيقة، بل في نظرية التحليل النفسي الاستكبار اعتراف غير مُعلن، ولكن يمكن استنباطه والعمل على إظهاره بالتي هي أحسن وذلك بعد إجراء عملية التحليل للشخصية المستكبرة عن الحق. وهؤلاء هم الذين قال فيهم عز وجل: {وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[21] فكأن لم يسمعها تعني: أنه سمعها ولكنه لم يأخذ بها ولا يعمل بها، وهذه دليل إثبات التكبر بغير حق، ودليل إثبات أن التكبر عن الحق لا يضعف الحق في شيء أو يلغيه، وإن الجحود من البعض يدل على أن البعض قد آمن ولم يتكبر عنها، وبهذا التكبر يستمد صفته من المتكبر المطلق.

يقول أبو حامد الغزالي: "المتكبر من العباد هو الزاهد العارف الذي يتكبر عن كل شيء سوى الحق تعالى"[22].

المتكبر بالإضافة هو خليفة الله في الأرض الذي إن دعي لنقيصة تكبَّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر، ولذا فالتكبر صفة محتملة للإيجاب والسلب. فتكبر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي صفة إيجابية. وارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض صفة سلبية. قال تعالى: {إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سُجَّدا وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون}[23] وهم لا يستكبرون تعني: أنهم يعترفون بالإعجاز الإلهي في آياته العظام، وبالتالي هم الذين يتعاظمون معها علوا ورفعة حتى ينالوا الهيبة. والسجود اعتراف وتسليم وتكبر مع المتكبر لا تكبر مع من سواه. وهم الذين كلما رأوا

---

[20] النحل، ٢٢، ٢٣.

[21] الجاثية، ٨.

[22] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتب العلمية، ص ٥٢.

[23] السجدة، ١٥.

آية أو نزلت عليهم آية وحدوا الله وكبروه تكبيرا أي عظموه وقدسوه تقديسا. فالمتكبر بكماله وجماله يتكبر، والمؤمن بإيمانه يستعلى، والذين لا كمال فيهم ولا جمال ولا يؤمنون فهم الأذلاء الذين رضوا بأن يكونوا خوالف. ومن يرتضي بأن يخالف الحقائق أو ينكرها يفتقد الحجة، ومن لا حجة له لا شرع في حكمه، ومن لا شرع في حكمه ظالم، ومن يظلم لا يتعاظم، ومن لا يتعاظم يركن ويستكين في مستنقعات الرذيلة والوضاعة. ولذلك فالاستكبار عن الحق ليس بحق.

المتكبر الحق هو المتكبر عن الرذيلة والوضاعة والسفاهة، والعازة والجهل، والمرض والتعب والجوع وعن الصاحبة والولد والشبيه والمثل. إنه الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، ولم يكن له ولي من الأمر، يضاعف الحسنات ويمحو السيئات، ويغفر الذنوب، ويكيد كيد الكائدين، ويزلزل الأرض ومن عليها، يحيي ويميت، فعَّال لما يُريد، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يُتصف به ولا يَتصف بأحد، يعلم الغيب ولا يُطلع عليه أحداً، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويغني من يشاء بغير حساب، يحق الحق ويُزهق الباطل، يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون.

إذن المتكبر الحق هو المتكبر بعزته عن الاستكانة والمتكبر بقوته عن الوهانة، وباستطاعته عن المهانة. والمتكبر بالإضافة هو المستخلف بكبريائه في الأرض، ولو لم يكن متكبرا ما كان الخليفة، فبتكبره يتعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وبكبريائه لا ينقاد لأحد إلا لله تعالى، لا يظلم ولا يستعبد الناس، ولا يأكل حراماً، إنه المتكبر عن الشرك.

الكبرياء نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق، والذات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية، وكبرياء الإيمان الذي به يتكبر المخلوق مع الخالق. فالصفاء كبرياء بين المخلوق والخالق وبين المخلوق ونفسه.

ومن صفات المتكبر في ذاته المعطيات الآتية:

١ . المقدرة المُطلقة على فعل أي شيء فهو الذي بيده الأمر يفعل ما يشاء كما يشاء وأينما يشاء، ومتى ما يشاء، فلا يَحدُّ من قدرته كائن ولو اجتمعت الكائنات جميعها سبحانه إنه على

كل شيء قدير. {إنَّ الله على كل شيء قدير}[٢٤] وقوله تعالى: {وكان الله على كل شيء مقتدر}[٢٥]. ومع أنه المقتدر والقادر على كل شيء، إلا أنه يُمهل الكافرين دون أن يَهمل أمرهم وكل أمر، ولذا فهو المتكبر الذي لا يتوقف عند حالة حتى وإن كانت عاصية لأمره وذلك لأنه يعلم أن أمره نافذ ولكنَّ الناس لا يعلمون بمقدرته التي يعلمها من آمن، ولأنه المتكبر، فهو يعطي الفرصة لمن يُمكن أن يكون من المؤمنين، بعد أن يغفر له ما تقدم من ذنبه، وهو القادر على أن يغفر الذنوب جميعا ما تقدم منها وما تأخر سبحانه إنه على كل شيء قدير.

٢ . عدم التساوي مع الغير. إنه الواحد الأحد ومالك المُلك الذي تتعدد صفاته كما يتعدد ملكه، وهو الخالق الذي لا يتساوى في شيء مع خلقه، وفي هذا الأمر تنص القاعدة بالمطلق على: (أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وأقدر) ولذا لا مجال للمقارنة، وفي ذلك يقول تعالى: {ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم}[٢٦] وقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[٢٧]. إذا كان الصانع للشيء هو أفضل منه، فما بالك بخالق الأشياء كلها، فالصانع صنع الأشياء من الأشياء، أما خالقها فهو الذي خلق الشيء من لا شيء سبحانه.

فنحن بنو آدم الذين يُراد لنا أن نرث الأرض ونستخلف فيها، صنعنا مستلزماتنا مما خلق الله تعالى، فمنها صنعنا الحاسوب وشبكات المعلومات والاتصالات المتطورة، وصنعنا الصاروخ والطائرة والتلفاز وكاميرات التصوير والتجسس على بعضنا بعضا، وصنعنا المقاعد والأقلام والورق، وصنعنا الجرة التي فيها يُحفظ الماء، وصنعنا الكثير مما نعد ونفتخر، إلا أننا نحن الصنَّاع أفضل مما صنعنا، فالذي صنعناه لا يساوينا في شيء، وذلك لأننا نحن المخلوقون خلقا. فما صنعناه من قوة لا يساوي قوتنا المستمدة من القوي الأعظم سبحانه وتعالى مصداقا لقوله: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). وبما أن ما صنعناه لا يساوينا، إذن بطبيعة الحال نحن لا نساوي من خلقنا.

---

[٢٤] البقرة، ٢٠.

[٢٥] الكهف، ٤٥.

[٢٦] النحل، ٦٠.

[٢٧] الشورى، ١١.

٣ . ليس له بداية ولا نهاية. {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}[٢٨]. لم يكن من قبله شيء، ولم يكن من ورائه أحد، فهو الأول والآخر وهو على كل شيء قدير. إنه الله الذي تؤمن به القلوب، والذي تُدركه العقول، وترى آياته الأبصار في البر والبحر والسماء وما بينهما وما تحتويه من النعم التي أنعم بها الخالق على خلقه. فهو الأول الذي لم يكن قبله أحد، وهو الآخر الذي لم يكن بعده ثاني، ولأنه هكذا في ذاته، فهو المتكبر عن الصاحبة والولد، والمتكبر عن المشاركة لأحد. فالذي لا يتكبر عن هذه هو الذي له بداية ونهاية، وهذه ليست من صفات المتكبر جل جلاله.

٤ . يَرى كل شيء ولا يراه شيء. {إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}[٢٩] وقوله جل جلاله: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}[٣٠]. خلق الله لنا الأبصار نعمة لنرى بها آياته العظام في خلقه، ونرى بها الجمال الذي أبدعه في الأرض والسماوات العلا، ونحس به في علاقات المحبة والتعاون والتآنس في الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة ومواثيق الروابط والعهود الوافية. فالله تعالى يرانا ولا نراه وفقا لما تنص عليه القاعدة: (الخالق يرى من خلق والمخلوق لا يرى خالقه مع أنه يحس به ويدركه يقينا). وإن حاول أحد ليرى فليحاول، ليرى آياته العظام التي بها يدرك أنه الحق جل جلاله {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرَّ موسى صعقا فلمَّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}[٣١]. الله عز وجل كلَّم موسى مباشرة وأعطاه الحجة آية راءها بأم عينيه، وهي انعدام الجبل الماثل أمام أنظار موسى عليه الصلاة والسلام من الوجود في الزمن غير المُقدَّر قياسا، فصعق موسى عليه الصلاة والسلام، إلى أن أفاق بقوله (تبت إليك وأنا أول المؤمنين). أي أنه اعترف برؤية الآية الدالة على رؤية الله تعالى. وهذا لا يعني أن موسى عليه الصلاة

---

[٢٨] الحديد، ٣.

[٢٩] آل عمران، ٥.

[٣٠] الأعراف، ٢٧.

[٣١] الأعراف، ١٤٣.

والسلام غير مؤمن ولكن كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ليطمئن قلبي). والآية التي أظهرها الله عز وجل كانت طمأنة تامة على نفس موسى. إنه عز وجل المتكبر عن الرؤية التي بها يتم إدراك من له بداية ونهاية، ولذلك يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، فالرؤية تمتد للأجسام والأشكال والألوان، ولكل ثابت ومتحرك، ولا تمتد للذي هو وراء كل حركة ووراء كل سكون سبحانه جل جلاله يرانا ولا نراه، وفي الآخرة رؤية الله تنسجم مع قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[٣٢].

٥ . يعلم ما لا يعلمه أحد. {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}[٣٣] وقوله تعالى: {يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله}[٣٤]. الساعة آية من آيات الله العظام التي نعلم بها ولا نعلمها، نعلم بها: علما من عند الله، ولا نعلمها: نعلم أننا لن نعلم سرها متى تكون؟ وكيف تكون؟، فهذه آية من علم الله تعالى. وبطبيعة الحال بما أننا لم نعلم البداية فإننا لن نعلم النهاية، ولأن الله هو الأول وهو الآخر، فهو إذن وحده الذي يعلم موعدها، ولأننا نحن الذين سينتهون، لذا فمن الطبيعي ألاَّ نعلم أمر نهايتنا على قيد الوجود، بل الذي يعلمها من يملك الأمر وهو الجبار العظيم.

قال تعالى: {وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى}[٣٥] إنه يعلم بكل شيء، ما يُسرّ في الصدور وما يُعلن بالقول، ولذلك فالأعمال بالنيات التي يعلم سرها الله تعالى {قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم}[٣٦]. أي أنه لو لم يعلم ما لم يعلمه أحد ما أنزل هذه الآية على رسوله الكريم حتى يكون يقظا بمن حوله، وهذه الآية كما سبق أن أوضحنا أنها نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين وهم لم يكونوا بمؤمنين بعد، فكانوا يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: أتيناك

---

[٣٢] القيامة ٢٢.

[٣٣] البقرة، ٢٥٥.

[٣٤] الأحزاب، ٦٣.

[٣٥] طه، ٧.

[٣٦] الحجرات، ١٤.

بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلأن، يريدون الصدقة ويمنون (قل لم تؤمنوا) حيث انعدام التصديق والثقة والطمأنينة التي بها تطمئن القلوب وتنقاد الجوارح لشرع الله فالإيمان قول باللسان واعتقاد بالإيمان وعمل بالأركان، (ولكن قولوا أسلمنا) أي دخلنا في السلم بإظهار الشهادتين، وترك محاربة الرسول ومن آمن برسالته السماوية الخاتمة، (ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم) تعني: إلى أن يأتي الوقت المناسب لإعلان إيمانكم حينها تصبحوا من المؤمنين الذين يُطمئن لهم باطمئنان قلوبهم بذكر الله تعالى.

ولأنه المتكبر فهو يعلم ما لم يعلمه أحد، ولأنه المتكبر فهو لا يُطلِع على علمه أحداً إلا بمقدار ولمن ارتضى، {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}[٣٧].

٦ . يتحكم في الأمر ولا أحدا يتحكم في أمره. {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون}[٣٨] وقوله عز وجل: {تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير}[٣٩]. وفقا للقاعدة الطبيعية التي تقول: (الخالق يتحكم فيمن خلق) فإن المخلوق يُسلِم وجهه لخالقه، الذي بقوته يهيمن عليه ويتجبر ويتكبر بعزته له إن كان مؤمنا، وبِذُلِهِ له إن كان كافرا. ولأن الله يتحكم في الأمر ولا أحد يتحكم في أمره، لذا فهو المتكبر عن الطغيان الذي بإمكانه أن يُنَفِّذه فيمن لا يطيع أمره، ومع أنه متحكم في الأمر، إلا أنه عفو غفور، وبهذا العفو والغفران فهو يتكبر بتحكمه في الأمر ليعطي الفرص والآيات المتعددة لمن يريد أن يؤمن ويطمئن قلبه.

٧ . يُطاع ولا يَطيع. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله}[٤٠] وقال تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا}[٤١]. إنه المتكبر الذي بيده الخير، ولأن الخير بيده فهو الذي يُعطي ويَهب لمن يشاء، وهو القادر على كل شيء، وهو الفعَّال لما يريد، بيده المُلك لا يحتاج لأحد، والكل يحتاج إليه. ولأنه لا يحتاج لأحدٍ، فهو ليس في حاجة لِمن يَطيع.

---

[٣٧] البقرة، ٢٥٥.

[٣٨] ياسين، ٨٣.

[٣٩] الملك، ١.

[٤٠] النساء، ٥٩.

[٤١] التغابن، ١٦.

قال تعالى: {من يُطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار}[٤٢]. الله جل جلاله بيده كل أمر يهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيما، ويدخل من يشاء الجنة ويدخل من يشاء النار ويرزق من يشاء بغير حساب. إنه مالك الملك الغني القوي، الذي جعل فينا الحاجة إليه ولم يجعل حاجة في نفسه إلينا سبحانه ما أعظم شأنه.

المخلوق لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما أعطاه الله، ولأن الله تعالى لم يكن في حاجة لأحد فلا ضرورة إذن لأن يَتبِع أحد، وفي مقابل ذلك الكل في حاجة لله عز وجل، لذا الكل يَتبَع من بيده مشبعات حاجاته المتعددة والمتطورة عبر الزمن؛ ولا يتبع سواه. فمن يؤمن بالله يُطع الله ورسوله، ومن يكفر لن يكون له في الجنة نصيب.

المتكبر سبحانه خلق كل شيء وتكبر عن كل ما خلق، ولهذا فهو لم يكن في حاجة ولن. أما الخلائف في الأرض فهم دائما في حاجة لرحمة المتكبر في الحياة الدنيا والآخرة.

إنَّ تكبر المتكبر جل جلاله على عباده، هو تكبر الوحدانية وهو التكبر عن المماثلة، فالجبار لا يتساوى مع أحد وليس له شبيه، إنه المتكبر عمَّا يساويه بخلقه وهذا الأمر هو من طبيعة الخالق والمخلوق وفقا للقاعدة: (الخالق لا يتكافأ مع ما خلق) قال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٤٣].

٨ . يُحيي ويُميت. لو لم يكن متكبرا ما كانت له المقدرة على الإحياء والإماتة، سبحانه خلق التراب وخلق منه خير خلقه، وخلق النور ثمَّ خلق الملائكة منه، وخلق النار فكان الجن هو المخلوق منها، وهكذا خلق كل شيء من الطينة التي هو منها، وبهذا الخلق كانت الحياة تمد الكائنات بالحركة والاتصال. ولأنه تعالى خلق من كل زوجين اثنين فكان التكاثر والانتشار في الأرض، التي جعل فيها الإنسان خليفة ليُصلِح ما يفسده البعض من الكائنات الأخرى، ولكن الذي حدث جاء الفساد الأكبر من الذي يراد منه أن يكون مصلحا في الأرض، مما جعل الإيمان هو المتغير الموضوعي للإصلاح، ولهذا أصبح الاستخلاف نصيب المؤمنين

---

[٤٢] النساء، ١٣.

[٤٣] الإخلاص، ٤.

الذين إذا حكموا بين الناس حكموا بالعدل وإذا قالوا صدقوا وإذا عملوا لا يُفسدون، وإذا ركعوا أو سجدوا لا يركعون ولا يسجدون إلا لله وحده. قال تعالى: {ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثُها عبادي الصالحون}[٤٤] الزَّبور كتاب داود (من بعد الذكر) أي التوراة، الذي كتب فيها أن الأرض يرثها عباد الرحمن المتكبر جل جلاله وهم عامة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورُسُله وكتبه وبما أمر بالإتباع وبما نهى عن إتباعه طاعة تامة لله وحده.

الموت والحياة يتعلق أمرهما بالمتكبر الذي يُنفِّذ أمره بهما متى ما شاء وفي من يشاء، والموت والحياة لم يكن أحدهما ثوابا لأحد، والآخر عقابا لآخر، بل إن أمرهما يتعلق بطبيعة الخلق (كن) فيكون حيا، أو يكون ميتا، إلا أنَّ البداية هي الحياة التي يكون الناس فيها متساوون، والنهاية هي التي يكونون فيها مختلفين {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٤٥]. وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٦]. ولأن الله يحيي الموتى فهو إذن يميت ويحيي، مما يدل على أن الحياة مرتين مرة في الحياة الدنيا، ومرة في الحياة الآخرة التي يترتب الاستقرار فيها على ما عملنا في الحياة الدنيا، ولهذا فمن عمل صالحا دخل الجنة، ومن عمل سوءاً وإثما دخل النار إن لم يرحمه الرحمن الرحيم. والفرق الكبير بين الحياتين، فالحياة الأولى: البقاء فيها مؤقت، والحياة الثانية: البقاء فيها دائم مع الحي الدائم.

قال تعالى: {يُحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير}[٤٧]، ولأن أمر الحياة والموت بيده عز وجل فهو بطبيعة الحال على كل شيء قدير. أصعب المهام على المستوى الإنساني الإحياء والإماتة، وهما في قائمة المستحيلات على هذا المستوى، أما بالنسبة لله تعالى فإنهما من أيسر خلقه، باعتبار أن الحياة هي البداية، وأن الممات هو النهاية، وهما يخضعان للأمر الذي يصدره تعالى (كن) كن حيا، أو كن ميتا. لذا فإن الله لا يعمل ويبذل الجهد ويستغرق

---

[٤٤] الأنبياء، ١٠٥.

[٤٥] فصلت، ٤٦.

[٤٦] الحج،٦.

[٤٧] الحديد، ٢.

الوقت كما نحن نبذل الجهد حين نسعى ونعمل، بل هو مالك الأمر الذي إن أمر به شيئا جاءه طوعا أو كرها. قال تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين}[٤٨].

٩ . يَخلِق ولا يُخلق. من صفات الجبار أن يكون الخالق الأول والآخر، الذي له الحق كما له الملك في أن يتكبر على ما خلق سبحانه لا إله إلا هو المتكبر جل جلاله.

المتكبر جل جلاله هو الأول والآخر الذي خلق كل شيء وتكبر عن خصائص خلقه، فهم الذين يصيبون كما هم يخطئون، وهم الذين يجوعون ويشبعون، وهم الذين يمرضون ويشفون، وهم الذين يُكسرون ويُجبرون بقوته، وهم الذين يظمأون ويرتوون؛ لذا فإنَّ المتكبر سبحانه وتعالى هو الذي لا تلحقه هذه الحاجات ولا تلحقه مُعقباتها، قال تعالى: {نحن خلقناكم فلولا تُصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدَّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين}[٤٩]. بما أننا المخلوقون فلابد من وجود خالق جبار سابق علينا ولا يساوينا، أي أن من وراء خلقنا متكبر عظيم، ولأننا المفضّلون على الخلائق في تقويمنا، فبطبيعة الحال أن يكون خالقنا أفضل منا فلا يساوينا، ولهذا فإن الخالق هو الذي يَخلِق ولا يُخلّق. قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[٥٠].

١٠ . يمتلك الحكمة ويحتكم إليه. الحكمة هي السر الذي يكون وراء كل علة أو سبب أو وجود أو نهاية. وهي الحُجَّة التي يكمن فيها القول الحق أو الفعل الحق الذي يحتكم به أو يحتكم إليه قال تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذَّكر إلا أولو الألباب}[٥١]. والحكمة هنا كما جاءت في تفسير البيضاوي هي تحقيق العلم واتقان العمل، والخير الكثير: هو الخير الوافر في الحياة والممات. قال عز وجل: {ادع إلى

---

[٤٨] فصلت، ١١.

[٤٩] الواقعة، ٥٦ . ٦٠..

[٥٠] النحل، ١٧ . ٢٠ .

[٥١] البقرة، ٢٦٩.

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنَّ ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}[52] الحكمة هي مكمن القوة المؤثرة في إدراك الحقائق؛ وهي السبيل للبرهنة عندما يكون اللين هو الأسلوب السائد في عمليات الإقناع بين المتحاورين والمتجادلين، والأسلوب الجدلي يتضمن العزيمة والإصرار على إظهار البيِّنة هي كما هي حتى يتم استيعابها وإدراكها وفهمها والأخذ بها واعتمادها دليلا وحُجَّة في إحقاق الحق وتغيير المواقف من الرفض بدون حُجَّة أو سبب إلى القبول بإرادة وعن بيِّنة.

ولأن الله هو الحكيم العليم فهو مصدر الحكمة، التي يؤتيها لمن يشاء من عباده وهي الخير الكثير. {ولقد أتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله}[53] بدون شك أنَّ الحكمة التي أوتي بها لقمان تكمن في شكره لله تعالى، ومن يشكر الله يزده من فضله مصداقا لقوله تعالى: {لأن شكرتم لأزيدنكم}[54]. ولذا فمن يمتلك الحكمة يحتكم إليه، ويعد مصدرا للثقة بعد معرفة تامة بما يقول من حِكم.

وعليه فإن في التكبر حكمة، أي أن التكبر عن النواقص والرذائل والأطماع التي تؤدي بأصحابها إلى المذلة هي صفة حميدة ذات فضائل من متكبر حكيم.

ولأن المتكبر تعالى هو الحكيم العليم، فهو مصدر الحكمة والعلم بها، ولأن الكتاب هو من الحكيم العليم فهو مجمع الحكمة، لذا فمن آمن به تَمَكَّنَ من أخذها أو الأخذ منها ومن لم يؤمن حرم نفسه من فضائلها.

١١ . يَعطي الآيات ويُنزِلها ولا تُعطى له آية: سبحانه وتعالى إن نعد آياته لا نحصيها، ولكن إيمانا تاما كل ما خُلق وكل ما سَيُخلق هو آيات يأتي بها ولا نستطيع أن نُقدِّم له آية واحدة ولو اجتمعنا، الحياة آية متكاملة والموت آية متكاملة، وهكذا الزلزلة آية، والبصر والسمع والذوق والشم واللمس والإدراك والتفكر والتذكر والاستنباط والاستقراء والتعلم والحكمة وإلى

---

[52] النحل، ١٢٥.

[53] لقمان، ١٢.

[54] النساء، ١٤٧.

النهاية كل شيء خلقه آية. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[٥٥] والآية فوق كل ذلك أننا لن نستطيع أن نخلق آية، ومن يخالفنا نقول له هل تستطيع أن تتدخل في خلقه أو تخرق نظامه المُحكم بالزمان والحركة؟. بِطيب خاطر ستكون الإجابة بلا، مع إضافة أننا في دائرة الممكن سنصنع ما هو متوقع وما هو غير متوقع وهذه لن تكون آية. إنه وحده يعلم أمر الغيب ونحن نؤمن به، ولذا فهو يعلم مسبقا ما سنتوصل إليه ونحن لن نعلمه حتى يوم وصوله إلينا.

قال تعالى: {والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إنَّ في ذلك لآية لقوم يسمعون وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سُكرا ورزقا حسنا إنَّ في ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربُّك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون}[٥٦]. ومع أننا أمام الإغراء الآياتي نجتذب، إلا أن المتكبر تعالى لا يجتذب إليها فهو لم يكن في حاجة مثلما نحن في حاجة لأن نشبع جوعا أو نروي ظمئا أو نشفي مرضا سبحانه إنه المتكبر الذي يستوجب العبادة والطاعة.

---

[٥٥] النحل، ١٠ ـ ٢٠.

[٥٦] النحل، ٦٥ ـ ٦٩.

١٢ . يُسبَّح باسمه ولا يُسبِّح باسم أحد: التسبيح مراجعة إيمانية مع النفس وتوحيد لله ربِّ العالمين لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. والمُسبِّح هو ذاكر إلهه بالوحدانية المطلقة، ولأن المتكبر جل جلاله هو الإله بذاته العلية وهو الواحد القهار، لذا فلا إله له ليذكره بل هو وحده ربُّ العرش العظيم، {وترى الملائكة حافِّين من حول العرش يُسبحون بحمد ربهم}[٥٧]. وقال تعالى: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ وإن من شيء إلا يُسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[٥٨]. إذن التسبيح اعتراف المخلوق بخالقه مع فائق التقدير والعرفان بالفضل. ولأن الاعتراف عقلي إدراكي وكل شيء يُسبح بحمده فإن الجماد والنبات والإنسان وبقية المخلوقات تتساوى في تسبيحها لله ربِّ العالمين، ولكن الكل لا يفقه تسبيح الكل، مما يجعل كل مفردة من المخلوقات تعتقد أنها وحدها المسبِّحة باسم ربها الذي خلقها. والآية الكبرى التي يَحفُها الاستغراب والاستفهام أن الإنسان العاقل يظن أنه الوحيد الذي يُدرك الله تعالى، ولكن بما أن الكل يُسبح بحمد الله الواحد القهار ألا يكون الكل دون تخصيص يدركون الله تعالى، وإلا هل يظن أن يُسبِّح أحد لأحدٍ وهو لا يدركه حقيقة لا شك فيها؟. قال تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ}[٥٩] وقال عز وجل: {ويُسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته}[٦٠].

١٣ . مُجيب الدعاء: المتكبر عن النواقص إذا دعوته لأن تكون متكبرا عنها أجابك الدعاء بالرفعة، أمَّا إذا دعوته لظلمٍ فلا تتوقع منه الإجابة، ذلك لأن الظلم ليس من صفاته ولا من أفعاله. قال تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإن قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}[٦١] بالتأكيد من يستجيب لله بالطاعة يستجيب لدعائه إذا دعاه (اللهم يا الله يا متكبر اجعلنا من الصالحين، وارضي عنَّا وعن والدينا، وزوجاتنا والبنين،

---

[٥٧] الزمر، ٧٥.

[٥٨] الإسراء، ٤٤.

[٥٩] ص، ١٨.

[٦٠] الرعد، ١٣.

[٦١] البقرة، ١٨٦.

والأخوة أجمعين، وصحابتنا وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهاتنا زوجات النبي رضي الله عنهنَّ، اللهمَّ إنَّا بِكَ آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وأولينا أمرنا وأمرهم وما نملك إليك فارحمنا وأحفظنا بحفظك يا الله في كل حين). فمن يُغلب بظلمٍ أو يمرض بداء فعليه بالعمل والدعاء قال تعالى: {فدعا ربَّه أنِّي مغلوبُ فانتصر}[٦٢].

١٤ . يعز ويذل: قال تعالى: {قل اللهم ما لك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتُذلُّ من تشاء بيدك الخير إنَّك على كل شيء قدير}[٦٣] المتكبر جل جلاله يعز من يشاء بمناصرته له في إحقاق الحق، ويذل من يشاء بإزهاق الباطل، مصداقا لقوله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[٦٤].

١٥ . يُشبع الحاجة ولا ينتظر جزاء: لو لم يكن هو المتكبر لكان من المنتظرين لنيل الجزاء أو الطمع فيه، ولأنه المتكبر جل جلاله فهو الذي لم يطمع بالمطلق، ولا يحتاج حتى ينتظر المكافأة أو الجزاء. إنَّ الذي ينتظر هو المحتاج، وبما أنه ينتظر، فهناك من هو أكبر منه شأنا، أو أكثر منه مالا وولدا، ولأنه المتكبر عن الحاجة للمال والولد والصاحبة وعن كل ما خلق فهو الذي بيده المٌلك أي بيده الخير الذي تحتاجه مخلوقاته، ولهذا فالكل ينتظر وهو الذي يجود ويجازي على الأعمال عاليها وسافلها بالثواب أو بالعقاب أو بالمغفرة، {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}[٦٥] وقال تعالى: {يُسبِّح لله ما في السماوات والأرض له المُلك وله الحمد}[٦٦] وبما أن كل ما خلق يُسبح بحمد الله، والله هو المتكبر عن الحاجة والعازة، وهو الأول والآخِر إذن لا وجود لمن يتم انتظاره، بل الذي يُنتَظر هو الذي يتعالى ويتكبر عن المطلب، إنَّه الله عز وجل {ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل

[٦٢] القمر، ١٠.

[٦٣] آل عمران، ٢٦.

[٦٤] الأنبياء، ١٨.

[٦٥] النساء، ١٢٣.

[٦٦] التغابن، ١.

شيء فاعبدوه}[٦٧] وقال تعالى: {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك}[٦٨].

١٦ . يُعرَف بذاته ولا يُعرَّف بغيره: المتكبر هو الذي ليس له مثيل ولا شبيه مصداقا لقوله تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد}[٦٩]. لم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة ولا شريك: بما أنه المتكبر تعالى، فهو لم يكن في حاجة لأحد حتى يتخذه ولدا أو صاحبة أو شريكا، إنه مالك الملك والكل في حاجة إليه ولم يكن في حاجة لأحد سبحانه جل جلاله قال تعالى: {أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء}[٧٠].

أنه الخالق لكل مخلوق، بمن فيهم الصاحبة والولد والشريك، الكل خلقه، ولأن على المستوى البشري الولد يُنجب ولا يُخلق والزوج يُجبر ولا يُخلق وكذلك الشريك يُجبر ولا يُخلق، ولأن الله تعالى: {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد}[٧١] إذن فهو بالمطلق لم يكن في حاجة لأحد. ولهذا قال تعالى: {ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا}[٧٢].

المتكبر الحق هو الذي خلق كل شيء وتكبر عن كل شيء، إنه المتعالي عن الجوع والعري والمرض والمشاركة وهو الظاهر بآياته والباطن بعزته وقوته، وهو السابق على كل سابق وهو بكل شيء عليم {هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}[٧٣].

١٧ . عفوا رحيما وشديد العقاب: {قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء}[٧٤] ورحمته تعالى وسعت كل شيء: جاءت مُطلقة، ولهذا فإن رحمة الله واسعة لا يُستثنى شيء منها، إنَّه الباب المفتوح في وجه من يرغب الدخول معه حتى الفوز بالجنة،

---

[٦٧] الأنعام، ١٠٢.

[٦٨] الإسراء، ١١١.

[٦٩] الإخلاص، ١ . ٤.

[٧٠] الأنعام، ١٠١.

[٧١] الإخلاص، ٣ ، ٤.

[٧٢] الفرقان، ٢.

[٧٣] الحديد، ٣.

[٧٤] الأعراف، ١٥٦.

ومن لا يرغب الدخول معه فسيكون مع الداخلين من أبواب العذاب الشديد بالقوة، ولذا فإن العذاب يصيب به من يشاء، أما الرحمة فتعم الجميع دون استثناء إلا من يستثني نفسه منها. قال تعالى: {ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة}[75] إنه المتكبر الذي لو لم يكن متكبرا لأخذ الناس بظلمهم، وخسف بهم الأرض أو أغرقها إلى أبد الآبدين، ولأنه المتكبر المطلق عفا عن الكثير وغفر للكثير وعاقب الكثير مصداقا لقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[76].

١٨ . قوله الحق وفعله الحق: قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[77] وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[78] وعدُ الله تعالى بالاستخلاف في الأرض كان للبعض وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولهذا قال تعالى: (منكم) وهي للتبعيض، (الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) هذا الخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا برسالته، ليجعلنهم الخلفاء في الأرض كما استخلف من قبلهم المؤمنين برسالة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام. قال تعالى: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربِّك فيؤمنوا به}[79].

١٩ . يُعبد ولا يَعبد: العبادة وفقا للقاعدة هي (التعلق بالأفضل المطلق) ولأنه لا أفضل مُطلق غير الله لذا فهو الذي يُعبد ولا يَعبد، ولهذا فهو الجبار جل جلاله. {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

---

[75] النحل، ٧١.

[76] العنكبوت، ٤٠.

[77] الأعراف، ٤٤.

[78] النور، ٥٥.

[79] الحج، ٥٤.

وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٨٠].

٢٠ . يحيط بكل شيء ولا شيء يحيطه: قال تعالى: {وكان الله بكل شيء محيطا}[٨١]. وبما أن الله المتكبر محيط بكل شيء، إذن بطبيعة الحال لا يحيطه شيء، حيث لا شيء خارج محيطه عز وجل، {وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}[٨٢] أي لا تَخفى عليه خافية، كل شيء بين يديه بيِّن من حيث مكانه وزمانه وحركته أو سكونه وحجمه وطوله وعرضه ومساحاته وعلمه وحكمته وسره وعلانيته سبحانه المتكبر المحيط بكل شيء علما.

ولأنه يحيط بكل شيء علما فهو المتكبر عن مستوى العقول التي لن تتمكن من الإحاطة بما هو يحيط جل جلاله، ولأن المتكبر مالك الملك يُذهب من يشاء ويستخلفهم بمن يشاء، أو يأتي بخلق جديد، فهو الذي يُحيط ولا يُحاط إنه مالك القوة والأمر: {إن يشأ يُذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء}[٨٣]. وقوله عز وجل: {إن يشأ يُذهبكم ويأتي بخلق جديد}[٨٤].

٢١ . يُحصي ونعمه لا تُحصى: بما أنَّه الجبار المطلق فهو الخالق المطلق، وبما أنه الخالق المطلق، فلن يكون غيره أدرى بما خلق، وبما انه الخالق المطلق فلن يكون غيره مدركا ولا حاصيا لكل ما خلق {وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}[٨٥]. وكما تتعدد صفات الله تعالى تتعدد نعمه وتتضاعف {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}[٨٦] بالرغم من أننا نحصي البشر والبحار والمحيطات والبحيرات والأشجار والكواكب والنجوم إن استطعنا، إلا أننا لا نستطيع أن نعد أو أن نحصي جميع الكائنات، فالإنسان بإمكانه أن يعد ما تحت يديه، ولكنه

---

[٨٠] الأنبياء، ١٩ . ٢٢.

[٨١] النساء، ١٢٦.

[٨٢] الطلاق، ١٢.

[٨٣] . الأنعام، ١٣٣.

[٨٤] إبراهيم، ١٩.

[٨٥] الجن، ٢٨.

[٨٦] إبراهيم، ٣٤.

لن يستطيع أن يعد حبَّات الرمل ورذاذ الماء ولا متجزئات الغبار المتطايرة ولا الكائنات الحية على الأرض اليابسة ولا التي في البحار وأعماقها والمحيطات العظام. ومع أننا لن نستطيع إلا أنه جل جلاله يستطيع مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}[٨٧].

٢٢ . يأمر بما يجب وينهى عما لا يجب: ولأن المتكبر هو المتعالي، فهو يتعالى في ذاته عن كل نقيصة، النقيصة التي يجب على الخلفاء الابتعاد عنها اقتداء بصفات مستخلفهم في الأرض عز وجل، ولذا لن يكونوا خلائف إلا إذا تعالوا وتكبروا عن النزول إلى حيث لا يجب النزول، وأن يتكبروا ويتعالوا إلى حيث ما يجب والعمل به أو الأخذ به.

قال تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[٨٨] وقال عز وجل: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}[٨٩].

٢٣ . لا يظلم أحداً: الذي يظلم هو الذي يغضب ويفرح بغير حق، ويمرض ويتعافى ويطمع ويجوع ويشبع، ويختلف وينازع ويخاصم ويفارق، وهو الذي له أنداد وشركاء وله أولاد وله صاحبة، ولأن الله تعالى تكبَّر عن كل شيء لعدم حاجته له، ولهذا غضب الله وفرحه لا يكون إلا في محله الذي يستوجب الفرح أو الغضب، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٩٠] والله المتكبر لا يظلم أحدا، قال تعالى: {إنَّ الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون}[٩١]. وقال تعالى: {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا

---

[٨٧] مريم، ٩٣ . ٩٥.

[٨٨] التوبة، ١١٢.

[٨٩] الكهف، ١١٠.

[٩٠] المجادلة ١٤، ١٥.

[٩١] يونس، ٤٤.

مبدل لكلماته}[٩٢]. إنه القاضي بالحق ولهذا لا مبدل لحكم الله {والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير}[٩٣].

٢٤ . يسأل ولا يُسأل: الذي يُسأل هو الذي يأخذ ويطلب ويتعلم، أمَّ الذي يَسأل فهو الذي يعطي ولا يطلب، فالذي يطلب هو المحتاج، والذي يُعطي هو الغني. ولأن الله تعالى هو الغني فهو الذي يُعطي ويجيب الدعاء ولهذا فهو الذي {لا يُسأل عمَّا يَفعل وهم يُسألون}[٩٤] أي يُسألون عما عملوا فيما أعطي لهم ليجازوا الجزاء الأوفى أو ليعذبوا العذاب الشديد.

وفي معظم الأحيان يعتقد البعض أن السؤال يسبق الإجابة وهذا الاعتقاد ليس في محله، فالإجابة دائما تسبق السؤال، وإلا هل هناك من يُسأل عن شيء لم يدرسه أو يتعلمه أو يقال له أو يجده مبثوثا في شبكات المعلومات المتطورة، وعلى هذا الأساس تعطى المعلومات من المعلمين أولا ثم تلاحق ثانيا بالأسئلة لمعرفة مستوياتهم، وهكذا نزلت الرسالات والكتب السماوية من الله تعالى على الرسل فبشروا بها العباد، فآمن من آمن وكفر من كفر والفرصة لا زالت إلى أن يأتي يوم الحساب الذي فيه يُسأل العباد عن أعمالهم. {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرا يره}[٩٥].

وعليه المتكبر سبحانه وتعالى هو المتكبر عن العيوب والنقائص وصغائر الأمور، فهو الكامل بذاته فحق له أن يكون المتكبر بكماله وجلاله، فهو الله مالك الملك، وهو الملك الذي بيده كل شيء فهل يقبل العقل والمنطق أن يكون سبحانه أن نساوي معه من لا يخلق ولا يقدر على شيء؟ قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[٩٦].

فالمتكبر جل جلاله عليم بالمطلق فيعلم العلم المُسبق للأمور ومجرياتها ولكل الخلائق وما ستكون عليه، وهذا يعطينا شعوراً بالإجلال والتعظيم لهذا الخالق المتكبر المتعال وبإحاطته بنا

---

[٩٢] الأنعام، ١١٥.

[٩٣] غافر، ٢٠.

[٩٤] . الأنبياء، ٢٣.

[٩٥] الزلزلة، ٧ ، ٨.

[٩٦] النحل ١٧.

دائماً فيشعرنا ذلك بالحماية والأمان ويوجب علينا الشكر بأنه هو خالقنا ومولانا حيث عدله ورحمته ومغفرته.

المتكبر هو العزيز:

العزيز المطلق الذي له العزة المطلقة سبحانه وتعالى، بكل معانيها فهو المتكبر المتعال، المتكبر بذاته عن ظلم عباده، قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}[٩٧]، وهذا ما تبيّنه الآيات الكريمة السابقة من عدله في حسابه للعباد يوم يقوم الحساب، فهو جل جلاله لا يظلم مثقال ذرة من خير أو شر بحق الإنسان، إذ أن أعمال العباد ستشهد عليهم يوم الدين، فبذلك فإنه العزيز المترفع عن ظلم العباد والتمييز بينهم، فهل يا ترى يوجد من يستطيع أن يحاسب ويتكبر في حسابه عن الظلم سوى الخالق سبحانه وتعالى؟.

فعلى خليفة الله أن لا يرضى إلا بالعزة في الحياة بين البشر، فيتكبر بهذه العزة عن ذل الجحود والمعصية، وأن يكون دائم التذكر بأنه بيد العزيز المتكبر القوي فيردع نفسه عن ظلم الآخرين وسلب حقوقهم ويترفع عن إذلال نفسه للشرور والمظالم، وأن يكون له من العلم النافع ما يكفيه ليصل إلى حقيقة أنه كل ذنب يقترفه أو خطأ يقوم به هو بمثابة شهادة في حق الله بالعزة المطلقة والتكبر عن النقائص والعيوب.

وأن لا يطلب العزة إلا من الخالق عز وجل وليس من سواه، لأنه المالك للعزة والوهّاب لها لمن يشاء ويستحق، قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ

---

[٩٧] ق ٢٠. ٣١.

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[٩٨]، فمن يستطيع أن يُذِل من أراده المولى عزيزاً؟ ومن يستطيع أن يُعِز من أراده الله ذليلاً؟

ولكن على خليفة الله أن يدرك أن عزة الخالق وتكبره هي حق وللحق وبالحق، لذلك عليه بالتالي أن تكون عزته غير مختلطة بالإثم وتجاوز الحدود لها، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[٩٩].

على خليفة الله تعالى أن يتكبراً عن التالي:

١- الجهل:

فالجهل أساس كل داء يصيب المجتمع الإنساني، لأن الجهل من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الانحطاط في مستوى التفكير الذي يجعله في صفوف الدواب، قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[١٠٠]، فالجهل في أمور الدين والدنيا يجعل من الإنسان مخلوقاً يلهث وراء الباطل والهلاك، لا يدري أي الطرق يسلك مع أن الخالق عز وجل ميّزه بالعقل، تلك الملكات التي تكفيه مساعدة غيره في الوصول للحق إذا أحسن استخدامه، ولم يحجبه عن ما حوله من إبداع وخلق في هذا الكون الكبير، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

---

[٩٨] النساء ١٣٨، ١٣٩.

[٩٩] البقرة ٢٠٦.

[١٠٠] الأنفال ٢١ . ٢٣.

وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٠١]، ففي الآيات الكريمة السابقة أكبر دليل على أن الإسلام دين يحترم العقل البشري ويدعو لاستخدامه بالشكل الصحيح المؤدي للفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، لأن الله تعالى جعل من هذا الكون كله آيات ظاهرة وماثلة أمام الإنسان ليستدل من التدبر فيه على الحق فيترفع عن الجهل بما يحيط به من يقين وحق، بل أن الله تعالى دعا الإنسان للتأمل في أقرب المخلوقات إليه وهي نفسه في قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [١٠٢]، فقد دعا المولى عز وجل الإنسان لمجموعة من التأملات في الأرض وفي الأنفس وفي السماوات، أي تأملات في الظاهر والباطن، هذه التأملات من شأنها أن توصل الحبل بين العقل والحقيقة.

إذن لابد أن يرفض الإنسان أن يكون جاهلاً بما يحيط به من حقيقة، بأن يتكبر ويترفّع عن هذا الجهل برفضه والدعوة للمعرفة الصحيحة، وأن لا نكون مثل الذين وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله عز وجل: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[١٠٣]، فالجهل يؤدي للتكبر والتكبر يؤدي بدوره للشرك والضلال، فمن تكبر عن الانتفاع بعلم غيره وترفّع عن البحث عن الحقيقة قضى حياته في ظلمات الجهل.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون متكبراً عن كل طريق مفتاحه الجهل بالدين والدنيا، وأن يكون متواضعاً لكل من يدفعه لتلقي العلم الحق وأن يسعى خلف العلماء للوصول لأعلى درجات المعرفة.

٢- الشهوات:

هذه الشهوات التي خلقها الله تعالى فينا ولكنّ البعض لم يحسن فهمها وتهذيبها وضبطها والسيطرة عليها، مما جعلها هي المسيطرة عليه وقائدته للهلاك بميله للباطل والفساد، قال

---

[١٠١] الرعد ٢ . ٥.

[١٠٢] الذاريات ٢٠ . ٢٣.

[١٠٣] الأنفال ٥٥.

تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعام وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[١٠٤]، فالشهوات متوافرة في الحياة الدنيا، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلق بها، فمنهم من اشترى الحياة الدنيا بما تحويه من هذه الشهوات، ومنهم من اشترى الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم، كما جاء في قوله عز وجل: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٠٥]، وقوله سبحانه وتعالى أيضاً: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [١٠٦]، فالإنسان حين تسيّره الرغبة فإنها تعمي بصيرته عن الحق والصلاح وتقوده نحو الانحطاط، لأن سيطرتها على المرء تعني سيطرة الشيطان الرجيم عليه الذي لا يضمر للإنسان إلا كل شر وكره وحقد.

لذلك لابد للإنسان من الترفع عن هذا الانقياد الأعمى للشهوات ورفض سيطرتها عليه، وأن يتكبر عن هذه المفاسد المدمرة، فبتكبره الإيجابي هذا سينال الإنسان المنزلة الرفيعة عند خالقه، وسينال احترام نفسه أولاً واحترام الناس من حوله ثانياً، فالشهوات تجعل من الإنسان عبداً لها لا يملك لنفسه شيئاً أمامها ولا يكون لديه حول ولا قوة في وجهها لذلك فإن من شأن هذا الضعف والهوان أن يجعلا من هذا الشخص ذليلاً مهاناً لها يرضى بأي شيء في سبيل الحصول عليها، فينجرف وراء المفاسد والرذائل يسعى بأية طريقة للحصول على رغبته دون الالتفات لآدميته التي تستحق منه الترفع عن ذلك، كحب كنز وجمع المال الذي لا يترك

---

[١٠٤] آل عمران ١٤.

[١٠٥] البقرة ٢١٢ز

[١٠٦] النحل ١٠٥ . ١٠٩.

لصاحبه أي مجال للتفكير الحر، إذ أن هذا الحب البغيض يجعل من الإنسان عبداً للمال، يفضّله عن كل شيء أحياناً حتى عن نفسه وعن أولاده، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[107]، وما نهى الخالق عن فعلٍ إلا لما يترتب عليه من ضرر عائد على الإنسان نفسه وعلى من حوله من البشر، فحب المال لا يؤدي إلا لاستعباد الشخص وإذلاله والله يريد لنا الرفعة والكرامة لأنه منذ بدء الخليقة كرّمه عن كل المخلوقات وميّزه بالعقل حتى لا يهين نفسه ولا يتركها تتوه في الحياة، فهل يكون الإنسان نفسه سبباً في ضياعها وإلحاق الإهانة بها؟.

لذلك على خليفة الله أن يجعل من نفسه مسيطراً على شهواته، وأن يترفع عن استعبادها له وتسييرها له، فلا يرضَ باللهث خلفها وترك ما فيه خيره وصلاحه، فليس من خلفاء الله تعالى من كان ذليلاً أو مهاناً أو عبداً لغير الله عز وجل.

٣- الكبائر:

الكبائر هي أفعال يقوم بها بعض الناس الذين لا يملكون الورع الديني الكافي الذي يحول بينه وبين هذه الكبائر، لأن الذنب قد يكون صغيراً أو كبيراً ولكن الكبائر لا يمكن تصنيفها إلى صغير وكبير بل هي أفعال محرّمة تؤدي بصاحبها إلى عذاب الجحيم إذا لم يتكبر عنها ويسمو بأخلاقها الآدمية التي من المفروض أن ترفضها لسوء نتائجها الفردية والجماعية، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ"[108]، فالترفع عن الوقوع في هذه الكبائر هو أمرٌ من المولى عز وجل لجميع المسلمين، لما لها من عائد وضرر عظيم على الفرد وعلى المجتمع بصفة عامة إذا سادت هذه الكبائر في مجتمعٍ ما فلابد أن تكون نهايته كمجتمع آدمي أوشك على الانعدام، وهذه الكبائر هي:

أ – الإشراك بالله:

---

[107] الفجر ٢٠.

[108] صحيح بخاري، ج ٩، ص ١٣٦.

رأس الكبائر وأساسها هو الشرك بالله ومن المعروف أن الشرك به عز وجل له العديد من الأشكال والأنواع التي تجعل من الإنسان عبداً للشيطان عدوه الأول، قال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}[109]، وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[110]، فتوحيد الله جل جلاله هو أساس العلاقة الصحيحة بين العبد وخالقه وعدم التكبر عن توحيده وتعظيمه، لأن من تكبر عن توحيده فهو بالتالي عاصٍ لأوامره وناكر لنعمه وجاحد بها، وهو بذلك مترفع عن الحق، الذي أوضحه الله تعالى لنا وفرّق بينه وبين الباطل في جميع الكتب والرسالات السماوية التي توحدت واجتمعت على توحيد الخالق جل جلاله، قال تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[111]، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ

---

[109] الحج ٣١.

[110] المائدة ٧٢، ٧٣.

[111] المائدة ٧٦.

وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[١١٢].

فالشرك بالله هو أكبر الكبائر وأساس المفاسد وهلاك الإنسان وضياعه ولذا لا يجد يوم الحساب ما يشفع له عند خالقه الذي تكبر عن توحيده وإجلاله والركوع إليه، بالرغم من أن كل ما حوله يدل على وجوب هذا التوحيد ووجوب الترفع عن الشرك الذي إن دل فإنه يدل على جهل وضلال المشرك بكل ما حوله.

لذلك فعلى خليفة الله أن يتمسك بالدعوة إلى وحدانية المولى عز وجل مترفعاً بحمله تلك الرسالة عن كل مواضع الجهل والانحطاط في التفكير، متمسكاً برغبته في الوصول إلى رضا الله تعالى واستحقاق جنته، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[١١٣]، فأصل كل المفاسد في الأرض هو عدم توحيد الله، وسبب انتشار الشرور في الأرض التكبر عن الانصياع لأوامره جل جلاله، فالتكبر السلبي والغبي عن الحق داءاً يجعل من البشر ضائعين مفسدين لا يملكون لأنفسهم ذرة خير ينتفعون بها في الدنيا أو في الآخرة عندما يعلمون أنه الحق ولا حق سواه سبحانه وتعالى.

لذلك إذا تمسك خليفة الله في الأرض بهذه الدعوة فإنه سيعيش حياته مترفعاً عن المفاسد والرذائل التي لا يمكن أن تدخل نفسه الموحدة لله والداعية للخير والآمرة بالمعروف بين الناس.

ب- عقوق الوالدين:

الوالدان جناحا الحب والحنان اللذان يظلان الإنسان منذ ولادته إلى حد مماته، ألا يستحقان أن نترفع عن معصيتهما وعقوقهما؟

---

[١١٢] البقرة ١٣ . ٢١.

[١١٣] المؤمنون ٥٧ . ٦١.

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[١١٤]، ما أروع هذه الآية بما تحمله من معانٍ سامية إذا التزم المرء بها لكانت له الرفعة في الدنيا والآخرة، فقد جمع المولى عز وجل في هذه الآية الكريمة بين أساسين من أساسيات الخلق الكريم الرفيع المتعالي عن الضعة والإذلال وهما توحيد الله وطاعة الوالدين، ففي كل منهما رفعة للمرء وسمو بآدميته إذ أن توحيد الخالق عز وجل يجعل من الإنسان حراً لا يتذلل لأحد ولا يستطيع أيٍ كان أن يستعبده، فيترفع بذلك التوحيد عن كل أنواع وأشكال العبودية والإذلال للعباد، وكذلك في طاعة الوالدين والإحسان إليهما ترفعاً عن الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي.

ففي طاعة الوالدين ومعاملتهما بالمعروف يتكبر المرء عن عقوقهما وعصيانهما، فلا يرضى لنفسه هذه الأخلاق السيئة الدنيئة التي تضع من قدره كإنسان كرّمه الله تعالى، وهذه الطاعة لها الكثير من الأشكال والألوان التي تتجسد فيها حبنا وطاعتنا وإحساننا بالود تجاههما، بالرغم من أننا لا نستطيع أن نوّفي حقهما علينا إلا أننا يجب أن نعمل على توفير أكبر قدر من الراحة والحب والاحترام لهما والرعاية والحنان والطاعة في غير معصية الله تعالى.

ومن يتكبر عن طاعتهما أو الاعتراف بحقهما عليه ضيَّع رضاهما الذي هو من رضا الله عز وجل، لذلك فقد دخلت معصيتهما باب التحريم كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[١١٥]، فالإنسان العاقل لا بد أن يدرك مدى منفعة الانصياع لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة فالله يريد بنا اليسر والخير ولن

---

[١١٤] الإسراء ٢٣، ٢٤.

[١١٥] الأنعام ١٥١.

نصل إلى ذلك المستوى من الإدراك دون أن نترفع عن العصيان والاستماع لوسوسات الشيطان الرجيم.

لذلك فمن سعى لأن يكون من ضمن خلفاء الله في الأرض لا بد له من أن يكون عالماً بواجباته وحقوقه ومتحمِّل لمسؤولياته، فلا يترفع ولا يتكبر عن تأدية واجباته ولا يتنازل عن حقوقه وحمْل مسؤولياته، ففي أوامر المولى لنا رحمة وهداية وخير، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[١١٦]، فالمولى عز وجل بقوته وعظمته وغناه عن البشر لم يتكبر عن توضيح سبل الحق والهداية للبشر الذي يجعلهم يميزون بين الخير والشر، فهل نتكبر نحن البشر الضعفاء الفقراء إلى الله عن الأخذ بذلك!

فيا خليفة الله ترفَّع عن معصية الوالدين وإلحاق الأذى بهما، هذه الأفعال التي للأسف الشديد ما نلاحظها في هذا الزمن كثيراً بسبب تكبر البشر عن فتح قلوبهم للاستماع لكلام الله فجعلها ذلك ممتلئة بالقسوة والجحود، بعكس خلفاء الله في الأرض الذين تمتلئ قلوبهم بالحب والحنان والمودة، فلا يمكن لعاصي الوالدين أن يكون من بينهم.

ج . قول الزور:

أي من يشهد بعكس الحقيقة أو بغير علمٍ بها لكي يخدم مصلحة له أو لغيره، أو لغرضٍ ما في نفسه، فيجعل من الجاني بريئا ومن البريء جانيا، ويرضى لنفسه هذه الضعة والإهانة، وله من التأثير السلبي على المجتمع بصفة عامة، إذ أن شهادة الزور تغيّب الحقيقة وتخفيها فكم من بريء داخل جدران السجن بسبب شهادة زور من أحدهم، وكم من مجرمٍ هو حر طليق بسبب هذه الشهادة، ويمكننا أن نتصور تأثير الضرر الناجم عن ذلك، لذلك فقد نهانا الله تعالى عنه وجعله من الكبائر، قال تعالى: {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}[١١٧]، فقد حرّم المولى عز وجل هذا الفعل لما له من عواقب سيئة تعود على المجتمع الإسلامي بصفة عامة، لما ينشره من فساد وظلم وتجبر البشر بعضهم على بعض.

---

[١١٦] النساء ٢٦.

[١١٧] الحج ٣٠.

وشهادة الزور تمنع من ظهور الحقيقة فيسود الظلم بين الناس، ويأكل القوي حق الضعيف معتمداً على من يقف معه بتزوير الحقيقة، فيفتري الإنسان ويكذب ويزوّر ويخدع وكلها من الأخلاق الذميمة التي تؤدي بالبشرية إلى الفساد والضلال.

لذلك لابد للمؤمن أن يتأكد من شهادته فلا يداخله أدنى شك حين ينطق شهادته، قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[١١٨]، فالعلم الأكيد بالقول وبشهادة الحق لابد أن تظهر فلا يخفيها الإنسان ولا يكتمها حين يحتاج إليها كائناً من كان، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[١١٩].

إذن لابد أن يترفع الإنسان عن شهادة الزور بأن لا يرضى لنفسه إلا بشهادة الحق وقول الحق الذي يرتفع بأخلاق المؤمن إلى أعلى الدرجات، بأن يجعله حراً مالكاً لنفسه.

وبذلك نصل إلى مفهوم وحقيقة جليّة أمام أعيننا وهي أن سبب كل المفاسد والشرور في النفس البشرية هو التكبر، فالتكبر عن الحق والاعتراف به هو أصل كل ما نحن فيه من ذنوب وخطايا وعنف وخسائر، فلا يمكن أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعا كريما متكاملا إذا كان بين أفراده من يتكبر ويترفع عن الحق لينزلق في متاهات الباطل والفساد.

ولا بد أن يتخلص المؤمن من تكبره السلبي بالتالي:

. أن يكون محاسباً لذاته:

لا يجب أن يتكبر المؤمن عن محاسبة نفسه قبل أن يحاسبها المولى عز وجل، فلا يعيش في هذه الحياة دون أن يكون رقيباً على أقواله وأفعاله، عالماً بما ينفع نفسه وما يضرها، مدركاً أن التكبر عن ذلك سيكون سبباً في انحداره إلى أدنى المستويات.

فأصل كل الخطايا هو التكبر عن الحق والاعتراف به، وما من هزيمة نفسية أو مادية يُبلى بها الإنسان أو المجتمع إلا وسنجد التكبر من أساسيات هذه الهزيمة، لأن من شأن الإنسان

---

[١١٨] الإسراء ٣٦.

[١١٩] البقرة ١٠٤.

أن يحافظ على تواضعه الذي يجعل منه آدمياً يستشعر معاناة الآخرين ويعيش داخل دائرة المجتمع ككل بفقيره وغنيه، بقويّه وضعيفه، فلا يتكبر عن مجالسة من هم أقل منه مكانة أو شأن، ولا يحصر آدميته مع من يراهم متوافقين معه في المستوى.

فكم من حقوقٍ ضاعت بسبب التكبر عن استيعاب الحقيقة الجلية، وكم من شرور عمت النفوس بسببه أيضاً؟ لذلك لابد أن يسأل الإنسان نفسه لماذا لم أمد يد العون لمن هو بحاجة لذلك، ولماذا أتكبر عن مخاطبة نفسي وسؤالها؟ ولماذا نتكبر عن الاعتراف بالحقيقة؟ ولماذا نتكبر ولا نسامح؟

لذلك فخليفة الله لابد أن يكون قريباً من ذاته، لا يهملها فتضيع وتتكبر فتهلك وتخسر في الدنيا والآخرة، بل عليه أن يقف عند خطئها قبل وقوفه عند محاسنها، وأن ينفي من داخله الشعور بأنه محسن وأن له من الفضائل على غيره الكثير، بل يجعل التقصير دافعاً لأن يعمل ويندفع في الخيرات، ولا سبيل لذلك إلا بالحديث معها وتعرية الحقائق أمامها وجعل نفسه دائمة البحث عن الخيرات والمنافع لها ولمن حولها، لذلك فلن تجد من بين خلفاء الله في الأرض من هو تارك العنان لنفسه تفعل ما تريد بل هم من يملكون زمامها ويردعونها عند الحاجة لعلمهم بأنه سيأتي يومٌ عليها ستقابل فيه خالقها الكريم فيحاسبها، بعد مراقبته لها وتسجيل أعمالها صغيرها وكبيرها، لأن المحاسب المطلق دائماً معنا وهو الذي خلق لنا العقل لإدراك ما يمكن القيام به من أعمال تعود بالخير والمنفعة علينا، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[١٢٠]، فالآية الكريمة السابقة تصوّر لنا مدى قرب المتكبر منا وعلمه بما يجول في نفوسنا، هذا العلم المطلق الذي ينشأ عن مراقبة ومتابعة دائمين، لذلك فحسابه جل جلاله يكون عادلاً وقائماً لا يمكن الهروب منه.

فمن كان محاسباً لنفسه فقد فلح وفاز، وكان حافظاً لنفسه من المفاسد والرذائل والشرور، هذه هي النفس التي يرضى عنها الله والتي يكافئها يوم القيامة بالثواب وبجنة النعيم، قال تعالى:

---

[١٢٠] ق، ١٦.

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[١٢١]، فالخالق قد رفع من شأن هذه النفس الصالحة التي لا تتكبر عن الحق فاستحقت أن يقسم بها المولى عز وجل من ضمن ما أقسم عليه من عظائم الأشياء.

ومن شأن مراقبة المرء لنفسه أن يقوّم من سلوكها، إذ أنه سيحاسبها إذا تعدت على الغير أو إذا قصّرت في حق من حقوق الله عليها، أو تثاقلت عن واجب من واجبات الخالق علينا عز وجل، بذلك ستكون هذه النفس مؤدية لما عليها ومطواعة في الخير وسباقة للمعروف والإحسان، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٢٢]

. أن يكون مستمعاً لغيره لا ينفرد بما يفكر فيه:

فلا يترفع عن فعل شيء مع جهله به، لأن من شأن العلم ومعرفة الأمر أن تضيء أمام عقولنا كل العواقب والنتائج المؤدية لهذا الأمر، وكذلك فإن العلم بما نقوم به من أقوال وأفعال يجعل لنا بعد نظر واتساع أفق في إدراك الأمور، فيصبح من حقنا أن نترفع عن القيام بهذا العمل أو التفوّه بهذا القول.

ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أسوة حسنة إذ أنه بالرغم من كونه رسولا ينطق بكلام الله تعالى ولا ينطق عن الهوى، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[١٢٣]، وأن له من الأخلاق التي رباه عليها الله جل جلاله ما ينأى عن

---

[١٢١] الشمس ١ . ١٠.

[١٢٢] المؤمنون ١ . ١١.

[١٢٣] النجم ١٣ . ١٥.

الزلل والخطايا، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[١٢٤]، فقد كان مدرسة في تعليم التواضع وعدم التكبر عن الحق والسعي خلفه، فبالرغم من أن الخالق أغناه عن معونة من حوله بما وهبه من سداد رأي وحكمة وبعد نظر إذ أن الخالق عز وجل يوحي إليه بما يجب أن يكون، إلا أن ذلك لم يجعله متكبراً عن من حوله في أخذ آرائهم عندما يعتزم أمراً ما، فيأخذ من هذا وذاك، ويستمع إليهم ويشاورهم ليصلوا بذلك إلى أصوب الطرق للفوز والصلاح، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[١٢٥]، فمبدأ المشاورة الذي نصت عليه الآية الكريمة السابقة تتجسد فيه تواضع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتنفي عنه التكبر الذي يكون في غير موضعه، فقد رضي الرسول عليه السلام برأي الصحابة وعمل به في أكثر من حادثة نذكر منها على سبيل المثال عندما أخذ النبي عليه الصلاة والسلام برأي سلمان الفارسي حين أشار عليه أن يحفر خندقاً لمواجهة الأعداء في غزوة الأحزاب.

فالإسلام بذلك يقرر مبدأً مهماً لو سار عليه المسلمون اليوم ما هزموا وهو عدم التكبر عن مساعدة بعضهم البعض وأخذ رأي بعضهم البعض والعمل به إذا تحقق من منفعته ونتيجته التي تعود بالفائدة على جميع الأطراف، ولو سار على هذا المبدأ كل رب عمل ومسئول في مكانٍ ما فلم يتكبر عن سؤال ما يجهل ومشاركة مرؤوسيه عن بعض الأمور لكان وضع مجتمعاتنا المسلمة على أفضل حال ولتخلصنا من عنجهية المناصب وغرور المراتب العليا.

فلو تخلينا أن في كل مشكلة نمر بها وما أكثرها في هذا الزمان فإننا لا ننفرد في حلها متناسيين من هم حولنا ومن لهم الحق في مشاركتنا هذه الحلول، فسوف نتخطى الكثير بأقل الأضرار والخسائر المعنوية والمادية، فتكون المصارحة والمشاركة وأخذ المشورة هي عنوان تعاملنا مع بعضنا البعض داخل مجتمعاتنا المسلمة التي بُنِيَت على الثقة والمشاركة في كل

---

[١٢٤] القلم ٤.

[١٢٥] آل عمران ١٥٩.

شيء، بذلك فقط سنصل إلى أعلى درجات الصلاح والرقي في التعامل، ولكن علينا أن نُحْسن اختيار من نشاورهم في أمرنا، فلا نلتجئ إلى من هو فاسد التفكير أو قليل الخبرة أو من هو بعيد عن الهداية والحق ولا نغفل عن أهمية التخصص والمتخصصين، فنضِل بمشورته علينا، بل علينا أن نتخيّر الصالحين وأهل العلم والدين لنصل إلى الرأي السديد النافع لنا في ديننا ودنيانا.

. أن يكون متيقناً أنه وما يملك ملكٌ للخالق:

لقد خلقنا الكريم على درجات متفاوتة من القدرات والصفات والإمكانيات، فنجد من كان له حظاً وافراً من المال، أو من القوة الجسدية أو من كان له السلطان والجاه وغيرها من النعم التي يهبها الله سبحانه وتعالى على بعض عباده، فيكون في وجودها وفي فقدانها اختباراً لنفس المؤمن وامتحاناً له على كيفية التعامل معها، فقد تنقلب هذه النعمة إلى نقمة بتكبره السلبي بها وكأنها من صنع يديه ولا فضل لأحد عليه، كما حدث مع قارون حين أغدق عليه الخالق عز وجل من الأموال والخيرات ما لا يملكه أحد فانقلبت هذه النعمة بتكبره هلاكا له، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ

عُلُوًّا فِـي الْأَرْضِ وَلَا فَسَـادًا وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِـينَ}[126]، فقد أوضحت لنا الآيات الكريمة مدى الأضرار التي من الممكن أن يُلحِقها التكبر بالشخص نفسه وبمن حوله، فقد جلب للشخص ابتعاده وتكبره عن من حوله، وجعل منه جاحداً لنعمة الله عليه، متكبراً عن الاعتراف بما له وما عليه من حقوق وواجبات، أما من حوله فقد كان تكبره فيصلاً بين نوعين من البشر هما:

النوع الأول: من كانت نفوسهم متكبرة عن الرضا بما لديهم وما أعطاهم الله تعالى، فانتزع هذا التكبر الرضا عن قناعة بما يملكون وتمني ما عند غيرهم.

النوع الثاني: من كان تكبر قارون دافعاً لهم للرضا بما أعطاهم الله، فكانوا أشد قرباً للمولى ورضا بما قدّر لهم، فتكبروا عن تمني ما لدى قارون من أموالٍ وخيرات.

فكل ما لدى الخلق هو من عند الله تعالى ولا بد للعبد أن يكون متيقناً من ذلك فلا يتكبر عن الاعتراف بهذه الحقيقة، والشكر على نعم الخالق علينا،قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[127].

حتى النصر هو بحد ذاته رضا من الخالق علينا عندما لا نتكبر عن اتباع أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم- قال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}[128]، فالنصر إذا كان من نصيب المسلمين هو نعمة من عند الله، الله، فقد قال جل جلاله: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ

---

[126] القصص ٧٦ . ٨٣.

[127] النحل ١٨.

[128] الأنفال ١٧، ١٨.

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[١٢٩]، فلا يجب أن تأخذ المسلمين العزة والتكبر بقوتهم وعددهم، فمن شأن هذا التكبر أن يؤدي بهم إلى هزيمة محققة.

فمن ذلك نستطيع الخروج بأن التكبر هو أساس هزيمة الأنفس والقلوب، وهو أساس انكسار القيم والأخلاق في الإنسان بابتعاده عن الخالق عز وجل فهو لا يحب أي متكبر أو ظالم أو مغرور. فعلى خليفة الله أن يدرك أنه مهما وصل من قوة ومن سلطان فإن له من القدرة الشيء المحدود التي سمح له الله بها، فهل من الممكن أن يستطيع أي إنسان أن يملك القدرة على تغيير ما في الأفئدة والنفوس مهما وصل من مكانة أو امتلك من قوة؟.

فقلوب العباد بين يدي الرحمن فقط يستطيع أن يفعل بها ما يشاء وحده ولا قدرة لإنسان على ذلك، مهما وصل هذا الإنسان من درجة كريمة عند الله، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[١٣٠]، وكذلك قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[١٣١].

وعليه التكبر صفة كمال لله تعالى، ومن يستمد هذه الصفة منه يكون من المستخلفين في الأرض الذين يولون أمرهم بالمطلق للمتكبر المطلق.

ولذا المتكبر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت، وتوحد بالعظمة والجبروت، وهو الذي بيده الإحسان، ومنه الغفران، وليس لملكه زوال، ولا في عظمته انتقال.

نسألك يا الله يا متكبر أن تكبر فينا كل ما يقربنا منك فيجعلنا متكبرين بك متكبرين بعبادتك وبالتذلل إليك اللهم أكْبِرْ العلم فينا عن الجهل وأكبر الخير في نفوسنا عن الشر واجعلنا متكبرين عن الظلم وعن الإفساد في الأرض وكل ما يقلل من شاننا من أقوال أو أفعال لا ترضى عنها ولا ترضيك واجعلنا متكبرين عن المعصية بفعل الطاعة ومتكبرين بك عمن

---

[١٢٩] آل عمران ١٢٢ . ١٢٦.

[١٣٠] القصص ٥٦.

[١٣١] البقرة ٢٧٢.

سواك مما يُعبد بغير حق، اللهم يا متكبر لا تجعل الغرور كبرياء في نفوسنا واجعلنا متكبرين على الطاعة والهداية فلا نطغى ولا نتكبر على من أمرتنا بخفض جناح الذل من الرحمة لهم ولا نظلم أحدا، اللهم أجعلنا لينين القلب رحماء يحبون الرحمة وإذا حيوا بتحية يحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّوهَا إِنَّك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا.

الخالق

الخالق مصدر لكل خلق، فلو لم يكن الخالق ما كان المخلوق، حيث لا شيء قبل الخلق إلا الخالق عز وجل.

الخالق هو المنشئ لِما يشاء، أو ألمحدث لِما لم يحدث من قبل، وهو على كل شيء قدير. قال ابوبكر ابن الأنباري: "الخلق في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر التقدير"[١٣٢].

الخالق: هو "من يوجد الشيء على غير مثال سابق"[١٣٣].

الخالق: هو "الذي يقدر على الخلق وهو الذي يستحق العبادة"[١٣٤].

الخالق عز وجل هو البادئ الذي لا سابق عليه، وهو المعيد لِما يخلق قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٣٥].

الرؤية لا يقصد بها الرؤية البصرية بل يُقصد بها الرؤية الإدراكية أي الإيمانية حيث جاء الاستفسار أو الاستفهام بصيغة (أو لم يروا) عن الكيفية التي بدأ الخلق عليها، ولذا فبالكيفية التي بدأ بها الخلق تتم الإعادة بذات الكيفية. أي إذا أدركتم يقينا القدرة على الإبداء والإيجاد فإنكم ستدركون القدرة الربانية على الإعادة. وبما أنه لا أحد ينكر النشأة الأولى، فكيف إذن تُنكر النشأة الآخرة، فمثلما جاءت النشأة الأولى بالقوة وجوبا تأتي النشأة الآخرة بالقوة ضرورةً. وهذه وفقا لقاعدة (لكل بداية نهاية).

ومن صفات الخالق الآتي:

أولا ـ المُبدي:

قال تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد}[١٣٦]. بما أنه هو الواحد الأحد الذي لم يكن له مثيل ولا شريك في الملك ولم يلد ولم يولد فيكون هو المبدي لِما خُلق، ولذا فإن البداية ليس به، بل البداية منه سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير.

---

[١٣٢] لسان العرب، ج ١، ص ٨٨٩.

[١٣٣] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ١٢٨.

[١٣٤] كتب العقيدة، ج ١، ص ٣٦٦.

[١٣٥] العنكبوت، ١٩، ٢٠.

[١٣٦] الإخلاص، ١ ـ ٤.

فالمبدي هو الخالق الأول والآخِر ولم يسبقه في الخلق أحد مصداقا لقوله تعالى: {أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق}[١٣٧] كل المخلوقات في أساس خلقها الإنشاء، وفي النشأة الأولى تحددت هيئات كل المخلوقات، الإنسان والملائكة والجان والحيوان والجماد والنبات وبقية الكائنات الدقيقة منها وغير الدقيقة. وفي ذلك قال تعالى: {قل جاء الحق وما يُبدئ الباطل وما يُعيد}[١٣٨] جاء الحق تعني جاء الكَلِم الصادق الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الحق الذي به زُهق الباطل ولن يعود.

ثانيا . المُعيد:

هو المبدي الأول الذي بقوته خلق الأشياء وبقوته يعيدها إلى نشأتها الأولى، ولأن المُبدي هو الأول والآخر، فلا وجود لغيره لأن يعيد ما بدأ إلى حالته الأولى. قال تعالى: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}[١٣٩]. الذي فطركم أول مرة هو الذي سيعيدكم إلى الحالة التي كنتم عليها قبل أن تكونوا خلقا، ومع ذلك فإن الكافرين مستهزئين بما سمعوا، وذلك بقولهم وهم يهزون رؤوسهم (متى هو؟) ولأنه يقينا وليس كما يظنون قال: (قل عسى أن يكون قريب) أي قل لهم يا محمد لعله يكون قريبا، حيث علم الساعة لا يعلمه إلا هو جل جلاله، وكلمة عسى تدل على أن العود سيكون في الزمن المفاجئ، وحتى لا تضيع الفرصة فعليكم بالإيمان قبل أن تحدث المفاجأة وحينها لا ينفع الندم.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[١٤٠]. جعل الله تعالى الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها في قوله: (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي بطبيعة الحال من يبدئ الخلق يعيده، ولا يمكن أن يكون لآخر المقدرة على هذين الأمرين إلا الذي خلقهما وجبر العلاقة بينهما. ولذا فإن كل مخلوق يعود

---

[١٣٧] العنكبوت، ١٩.

[١٣٨] سبا، ٤٩.

[١٣٩] الإسراء، ٥١.

[١٤٠] يونس، ٣٤.

للشيء الذي خُلق منه. الإنسان يعود للتراب وهو الشيء الذي خُلق منه، والملائكة يعودون للنور وهو الشيء الذي خُلقوا منه، والجان يعود إلى النار وهي الشيء الذي خُلق منه. وهكذا كل مخلوق يعود لطينته أي لأصله الأول قبل أن يصبح مُركَّبا من مجموع العناصر المتكون منها أو المركب منها، وفي النهاية يعود الكون إلى الشيء الذي خلق منه وهو الذرة.

في علم الفيزياء اثبت العلماء الروس أن أساس الخلق ذرة ثم حدث لها الانفجار العظيم فامتدت على امتداد الكون كله، وأثبتوا أيضا أن الذرة لابد وأن تعود ذرة مرة أخرى وهي النهاية. والقرآن الكريم سابق على ذلك بقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[١٤١] وقوله عز وجل: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[١٤٢].

ثالثا . المُبعث:

المحيي بعد الممات مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون}[١٤٣] يقال نزلت هذه الآية في السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام حيث قالوا له: (لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة) ولأن الله تعالى لم يكن له شكل ولا هيئة من الهيئات المخلوقة كما هم يتوقعون فهو لا يمكن أن يخضع للرؤية المبصرة، ولأنه الأعظم فلن تكون لهم القوة المُمكِّنة من اختراق قوته ليروه سبحانه وتعالى عمَّا يصفون، وبطلبهم هذا كانت لهم الصاعقة الإجابة القاطعة على تساؤلهم بأنه مالك الأمر والقوة التي لا تساويها قوة، وذلك ليتيقنوا بأنه الحق ووجوده حق. ثم نُشروا من بعد موتهم أحياء وهذه الآية معجزة لهم لعلهم يتذكرون مطلبهم وما جاءتهم من إجابة ليؤمنوا من بعد كفرهم. قال النحاس: "أنه الاحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا"[١٤٤]

---

[١٤١] الأنبياء، ١٠٤.

[١٤٢] الرعد، ٤١.

[١٤٣] البقرة، ٥٦.

[١٤٤] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول، ص ٤٠٤.

والبعث هو النشور. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[١٤٥]. إن كنتم في ريب تعني: إن كنتم في شك، فعليكم أن تتذكروا أحوال السابقين وقصصهم التي قصصناها عليكم لتعرفوا أسرار الخلق بداية ونهاية وبعثاً. وإن كنتم في شك فعليكم بالتذكر حتى تيقنوا أنكم من تراب، وما المراحل الخلقية التي تمرون بها إلا دليل شاهد على خلقنا وقدرتنا على الخلق في كل مرحلة من مراحل النمو الخَلقي. وبأن الخالق عز وجل هو القادر على الخلق فهو بطبيعة الحال هو القادر على البعث من جديد.

الخالق هو المحيي، أي أنه الذي يبعث الروح فيما يخلق، ولهذا كل شيء يُسبِّح بحمده. ولأنه المحيي فهو يحيي المخلوق في نشأته الأولى، ثم يحييه بعد موته من جديد في نشأته الأخرى. ولذا فمن يؤمن بأن الله هو المحيي فعليه أن يؤمن بأنه المميت، وبما أنه المميت فإنه يقدر على الإحياء من جديد. وعلينا أن نؤمن فلو كان الإحياء من المستحيل لكان في الأزل ليس بخالق.

قال تعالى: {والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا}[١٤٦]. الفرق كبير بين قول المؤمن الذي تمسَّك باستخلافه في الأرض وبين قول الكافر الذي تخلى عما كان يُراد له أن يكون عليه، فعيسى رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن بوجوده كما آمن بموته الذي لم يأتيه بعد عندما قال ما ورد في الآية السابقة، وآمن بأنه سيُبعث حيا من جديد مثلما خُلق أول مرة.

---

[١٤٥] الحج، ٥ ـ ٧.

[١٤٦] مريم، ٣٣.

فالذي يُؤمن بربه الخلاَّق يُسلِّم بما يقوله حتى يراه يقينا، والذي لم يؤمن سيظل في حياته في شك حتى يأتيه يوم الحساب.

رابعا ـ المحاسب:

قال تعالى: {إنَّ إلينا إيابهم ثم إنَّ علينا حسابهم}[١٤٧] إنَّ إلينا إيابهم: إنَّ إلينا رجوعهم، فإلى الخالق يرجعون للمحاسبة على ما فعلوا في الحياة الدنيا، فإن كانوا من الخلفاء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا وفقا لِما أمر ونهى فسيجازون الجزاء الأوفى وهو دخول الجنة. وإن كانوا من الذين وصفوا الله بما لم يصف نفسه به فسيلقون آثاما وسيكونون حطبا في نار جهنم.

المحاسبة حق حتى تُجزى كل نفس بما كسبت، {اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إنَّ الله سريع الحساب}[١٤٨] فاليوم يقصد به اليوم الآخر الذي يختلف عن يوم النشأة الأولى، أي أنه اليوم الذي تجاز فيه الأنفس على ما قدمت لنفسها في يومها الأول، الذي أعطي للجميع فرصة لأن يؤمنوا ولا يشركوا ويُصلحوا ولا يُفسدوا، فإن فعلوا خيرا يكون جزاءهم خيرا، وإن فعلوا شرا يكون جزاؤهم العذاب الشديد. وفي هذا اليوم لا يجد الظلم مكانا له، حيث لا سلطان للعباد في شيء كما هو حال يومهم الأول الذي يحكم فيه بعضهم البعض وفيه يظلم العباد بعضهم بعضا، بل السلطان في اليوم الآخِر لله الواحد القهار {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار}[١٤٩].

قال تعالى: {ليجزي الله كل نفس ما كسبت إنَّ الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنَّما هو إله واحد وليذَّكَّروا أولوا الألباب}[١٥٠] الجزاء وفقا لِما عملت كل نفسٍ ذنبا أو إحسانا. فالجزاء دائما ليس إثابة، بل الجزاء حساب على ارتكاب أفعال سواء كانت أفعال خير لتنال الأجر الكبير وهو دخول الجنة، أو كانت أفعال إثم وشر لتنال العقاب الشديد وهو الدخول مع أهل النار.

---

[١٤٧] الغاشية، ٢٥، ٢٦.

[١٤٨] غافر، ١٧.

[١٤٩] غافر، ١٦.

[١٥٠] إبراهيم، ٥١.

قال تعالى: {أقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون}[151]. في هذه الآية عامل الزمن يعد ضرورة للتذكر والتفكر، وإلا ستحدث المفاجأة بقيام الساعة، {وما يدريك لعلَّ الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يُمارون في الساعة لفي ضلالا بعيد}[152]. فالذين يؤمنون يعلمون أن الساعة حق، ويعلمون أن علمها عند ربِّ العلمين، ولأنهم مشفقون منها فهم يتسابقون على فعل الخيرات، أما أولئك الكفرة الفجرة والذين لم يؤمنوا كما يُراد لهم أن يؤمنوا فإنهم يستعجلون بها استهزاءا دون مخافة، مما يضاعف لهم العذاب الشديد.

خامسا . المُبقي:

المبقي هو الدائم بالحياة الدائمة، أي بعد الخلق الأول في الحياة الدنيا يكون الموت نهاية لفترة من الحياة والعمل سالبه وموجبه، ومن بعد الموت تأتي النشأة الثانية وهي العودة للحياة التي فيها يحاسب الإنسان على أقواله وأفعاله سالبها وموجبها، إلى أن يجازى بإحدى الشيئين الجنة أو النار. وفي اليوم الآخر تكون الحياة السرمدية هي الحيوان التي لا مكان فيها للموت. قال تعالى: {إنَّ هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون}[153]. وقال عز وجل: {بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى}[154].

الخالق هو الأول والآخر الذي خلق الموت والحياة {ليبلوكم أيكم أحسن عملا}[155]، ولأنه الأول والآخر فهو الذي يحيي ويميت، ولهذا فالموت مخلوق مثلما الحياة مخلوقة، إلا أن في البداية الموت يغالب الحياة، وفي النهاية لابد للموت من أن يموت حيث كل مخلوق لابد له من الزوال، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. وبموت الموت يُبعث الناس من جديد،

---

[151] الأنبياء، ١.

[152] الشورى، ١٧، ١٨.

[153] العنكبوت، ٦٤.

[154] الأعلى، ١٦، ١٧.

[155] هود، ٧.

وحينها يكونوا أحياء والموت لم يكن كذلك. وبعدما يُعدم الموت إذ تصبح الحياة هي الدائمة بقوة المُبقي الدائم. ولذلك من حيث الخلق يمر الوجود بالآتي:

١ . خلق الحياة المؤقتة: الحياة الدنيا مؤقتة فهي التي تمتد من الخلق حتى الموت.

٢ . الموت المؤقت: وهو الذي يمتد من ساعة الموت إلى ساعة البعث.

٣ . موت الحياة المؤقت: وهو النهاية لكل حي مع عدم إضافة الجديد.

٤ . موت الموت الدائم: وهو القضاء على الموت نهاية.

٥ . خلق الحياة الباقية: وهي الحياة الممتدة بلا نهاية.

وعليه فإن النهاية هي الإبقاء على الحياة وليس الإبقاء على الموت، ولهذا الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}[١٥٦]. ولذا ينبغي أن لا تغرنكم الحياة الدنيا، مصداقا لقوله تعالى: {فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور}[١٥٧].

الخالق جل جلاله هو البادئ لكل شيء ولا شيء بادئ عليه، وهو السابق لكل شيء ولا شيء سابق عليه، وهو المعيد لكل ما بدأ حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان. {أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إنَّ ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إنَّ الله على كل شيء قدير}[١٥٨]. كيف يبدئ الله الخلق تعني كيف يظهره للوجود ثم يُعيده للحالة التي كان عليها، ثم يعيده مرة أخرى ظاهرا للإدراك والملاحظة والمشاهدة. والخليفة هو المؤمن بما يعلم إدراكا وليس فقط مؤمنا بما يرى، فلو كان الأمر كذلك لكان غير مؤمنٍ بالخالق الذي يرانا ولا نراه. ولذلك فإن الخالق هو الأول وهو الآخر الذي له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٥٩].

في هاتين الآيتين الكريمتين تتمركز أفعال الخالق في الصفات الآتية:

---

[١٥٦] آل عمران، ١٨٥.

[١٥٧] لقمان، ٣٣.

[١٥٨] العنكبوت، ١٩، ٢٠.

[١٥٩] الحديد، ٢، ٣.

١ . ملك السماوات والأرض: وهذه تعني أنه مالك كل شيء.
٢ . يحيي ويميت: وهذه تعني أنه فعَّال لما يريد.
٣ . قادر على كل شيء: وهذه تعني أنه خلاَّق المستحيل.
٤ . هو الأول والآخر: لا يتعدد، فليس له سابق ولا لاحق.
٥ . هو الظاهر والباطن: ندركه يقينا ونرى آياته ولا نراه وهو يرانا.
٦ . إنه بكل شيء عليم: إنه مصدر الأمر والنهي سبحانه.

وعليه فإن الخالق الأول هو خالق الشيء، والشيء نكرة ومصدر ويتعدد.

نكرة: لأنه غير محدد، ولذا فإن الخالق يخلق كل شيء، كما يشاء وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله على كل شيء قدير}[١٦٠].

ومصدرا: لأنه أصل لأشياء استمدت منه. {ومن آياته أن خلقكم من تراب}[١٦١]. والتراب هو الشيء الذي خُلق منه آدم.

ويتعدد: لأنه يتجزأ من الكل إلى المتجزئ منه. {هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة}[١٦٢]. التراب شيء، والنطفة شيء ثاني، والعلقة شيء ثالث، وهكذا تتعدد الأشياء، فالشمس شيء، وهي مصدر لأشياء أخرى تتعدد، والنجوم أشياء تتعدد، والنور شيء خلق منه شيء آخر وهو الملائكة الكرام، والنار شيء وهي مصدر لخلق الشيطان الذي نستعيذ بالله منه في كل حين.

أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء الذي خلقه الله أشياء متعددة ومتنوعة. فيخلق من التراب صناعة، ويخلق بالصناعة ما يُسهِم في إشباع حاجاته المتعددة والمتنوعة والمتطورة. وهو الذي بخلقه يُستخلف في الأرض إصلاحا وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فالخالق بالإضافة هو الخليفة الذي يعلم أنه لن يخلق الشيء المصدر، ويعلم أنَّ ذلك ليس في

---

[١٦٠] البقرة، ٢٠.
[١٦١] الروم، ٢٠.
[١٦٢] غافر، ٦٧.

نطاق مقدرته، وذلك لعلمه أنها من خاصية الخالق المطلق جل جلاله. ويُسلِّم بأن الأشياء التي خُلقت من أجله ينبغي عليه أن يستمد منها ما يفيده في حياته الأولى دون أن يكون على حساب حياته الآخرة.

والخالق بالإضافة له صفتان: مصداقا لقوله تعالى: {والله يعلم المفسد من المصلح}[١٦٣].

الصفة الأولى إصلاحية:

قال تعالى: {أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون}[١٦٤]. مع أن الخالق خصَّ المؤمنين بورثة الأرض إلا أن المستهدف هو العموم حيث أبواب الإيمان مفتَّحة لمن يريد أن يؤمن، ومع ذلك فكان الاستدراك الضمني لعل البعض لا يؤمن، مما جعل أمر التخصيص متعلقا بمن يؤمن، ولذا قال نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم في كتابه عز وجل: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}[١٦٥]. ما ينهى عنه نبي الله شعيب لا لأن يتركه المنهيون عنه من قومه لينفرد به وحده دون غيره، بل ما يريده تبيان الحق من الباطل ليكف قومه عن الباطل ويتمسكوا بالحق قولا وعملا. يوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا يبخسوا الناس أشياءهم، فيعدلوا ولا يفسدوا في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[١٦٦].

والصفة الثانية إفسادية:

والصفة الإفسادية، أن يخلق الإنسان ما يؤدي إلى إفساد الحرث والنسل قال تعالى: {ومن الناس من يُعجِبُك قولهُ في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهُو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يُحب الفساد وإذا قيل له أتق الله

---

[١٦٣] البقرة، ٢٢٠.

[١٦٤] الأنبياء، ١٠٥.

[١٦٥] هود، ٨٨.

[١٦٦] الأعراف، ٨٥.

أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}[١٦٧]. هؤلاء ومن هم على شاكلتهم يقولون ما لا يفعلون ويُظهرون مالا يُبطنون، وهؤلاء هم الذين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى {تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}[١٦٨]. وهؤلاء هم المفسدون في الأرض الذين نهى الخالق عن طاعة أمرهم وما يفعلون {ولا تُطيعوا أمر المسرفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون}[١٦٩].

قال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[١٧٠]. يقال كان في مدينة الحِجر تسعة من رؤساء القوم المفسدين الذين أقروا عقر ناقة صالح عليه الصلاة والسلام، وبطغيانهم في الأرض أفسدوا القيم الأخلاقية التي بها تعمر الأرض وتصلح الأحوال ويُقوَّم السلوك، فكانوا يمكرون بقوم صالح، وأقسموا على الفساد دون الإصلاح، وأقسموا أن لا يعترفوا بذنب يرتكبونه. وبعد أن أخبرهم صالح صلى الله عليه وسلم بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح عليه الصلاة والسلام ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به. قال ابن العباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة، فامتلأت بهم دار صالح، وعندما جاء التسعة المفسدين تكفَّل الملائكة بهم رميا بالحجارة حيث هم يرون الحجارة تتساقط عليهم ولا يرون من يرميها. ويقول السّدى: "نزلوا على جرف من الأرض فانهار بهم فأهلكهم الله تحته"[١٧١]. وهناك أقوال أخرى كثيرة منها من قال: أنهم اختفوا في غار بقرب دار صالح صلى الله عليه وسلم

---

[١٦٧] البقرة، ٢٠٤ . ٢٠٦.

[١٦٨] الحشر، ١٤.

[١٦٩] الشعراء، ١٥١، ١٥٢.

[١٧٠] النمل، ٤٨ . ٥٣.

[١٧١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر، ٢١٦ . ٢١٧.

حيث سقطت عليهم صخرة أنهتم جميعا، وهناك من يقول إنَّ هلاك الكل كان بصيحة جبريل، وهناك من يقول أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد والله أعلم[١٧٢].

ولأن الله عز وجل هو الخالق، فهوى الذي خلق النشأة الثانية مثلما خلق النشأة الأولى، {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إنَّ الله على كل شيء قدير}[١٧٣]. النشأة الأولى من غير سابق، وهي نشأة الشيء المصدر، والنشأة الثانية نشأة لاحقة للنشأة الأولى، أي أن النشأة الأولى هي نشأة الشيء من لا شيء. أمَّا النشأة الثانية هي: نشأة الشيء من الشيء. مما جعل النشأة الأولى تأسيس وبناء، والنشأة الثانية إعادة بناء. وكلا النشأتين مؤسستين على الأمر (كن)، كن من لاشيء فكانت الأولى، وكن من الشيء، فكانت الثانية. وفي الآية السابقة قال تعالى (النشأة الآخِرة) ولم يقل (النشأة الأخرى) مما يدل على أنها النشأة الدائمة لمن بُعث في الحياة الحيوان. قال تعالى: {قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا}[١٧٤].

ولأن الله تعالى هو الخالق بالمطلق الأول والآخر، وهو القادر على كل شيء، فهو بذاته العلية لم يتوقف عن الخلق، يُحيي ويميت، ولهذا فإن النشأة الأولى لم تتوقف ونحن لم نؤتِ من العلم إلا قليلا، لذا كلما تمكنَّا من التقدم العلمي، تعرفنا على الجديد وأضفناه لمعارفنا، ولذلك فالمؤمن يُدرك أن الخالق لن يتوقف عن الخلق، بل أنه في الخلق يزيد، ويدرك أنه لن يتمكن من الإطلاع على كل ما خلق، فعقولنا ذات الحيز المحدود لا تسع معرفة ما خلق الله جل جلاله. وعليه لو يدرك الإنسان ذلك ليس له بدا إلا أن يؤمن بالخالق العظيم الذي قال في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[١٧٥].

---

[١٧٢] المصدر السابق، ٢١٧.

[١٧٣] العنكبوت،٢٠.

[١٧٤] مريم، ٩.

[١٧٥] المؤمنون، ١٤.

خالق الشيء قادر على هدِّه وإزالته وإعادة بنائه من جديد سواء على الكيفية التي كان عليها أو على كيفية أفضل، ونحن نعتقد أنَّ النشأة الأخرى التي سنكون عليها هي أفضل مما نحن عليه الآن، ولذلك يترتب على كل شيء مترتب، فلوا عُدنا لما كنَّا عليه ستكون الأطماع والخيانة ملازمة لنا، ويكون الظلم والنزاع والخصام والجوع والعطش والزنى بصحبتنا أينما نكون، وإن سلَّمنا بذلك نسلِّم بأنَّ الوعد الذي وعدنا الخالق به لن يتحقق؛ قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[١٧٦]، في وعد الخالق لنا أنْ نكون من أهل الجنة إن كنَّا من المصلحين في الأرض، وإن لم نكن فلن نستخلف في الأرض ولا نرث من بعدها الجنة، (اللهم أحفظنا مما يُبعدنا عنها ومكنَّا مما يُدخلنا فيها). قال تعالى: {إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنَّك لا تظمأ فيها ولا تضحى}[١٧٧] أي أن الإشباع والريّ والسترة الراقية في الجنة من غير اكتساب وسعي أو كدٍ ومعاناة، إنها دار الوفرة ودار الإباحة المطلقة بكل خير وحلال ونعيم. قال تعالى: {وجنَّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم}[١٧٨] قال: (جناتٍ) ولم يقل (جنّة) ويعني بالنعيم المقيم النعيم الدائم الذي لم يتغير، أي أن الجنات تتعدد بتعدد الوفرة المتنوعة فيها، وأن النعيم الذي يملأ الجنة لا ينقص وطعمه لذيذ. إنه الوعد الدائم بالجنة الدائمة.

قال تعالى: {قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يُعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتبع أمن لا يهدي إلا أن يُهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتَّبعُ أكثرهم إلا ظنا إنَّ الظن لا يغني من الحق شيئا إنَّ الله عليم بما يفعلون}[١٧٩] في هذه الآيات يُظهر الله القوة الإعجازية المبطلة لكل افتراء أو إدعاء بغير حق، وإلا هل هناك من يقدر على بدأ الخلق وإعادته غير الخالق عز وجل؟ أنه وحده القادر على خلق الشيء، والقادر على هداية الحق.

---

[١٧٦] الأعراف، ٤٤.

[١٧٧] طه، ١١٨.

[١٧٨] التوبة، ٢١.

[١٧٩] يونس، ٣٤ . ٣٦.

أمـا الخـالق بالإضـافة فهـو الـذي يخلـق مـن الشـيء أشـياء، ولا يقـدر علـى هدايـة الحق إلا بالإيمان به واتباعه.

قال تعالى: {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل}[١٨٠] القاعدة تقول: (الخالق يتصرف ويتحكم فيما خلق) ولهذا فالخالق على كل شيء وكيل، أي مسيطر ومتحكم ومتصرف بالقوة. ولأننا خَلقُ من خلقه، فهو المتحكم فينا ونحن بإيماننا نطيع. أمَّا نحن الذين نخلق أشياء متعددة من الشيء الذي خلقنا منه الخالق تعالى أو خلقه لنا، فإننا أيضا نسيطر عليها ونتحكم فيها ولكنها لا تطيعنا كما نحن نطيع خالقنا بإيمان. وفوق ذلك مع أننا نسيطر ونتحكم فيها إلا أنها في بعض الأحيان تفاجئنا فتنفجر في وجوهنا حتى تأكلها أو تقضي علينا، وفي هذا الأمر لا تجوز المقارنة مع الخالق الأعظم الذي يتحكم ويسيطر على كل شيء دون أن تحدث المفاجأة. سبحانه لا إله إلا هو.

في الآية السابقة، الله خالق كل شيء جاءت مطلقة، ولذا فإن الشيء المطلق لا يخلقه إلا الله جل جلاله، أمَّا الشيء النسبي فيخلقه المخلوق المتصف بصفة الخلق من الخالق المطلق، ولذلك فإن أي شيء هو من خلق الله، وإلا هل هناك من يخلق الشيء؟.

الشيء لا يخلقه إلا الله، ولهذا فالشيء في ذاته غير محدد، وإذا حُدد أصبح للشيء مسمى كالأرض والقمر والشمس والروح والجن والإنس وهكذا تتعدد الأشياء بمسمياتها، واصل الأشياء واحد في فعل الأمر (كن).

قال تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا}[١٨١]، وهذا يعني أنَّ ما خُلق في الأرض من حيوان وطير وسمك ونبات هو لنا نحن بني الإنسان، قال تعالى: {ولقد مكَّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش}[١٨٢]. والمعايش هي الأشياء التي يمكن استثمارها من قِبَل من جُعِلت له في ما يعود عليه بالنفع ويشبع حاجاته المتطورة والمتنوعة. ومن هذه الأشياء يمكنه

---

[١٨٠] الزمر، ٦٢.

[١٨١] البقرة، ٢٩.

[١٨٢] الأعراف، ١٠.

أن يصنع أشياء تحميه من البرد والحرور ومن الاعتداء عليه بغير حق، ومنها يكتشف علما وتقنية ليطوِّر نفسه بما يُمكِّنه من أن يكون خليفة للخالق الأعظم. ولهذا خلق لنا الخالق ما في الأرض جميعا من كنوز إن أُستثمرت فيما يفيد صلحت الأرض بالفعل الاستثماري، وإن استغلت فيما لا يفيد فسدت الأرض بالفعل الإستغلالي.

وعليه فللخالق صفتان:

الأولى الصفة المُطلقة وهي الصفة الإعجازية (صفة خلق الشيء من لا شيء) وهذه صفة لله تعالى وهي تحتوي صفتين:

١ . خلق الشيء المصدر كالأرض والهواء والنور والنار. وفي ذلك قال تعالى: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور}[١٨٣] وقال عز وجل: {وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر}[١٨٤]، وقال جل جلاله: {الذي خلق السموات والأرض وما بينهما}[١٨٥]، وقال تعالى: {خلق الجان من مَّارجٍ من نار}[١٨٦]. كل هذه المخلوقات التي وردت في الآيات السابقة هي أشياء متعددة: فالسماوات شيء والأرض شيء، وما بين السموات والأرض أشياء، الظلمات والنور، والليل والنهار، والشمس والقمر، وهكذا تتعدد الأشياء فالجان شيء والمارج الذي خلق منه الجان شيء ثاني، والنار التي خلق منها المارج شيء أخر. فالحمد لله ربِّ العالمين خالق الشيء، وخالق منه الأشياء.

٢ . خلق الشيء المستمد من المصدر. كخلق آدم من تراب، وخلق الجان من نار وخلق الملائكة من نور، وفي هذا الخلق ألإعجازي تندمج الروح والمادة في وحدة واحدة متكاملة في الحركة والسكون. قال تعالى: {قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[١٨٧].

---

[١٨٣] الأنعام، ١.

[١٨٤] الأنبياء، ٣٣.

[١٨٥] الفرقان، ٥٩.

[١٨٦] الرحمن، ١٥.

[١٨٧] الإسراء، ٨٥.

هذه الصفة صفة اندماجية فآدم خُلق من تراب ثم دُمجت الروح فيه أو جُبرت، فأصبح على ما أصبح عليه وهو (في أحسن تقويم)، وهكذا بقية الكائنات الحية مادة وروح. ولذا فإن خلق المادة مع الروح أو خلق الروح منفردة خاصية إلهية.

والثانية الصفة النسبية: وهي خلق الشيء من الشيء المحسوس، وهي الصفة التي يتصف بها الإنسان لخلقه أشياء لم تكن هي كما هي لو لم يقوم بعلمه الذي أظهره الخلاَّق تعالى عليه ما خلقها (صنعها) كالسيارة والتلفاز وجهاز الحاسوب والمراكب في البحار والمحيطات والعدسة والمجهر وغيرها كثير وهذه وغيرها من إبداعات الإنسان وقدراته الخلاَّقة هي من تراب أي من مجموع المعادن التي أشار بها الله تعالى على الإنسان حتى يكتشفها ويخلق منها ما يُمكِّنه من ركوب البر والبحر والطيران في آفاق السماء حتى تَمكَّنَ من بلوغ مسارات كواكبها ونجومها بالعلم الذي بشأنه قال تعالى: {وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[١٨٨].أي بالرغم مما وصل إليه عقل الخالق بالإضافة فهو لم يصل إلا للقليل العلمي. ولأن الله تعالى جعل في الأرض خليفة فإنه يُريده أن يبلغ من العلم الذي يُمكِّنه من الإصلاح في الأرض، ولهذا قال عز وجل: {وقل ربِّ زدني علما}[١٨٩] ولأن الخليفة يؤمن بأن الخالق المطلق هو مصدر العلم التام والكامل استجاب إيمانا بقوله (ربِّ زدني علما) ليستجيب له الرحمن بقوله تعالى: {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان}[١٩٠]. وبهذه الأسباب يرفع الله البعض درجات وفوق كل ذي علم عليم {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[١٩١].

والخالق بالإضافة يمكن أن تكون له إحدى الصفتين الآتيتين:

١ . الصفة الإصلاحية: هي الصفة التي بها تعمر الأرض ولا تفسد. وهذه لا تتم إلا بأفعال الخليفة الذي يؤمن بأهمية الإصلاح ويعتبرها من مهامه الرئيسة. وهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض إصلاحا.

---

[١٨٨] الإسراء، ٨٥.

[١٨٩] طه، ١١٤.

[١٩٠] الرحمن، ٣.

[١٩١] يوسف، ٧٦.

٢ . الصفة الإفسادية: هي التي بها تفسد العلاقات بين الخلق ولا تعمر الأرض، وهذه لا تتم إلا بأفعال الآبقين الذين يظنون ظن الجاهلية. وهؤلاء ومن هم على مثلهم هم الذين يسعون في الأرض فسادا.

قال تعالى: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب}[١٩٢]. اللغوب: التعب والإعياء. قال قتادة والكلبي: "هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك"[١٩٣] بقوله عز وجل: {فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربِّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود}[١٩٤]. المعني بالآية (فاصبر على ما يقولون) هو الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أراد منه الله تعالى أن يتعبَّد ويذكر ربُّه في أوقات الدعاء المفضلة وهي: قبل الشروق وقبل الغروب وفي الليل وعند أدبار السجود. وهذه لا تخص النبي الكريم فقط، بل هي الباب المفتوح لمن يريد الدخول منه إلى أماكن الرقي التي بها يُستخلف الإنسان في الأرض حتى يرث الجنة من بعدها.

الخالق جل جلاله في كل برهة وثانية يخلق ما لم نستطع إحصاءه، فنحن بني البشر كنا آدم وحواء فقط، ثم أصبحنا المليارات ومع الحركة والزمان نتصل ونزيد، وهكذا من كل كائن حي خلق الزوجين للزيادة إلى النهاية التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله. ولهذا لن يُصدِّقَ أحدٍ من عباده المستخلفين في الأرض ما أدعى به يهود المدينة، بأن الله خلق كل شيء في ستة أيام ثم استراح من التعب والإعياء. المواليد من جميع المخلوقات تُخلق في الأرحام وتخرج للوجود من بشر وحيوان وكائنات قابلة للمشاهدة وأخرى غير قابلة لذلك بالأعين المجردة، مثل

---

١٩٢ ق، ٣٨.

١٩٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السابع عشر، ص ٢٤.

١٩٤ ق، ٣٩، ٤٠.

الفيروسات المعروفة مما خلق وغير المعروفة، ولهذا تنتشر الأمراض بيننا والكائنات الأخرى والعلم يلاحقها ليقي ويشفي المصابين.

قال تعالى: {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم}[١٩٥] أي بما أنه خلق السماوات التي عرفناها ولم نعرفها: عرفناها بمعرفتنا للسماء التي قد عرفناها هي كما هي في علوها عن الأرض، ولم نعرفها لأنها لم تكن سماء واحدة مصداقا لقوله تعالى: {تُسبِّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن}[١٩٦]. فنحن نعلم علم اليقين بأنها سبع سموات ولكننا لا نعلم علمها. فالسماء ليست فراغ بل هي امتلاء فيها ما خلق مما خلق وسيكون فيها وفي كل ما خلق مما سيخلق. أنه الخالق الدائم، أي الذي خَلْقه لا ينقطع ولا يتوقف، وهو الخالق بالأمر (كن) وليس ببذل الجهد الذي توقَّعه يهود المدينة. في توقعهم هذا هم يظنون كل شيء بمقارنة مع ما يستطيعون القيام به. ولذا فإنهم يضعون الخالق عز وجل في موضع المقارنة مع ما خلق، وفي هذا الأمر معصية كلما سمع بها المؤمن استغفر الله على ما يقولون وحمد ربُّه تعالى على نعمة الإيمان.

إذن الخالق الذي خلق سبع سموات والأرض، لم يقف عند هذا الحد، ولهذا قال: (بقادرٍ على أن يخلق مثلهم) أي بقادر على أن يخلق سماوات وأراضٍ أخرى، وهذا يعني أن خلقه غير منقطع (متصل لا منفصل). فنحن نعلم أنه خلق سبع سموات وسبع أراضٍ مصداقا لقوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنَّ يتنزل الأمر بينهنَّ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما}[١٩٧]. ونحن حتى على مستوى معرفتنا للأرض لم نعرف إلا أرض واحدة وهي التي نعيش عليها ولا نعلم بعلم الأراضي الست الأخرى التي وردت في الآية السابقة. وعليه لقد خلق الخالق الشيء، وخلق فيه ومنه أشياء لا تُحصى. اللهم يا الله زدني علما مثلما أمل أن تزدني إيمانا وتجعلني من المصلحين.

---

[١٩٥] ياسين، ٨١.

[١٩٦] الإسراء، ٤٤.

[١٩٧] الطلاق، ١٢.

القاعدة تقول: (المخلوق دائما في حاجة والخالق دائما هو مصدر إشباعها) المخلوق تعني أي مخلوق، سواء ما خلق الخالق الأعظم أو ما خلق الخالق بالإضافة. فالإنسان وكل كائن مُسبِّح بحمد الله هو في حاجة لخالقه، وإلا لماذا يُسبِّح بحمده لو لم يكن في حاجة إليه؟. يُسبِّح بحمده ليشكره على نعمه وفضله الذي أنعم به عليه حتى جعله من المُسبِّحين.

من القاعدة السابقة نعرف أن الحاجة في طبع المخلوق، وإلا هل يمكن أن يلتفت المخلوق لخالقه لو لم يكن في حاجة إليه؟. ولهذا فنحن في حاجة لرضا خالقنا علينا، وفي حاجة لحفظه ورعايته لنا من كل شرٍ وسوء. فهو الذي جعل لنا في الأرض معاشٍ ومنها سكنٍ ولباسٍ.

ومن القاعدة السابقة عرفنا أنَّ الخالق ليس في حاجة، وذلك لأنه خالقها، أما نحن فهي المخلوقة فينا. ولأن الحاجة مخلوقة مثلما نحن خُلقنا فهي بطبيعة الحال هي في حاجة لخالقها، وهي تُسبِّح بحمده مثلما نحن نُسبِّح. وإلا هل هناك شيء مِنْ خلقه لا يُسبِّح بحمده؟. قال تعالى: {وإن من شيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[١٩٨] ولأن الحاجة مخلوقة فهي بطبيعة الحال في حاجة لخالقها الذي ليس في حاجة إليها.

ولأن كل مخلوق في حاجة لخالقه، فنحن في حاجة لشجرة ونبتة نأكل منها، وفي حاجة لحيوان نشرب منه لبنا وهو الآخر في حاجة للماء مثلما نحن في حاجة إليه، وكل من الشجرة أو النبتة والحيوان في حاجة للهواء مثل ما نحن في حاجة، وكلنا في حاجة لأرض نعيش عليها ومطر أو نبعٍ نرتوي منه، والنبع والمطر في حاجة لقوة تُظهرهما وتسوقهما إلى من هم في حاجة، وهذه القوة تحتاج لمن يصدر لها الأمر لتكون، وفي هذه الأمور لا يمكن أن تكون الاستجابة إلا من الخالق الأعظم جل جلاله، ولذا فإن القاعدة (المخلوق دائما في حاجة والخالق ليس كذلك).

وبما أنَّ المخلوق في حاجة لخالقه، والخالق هو مصدر إشباع الحاجة، إذن كيف يعتقد البعض في إلهٍ لا يُشبع حاجة وهو في حاجة لمن يُشبع حاجته!. فمن يتخذ من التمر إلها أو

[١٩٨] الإسراء، ٤٤.

من الحجر إلها أو من البشر إلها فليعلم إنَّ ما يتخذه من آلهة هم في حاجة، فالتمر إن لم يُحفظ يفسد ويتعفّن، والحجارة تبلى وتتهدم ولا تُشبع حاجةَ من يتخذها إلها ولا تسمعه إن تحدث إليها ولهذا فهي لا تجيب دعاءه إذا دعاها، وهكذا البشر هم في حاجة يمرضون ويتألمون ويجوعون ويخسرون ويكذبون ويزوِّرونَ ويغشون ويزنون ويعملون الفواحش ما ظهر منها وما بطن فكيف مثل هؤلاء يُتخذون آلهة ويُعبدونْ. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}[١٩٩] ولهذا فإن في خلق السماوات والأرض آيات لقوم يتفكرون {إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}[٢٠٠].

وعليه فإنَّ الخلق بِحُسبان، مصداقا لقوله تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنَّكم إلينا لا تُرجعون}[٢٠١]. لا إله إلا هو سبحانه كل شيء قدَّره تقديرا ليهيأه لِما أراد كتهيأت الإنسان للإدراك والفهم والتدبر والاستنباط والتذكر والتفكر والاستقراء والاستنتاج والعمل والتفاعل والتوافق والتكيف ولذا قال تعالى: {ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا}[٢٠٢]. ولذلك فالتقدير والحسبان لم يكونا عبثا. قال تعالى: {والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بمقدار معلوم}[٢٠٣]

ولأن القاعدة تنص على أن: {الإله يَخلُق ولا يُخلق)، فإن من يعتقد في غير الخالق ضل أي لم يهتدي إلى سبيل الاستخلاف في الأرض، ويفقد البقاء الدائم في الحياة الدائمة.

---

[١٩٩] الفرقان، ٣.

[٢٠٠] آل عمران، ١٩١.

[٢٠١] المؤمنون، ١٥.

[٢٠٢] الفرقان، ٢.

[٢٠٣] الحِجر، ١٩ . ٢١.

قال الزجاج: "فالخالق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشء، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها فتبارك الله أحسن الخالقين"[٢٠٤].

ولأن الله أحسن الخالقين مصداقا لقوله تعالى: {فتبارك الله أحسن الخالقين}[٢٠٥] فإن القاعدة تقول: (الخالق يخلق خلاق) فالله خلق آدم وعلمه الأسماء وهي الأسرار، وخلقه إنسانا وعلمه البيان والحكمة، حتى استمد صفة الخلق منه جل جلاله وأصبح خلاَّقا. ولهذا فإنَّ أحسن الخالقين تعني: أتقن الخالقين وهي تأكيد على وجود الخالقين بالإضافة وهؤلاء هم الذين يخلقون ما يُسهم في إشباع حاجاتهم مما خلق لهم خالقهم تعالى. ولكن مع عدم التأكيد على المقارنة فإن خالق الخالقين بطبيعة الحال هو الذي لا يقارن بهم وإن قبلنا بمقارنة ما خلق بما خلقوا فإننا نعود للتأكيد على القاعدة السابقة (الخالق لا يساوي ما خلق).

الخالق هو الله الذي يخلق الأشياء من اللاشيء، فبذلك هو خالق الكون بدون حاجة لأداة أو مادة خام أو حاجة لزمنٍ معين ومحدد، فهو خالق بلفظة " كن".

فالله تبارك وتعالى هو الخالق ولا خالق سواه وكل ما عداه هو مخلوق فالسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما من أقدار مقسمة من أرزَّاق وأعمار وأعمال وأقوال كلها مخلوقة، لأنه هو الذي أوجد جميع الأشياء وركّبها ورتبها، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٢٠٦]، فالخالق لم يخلق هذا الكون وهذه المخلوقات جميعاً عبثا وارتجالاً، إذ أنه ليس من الحكمة خلق الأشياء وإهمالها، كما هو ظن الكفار، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}[٢٠٧]، بل إنه خلق الخلق جميعاً وأعدهم ليوم الحساب .

---

[٢٠٤] تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ص ٣٦.

[٢٠٥] المؤمنون، ١٤.

[٢٠٦] المؤمنون ١٤.

[٢٠٧] ص ٢٧.

وقد أنشأ الخالق وأبدع في الخلق، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[٢٠٨]، إذن فالخالق هو المكوّن لهذه المخلوقات والمقدّر لها، لأنه يخلق الخلق بعلمه المطلق والمسبق، ثم إنه يقدّر الأرزّاق والأعمار وأقواله وأفعاله التي سيقوم بها ويحفظها في اللوح المحفوظ ولكل إنسان منا مكانٌ فيه، ولكل إنسان قدر يقع عليه من الخالق وحده دون سواه، لأنه لا أحد يملك القدر إلا الخالق له.

والله تعالى قد خلق العدم، لأنه لم يكن موجوداً لولا الخالق له، والخالق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتجزأ أو يتركب من أشياء فهو واحدٌ أحد،قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٢٠٩]، والسورة القرآنية السابقة توضح أن الخالق واحد ليس له شريك من قريب أو بعيد، لهذا فهو عظيم بوحدانيته وكماله، وبالتالي لا يمكننا فصل صفة عن صفة فيه، أو فعل عن آخر لأن القائم بكل الأفعال والمتصف بكل الصفات هو إله واحد لا يتجزأ ولا يتغير، وإلا لكانت له بداية ونهاية لأن التركيب والتجزيء لابد له يوماً من التفكك أو التحلل، أما المخلوق فهو مركب من عدة جزيئات بمجمل اتحادها تتكون المخلوقات وبالتأكيد بتحلل هذه الجزيئات المتحدة وتفككها ينتهي وجود هذا التركيب المخلوق ويفنى هذا الشيء.

والإنسان وهو مخلوق من خلق الله تعالى فقد كانت له بداية يبدأ منها ونهاية ينتهي إليها متى شاء الخالق، ومن مجموع هذه التركيبات والتقسيمات تكوّن خلق الإنسان بفعل الخالق وبنفخ الروح فيه.

وخلق الله تعالى الإنسان بتركيبة قابلة للخير والشر، داعي للخير والفتن، في دار ابتلاء وامتحان للخلق، فظهرت للعباد رحمة الخالق وبطشه، ولطفه وجبروته، على حسب درجة الإيمان لكل إنسان، فالغاية من الخلق أساساً هو عبادة الخالق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

[٢٠٨] السجدة ٧ . ٩.

[٢٠٩] الإخلاص ١ . ٤ .

والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٢١٠]، فالإيمان الكامل لا يكون بالمعلوم فقط بل أيضاً يشمل الإيمان بخلق الله للغيب.

وقد خلق الله تعالى الإنسان مكوناً إياه من عدة أشياء:

١–خلق الله للإنسان اللسان:

لإخراج ما في القلب والعقل، فالتعبير عما في داخل الإنسان يتم عن طريق اللسان أولاً من طيب الكلام وبديع الأفكار هذا من شأنه حدوث التفاعل البشري الفكري والعملي بعد التوصل إلى أعلى مراتب التفاهم، فالإنسان كائن لا يستطيع الحياة إلا وسط جماعات بشرية تأخذ منه ويأخذ منها ويتفاعلون مع بعض وتطلب ذلك لغة ووسيلة للتفاهم فيما بينهم وكانت هذه الوسيلة هي اللسان الذي يتكلم بلغة من حوله، وبذلك هو نعمة من الخالق أهداها لنا وأوصانا بها، فالخلق متفاوتون في حسن استعمال هذه النعمة فبدل أن تكون ألسنتهم شاهدة على الحق ناطقة به، داعية للخير ومخرجة لحسن نوايا القلوب، نجدها أحياناً لا تشهد إلا بالباطل ولا تنطق إلا به ولا نسمع منها إلا سوء القول الناتج عن سوء الفعل، لأن اللسان يجب أن يكون ترجمة لما في القلب ووسيلة تعبير عما فيه،فلو كان هذا القلب حاملاً لإيمانٍ صادق نطق به اللسان، وإن كان حاملاً للكفر والمعصية نطق به اللسان،وهناك بعض الأمراض التي خُلِقت لألسن الجاحدين والعاصين والمذنبين، مثل مرض الافتراء والكذب كما جاء في قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ}[٢١١]، فالافتراء على الخالق الذي خلقهم من أشد ما يمكن أن يتقول به الإنسان، لأن من خلق لنا اللسان وجب علينا أن نشكره لا أن نوجهه للكفر به، كذلك مرض النميمة والغيبة ونجد هذا المرض منتشر بكثرة حتى في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، وهذا من شأنه إحداث شرخ في محبة وثقة الناس ببعض وتخلق العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا

---

[٢١٠] الذاريات ٥٦.

[٢١١] النحل ٦٢.

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[٢١٢]، فالتشبيه هنا من شأنه أن يوضح لنا ما الذي يمكن أن يقودنا إليه اللسان إذا تركناه دون رقيب أو حسيب، كذلك من الأمراض المهلكة التي تصيب اللسان شهادة الزور، التي تعمل على إماتة الحقوق وسيادة الظلم بين البشر، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}[٢١٣]، فاللسان الذي لا يشهد الزور هو لسان يخشى الخالق يوم تشهد على الإنسان الألسن التي سينطقها من خلقها ووهبها لنا، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢١٤].

فاللسان إذن خلقه الخالق رحمةً بنا فجعله بعض البشر نقمة على نفسه وعلى من حوله، فمن شأن اللسان خلق مجتمع مسلم مترابط واثق قوي إذا أخضعه الإنسان لخالقه وجعله وسيلة مرضاة له فلا ينطق إلا بما أراد الخالق له، ويلزم الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون بذلك خليفة لله في الأرض بالإصلاح الاجتماعي والمادي والديني بين الناس.

وخليفة الله من كان لسانه بلسماً لقلوب الناس بالكلمة الطيبة، ومنبراً لدعوة الحق دون خوف أو رهبة من أحدٍ من الخلق، ناشراً للحب والصدق والرحمة.

٢-خلق الله العينين للإنسان:

وهما جزء لا يقل أهمية عن اللسان، فهما من نعم ورحمة الله بنا فبهما نستطيع إبصار ما في هذا الكون من نعم الله وقدرته وأن نحمده عليها، فعظمة الجبال تراها أعيننا وانتشار النجوم في السماء البعيدة منثورة أمام أعيننا، وتباين المخلوقات في الألوان والأحجام والأنواع تدركها أبصارنا قبل أي شيءٍ آخر، والأهم من ذلك أنهما لابد أن يكونا سبباً في حبنا وقربنا للخالق، وإيماننا بعظمة خلقه، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[٢١٥]، فقد أهدانا الخالق هذه النعم لا للزينة والجمال بل لتكون مصابيح تنير لنا طريق الهدى والخير

---

[٢١٢] الحجرات ١٢.

[٢١٣] الفرقان ٧٢.

[٢١٤] النور ٢٤.

١ البلد ٨ . ١٠.

من طريق الضلال والشر، فالعين تستطيع أن تعاون العقل في تمييز الحسن من القبيح من الأعمال، فبتأملها وتركيزها تعطي إشارة للعقل بالتحليل للوصول إلى النتائج الإيجابية إذا كانت العين من الأساس عينٌ جادة باحثة عن عظمة الخالق، لذلك نجد أن الخالق قد لفت انتباه الخلق إلى استعمال أبصارهم في أنفسنا أولاً، وفي هذا الكون ثانياً للوصول إلى منتهى الإيمان والطاعة والاعتراف بوحدانية الخالق الذي انفرد بالخلق، قال وتعالى:{وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٢١٦]، في هذه الآية الكريمة دعوة من الخالق لنا للتأمل بما أعطانا فيما أعطانا، إذ أنه وهب لنا العينين تحللان ما حولنا وتنقلان ما في هذا الكون من عظمة تدل على الخالق العظيم إلى النفس لتطمئن وتطيع وتخشع.

فعيني خليفة الله يجب أن يوجههما للتمعن والتأمل في عظمة الخالق، فتُنبه القلب والعقل لهذه العظمة التي بدون الإحساس بها يموت الإنسان في الحياة، حتى وإن كان هذا الخليفة فاقد لنعمة البصر، فالعين تستطيع أن تبصر من خلال الروح والنفس، فكم من مبصر هو أعمي تائه في هذه الدنيا ضائع في دروب الضلال والكفر، كما جاء في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}[٢١٧]، لأن من صفات الكفار والجاحدين هي فقدانهم لنعمة البصر رغم قدرتهم على الإبصار بعيونهم، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٢١٨]، إذ أنه لا فائدة تُرْجى من عين لا تخشى الخالق .

وصفة البصر من صفات الخالق تعالى مع الاختلاف فيه، فالبصر في حق الله هو البصر المطلق الذي لا حدود له، فهو يبصر ما لا نستطيع إبصاره نحن ببصرنا المحدود، قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}[٢١٩]، وقوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ

---

[٢١٦] الذاريات ٢٠، ٢١.

[٢١٧] البقرة ١٧، ١٨.

[٢١٨] يونس ٤٣، ٤٤.

[٢١٩] الحاقة ٣٨، ٣٩.

وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}[٢٢٠]، لأنه يبصر حتى ما في القلوب والعقول دون الحاجة إلى إخراجه، فالخالق جل جلاله هو العالم بنا والقادر علينا.

٣-خلق الله السمع للإنسان:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[٢٢١]، فالسمع نعمة من نعم الله علينا يهدينا إلى صواب الأمر، فمن الذي يستطيع أن يسمع كلمات الخالق ولا يؤمن بها ولا يخشع له إلا من كان قلبه وعقله أصمين قبل أذنيه؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[٢٢٢]، أولئك الذين لا يستغلون سمعهم في الوصول للحق والاعتراف به، فيغيبهم الضلال عن الخالق.

وصفة السمع في حق الخالق تختلف أيضاً عنها في الإنسان، فسمعه سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان، كيف لا وهو من وهب لنا هذا السمع الذي نتمتع به، فسمعه عز وجل ليس مخلوقاً يبدأ ببداية وينتهي بنهاية قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٢٢٣]، فقدرة السمع عند الخالق ليست مقتصرة على أقوالنا وكلامنا بل تتعدى ذلك إلى ما في الصدور من نوايا الخير أو الشر.

وعلى خليفة الله أن ينأى بسمعه عن مساوئ القول من توافه الكلام ورذائله وما من شأنه أن يهوي بصاحبه إلى مستنقع الفساد، فبذلك يحافظ الخليفة على السمع كنعمة من نعم الله تعالى عز وجل، لا يسمع إلا طيب الكلام.

---

[٢٢٠] الواقعة ٨٣ . ٨٥.

[٢٢١] المؤمنون٧٨.

[٢٢٢] الأنفال ٢٠ . ٢٣.

[٢٢٣] غافر ١٩. ٢٠.

وقد أنعم الله على المتقين بنعمة السمع الطيب سواء كانوا في الأرض أو حتى في جنان الخلد، قال تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}[٢٢٤]، فنوعٌ من الراحة والفرح أن لا يسمع الإنسان إلا ما هو طيب وجميل.

وقد نجد الكثير من الخلق يفتقدون لنعمة السمع رغم تمتعهم بها، إذ أنه من الجحود والكفر الذي يسكن قلوبهم ما يغطي سمعهم عن قول الحق، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[٢٢٥].

٤–خلق الله القلب للإنسان:

وهو الذي يجب أن يكون مكمن الطاعة ومستودع المحبة والخضوع والاستسلام للخالق، ومنذ بداية خلق الله للبشر ساوى بينهم في امتلاكهم له كعضو وجهاز ينبض بالحياة، لكنهم تباينوا بعد ذلك في جعله منبعاً للخير أو الشر، أو ملئه بالكفر أو الإيمان، كلٌ حسب ما سعى إليه في حياته.

فالقلب كما نسقيه يُنْبِت، فإذا سقيناه الطاعة وحب الخالق أنبت الإيمان والتقوى، وإذا شرب من المفاسد واللهو أنبت الجحود والكفر، وفي الحقيقة فإن القلوب هي مركز السمع والبصر والإحساس عامة،وليس أدل على ذلك من الذين نراهم حتى يومنا هذا لا يزالون في ضلال وكفر رغم تمتعهم بنعمتي السمع والبصر، كما جاء في قوله تعالى:{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٢٢٦]، فقد خلق الله تعالى القلوب للإدراك والاستشعار بعظمة الخالق وقدرته، وللخشية من غضبه، وللإحساس بحب الخالق وقربه منا، بذلك تتحقق الراحة والطمأنينة التي

---

[٢٢٤] مريم ٦١ ـ ٦٣.

[٢٢٥] الأعراف ١٧٩.

[٢٢٦] الحج ٤٦.

يتميز بها قلب المؤمن المحسن التقي الذي استحق أن يكون خليفة الخالق في الأرض، في المقابل يكون القلق والفزع الدائمين من نصيب القلوب العاصية الكافرة، إذن فالطمأنينة صفة ملازمة لقلب خليفة الله، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[٢٢٧]، لأن الإيمان إذا سكن القلب جلب معه الأمان والطمأنينة من الخالق له، فحب الخالق حين يتمكن من القلب ويتقدم على جميع ما فيه من أنواع الحب الأخرى يخلق الأمن والأمان في القلوب المؤمنة.

بعكس القلوب المريضة بالكفر والنفاق والرياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[٢٢٨]، تلك القلوب التي استضافت الفسوق والنفاق لم تعد نعمة على صاحبها بل تحولت إلى نقمة تحيط به، لأن النفاق مرضٌ إذا تمكن من قلب الإنسان حوله إلى مهلكة له ومضيعة، فالخالق ينفر من هذا المرض الخطير بالإنسان بالأمة المسلمة، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}[٢٢٩].

٥-خلق الله العقل للإنسان:

وهو مركز التحليل والتفكير والتبصر في هذه الدنيا، إذ أنه لا يمكن للإنسان أن يتوصل للحقيقة بدون وجود العقل واستعماله الاستعمال الصحيح، والعقل البشري هو بحد ذاته يُعَد إبداع في الخلق بكيفية عمله وتركيبته العجيبة، فبطريقه نتوصل إلى فهم وتحليل ما حولنا من غموض أو دلائل، لذلك نلاحظ أن أكثر مخاطبة الخالق لمن عصى وكفر موجهة للعقل الذي

---

[٢٢٧] الرعد ٢٨.

[٢٢٨] البقرة ٦ . ١٠.

[٢٢٩] التوبة ١٢٥.

رقد في ظلمات الجهل والضلال: كمثل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٢٣٠]، وكذلك قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}[٢٣١]، إنه التعجب الذي يدرك جوهره العاقل، فكيف لا يتدبر من كان له عقلٌ صحيح في كل ما يحيط بهم أو حتى في أنفسهم وكيفية معيشتهم وبدايتهم ونهايتهم التي تتكرر كل لحظة أمام أعينهم في الحياة.

لذلك فالعقل لا فائدة منه إذا كان يقود صاحبه للضلال والهلاك، كمثل عالمٍ اكتشف واخترع وتوصل إلى علوم جديدة لم يسبقه أحد إليها وما زال عقله تائها عن الخالق الذي أوجد كل ما حوله من علوم وحقائق كونية وطبيعية، فمثله كمثل من لا عقل له، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٢٣٢].

أما خليفة الخالق فإنه لا بد أن يسخّر نعمة العقل لاكتشاف حقيقة الكون ولبيان عظمة الخالق في تصويره فيدرك الإيمان قلبه باكراً ويضيء دربه في الدنيا بنور العلم الحقيقي.

٦-خلق الله الإحساس والمشاعر في الإنسان:

لكن الإنسان هو الذي يحركها كيفما يشاء باختياره لنوعية الأحاسيس مهما كانت الظروف المحيطة به، فالرحمة مخلوقة مع الإنسان والمحبة والصدق والنقاء وكل الفضائل الأخرى كما أنه توجد في المقابل الصفات القبيحة التي يكون الإنسان مخير في استقبال ما يشاء منها، لأن القلب مخلوق خصب تنمو فيه بذرة الخير أو الشر بسرعة متناهية.

وخليفة الله يجب أن يوجّه مشاعره كلها لهدف واحد وهو رضا الخالق، وإذا تمكن حب الخالق من قلب الخليفة خلق فيه أنواعاً من الحب منها:

---

٢٣٠ البقرة ١٧٠، ١٧١.

٢٣١ يس ٦٨.

٢٣٢ العنكبوت ٦٣.

أ- حب النفس على أنها نعمة من الخالق، وإكرامها بالترفع عن المفسدة والضياع، فيحافظ عليها كأمانة سيستردها الخالق وقتما يشاء، وطوبى لمن لقي الخالق بنفسٍ مؤمنة خاضعة خاشعة، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٢٣٣].

وهنا يكون حب النفس ليس من باب التفضيل والأنانية بل كما سبق القول من باب إكرامها وإعطائها حقها من السمو كما أراد الخالق لها، فالساجد لصنم من حجارة مثلاً فهو يسحق حق نفسه في عبادة وتوحيد الله تعالى، والمنكر لوجود الخالق لهذا الكون فإنه يسير بذاته إلى وحل الدونية والكفر.

وخليفة الخالق في الأرض هو من يحافظ على نفسه من الشرور والمفاسد، ويُبقيها نقيه وصافية لحين لقاء الخالق ذلك بالبحث عن معالي القول والفعل وبالتحلي بمكارم الأخلاق، لأن من شأن حسن الخلق أن يرقى بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الشرف والتقدير، ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة، قال تعالى في رسوله الكريم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٢٣٤]، هذا الخُلق الذي هو من خَلق الخالق أصلاً قد رفع قدر الرسول عليه الصلاة والسلام حتى بين أعدائه وخصومه، وقد ترك فينا هذا الخلق لنسير عليه فنكون بذلك خير الأمم وأشرفها، " عَنْ مَالِك أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَرْزِ أَنْ قَالَ أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"[٢٣٥].

ب- حب الحياة: لأن بقيامها تقوم صلة الخليفة بالخالق، فخلق الحياة من أجل التوحيد والعبادة تستحق أن نحبها لحب المعبود فيها، هذا الحب الذي يتحكم في نتيجة امتحان الخالق للإنسان في هذه الحياة، فلما كانت الدنيا دار ابتلاء فإذا أحبها الخليفة حباً للتقرب من الخالق تخطى الامتحان بنجاح وتفوق، قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

[٢٣٣] البقرة ٢٨١.

[٢٣٤] القلم ٤.

[٢٣٥] موطأ مالك ، ج٥، ص٣٧٤.

يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٢٣٦]، لهذا يجب أن يكون الشعور بحب الحياة معتدلاً بين بقية المشاعر الأخرى كي لا يطغى عليها، ولا يكون هذا الحب هو المحرك الأساسي لحياته.

وحب الدنيا ينقسم على قسمين، القسم الأول كما سبق وذكرنا يكون حب الإنسان للحياة على أنها نعمة من خلق الرحمن فنشعر بمسؤوليتنا عنها وعلى الحفاظ عليها، فحبنا للحياة يكون من حبنا لخالق هذه الحياة وخالقنا.

والقسم الثاني هو من تغلب عليه حب الحياة على ما عداه من حب، فتجره هذه الدنيا بمغرياتها ويقضي العمر لاهثاً خلف ملاهي الحياة الدنيا، فيكون هذا الحب نقمة على صاحبه ينقلب عليه يوم الحساب، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٢٣٧]، وكذلك قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}[٢٣٨]، والحب الذي يعود بالخسارة على صاحبه هو حب فاشل من الأساس لأن من شأن الحب إذا وجهه الإنسان في الاتجاه الصحيح أن يخلق السعادة الأبدية للإنسان.

جـ- حب الرسول- صلى الله عليه وسلم-:

لقد فضل الخالق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على الخلق أجمعين، وشرّفه بحبه له، وقَبِل شفاعته لأمته يوم يقوم الحساب، بل إنه ربط الشهادتين بالإيمان بوحدانيته تعالى والإيمان برسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في قولنا عند النطق بالشهادتين(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وهذا هو الإيمان الحقيقي، قال تعالى: {إِنَّمَا

---

[٢٣٦] يونس ٦٢ . ٦٤.

[٢٣٧] البقرة ٢١٢.

[٢٣٨] الأنعام ٧٠.

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٣٩].

فحب الخالق يخلق في قلب الخليفة حب رسوله الكريم عليه السلام، فيسعى في الدنيا به مثلاً وقدوة مشرفة يحتذي بها، ومن أحب رسول الله عليه الصلاة والسلام أتبعه وسار على خطاه قدر المستطاع.

د-حب الوالدين: من وسع قلبه لحب الخالق وسع حب والديه، لأنهما مرتبطان ببعضهما البعض، إذ أنه يستحيل أن تجد من خلفاء الله من هو عاقٌ بوالديه أو كاره لهما، فمن أطاع الخالق أطاع والديه، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[٢٤٠].

هـ- حب العام لجميع الخلق:

يأتي ضمن هذا الحب الأهل والأصدقاء والأقارب والجيران والإحسان إليهم ومعاملتهم بالمعروف واللين، لأن من شأن حبنا لله خلق هذا النوع من الحب الشامل، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[٢٤١].

و- حب الخير:

---

[٢٣٩] النور ٦٢.

[٢٤٠] الإسراء٢٣، ٢٤.

[٢٤١] النساء ٣٦.

الخير اسمٌ جامع لكل معاني البر والمعروف والطاعة والإحسان، فلا يمكن أن يخلق حب المولى في النفوس إلا حب الخير والسعي فيه، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٢٤٢].

ز- حب الآخرة:

يكون المحب دائماً بشوق للقاء من يحب، فيكون موعد اللقاء موعد محبب لقلبه، وهذا شعور خليفة الله ، إذ أنه يسير في الدنيا بحب الخالق ويخرج منها بحب الخالق ولهفة لقائه يوم الحساب، لإيمانهم بصدق الخالق في وعده، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[٢٤٣]، ومن أحب الخالق فقد أحب يوم اللقاء به وزهد في الدنيا بما فيها، لأنه لا يمكن أن يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب إنسان إلا وتغلب إحداها على الأخرى.

٧-خلق الله للإنسان اليدين والقدمين وسائر الأعضاء الداخلية والخارجية:

وكلٌ لها وظيفة تكمل بها الأخرى فيصل الإنسان إلى مخلوق متكامل الأعضاء والجوارح. فالإنسان مخلوق من عدة أجهزة وأعضاء مختلفة الوظائف تعاون كلٌ منها الأخرى في تنظيم عملية الحياة للإنسان، ولتشكيل وحدة متكاملة هي الإنسان الصحيح.

فخليفة الخالق لابد أن يكون دائم التأمل في خلقه والشكر والحمد على ما عنده من نعم سواء أكانت تامة أو ناقصة، إذ أن نصيب البشر متفاوت منها فنجد بين البشر من هو فاقدا لنعمة البصر أو السمع أو الكلام أو فاقد لأحد الأعضاء أو غيرها، لكن هذا لا يقف عائقاً في وجه

---

[٢٤٢] آل عمران ١٠٤.

[٢٤٣] الأعراف ٤٢ . ٤٤.

من أراد الحياة كخليفة لأن من أهم صفاته أن يتصف بإحياء البصيرة التي تقوده لتحقيق هدف خلقه في هذه الدنيا.

٨-خلق الخالق للقوى الكامنة في الشيء:

التي بواسطتها تنمو بها الأشياء وتتكاثر، ففي النواة قوى خفية كامنة تمكنها من النمو إذا توافرت لها الشروط الملائمة لذلك. وكذلك النطفة داخل الإنسان فهي مكمن لقوى خاصة تمكنها من الإخصاب عند لقائها بالبويضة التي تحمل نفس القوى وباتحادهما وانقسام البويضة والانتقام من مرحلة إلى أخرى، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٢٤٤]، فعملية خلق الإنسان تتم على مراحل مرتبة متناهية في الدقة تتجلى فيها عظمة الخالق، إذ أنه بالرغم من تقدم العلوم والطب إلا أنه لم يتم الوصول إلى كنه هذه القوى التي تستمر بها الحياة.

وبما أن كل تلك النعم من خلق الخالق تعالى فهي بالضرورة تأتمر بأمره إذا شاء ومتى شاء، {يوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[٢٤٥]، فكيف لا تطيع من خلقها وأوجدها؟

ومن الظلم تشبيه الخالق العظيم بالمخلوق الضعيف، لأن الله متفرد ومتوحد في صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، فهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يفنى.

والخالق بكل ذلك هو متضمن لعدة صفات وأفعال منها:

أولاً: الخالق هو الرحيم بخلقه:

الرحمة في حق الخالق هي اتصافه بالرحمة المطلقة التي تأتي في صور متعددة منها: هو الرحيم بهدايتنا للحق، والابتعاد عن خطوات الشيطان،قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى

---

[٢٤٤] المؤمنون ١٢ . ١٤.

[٢٤٥] النور ٢٤، ٢٥.

الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}[٢٤٦]، فالهدى هو هدى الخالق لخلقه، بهدف شكر الخلق له وقربهم منه تعالى، مع أننا نجد الكثير منهم جاحدون ومنكرون،كما جاء في قوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٤٧]، وهو الرحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين المستغفرين من ذنوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين}[٢٤٨]، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٢٤٩]، فرحمته تأتي نجاة وأمان للمذنب الراجع للخالق، فاتحة أبواب الأمل والرجاء مما يحفز النفس المخلوقة على التوبة والعمل الصالح، وتوصد أبواب اليأس والخوف، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه.

والرحيم هو الخالق لكل الخلق لذلك هو فوقهم جميعاً، قال سبحانه وتعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}[٢٥٠]، بمعنى أنه القائم على أمور الخلق.

فعلى خليفة الله أن يملأ قلبه رحمة وحب للخلق بصفة عامة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فيكون حبه للمؤمنين متجسداً في حب الخير لهم كما يحبه لنفسه، ويكون حبه للكافرين بدعوتهم للصلاح والنجاة من الهلاك الذي هم فيه.

ثانياً: الخالق هو الملك:

---

[٢٤٦] المائدة ٨٣. ٨٥ .

[٢٤٧] القصص ٧٣.

[٢٤٨] المؤمنون ١٤.

[٢٤٩] الزمر ٥٣.

[٢٥٠] طه ٥، ٦.

لأنه خالق فهم ملكٌ على ما قد خلق، فيكون له الأمر والنهي فيما خلق يتصرف كيف يشاء بأمره وفعله، قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٢٥١]، ففي هاتين الآيتين تأكيد لملك الله، ففيهما توحيد للخالق بنفي أي معبود سواه مع توضيح عجز قدرة ما يعبد المشركون من آلهة عن الخلق ولأنهم غير خالقين فهم غير مالكين لأي شيء، قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[٢٥٢]، فهو الخالق الملك الذي استحق الكمال.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٢٥٣]، وكذلك قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[٢٥٤].

وخليفة الله هو من يحيي في قلبه حب الخالق الملك، ومن يراقبه في السر والعلن، ومن توكل عليه لأنه الأعلى والأقوى فأمور العباد بيده.

ثالثاً: الخالق هو السميع البصير:

فكيف يكون خالقاً من لا يسمع ولا يرى؟ فالخالق عز وجل له القدرة على سماع السر والنجوى، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٢٥٥].

---

[٢٥١] سبأ ٢٢، ٢٣.

[٢٥٢] الفرقان ٢.

[٢٥٣] الحشر ٢٣.

[٢٥٤] المؤمنون ١١٦، ١١٧.

[٢٥٥] المجادلة ٧.

رابعاًَ: الخالق هو الأول والآخر:

بما أنه الخالق فلابد أن يكون قبل الخلق جميعاً فليس قبله شيء، والباقي بعدهم جميعاً فليس بعده شيء، فالخالق لا بداية ولا نهاية له.

هو الأول بخلقه للخلق وإيجادهم من اللاشيء، وهذا هو أصل الإيمان، فكل ما حولنا ينطق بهذه الحقيقة التي تقر بها القلوب المؤمنة الصادقة، فهو الأول والآخر له المبدأ وله المرجع، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[٢٥٦].

ويقين الخليفة بأن له أول وآخر هي ركنا معرفة قدرة الخالق على المخلوق، فكل شيء له أول وآخر هو مخلوق.

خامساً: الخالق هو المهيمن:

أي أن الخالق هو المسيطر على ما خلق، فلا تخفى عليه أي شيء مهماَ ضئُل في ملكه، وهو محيط بخلقه وبما يقدمونه في الحياة الدنيا، وبما أنه الخالق العظيم إذن استوجبت عملية الخلق الرقابة عليهم لحسابهم على ما قدموه في الحياة الدنيا من صالح الأعمال أو سيئها، وبهذا فالخالق قائم على أمور الخلق كلها، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٥٧].

ومن شأن اسم الخالق المتضمن للهيمنة أن يزيد من تقوى خليفة الله في كل قول أو فعل، وأن يؤمن بأنه المسيطر على الخلق قويهم وضعيفهم فيغذي هذا الإيمان شعوره بالثقة والقوة فلا يتردد في قول الحق والعمل به.

سادساً: الخالق هو العظيم:

---

[٢٥٦] الأنبياء ١٠٤.

[٢٥٧] الحشر ٢٢ . ٢٤.

في عملية الخلق لهذا الكون إظهار لعظمة الخالق عز وجل، فمن مظاهر هذه العظمة ما يلي:

عظمة خلق السماوات والأرض وما فيهما من دقة الخلق وقوته، فمن المعروف مثلاً أن أي ارتفاع لابد أن يكون مسنوداً بأعمدة تحميه من السقوط، في حين أن الله خلق السماء بدون أعمدة تثبتها، وبالرغم من ذلك هي ثابتة بإذن الخالق لها، وتلك النجوم والكواكب المتناثرة فيها بالرغم من كبر حجمها إلا أننا نراها ضئيلة بسبب المسافة البعيدة بيننا، وكذلك موعد شروق وغروب الشمس اللذان لا يختلفان أبداً، وتظهر أيضاً عظمة الخالق في خلق الأرض التي نحيا عليها، بما تحويه من جبالٍ شاهقة ومن بحار ممدودة وأنهار جارية وبما تملكه هذه الأرض في جوفها من البذور والثمار المتنوعة، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٢٥٨]، فالخالق يثير العقل البشري بهذه الدلائل الماثلة أمامه ليصل إلي الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}[٢٥٩].

وكذلك تظهر عظمة الخالق في خلق الإنسان، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٢٦٠]، لأن الإنسان كمخلوق مجهز بكل هذه الأجهزة الداخلية التي تعمل وفق نظام عظيم في دقته

---

[٢٥٨] الرعد ١ . ٤.

[٢٥٩] النبأ ٦ . ١٦.

[٢٦٠] الذاريات ٢١.

فإنه دليل أكيد وقريب لكل العقول التي تبحث عن الخالق، بما في ذلك تلك العضلات الإرادية واللاإرادية التي تكوّن منظومة الجهاز الواحد، وكذلك تناسق وظائف الأجهزة الداخلية كل ذلك يوضح عظمة الخالق في خلق الإنسان نفسه، وهذا العقل البشري الذي يعمل بمنظومة خاصة به تجعل من الإنسان مبدع ومخترع وعالِم فكيف بخالق هذا العقل؟

وتظهر عظمة الخالق في بث الروح في سائر الكائنات الحية، هذه الروح التي تبقى سراً تكمن في عظمة الخالق فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقيقتها أو التدخل فيها بأي شكل، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[٢٦١].

فالخالق عظيم في خلقه لا يستطيع أي كان أن يصل إلى هذه العظمة الإلهية أو إلى سر من أسرارها، فيجب على خليفة الخالق أن يكون مطيعاً ومؤمناً بعظمته وقدرته، لا يصله شكٌ في هذه العظمة التي من شأنها أن تصغّر كل من يدّعي العظمة في هذه الدنيا.

سابعاً: الخالق هو القادر:

الخالق سبحانه وتعالى إن شاء فعل، ومشيئته فوق كل شيء وأمره لا راد له، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٢٦٢]، فالخلق قدرة لا يتماثل فيها مع الله أحد، فله تعالى القدرة المطلقة على التفرد بالأشياء دون الحاجة إلى مساعدة الغير.

وتتمثل مظاهر قدرته في خلقه فيما يلي:

أ- بقدرته عز وجل خلق الهداية لمن استحقها من البشر، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٦٣].

ب- علمه المطلق الذي لا حد له ولا يستطيع أن يحيط به أحد، فهذه القدرة الإلهية لا تضاهيها قدرة أخرى، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا

[٢٦١] الإسراء ٨٥.

[٢٦٢] النحل ٤٠.

[٢٦٣] إبراهيم ٤.

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٢٦٤].

ج– قدرته على خلقه لهذا الكون الشاسع، ولكل ما يحتويه من مخلوقات مختلفة، من أرضٍ أو سماء، من إنسان أو حيوان أو نبات، وغيرها مما يحويه هذا الكون.

فعلى خليفة الله على الأرض أن يملك القدرة على التحكم في شهواته أولاً فيكون بذلك مالكاً لها لا أن تكون هي مالكةً له، وأن يكون قادراً على قول الحق والعمل به والسعي بالمعروف بين الناس، وأن يكون قادراً على الصبر والثبات عند الحاجة إليها في الدنيا.

ثامناً: الخالق هو الودود:

الخالق ودود فهو المحب وهو المحبوب، فقد شمل حبه ووده أنبياءه ورسله وملائكته وعباده المخلصين وهو بالتالي المحبوب لهم جميعاً، يظهر ود الخالق في كل ما حولنا، سواء في خلقه للهواء الذي ما أن نخرج للدنيا من أرحام أمهاتنا إلا ويكون الهواء المحمل بالأكسجين ينتظر رئتينا لتسير عملية التنفس بشكل طبيعي، وهذه الرياح التي تتحرك حولنا فتنثر حبوب اللقاح لتثمر الأشجار لنا، وكذلك الأمطار المحيية للأرض والإنسان والطير والحيوان، وجعل كل شيء مسخّر لنا لتسهيل عملية الحياة للإنسان على هذه الأرض.

إذن فالخالق يظهر وده للإنسان بكل ما خلق من حوله من أنعام يستفيد منها وطيور وزرع وغيرها مما خلق الخالق لتيسير سبل الحياة له، قال تعالى: {والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

[٢٦٤] البقرة ٢٥٥.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٦٥]، فإذا كان الخالق بعظمته وقدرته وجلاله ودوداً للإنسان بكل ما سبق ذكره في الآية الكريمة فكيف يكون هذا المخلوق جاحداً منكراً لهذا الود الجليّ؟

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[٢٦٦] .

وخليفة الله هو من تواصل مع الخالق مظهراً كل أنواع ومشاعر الود الصادق له سواء كان بالشكر والحمد أو بالدعوة للتوحيد أو بإطاعة أوامره والخضوع له، والخليفة يبادل الخالق الود فيظهر أثر ذلك في سلوكه مع نفسه ومن حوله فلا يمكن أن يكون كارهاً لذاته فهي نعمة من الخالق، ويكون ودوداً مع من حوله لا يؤذي أحد ولا يتعدى على غيره، بل أننا نجد أن محبة الخالق الودود في قلب الخليفة سابقة لأي محبة أخرى، وتلك المحبة هي من خلق الرحمن المحب لعبده الباحث عن رضاه، الخليفة له في الأرض.

الخالق هو المصور:

التصوير هو إظهار عملية الخلق بأشكال متباينة، والتصوير لا يكون مجسدا في الوجوه وتقاطيع الجسد فقط بل يكون التصوير في الخلق فيما يلي:

أ- هو المصور بتقسيمه العقول البشرية:

فبالرغم من ملايين البشر الذين مروا في هذه الحياة والذين ما يزالون يسيرون فيها، وكل هذه الملايين فإن كل إنسان منها يملك عقلاً وتفكيراً يخصه وحده ولا يمكن أن يتطابق مائة بالمائة مع تفكير إنسان آخر حتى وإن كان توأمه، وفي هذا الخلق تصوير لتباين العقول والتفكير.

---

[٢٦٥] النحل ٥ . ١٤.

[٢٦٦] مريم ٩٦.

ب- تصوير الخلق بصور متباينة:

فقد شكّل الخالق البشر بأشكال مختلفة ليس ذلك من باب التفضيل والتمييز بل من باب خلق التعارف والتآلف بينهم: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٢٦٧]، فقد صوّر البشر وهم في الأرحام وفي مراحل متتالية ليخرج بالصورة التي شكلها الخالق عليها، كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [٢٦٨]، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٢٦٩].

بذلك يكون على خليفة الخالق في الأرض أن يحمد الله على حسن الخَلْق، وأن يشكره ويرضى بالصورة التي هو عليها فتهدأ نفسه وتتفرغ لحب الخالق وطاعته.

ولو تأملنا في حقيقة الخلق لوجدنا أن الخالق خلق الإنسان وجعله مستأمناً في ملكه بعد أن قبل الأمانة التي عرضها الخالق من قبله على السماوات والأرض فرفضتها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٢٧٠]، فاستوجبت هذه الأمانة التي تباين البشر في حملها أن يكون الخالق رقيباً بعد أن كانت هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان له فيها، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[٢٧١]، ويأتي بذلك الخالق الحسيب على كل ما قدم هذا المخلوق في الحياة الدنيا، إذ أنه ليس من المعقول أن يدخل في عدل الله مساواة الظالم والمظلوم والموحد والمشرك والمطيع والعاصي، فاستلزم ذلك الحساب العادل يوم يقوم الناس للحساب على ما قدموا من أعمال، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

---

[٢٦٧] الحجرات ١٣.

[٢٦٨] آل عمران ٦.

[٢٦٩] الانفطار ٦ . ٨.

[٢٧٠] الأحزاب ٧٢.

[٢٧١] المؤمنون ١١٥.

أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[٢٧٢]

فحكمة وجود الخلق وتباينها وابتلائها لتمييز الموحدين للخالق عز وجل، قال تعالى: {يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٢٧٣].

وخلق الله تعالى لا ينحصر في الأشياء المادية الملموسة التي تتجسد، بل هو خالقٌ للأشياء المعنوية التي تؤثر في سير حياتنا مثل:

أ- خلقه للأمومة:

الأمومة شعور مخلوق مع الأم بمجرد حملها لجنينها يخلق الخالق هذا الشعور داخلها، ينمو مع نمو الجنين ولا يقف حتى عند بلوغ الابن لسن متقدمة، لأنه شعور مخلوق يعيش في النفس طالما هي تحيا وتتنفس،فهو شعور ينمو رغم التعب والألم والانتظار، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٢٧٤].

ب- خلقه للأبوة:

الأبوة شعور مختلط بين الحنان والمسؤولية والشدة، يخلقه الله تعالى في داخل الرجل عند خروج الجنين للحياة، فتصبح حياته من أجل هؤلاء الأبناء لتوفير ما يلزمهم من جميع النواحي المادية والمعنوية.

ج- خلقه للإنسانية:

---

[٢٧٢] الزلزلة ١ . ٨.

[٢٧٣] الأعراف ٣٥، ٣٦.

[٢٧٤] الأحقاف ١٥.

الخالق جعل أصل العلاقة بين الأفراد والجماعات والدول قائمة على أساس العدل والأمان والسلام، سواء كانت هذه العلاقة تجمع ما بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى،فخلق الخالق الإنسانية لتضم قلوب البشر لبعض فيشعرون ببعضهم البعض بذلك يتحقق الغاية السامية والنبيلة من خلقنا إذ أنه بتوحيد الله وإقامة الحق يصلح الكون وتعمر الأرض باستقرار هذه المبادئ السامية. وهذه الرابطة الإنسانية قابلة للنمو والبقاء وهى أقوى من رابطة الدم أو الوطن أو اللغة.

إن غطى هذا الشعور كل نواحي وجوانب الإنسان في معاملاته ومشاعره لحقق بصدق رسالته في الأرض من دعوة للخير والإصلاح، فلا يمكن توقع الخير من إنسان منزوع الإنسانية، وتتمثل الإنسانية في عدة صفات منها على سبيل الذكر لا الحصر:

١- الرحمة والحب: وهما أساس الفضائل في الأحاسيس، لأن نبع النقاء والصفاء في الروح هذان الشعوران ففيهما تكمن الإنسانية. ولقد اتصف الخالق بهما قبل المخلوق مع الفارق، فالخالق رحمته وحبه لا يحدهما زمان ولا مكان مطلقان يوزعهما كيف يشاء بعلمه المطلق ومشيئته، وهو السابق بهما على الخلق، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُورًا}[٢٧٥]، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [٢٧٦]، قال تعالى أيضاً: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [٢٧٧]، فالخالق هو المالك للرحمة العامة يتصرف فيها كيفما يشاء، فهو يرحم من يشاء من عباده بعلمه وقدرته، والمخلوق حاجته لرحمة الخالق لا تنقطع لأنه خطاء كثير الزلات، فعند تعثر الإنسان من متاعب الدنيا ومشاغلها يبحث عن واحة يستظل بها ويستريح عندها لن يجد هذا المخلوق إلا رحمة الخالق تعالى.

---

[٢٧٥] الإسراء ١٠٠.

[٢٧٦] الأنبياء ١٠٧.

[٢٧٧] فاطر ٢.

والحب مخلوق جميل ولطيف وهو أساس العلاقات الصحيحة والقوية سواء كانت بين العبد وربه أو كانت بين العباد أنفسهم، وأروع وأعظم حب هو حب الخالق لأوليائه وعباده الصالحين، فهو حب نقي لا يدخله زيف أو مصلحة، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٢٧٨]، فقد سبق حب الخالق حب المخلوق كما جاء في الآية السابقة فهو الأول والأقوى في حبه ورحمته بمن خلق.

فمن كان خليفة الخالق لابد أن يكون محباً لله ولنفسه ولمن حوله، هذا الحب الذي ينضح به قلب يعمر بحب الخالق عز وجل.

٢-الاعتراف بحق الإنسان وحماية كرامته:

الخالق عز وجل هو الذي كرّم الإنسان أولاً بأنه إنسان وهذا كافٍ لنتأكد من أنه له حقوق وواجبات بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[٢٧٩]، ومن دلائل تكريم الإنسان أن الله قد خلقه بيده، وجعل الملائكة تسجد له، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [٢٨٠]، وسخّر الخالق كل ما على الأرض لخدمة هذا المخلوق، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [٢٨١]، وهذا التكريم للإنسان من أجل خلافة هذه الأرض وإعمارها، ولأن هذا المخلوق المكرّم عند الله كان من الضروري الحفاظ على حقه

---

[٢٧٨] المائدة ٥٤.

[٢٧٩] الإسراء ٧٠.

[٢٨٠] الأعراف ١٠، ١١.

[٢٨١] لقمان، ٢٠.

في الحياة الكريمة وحقه في الحرية التي تضمن الحفاظ على كرامته كآدمي وحقه في إبداء الرأي وغيرها من الحقوق التي شرعها الخالق له بل خلقها معه،

د- خلقه للقوة:

هذه القوة التي يستمد المؤمن منها القدرة على الدفاع عن الحق، وتطبيق أوامر الخالق، والمحافظة على ما استخلفنا فيه الخالق يتطلب القوة المعنوية والجسدية، وهذا كان نهج رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ومن معه فوصلوا بهذه القوة المعنوية والجسدية إلى أقاصي الأرض، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[٢٨٢].

هـ- خلقه للممكن والمستحيل:

فالخالق عز وجل قد خلق الممكن والمستحيل معاً، فكل مستحيل بقدرة الخالق يتحول إلى ممكن إذا شاء دون أدنى تدخل منا، ولنا في القرآن الكريم أصدق الأمثلة على خلق المستحيل من الممكن، كما في قصة السيدة مريم بنت عمران إذ أنها أنجبت دون أن يمسسها بشر كما جاء في قوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} [٢٨٣]، أو حتى أن يتكلم من كان وليداً صغيراً كما نطق المسيح بن مريم حين كان في المهد، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[٢٨٤]، فبالرغم من استحالة ما قد سلف ذكره إلا أن الخالق أوجده كعبرة ودليل على قدرته وعظمته.

و_ خلقه للمعجزات:

---

[٢٨٢] الفتح ٢٩.

[٢٨٣] مريم ٢٠ ، ٢١.

[٢٨٤] مريم ٢٩ . ٣٣.

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة، إذ أنه يكون مخالف للعادة، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلها التاريخ، ولكن إذا تأملنا في حقيقة هذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخْلَق من الأساس من اللاشيء بل أنها اسْتُمِدت من أشياء قبلها قد خلقها الله تعالى من قبل، فمثلاً الأهرامات العجيبة التي تُعَد في مقدمة المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرى في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو وجودها، فما كان عليه إلا أن أبدع في طريقة البناء، على خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[٢٨٥]، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالمكوث في بطنه وقت وهو على قيد الحياة دون أن يموت! وكذلك قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}[٢٨٦].فمن الإعجاز أن تأتمر الريح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك، فلو حاول الإنسان أن يجرب كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجزوا أشد العجز عن تحقيق ذلك لأنهم غير قادرين على خلق المعجزات .

فالمعجزات الحقيقية هي من صنع الخالق، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق الله، فالخالق سبحانه وتعالى يكون في حق الله وحده، أما الخلّاق فإنه اسم من أسماء الله تعالى، وقد يصح أن يطلق على الخليفة إذ أنه لا يكون خالقاً بل خلاقاً، مما خلق الخلاق العظيم، فالإنسان يحتاج إلى مواد خام ليستطيع أن يخلق شيئا، فمثلاً هو لم يخلق الحديد لكنه استطاع أن يصنع من هذا الحديد الكثير من الأشياء، وغيرها من

---

[٢٨٥] الصافات ١٣٩ . ١٤٧.

[٢٨٦] الأنبياء ٨١.

الصناعات التي تُبْتكر على يد الإنسان الذي وهب الخالق له العقل للتفكير والابتكار والتحديث.

ز_ خلق الخالق للعلم:

العلم مخلوق من عند الرحمن عز وجل، ينمو ويكبر مع الإنسان وقد يصغر ويتلاشى أيضاً إذا لم يُعْتَن به ويُرَاعى، والعلم صفة من صفات الخالق إلا أن العلم المخصوص بالله هو العلم المطلق غير المحدود، العلم الذي لا يصل إليه كائن من يكون من الجن أو الإنس، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[٢٨٧]، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٢٨٨].

ولقد أمرنا الخالق بالتزود بالعلم الذي من شأنه رفع قيمة البشرية إلى أعلى مستويات الرقي والإيمان، لأن العلم إذا كانت الاستفادة منه في الاتجاه الصحيح تَرفَّع الإنسان به عن كل أنواع الضلال والرذائل، فالعلم يصل بالإنسان إلى توضيح الحقائق من حوله وكشف الأمور وتجليها كي لا يكون على جهل بما يحيط به، الأمر الذي نفّر منه الخالق إذ أنه دعا البشر للعلم والمعرفة للوصول إلى حقيقة عظمته وإبداع خلقه، ولذلك فقد كرّم الخالق المخلوق برفع درجاته عنده إذا كان من أصحاب العقول النيّرة بالعلم الذي من شأنه أن يقف بصاحبه على أبواب معرفة الخالق وبالتالي الخشوع له وخشيته، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

---

[٢٨٧] البقرة ٣٠ ـ ٣٣.

[٢٨٨] البقرة ٢٥٥.

مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[٢٨٩]، وكذلك جعل العلم علامة تمييز بين الناس، إذ أنه لا تقارب ولا تشابه بين من يدرك ومن لا يدرك الحقائق والثوابت، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[٢٩٠].

فخلق الله للعلم هو رحمة بالإنسان، لأن العلم من شأنه أن يجعل الإنسان يعرف الخالق فيقدره حق قدره ويجلّه ويعظمه، ويستشعر بضعفه وقلة حيلته أمام الله عز وجل، فتكون بذلك الصلة بين الخالق والمخلوق صلة تقدير ومحبة، بعكس الجهل الذي يهوي بصاحبه إلى أرذل المستويات بالجحود والضلال اللذان يميتان أي صلة بينه وبين الخالق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٢٩١].

ولتأكيد الخالق على أهمية العلم في الحياة بشتى مجالاتها فإننا نجد أن آخر الرسالات السماوية التي نزلت على نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم– قد بدأت بالدعوة والأمر إلى القراءة، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ}[٢٩٢].

إن الخالق هو العليم الذي لا حدود لعلمه فكيف يرتضي لخليفته الجهل والضلال بعد أن استأمنه على خلافة الأرض، إذ أنه ليس من خلفاء الخالق من جاهل أو ضال.

وليكن خليفة الخالق في أرضه حريصاً على الحفاظ على العلوم الموجودة في الحياة والاستفادة منها بالشكل الإيجابي الصحيح، وأن يدرك أنه بهذا العلم سيتعرف على الخالق فلا يجادل

---

[٢٨٩] فاطر ٢٧ ، ٢٨.

[٢٩٠] الزمر ٩.

[٢٩١] الحج ٧٣، ٧٤.

[٢٩٢] العلق ١ . ٥.

فيما يخص هذا الخالق العظيم الفائق القدرات وسترتفع مرتبته في الدنيا والآخرة، مع أنه مهما تعرّف عليه فلن يستطيع أن يوفيه حقه، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٢٩٣].

وصحيح أن جميع الخلق هم للخالق الواحد الأحد، لكنهم مختلفون فيما بينهم، فقد تدرجوا في الأفضلية عند الله،فأفضل البشر هم الأنبياء والرسل، وأفضل الرسل والأنبياء هو سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه، وأفضل الأمم هي أمة محمد – صلى الله عليه وسلم– في الخلق،قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٢٩٤]، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [٢٩٥]، وفضّل الله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام خلفائه في الأرض المصلحين،كما جاء في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[٢٩٦]، فقد جعل الخالق شرف خلافة الأرض لهؤلاء العاملين بطاعة الله والخاشعين والمصلحين، فكان لهم ذلك التفضيل على باقي أمتهم الذين لم يتوحدوا في درجة طاعة وحبهم واستسلامهم للخالق، فخُلق هذا التفاضل بين العباد، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ

[٢٩٣٢٩٣] الزمر ٦٧.

[٢٩٤] آل عمران ١١٠.

[٢٩٥] الحشر ١٨ . ٢٠.

[٢٩٦] النور ٥٥.

الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٢٩٧]، فالتفاضل إذن يكون مخلوق أساساً وموجود لوجود هذا التباين في الأعمال حتى بين المسلمين مثل اختلافهم في حبهم للإنفاق قد خلق درجات الرضا عنهم، وكذلك حبهم للتضحية في سبيل الله .

ولكي تصل إلى درجة التفضيل هذه لابد أن يكون الخالق حاضراً معك في ركن من أركان حياتك وفي كل زاوية من زوايا النفس، فتتجه إليه بالتقدير والإجلال أولاً وأخيراً، ولا نكون كالذين نراهم يستشعرون الرهبة والتقدير والخوف أمام أفراد آدميين يعلوهم مكانة ومرتبة في الحياة، فنجدهم مرتجفين متأدبين في حضرة أحد الشخصيات المهمة، في حين أن هذا التقدير والأدب لا يحضره وهو أمام خالقه العظيم حين يتعدى حدود الله أو حين يقصّر في واجب من واجباته تجاه الخالق الجليل، مع أنه الأحق بالخشوع والطاعة والتقدير، وكيف لا يستحق وهو من خلق الخلق جميعاً فيسبح له ويخشع كل من السماوات والأرض، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [٢٩٨]، فمن هو الذي لا يقدر الخالق حق قدره بعد ذلك إلا الجاهل بعظمته؟

وخليفة الخالق هو من تيقن أن الله لم يخلق الخلق لقلة أو لعزة فهو الغني الحميد ونحن الفقراء الضعفاء.

فعلى خليفة الله في الأرض أن يؤمن بالخالق إيماناً يجعل قلبه مشرّعاً للخير عاملاً بشريعته، ويؤمن بالقدر ومشيئة الله تعالى ويرضى بحكم الخالق عز وجل.

اللهم يا الخالق لَقَدْ كَرَّمْتَنَا وَحَمَلْتَنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْتَنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْتَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْتَ تَفْضِيلًا فاجعلنا يا الخالق في أحسن تقويم واجعلنا من أبناء أمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

---

[٢٩٧] النساء ٩٥.

[٢٩٨] الحج ١٨.

اللهم إنك قَدْ خَلَقْت فَوْقَنا سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّت عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِ فلا تجعلنا يا الخالق من الغافلين، اللهم إنك خلقت السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالحق فاجعلنا على الحق مصلحين لا ظانين بالإثم ولا مفسدين.

اللهم إنك قد خلقتنا وَتَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنَفْسنا وما تفكر فيه عقولنا فاجعل أنفسنا بذكرك آمنة مطمئنة وعقولنا بعلمك على الصراط المستقيم ولا حول ولا قوة إلا بك رب العالمين.

اللهم إنك خلقت من كل شيء زوجين فاجعلنا وأزواجنا على حبك وحب رسولك محمد عليه الصلاة والسلام متلاقين متحابين، واجعلنا من الذين يتذكرون القول فيتبعون أحسنه.

البارئ

البارئ: "يقال برأ الله الخلق فهو يبرؤهم برءا إذا فطرهم"[٢٩٩].

البارئ "هو الذي أبرأ الخلق، وفصل كل جنس عن الآخر، وصور كل مخلوق بما ينساب الغاية من خلقه"[٣٠٠]

البارئ اسم من أسماء الله الحسنى يحتوي في مضمونه البراءة من الشريك والصاحبة والولد، وهو الخالق الذي لا يُخلق. وهو الذي تعود له أفعال الخلق الكاملة مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٣٠١].

والبريء من قُضي ببراءته من التهم. والبارئ من لا تلحقه التهم، وليس بناقص. ولذا فإن البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق وليس بناقص، والبارئ بالإضافة هو أيضا لا تلحقه التهم وإن رُمي بها، ولكن ليس بكامل، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق.

---

[٢٩٩] تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٣٧.

[٣٠٠] أسماء الله الحسنى، ج ١٨، ص ١٥.

[٣٠١] الانفطار، ٦ . ٨.

ولأن البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس، فإن من يرمي أحداً بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتانا مبينا مصداقا لقوله تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}[٣٠٢].

وفي اللغة البراء مرادف لبرئ، والتبرؤ إنكار لباطل قال تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون}[٣٠٣] أي أنه لا يعترف بما يعبدون من دون الله، ويُقر بأن ما يعبدونه باطل ويكفر به.

والمبرأ هو المستخلف في الأرض وذلك لأنه خُلق صالحا ومناسبا لأن يكون خليفة فيها، ولهذا الأمر برأ الله تعالى الإنسان أي استحدثه وأوجده من الشيء المخلوق من لا شيء، وذلك لأداء المهمة والغاية التي خُلق من أجلها أو خلق إليها، وهي الإصلاح في الأرض.

البارئ هو الخالق العادل المُقدِّر لكل شيء تقديرا، ولأنه البارئ فهو الذي لا يظلم أحدا ويكيد كيد الكائدين، ومكر الماكرين مصداقا لقوله تعالى: {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}[٣٠٤] وقوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[٣٠٥].

البارئ هو الذي يُبرئ المظلوم مما ظُلم به، كما برأ موسى عليه الصلاة والسلام من الذين آذوه {ولا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا}[٣٠٦].

والبراءة نزاهة من غشٍ، وطهارةٍ من دنس، وتخلص من ذنب، من أجل التمسك بالحق واتباعه {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن

---

[٣٠٢] النساء، ١١١، ١١٢.

[٣٠٣] الزخرف، ٢٦.

[٣٠٤] الطارق، ١٥ . ١٧.

[٣٠٥] الأنفال، ٣٠.

[٣٠٦] الأحزاب، ٦٩.

بَلَغَ أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني برئ مما تُشركون}[٣٠٧].

والباري بالإضافة هو المُبرَّأ من المعصية، والمتصف بالطاعة، وهو الذي يعرف الحق فيتبعه ويعرف الظلم فيجتنبه، وهو الذي يؤمن بالكمال الإلهي ويؤمن بانعدام التماثل والتطابق معه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[٣٠٨]. أما أولئك الذين يتبرؤون من أعمال الخير ويلبسونها بالباطل فهم الذين يُفسدون في الأرض بأقوالهم وأفعالهم حتى يتصفوا بالبراء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يكونون من المستخلفين الوارثين في الأرض ولا يكونون من أصحاب الجنَّة.

والتبرؤ الحق هو التخلي عن ارتكاب مسببات الذنوب والآثام، في مقابل التمسك بِمُصلِحات الأمور {إنَّ الله برئ من المشركين ورسوله}[٣٠٩]. والتبرؤ الباطل تخلي عن قول الحق وفعله وفي هذا الأمر قال تعالى: {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون}[٣١٠]. ولذا فإن البريء الحق من لا يرتكب ذنبا ولا خطيئة، والبريء الباطل هو من لا يفعل خيرا إلا افتراء قال تعالى: {قل إن افتريته فعليَّ إجرامي وأنا برئ مما تجرمون}[٣١١]. وقال تعالى: {ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا}[٣١٢].

البارئ اسم من أسماء الله الحسنى مصداقا لقوله تعالى: {هو الخالق البارئ المصوِّر له الأسماء الحسنى}[٣١٣]. هو الله الخالق، الذي خلق الشيء ثم خلق منه الأشياء، ولأنه الخالق الأعظم، فهو البارئ الأعظم المكون لِما خلق، أي أنه المُقدِّر والعارف بالحالة التي يكون

---

[٣٠٧] الأنعام، ١٨، ١٩.

[٣٠٨] الشورى، ١١.

[٣٠٩] التوبة، ٢.

[٣١٠] يونس، ٤١.

[٣١١] هود، ٣٥.

[٣١٢] النساء، ١١، ١٢.

[٣١٣] الحشر، ٢٤.

عليها الخلق بجميع أنواعه وخصائصه، من يوم خلقه حتى يوم بقائه من بعد بعثه. ولذا فلو لم يكن الخالق ما كان البارئ، ولو لم يكن البارئ ما كان المصور، فهو عز وجل يخلق الشيء من لا شيء، ويبرأه بالخاصية التي تميزه عن بقية الخلق، ثم يصوِّر كل شيء كما يشاء. قال تعالى: {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء}[٣١٤].

وقال تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُراء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده}[٣١٥]. إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه هم براء مما يعمل المشركون، وهم المستخلفون في الأرض ليحكموا بما يُرضي البارئ عز وجل.

وبراء جمع برئ، وهم الذين آمنوا بالبارئ المصوِّر عز وجل ووحَّدوه وكفروا بما يعبد المشركون من آلهة وأصنام.

والبارئ هو الخالق جل جلاله، وبارِئكم هو خالقكم بعناية وإحكام وعن بينة بحالكم قبل خلقكم، وهو الخلق الذي من بعده تصورون في الأرحام حتى يتم الاكتمال الخلقي للكائنات عاقلها وغير عاقلها، قال تعالى: {وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم}[٣١٦]. فتوبوا إلى بارئكم تعني: توبوا إلى خالقكم الذي خلقكم في أحسن تقويم. وخير لكم عند بارئكم تعني: خير لكم عند خالقكم تعالى. ولهذا فالبارئ عز وجل هو الخالق جل جلاله.

البارئ هو خالق المخلوقات ومميز كل واحدة منها بما تمتاز به من خاصية أو ميزة، ولأنها مخلوقات البارئ عز وجل فهي في ظاهرها لا تتماثل ولا تتساوى، وفي خلقها تتساوى أمام العناية الربانية حيث ينعدم الاختلاف مصداقا لقوله تعالى {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم}[٣١٧] لا فرق بين الأمم المخلوقة من البارئ عز وجل، فهي

---

[٣١٤] آل عمران، ٦.

[٣١٥] الممتحنة، ٤.

[٣١٦] البقرة، ٥٤.

[٣١٧] الأنعام، ٣٨.

جميعا خُلقت تحت الرعاية الإلهية وبأمر الخلق (كن) وجميعها خُلقت وأرزَّاقها على الله سابقة عليها دون فرق أو تمييز غير عادل، كلها في حاجة، وجميعها تشبع وتروى، وجميعها لا تموت قبل يومها، وجميعها تستجيب لله تعالى بالسجود وتسبح بحمده. والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره سبحانه ما أعظم شأنه.

قال تعالى: {ألم تر أنَّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب}[٣١٨]. عرفنا في هذه الآية الكريمة القضايا الآتية:

القضية الأولى: أن كل ما في السماوات والأرض يسجد لله تعالى، وهذا يدل على أن السجود لم يكن مقتصرا على السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، بل أنه يعم كل من هو في كل منها؛ وهذا يدل على أن الحياة هي في كل السماوات والأرض التي لم تكن الشمس والقمر والنجوم جزاء منها حيث لو كانت لما ذُكرت بمسمياتها إضافة للسماوات والأرض.

القضية الثانية: في قوله تعالى: (وكثير من الناس) تؤكد على التبعيض الموجب، وعلى أنَّ المخلوقات جميعها تسجد لبارئها تعالى إلا بني الإنسان وكذلك الجن منهم الصالح والطالح لا يسجدون جميعا، فسبحان الله لقد فضَّل الله بني الإنسان وخلقهم في أحسن تقويم وهم الذين يتبرأ بعضهم من السجود لله تعالى. والموجب من هذه القضية أنَّ الساجدين هم الخلفاء في الأرض والوارثون فيها والجنة من بعدها.

القضية الثالثة: التبعيض السالب بقوله جل جلاله: (وكثير حق عليهم العذاب) وهؤلاء هم العصاة الذين أبوا السجود لبارئهم تعالى، وهؤلاء هم الذين لا يستخلفون في الأرض حيث إضمارهم على الإفساد فيها بغير حق. ولذا فإنهم هم الذين تلاحقهم اللعنات وهم أصحاب النار خالدين فيها أبدا.

---

[٣١٨] الحج، ١٨.

المبرؤون هم المنزهون، والبارئ عز وجل هو المنزه بالمطلق فلا يلتصق به شيء سوى صفاته الحسان، لا إله إلا هو سبحانه فلو لم يكن خالقا ما كان بارئا ولو لم يكن بارئا ما كان مصورا، ولأنه الله تعالى فهو الخالق البارئ المصور وله الأسماء الحسنى.

ولأن المبرئين هم المنزهون قال تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٣١٩]. الخبيثات والخبيثون هم المبرؤون من التطهر وذلك لِما لحق بهم من انعدام الطهارة وعلق بهم من رجس وأدران. أمَّا الطيبون والطيبات فهم المبرؤون من الخبائث والنجاسة والوساخة، وذلك لِما علق بهم من طيب وما لحقهم من طهارة في النفس والبدن.

ويقال هذه الآية نزلت لتبرئ عائشة وصفوان رضي الله عنهما، مما قيل فيهما بغير حق، فالمبرؤون بآيات الله تعالى الأنبياء والصالحون من العباد فيوسف عليه الصلاة والسلام لما رمي بالفاحشة برأه الله تعالى، وموسى عليه الصلاة والسلام برأه الله تعالى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وأن مريم عليها السلام لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى على لسان ابنها عيسى عليه الصلاة والسلام، وأن عائشة رضي الله عنها لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن[٣٢٠]. وهكذا دائما يبرئ الله تعالى عباده الصالحين رجالا ونساء مما يرميهم به المبطلون. قال تعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام: {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربِّي إنَّ ربِّي غفور رحيم}[٣٢١]. ويوسف عليه الصلاة والسلام حتى لا يظن فيما يقول مع أنه الواثق من نفسه بأنها لم تأب ارتكاب ما رميت به إلا أن شهادة الشاهد من أهلها كانت قول حق كما جاء في قوله تعالى: {واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبلٍ فصدقت وهو من

---

[٣١٩] النور، ٢٦.

[٣٢٠] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثاني عشر، ص ٢١١ . ٢١٢.

[٣٢١] يوسف، ٥٣.

الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دُبرٍ فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبرٍ قال إنَّه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم}[٣٢٢].

ولأن الباري بالإضافة يؤمن بالبارئ المطلق فهو يُبرأ بالآتي:

١ . الإيمان بالله ورسله وكتبه وأمره تسليما وطاعة: قال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}[٣٢٣] وقوله تعالى: {ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون}[٣٢٤].

٢ . تكفير السيئات والخطايا: فالنفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربي. قال تعالى: {إنَّ الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين}[٣٢٥] {وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربِّي إنَّ ربِّي غفور رحيم}[٣٢٦]

٣ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال عز وجل {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}[٣٢٧] وقال تعالى: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}[٣٢٨].

٤ . إحقاق الحق وإزهاق الباطل قولا وعملا: قال تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[٣٢٩] وقال جل جلاله: {وقل ربِّ أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل ليّ من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}[٣٣٠].

---

[٣٢٢] يوسف، ٢٥ . ٢٨.

[٣٢٣] البقرة، ٢٨٥.

[٣٢٤] النور، ٥٢.

[٣٢٥] هود، ١١٤.

[٣٢٦] يوسف، ٥٣.

[٣٢٧] آل عمران، ١٠٤.

[٣٢٨] الحج، ٤١.

[٣٢٩] الأنبياء، ١٨.

[٣٣٠] الإسراء، ٨١.

٥ . الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها: قال تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قومِ أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم}[٣٣١] وقال تعالى: {ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون}[٣٣٢].

٦ . البقاء على خاصيته الإنسانية التي برأه عليها البارئ عز وجل: قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[٣٣٣] وقوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يقول أهلكت مالا لبدا أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة}[٣٣٤]

٧ . تذكُّر قول الله والتوقف عنده: قال تعالى: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}[٣٣٥] وقال تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}[٣٣٦]

٨ . التفكر في خلق الله والتطلع إليه: قال تعالى: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكَّرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد}[٣٣٧].

---

[٣٣١] العراف، ٨٥.

[٣٣٢] الأنبياء، ١٠٥.

[٣٣٣] التين، ٤.

[٣٣٤] البلد، ٤ . ٢٠.

[٣٣٥] مريم، ٦٧.

[٣٣٦] الأعراف، ٢٠١.

[٣٣٧] آل عمران، ١٩١ . ٩٤ .

٩ . الحفاظ على أحسن تقويم دون غرور: قال تعالى: {يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإنَّ عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون إنَّ الأبرار لفي نعيم وإنَّ الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفسٍ شيئا والأمر يومئذٍ لله}[٣٣٨]. وقوله تعالى: {فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور}[٣٣٩].

١٠ . التصديق والتقوى: قال تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفِّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويُجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون أليس الله بكافٍ عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هادٍ}[٣٤٠]. وقال تعالى: {وقل ربِّ أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا}[٣٤١].

البراءة صفة تستمد من صفة البارئ عز وجل، الذي برأ نفسه بالوحدانية والقدرة المطلقة، وبرأ المؤمن المستخلف في الأرض من النار وبرأه من الشرك به، ولذا فإن براءة المؤمن من النار تورثه الأرض وتبعثه مقاما محمودا. ولأن البراءة تستمد من الخالق فهي تسري في مراحل المخلوق الآتية:

. المرحلة الأولى براءة الخلق: تبرئة المخلوق بخلقه، الذي سيظل عليه كائنا بخاصيته التي تميزه عن غيره من المخلوقات. فالإنسان خُلق مبرأً بخاصية الإدراك الواعي بالتفكُّر والتذكُّر والاستقراء والاستنباط والتخيل والتذوق المعرفي للكلمة والمعنى والصورة، مصداقا لقوله تعالى: {ولقد صرفّنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا}[٣٤٢].

---

[٣٣٨] الانفطار، ٦ . ١٩ .

[٣٣٩] لقمان، ٣٣.

[٣٤٠] الزمر، ٣٣ . ٣٥.

[٣٤١] الإسراء، ٨٠.

[٣٤٢] الكهف، ٥٤.

فببراءة الخلق كانت الجينات البشرية خاصة بالنوع البشري ومختلفة عن جينات الأجناس الأخرى من الكائنات والحيوانات التي بُرِّئت بخواصها المميزة لها عن خواص غيرها مما جعلها تتعدد وتتنوع وتختلف بطبائعها ووظائفها، وحياتها وعلاقاتها.

. المرحلة الثانية براءة الصورة: لقد برأ البارئ الإنسان من العيوب والنواقص التي تلتصق بالحيوانات والمخلوقات الأخرى قال تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[٣٤٣] في أحسن تقويم تعني: في أحسن صورة، أي في أحسن ما ينبغي أن يكون المخلوق عليه شكلا ومضمونا {أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم}[٣٤٤] هذه الآية الكريمة تؤكد خاصية التمييز التي يتميز بها الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى ولذا قال تعالى: {بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره}[٣٤٥] وهذه البصيرة هي التي يمتاز بها من خُلق في أحسن تقويم إذا ما قورنَ بغيره من المخلوقات الأخرى التي تمشي على أربع أو تزحف وتمشي مكبة على وجهها وجميعها مسخرة للإنسان الذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض لِما يمتاز به من معرفة وإدراك وقامة وبصيرة لم تعط لغيره من المخلوقات التي خلقت من أجل الإنسان وخلق الإنسان من أجل عبادة الله ومن أجل رعايتها ليمدها بالعناية من أجل بيئة سليمة وجميلة تمده بمحسنات الذوق الرفيع. مصداقا لقوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}[٣٤٦].

. المرحلة الثالثة براءة القول: الإنسان العاقل هو الذي يميز بين ما يجب ويُقْدم على اتباعه وبين مالا يجب ويبتعد عن الإقدام عليه، والخليفة هو المبرأ بتوحيده لله تعالى من قول الشرك وقول الباطل والزور، وإذا حكم بين الناس حكم بالعدل وإذا شهد قال الحق ولا شيء غير

---

[٣٤٣] التين، ٤.

[٣٤٤] الملك، ٢٢.

[٣٤٥] القيامة، ١٤.

[٣٤٦] القيامة، ٢٢، ٢٣.

الحق، وهو الذي يخاف الله في كل ما يقول، قال تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى}[٣٤٧].

. المرحلة الرابعة براءة الفعل: ولأن الخليفة هو الذي يخاف الله عز وجل، فهو الذي لا يَقدِم على أداء ما حرَّمه الله عليه، وفي هذا الامتناع تبرئة له من أن يرتكب ما لا يُرضي الله جل جلاله. قال تعالى: {من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[٣٤٨]. إنَّ مرحلة الفعل هي مرحلة العمل التي يُبرأ بها الإنسان من الكسل ومن الاعتماد على غير الله، ولهذا فبالعمل الصالح يجازى الإنسان خيرا وبالعمل الطالح يجازى عذابا شديدا إن لم يغفر الله الذنب، قال تعالى: {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون}[٣٤٩]. ولأن العمل هو الذي يُبرأ به الإنسان فجعله البارئ خليفة له في الأرض ليعمل الأعمال الصالحة ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء بغير حق. {وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}[٣٥٠]. بالعمل الصالح ينال العاملون المكانة الرفيعة، ويمتازون عمن لا يعملون الصالح الذي يُرضى. {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[٣٥١].

. المرحلة الخامسة البراءة من الحياة الدنيا مما جعل الموت رحمة: الدار الدنيا دار فانية، والإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لا يراد له أن يفنى بفنائها، بل يُراد له البقاء من بعدها في الدار الآخرة (دار البقاء السرمدية)، ولذلك فمن يرضى بالحياة الدنيا لن يكون له في الآخرة من نصيب، ومن يعمل صالحا في الدار الدنيا ينال النصيب الأوفر في الدار الآخرة ويفوز بالجنة. ولأن الدار الدنيا دار منقوصة، فإن المؤمن هو الذي لا يقبل بربط مصيره بها، كما يعمل الكفرة وأصحاب الظنون. ولهذه الأسباب يُبرئ الله المؤمنين من اقتصار حياتهم

---

[٣٤٧] القيامة، ٣٦.

[٣٤٨] البقرة، ٦٢.

[٣٤٩] يونس، ٤١.

[٣٥٠] التوبة، ١٠٥.

[٣٥١] الأنعام ١٣٥.

عليها، فيميتهم ليبقوا من بعدها أحياء عنده يرزقون. ولذا فإن الموت هو المنقذ الوحيد من الدار الدنيا الذي من بعده تُفتح للمؤمنين أبواب الجنة.

ولأن المستخلفين في الأرض يؤمنون بأن الدار الدنيا فانية، والدار الآخرة باقية، ويعلمون علم اليقين لا يبقى في الدار الآخرة إلا المؤمن فعملوا عليها بما يمكنهم من العيش فيها عيشة راضية، وبعيشهم فيها يجدون أنفسهم مبرؤون من النار وباقون في الجنة.

. المرحلة السادسة البراءة من الموت: من المتعارف عليه عند العامة أن الموت باقٍ ليلاحق الأحياء، حتى أنهم يظنون بأن الموت باقٍ لا يموت، وفي هذا الأمر وكأنهم لا يعرفون بأن الموت مخلوق، ولأنه مخلوق فلابد له من أن يموت كغيره من مخلوقات الدار الدنيا، والإنسان الضعيف الإيمان يخاف من الموت، أما قوي الإيمان فلا يخافه، فهو يؤمن ببقائه من بعده، ويعرف أن موته في الحياة الدنيا وهو مؤمن هو إيذان لانبعاثه حيا من جديد، ويعرف أن الموت الذي غلبه في الحياة الدنيا لن يكون له وجود في الحياة السرمدية، ولذا فالموت هو الذي سينتهي والخليفة هو الذي سيظل حيا.

قال تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم}[٣٥٢].

وقال جل جلاله: {ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون}[٣٥٣].

وقوله تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى}[٣٥٤].

. المرحلة السابعة الإدامة والبقاء الذي لا يزول: وهي المرحلة التي ينال فيها المخلوق بأعماله الصالحة التي فعلها في الدار الدنيا البراءة من العذاب، والبراءة من المرض والألم، والبراءة من النار، والبراءة من الحاجة والفاقة. إنها الحياة الدائمة مع رحمة من الحي الدائم.

قال تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار}[٣٥٥].

---

[٣٥٢] الروم، ٤٠.

[٣٥٣] البقرة، ٥٦.

[٣٥٤] الحج، ٦.

[٣٥٥] الرعد ٣٥.

وقال عز وجل: {قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون}[356].

البراءة اجتناب الشيء والبعد عنه، وهي السلامة من الشر والحسد، والظلم والعازة، والعذاب والنار، والبارئ هو الله جل جلاله، {فتوبوا إلى بارئكم}[357].

البرء خُلق على صفة وهي تبرئة الشيء من الشيء، ليختصَّ بما فيه دون غيره، والتبرئة الاقتصار على الصفات التي تميز الأجناس والأنواع والخلائق.

التبرؤ فعل ابتعادي لتجنب ما يخيف سواء بعلم أو بجهالة، فالمؤمن يتبرأ من الشرك بالله تعالى، ويتبرأ من الظلم والاستعباد، ويتبرأ من العار والنار، ليلتصق بالإيمان والعدل والسترة والجنة.

أمَّا المشرك، فهو الذي يبتعد عن التوحيد لله ربّ العالمين، ويبتعد عن العدل وقول الحق وفعل الحق، مما يجعله من المقربين والملتصقين بالعار والنار والعذاب الشديد.

والتبرؤ من الشيء أحيانا لا يعني إنكاره أو الشرك به، ولكنه يعني الابتعاد عنه حتى لا يُقصّر بشأنه، فعندما يعرف المخلوق أنه غير قادرٍ على الوفاء التام بما سيلتزم به، فإن التبرئة منه قد تعد نجاة من الأفعال المترتبة على أفعال التقصير في شأنه. قال تعالى: {إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنَّه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما}[358].

إنَّ تبرئة السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة لا يعد عدم إيمان بها، بل قد يكون بسبب عدم مقدرتهنَّ عليها، وحتى لا يحاسبن على التقصير فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان الذي جهل بعواقب حملها. وفي هذا الجهل امتحان لمن ميزه البارئ بأحسن

---

[356] الجاثية، ٢٦.

[357] البقرة، ٥٤.

[358] الأحزاب، ٧٢، ٧٣.

تقويم هل سيهتدي بالأمانة أم أنه سيضل، فكانت النتيجة اهتداء البعض وضلال البعض الآخر. ولهذا ترتب أفعال المساءلة على ما يقدمون به من أفعال، ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بأن يستخلفهم في الأرض ويدخلهم من بعدها الجنة إنه الرحمن الرحيم. ولهذا قال تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة}[٣٥٩]. والخلفاء هم الذين حملوا الأمانة وورثوا الكتاب من الذين سبقوهم بالإيمان، قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولون على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنَّا لا نضيع أجر المصلحين}[٣٦٠].

البارئ هو الله جل جلاله الذي برأ أهل البيت من الرجس مصداقا لقوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهركم تطهيرا}[٣٦١].

والبراءة مع أنها خاصية إلا أنها تحتاج إلى تدعيم. في أساس الخلق، خُلق الإنسان في أحسن تقويم، ولكن هل كل إنسان بقي على ما يراد له أن يكون عليه وهو أحسن التقويم؟ بالتأكيد البعض لم يبق على ما يراد له أن يكون عليه، والبعض كان، حيث أنَّ أكثرهم فاسقون ولا يعقلون ولا يفقهون ولا يعلمون ولا يؤمنون ولا يشكرون وكذلك هم للحق كارهون.

قال تعالى: {ولا تجد أكثرهم شاكرين}[٣٦٢].

وقال تعالى: {بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون}[٣٦٣].

وقال تعالى: {إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}[٣٦٤].

---

[٣٥٩] البقرة، ٣٠.

[٣٦٠] الأعراف، ١٦٩، ١٧٠.

[٣٦١] الأحزاب، ٣٣.

[٣٦٢] الأعراف، ١٧.

[٣٦٣] الزمر، ٤٩.

[٣٦٤] الشعراء، ٦٧.

وقوله عز وجل: {إنَّ الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون}[٣٦٥].

الآيات الكثيرة تنص على أن الأكثرية جاهلة بأمرها وبأمر ما حولها، وغافلة وفاسقة، وضالة، وهذه الكثرة لا تصلح لأن تكون الخليفة في الأرض، فهي التي تُفسد فيها وتسفك الدماء بغير حق. وفي مقابل ذلك الأقلية هي التي تُستخلف وترث الأرض ومن بعدها الجنة.

والخليفة هو الذي يتصف بصفة البارئ في أقواله وأعماله ليرسِّخ خلقه في أحسن صورة وأحسن تقويم، ومن يستمد صفته من البارئ جل جلاله يستطيع أن يبرئ المريض من المرض والفقير من الفاقة والعازة، كما أبرأ عيسى عليه الصلاة والسلام الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى مصداقا لقوله عز وجل: {وتُبرئ الأكمه والأبرص بإذني}[٣٦٦].

البراءة نجاة بعدم الاستطاعة مع الإرادة والرغبة، فالمؤمن باستطاعته ورغبته يُصبح خليفة الله تعالى في الأرض، والمشرك باستطاعته ورغبته لم يُصبح خليفة لله تعالى في الأرض التي عاش عليها وارتزق منها. ولذا فإن البارئ هو المبرئ لِما خلق من صفات غير صفاته، مما جعل الحيوان حيوانا والإنسان إنسانا والطير طيرا والكائنات بأعدادها وأنواعها مبرأة على الخاصية والصفة التي خُلقت عليها دون غيرها مما خلق. قال تعالى: {خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عمَّا يُشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إنَّ ربكم لرءوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين}[٣٦٧].

البرء هو القطع والفصل والإصلاح. والبارئ كما يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل هو: "الذي يعطي كل شيء ما يناسبه من الخلق والتكوين والتسوية"[٣٦٨].

---

[٣٦٥] الحجرات، ٤.

[٣٦٦] المائدة ١١٠.

[٣٦٧] النحل، ١ . ٧.

[٣٦٨] محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرج سابق، ص ٥٥.

البارئ بالإضافة هو المقتدي بما أمر الباري الأعظم جل جلاله وذلك بإتباع ما أمر به طاعة، فهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أي أنه هو الذي يعمل المعروف في أهله، ويتبرأ من عمل المنكر تجنبا وابتعادا. وهو الذي يؤمن بالله ولا يشرك به أحدا، أي أنه المتبرئ من الشرك به، والموحد له سبحانه وتعالى. وهو الذي يؤمن بخاصيته الواعية التي ميزه بها البارئ جل جلاله عن بقية المخلوقات، وهو الذي يحمْل الأمانة دون كلل ولا ملل، ويتبرأ من كل ما من شأنه أن يبعده عن حملها.

البارئ الحق عز وجل هو الذي برأ المؤمن من ارتكاب الذنوب والمعاصي واستخلفه في الأرض وأورثه فيها وأن له الجنة. قال تعالى: {ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة}[٣٦٩] فالذي يُبرئ المؤمن من النار ويدخله الجنة هو العمل الصالح، {سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}[٣٧٠].

البارئ هو الذي برأ محمد صلى الله عليه وسلم من أنُ نسبَ القرآن إليه {إن هو إلا وحى يوحى}[٣٧١]. نزلت هذه الآية رداً على قول الذين يظنون في المدركات العقلية لمحمد صلى الله عليه وسلم، ولذا قال (إن هو إلا وحى يوحى) أي أنه لم يكن من محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذا الأمر بلَّغ محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة. وليعلم الجميع إنَّ ما يُنذر به محمد ويحرِّض عليه هو من عند الله تعالى، فإن ارتضى البعض آمن به، وإن لم يرتض البعض كفر البعض به، وفي كلا الحالتين ما على محمد صلى الله عليه وسلَّم إلا البلاغ المبين. وسواء آمن من آمن أو كفر من كفر، فهو قول الله تعالى ولم يكن من قول محمد في شيء سواء البلاغ به، ولهذا لم يستطع محمد صلى الله عليه وسلم جحده أو إخفاءه أو إنكاره فما عليه إلا أن يُبلِّغ ما أُمر أن يُبلِّغ به، فليس له فيه محل مساومة ولا وجهة نظر، قال تعالى: {واتبع ما يوحى إليك وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين}[٣٧٢].

---

[٣٦٩] النساء، ١٢٤.

[٣٧٠] النحل، ٣٢.

[٣٧١] النجم، ٤.

[٣٧٢] يونس، ١٠٩.

أنه قول الله عز وجل، الخالق البارئ المصور، ولو كان من قول محمد صلى الله عليه وسلم لعدَّل وغير، وتنازل عن بعضه بأخذ أراء المعارضين حتى يتم استيعابهم لسياساته، وإذا كان هذا الأمر وهكذا حاله فلن يكون محمد رسولا ولا نبيا، بل كان مفكرا سياسيا، ولأنه لم يكن كذلك فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه للعالمين مبشرا ومنذرا وداعيا للطريق المستقيم، قال عز وجل: {فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم}[٣٧٣] وقال جل جلاله: {قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين}[٣٧٤].

البارئ هو الله القادر على كل شيء، وهو العزيز الحكيم، الذي خلق المادة والروح بأمره وصورها كيفما شاء سبحانه وتعالى إنه على كل شيء قدير. برأ الروح من الذنب، وبرأ المادة من ارتكاب المعاصي، ودمج الروح في المادة بأمره فخلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلق الحيوانات والطيور والأسماك وبث فيها روح التكاثر بإذنه.

البارئ هو الذي أنزل الرسالات السماوية على من أصطفى من الأنبياء والرسل ليهدي للتي هي أحسن. ويفتح أبواب التبرئة لمن يريد أن يرث الأرض ويستخلف فيها. ولذا كان للرسالات والرسل دلالة ومعنى من حيث الآتي:

. دلالة الرسالات: جعلت العلاقة مباشرة بين الخالق والمخلوق وألغت التوسط بين الله جل جلاله وبين عباده. قال تعالى: {ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجعون}[٣٧٥]، وقال تعالى: {أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى}[٣٧٦]. وقوله عز وجل: {وقال ربكم أدعوني أستجب لكم}[٣٧٧]. وعلى هذه القواعد المتضمنة في نصوص الآيات الكريمة يتم التصويب والتصحيح إلى ما يُمكِّن من عبادة الواحد الأحد.

---

[٣٧٣] الزخرف، ٤٣.

[٣٧٤] ص، ٧٠.

[٣٧٥] القصص، ٨٨.

[٣٧٦] الإسراء، ١١٠.

[٣٧٧] غافر، ٦٠.

. دلالة الرُسُل: التبشير والتحريض والإنذار بنصوص الرسالات والكتب، مع إظهار القدوة الحسنة التي في أقوال وأفعال الرسل الذين اصطفاهم الله للأمم والشعوب حتى جاءت الرسالة المحمدية الخاتمة للناس كافة. قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ}[٣٧٨] وقوله تعالى: {أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنَّ ربَّك أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}[٣٧٩]. وقوله عز وجل: {فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}[٣٨٠]. وقوله تعالى: {قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب}[٣٨١].

البارئ كما يقول فضيلة الدكتور يوسف المرعشلي: "مأخوذة من البُرْءِ وهو خلوص الشيء من غيره"[٣٨٢] ونحن نعتقد أن البُرْءِ هو المأخوذ من البارئ، أي خلوص الشيء من الشيء ذاته، حيث لو لم يكن البارئ ما كان للبُرْءْ وجودا. فالباري هو الأول والآخر والخالق والمصور سبحانه لا إله إلا هو بيده الخير والأمر والنهي وهو على كل شيء قدير {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}[٣٨٣]. وعليه مثلما يستمد الحق من الحق تعالى، والقوة من القوي جل جلاه، والعزة من العزيز تعالى فكذلك يُستمد البُرْءِ من الباري عز وجل.

قال تعالى: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إنَّ ذلك على الله يسير}[٣٨٤]. ومن معاني (من قبل أن نبرأها) أي من قبل أن نَخُصها بمن يتعلق الأمر به وقبل أن يأتي يوم تصويره، أو يأتي الزمن المناسب لظهورها ولذلك المصيبة تُبعد عن أحد وتلتصق بآخر كلما حان وقتها وتوفرت معطياتها.

---

[٣٧٨] غافر، ٤١، ٤٢.

[٣٧٩] النحل، ١٢٥.

[٣٨٠] المؤمنون، ٣٢.

[٣٨١] المائدة، ١٥.

[٣٨٢] يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنى. بيروت . دار المعرفة، ٢٠٠٣، ص ٣٢.

[٣٨٣] البقرة، ١١٧.

[٣٨٤] الحديد، ٢٢.

ولأن البارئ هو الله تعالى خلق كل شيء بالأمر (كن) فكان كل شيء مخلوقا ومبرأ بمن يتعلق الأمر به. ولأنه على كل شيء قدير فيغفر الذنب ويبرئ المصاب ويعفو عن كل من أولى أمره إليه بقلب سليم. ولذا فعليه يتوكل المتوكلون.

البارئ هو المنجي من الظنون والشكوك والألم والمرض والحسد والمكر والكيد ومن كل شرٍ وسوءٍ، ولذا فهو الذي يُبعد العلاقة أو الالتصاق بالشيء غير المُفضل وغير الموجب الذي لا يرضاه الخالق الحق. قال تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أخرى قُل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون}[٣٨٥]. فالمعنى بقوله (وإنني برئ مما تشركون) تعني: لا علاقة لي بالآلهة التي تعبدونها من دون الله تعالى؛ وينبغي أن لا تكون لكم علاقة بها، فهي بالمطلق لا علاقة لها بالله تعالى، وهذه الآية الكريمة نزلت عندما قال المشركون للنبي محمد عليه الصلاة والسلام: "من يشهد لك بأنك رسول الله"[٣٨٦] فكانت الإجابة بلا إله إلا الله من خلال قوله: (إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون).

قال تعالى: {فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربيِّ هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين}[٣٨٧].

أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام تجاوز تفكيره وإدراكه تفكير وإدراك الذين قَصُرَ تفكيرهم وإدراكهم عن الماديات الخاضعة للمشاهدة العينية، فتطلَّع إلى ما هو أبعد وأعظم حتى أدرك ربه هو كما هو جل جلاله، لقد شك في النجوم كما شك في القمر والشمس حتى أدرك ربه بخاصيته في الوحدانية والبقاء والديمومة التي افتقدتها النجوم والقمر والشمس كما سبق له أن ظن حتى تبين له الأمر بأن الله حي باقٍ واحد أحد لا شريك له في الملك ولم يكن له والد ولا والدة وليس له ولد سبحانه هو كما هو جل جلاله.

---

[٣٨٥] الأنعام، ١٩.

[٣٨٦] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس، مصدر سابق، ص ٣٩٩.

[٣٨٧] الأنعام، ٧٨ ، ٧٩.

الباريءُ هو المخلِّص من الهموم والمُنقِذ من العذاب، والمنظِّف من الدنس والخطايا والرذائل، والمُبعد عنها إلى ما هو صواب وحق. قال تعالى: {إذ تبرَّأ الذين أتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب وقال الذين اتَّبعوا لو أنَّ لنا كرةً فنتبرَّأ منهم كما تبرَّءُوا منَّا كذلك يُريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار}[٣٨٨].

التبرؤ عدم تحمُّل المسؤولية تجاه ما لا يجب أن يتم تحمله. ولذا تبرأت الشياطين من الإنس الذين اتبعوهم في ارتكاب الخطايا. وهكذا تبرأ من المسؤولية من لا يستطيع حمْلها أو من لا يتحمّل ما يترتب عليها من أوزار. وعليه من يظهر بتحمُّل ما يترتب على ما يرى قد لا يتحمّل أوزاره عندما يرى بأم عينيه العقاب أو العذاب المترتب عليه في واقع الأمر، ولذلك يتبّرأ منه دون تردد، والدار الدنيا والآخرة مليئة بالقصص والأمثال التي يتذكرها أولوا الألباب مصداقا لقوله تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}[٣٨٩] وقوله عز وجل: {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكَّر إلا أولوا الألباب}[٣٩٠]. وأولو الألباب هم أصحاب الضمائر المخلصة لله تعالى الذين يعملون الصالحات. إنهم المستخلفون في الأرض مصداقا لقوله عز وجل: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يُشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}[٣٩١].

تخاطب هذه الآية الكريمة بقسمها الضمني الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بأن يستخلفهم بأعمالهم الخيِّرة في الأرض، ولذا فهم المبرّؤون من النقيصة والعذاب وهم المبشرون بالجنة. أمَّا الذين من قبلهم فهم الأنبياء والرسل والذين آمنوا معهم بالواحد الأحد سبحانه جل جلاله.

---

[٣٨٨] البقرة، ٦٦، ٦٧.

[٣٨٩] يوسف، ١١١.

[٣٩٠] البقرة، ٢٦٩.

[٣٩١] النور، ٥٥.

فالبارئ هو الله تعالى، ومعناه خلق الخلق لا عن مثال يحتذى ولا عن صورة تقلد، ولا عن شكل يحاكى ويدخل فيه معنى الإبداع، إلا أن البرء هو انفكاك شيء من شيء بخلقه وتصويره، ولكن ليست بحساباتنا ولا بقياساتنا، لا بالحركة التي نعرفها ولا بالزمن الذي نألفه، إيجاد الشيء وخلقه ثم استخلاص شيء آخر منه هو البرء، وإعطاء هذا الشيء شكله وأبعاده فهذا هو التصوير، وكون هذا الشيء لا عن مثل يحتذى ولا يشبه شيئا سبقه من الخلق فهذا هو الإبداع، ولهذا فإن صفات الله تعالى لازمة لا تنفك عن ذاته العلية، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٣٩٢] فهذه الآيات الثلاثة التي ذكر فيها بعض صفات الذات الإلهية نرى أنها جميعا ابتدأت بلفظ الجلالة ثم تلاها الصفات اللازمة، وكل مجموعة من هذه الأسماء هي على علاقة الاختصاص فيما بينها مثل (هو الله الخالق البارئ المصور) حيث جاء على ترتيب الخلق وبرئه وتصويره، ولكي يتضح معنى ما نقول نقف عند قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[٣٩٣] فكيف كانت السموات والأرض رتقا في التصاقهما ببعضهما ثم برأ البارئ عز وجل كل خلق منهما على حدة، وما الذي برأه من السموات؟ وما الذي برأه من الأرض؟ وكيف برأه؟ ولماذا برأه؟. سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فالإنسان لا يستطيع أن يستقل بمعرفة إجابات هذه الأسئلة، فهذه القضايا مما يدخل ضمن دائرة الغيبيات التي نستطيع أن نقف عليها من خلال النصوص المتواترة من الكتاب والسنة من معرفة أسماء الله الحسنى وصفات هذه الأسماء واختصاص كل صفة بنوع من الخلق

---

[٣٩٢] – الحشر ٢٢– ٢٤

[٣٩٣] – الأنبياء ٣٠

الشامل أو بجزء منه لتكامل الصفات الإلهية وجلالها وجمالها، فالتفكر في هذه المسائل مما يزيد في حيرة الإنسان، ولا يمكن أن يقف على الإجابة الشافية الكافية لهذه المسائل إلا إذا هداه الله إلى اليقين الصحيح الذي يأتي بالقول الفصل في هذه القضايا ومثيلاتها، لأن هذه القضايا تعد من الأمور الغيبية، والنصوص المتواترة هي التي تنفرد بالحق وقول الصدق، لأنها وحي من الله أوحاه إلى أنبيائه ورسله، ولذا كان لزاما على الإنسان أن يتأمل في آيات الله تعالى من خلقه حتى يأتي بالقول الفصل في هذه الأمور، فمن المعلوم أن كل شيء في هذا الكون منقاد لقاعدة معينة هي البرء والتصوير وهذه سنة ثابتة، فالشمس والقمر والنجوم والأرض مسخرات بأمره والعلم بأمورها لا يعلمه بالمطلق إلا هو البارئ جل جلاله، فهذا الكون وما فيه من السموات والأرض وما بينهما من مجرات وكواكب وأقمار وشموس وما ينزل إلى الأرض وما يخرج منها، وما يهبط من السماء وما يعرج فيها، ما هي إلا دلالات على قوة البارئ وقدرته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقدرة الله تعالى التي أوجدت الوجود وأبرأته بهذه الصور والأشكال والأجناس، وهذه الأجسام المسخرة في الوجود تصرفت بها العناية الإلهية بغاية متناهية من التصوير في إبداع المؤتلفات والمتوافقات، والمختلفات والمتناقضات، والمضادات والمترادفات، فمن تأمل أفعال البارئ سبحانه في برء مخلوقاته، رآها قائمة على قانون العدل والإصلاح من أجل إعمار الأرض واستمرار الحياة، والبارئ صفة خاصة بالذات الإلهية، إذ أنها من صفات الوقف على الله تعالى، مثل الخالق والمصور والمتكبر، وهو وصفه المختص به، فليس لأحد من المخلوقين أن ينازعه في تلك الصفات ولا يشترك معه بها مثل بعض الصفات مما هو مشترك بين الخالق والمخلوق كالرحمة والعلم، فالله سبحانه هو البارئ، وذلك لكمال عظمته وعزه وقهره وملكه وبرئه الخلق بعضه من بعض بمادة مختلفة وأعراض متباينة وصور متغايرة، سواء أكانت من ذوات الأجسام المادية المحسوسة، كالزرع والضرع والمال والولد، أو غير ذلك من الأشياء المعنوية التي لا تدرك، لا بالحس ولا بالصورة، وإنما هي انعكاسات على الصور الحسية، كالخوف والحزن والفرح والسرور ومنافع شتى ومصائب هينة أو عظيمة وكل ما نذكره أو نعجز عن ذكره إن هو إلا

في كتاب من قبل أن يبرؤه حيث قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٣٩٤] فما نزل من مصيبة فى الأرض من قحط أو نقص فى الثمرات أو غير ذلك، ولا فى الأنفس من مرض أو فقر أو موت أو غير ذلك إلا مكتوب فى اللوح مثبت في علم الله من قبل أن يوجده في الأرض أو في الأنفس، وإن ذلك الإثبات للمصيبة أو لغيرها مما برأه الله تعالى كان محفوظا في علمه، وذلك لإحاطة علمه بكل شيء، فهو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المصالح وما بينهما من المخلوقات فقد أحاط بها علما قبل برئها وإبداعها وإخراجها إلى الوجود، وفى الآية دليل على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها فى الوجود وكذا جميع أعمال الخلق بتفاصيلها مكتوبة فى اللوح المحفوظ ليستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه تعالى عالما بجمع الأشياء قبل برئها وليعرفوا حلمه فإنه تعالى مع علمه أنهم يقومون على المعاصي خلقهم وبرأهم ورزقهم وأملهم وليحذروا من أمثال تلك المعاصي وليشكروا الله على توفيقه إياهم للطاعات، وعصمته إياهم من المعاصي وفيها دليل أيضا على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها لأن إثباتها فى الكتاب محال، فمن عرف الله بالربوبية وافتقر إليه فى إقامة العبودية وشهد بسره ما كشف الله له من آثار القدرة بقوله ما أصاب فسمع هذا من ربه وشهد بقلبه وقع في الروح والراحة وانشرح صدره وهان عليه ما يصيبه فإن قلت كان الله قادرا على أن يوصل العباد إليه بلا تعب ولا مصيبة فيكف أوقعهم فى المحن والبلايا، فإننا نقول أن الله تعالى أراد أن يعرفهم بامتحان القهر حقائق الربوبية وغرائب الطرق إليه حتى يصلوا إليه من طريق الجلال والجمال ففي الآية تطمين للنفوس على الرضى بالقضاء والصبر على البلاء حتى أن الإنسان نفسه إذا تدبرت شأنه تبين لك أنه مذعن لسنن الله إذعانا تاما، فلا يتنفس ولا يحس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقا للتقدير الإلهي المنظم لحياته، وتنقاد لهذا التقدير جميع أعضائه، فالوظائف التي تؤديها هذه الأعضاء لا تقوم بها إلا بحسب ما قرره الله لها على السنة التي برأها عليها، ومن تأمل الآفاق وما في هذا الكون من سماء وأرض،

---

٣٩٤ – الحديد ١٢

وما اشتملت عليه السماء من نجوم وكواكب وشمس وقمر، وما اشتملت عليه الأرض من جبال وأشجار وبحار وأنهار، وما يكتنف ذلك من ليل ونهار وتسيير هذا الكون كله بهذا النظام الدقيق، يدل ذلك على أن هناك بارئا لهذا الكون، موجدا له ومدبرا لشؤونه، وكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع الكائنات علم أنها أبرئت من البارئ بالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما علمناه وما لم نعلمه من برء النسمة إلى برء الأجرام، فالله هو الخالق البارئ المصور الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، رب المشرق والمغرب. فالله سبحانه وتعالى يبين الدلائل الدالة على برء الوجود في حصول هذا الترتيب العجيب في الكون فالسماء والأرض كانتا رتقا، أي كانتا شيئا رتقا ومتداخلا في بعضه البعض، فبرأ إحداهما من الأخرى، وبرأ من كل واحدة خلقها الذي يناسبها، بمعنى أنه استخلصه منها، ذلك أن الأجرام والأجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها، فالحكم عليها بالرتق أولا ثم بالفتق ثانيا هو خبر جاءنا عن طريق السمع الذي لا ينكره العقل، لأن الأجسام يصح فيها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي بارئا يبرؤها، ولما كان الخالق هو البارئ، فأوحى في كل منهما الأمر الذي أراده بما يتناسب وطبيعة الخلق الذي يبرؤه فيها، قال تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[٣٩٥] فالبرء هو خلوص الشيء من غيره على اختلاف مواصفات كل منهما، حيث نقول: فلأن برأ من الدين أي لم يبق عليه دين، فالدين شيء يختلف عن المدين كل الاختلاف في مواصفات كل منهما، وكذلك الرجل برأ من المرض، فالأمراض شتى حيث يختلف كل مرض بمواصفاته وأعراضه عن غيره، وكذلك المريض الذي يختلف بمادته وجوهره عن أعراض الأمراض التي تصيبه،

---

[٣٩٥] – فصلت ٩ –١٢

وعندما يبرأ منها، فهو ينسلّ عنها وهي تتسلّ منه وكل له مواصفات البرء الخاصة به، فإذا فهمنا البرء بهذا المعنى أصبح لنا القدرة على تصور كيفية برء السموات والأرض من بعضهما على الرغم من اختلاف المواصفات والخصائص.

فالله سبحانه وتعالى أخبر بخلق السموات والأرض وما تضم من الأفلاك حيث برأها من بعضها وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع الإخبار بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل أن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدرة بطلوع الشمس وغروبها أو قيل أنها أكبر منها كما قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[٣٩٦] فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وربما تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض، ومهما يكن مقدار ذلك اليوم فالبارئ واحد أحد هو نفسه بديع السموات والأرض، ومع ذلك فالبارئ عز وجل يبرأ مخلوقاته من بعضها على الرغم من اختلاف المخلوق الأول عن التالي واختلاف التالي عن الذي يليه وهكذا، وقد أخبر سبحانه أنه (استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) فخلقت من الدخان. وقد جاء الإجماع على أنها خلقت من بخار الماء، وهو الماء الذي كان العرش عليه والذي جاء ذكره في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}[٣٩٧] وبصرف النظر عن القوانين الفيزيائية التي تقرر أن للماء ثلاث صور أو ثلاث حالات هي الجامدة والسائلة والغازية، فإننا نرى فيها أوضح أنواع الإبراء، فقد أخبر البارئ عز وجل أنه برأ البخار من الماء وبرأ من هذا الدخان أو البخار هذا الكون الذي يضم السموات والأرض، وبرأ منهما كل خلقه كما قال تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

---

[٣٩٦] – الحج ٤٧

[٣٩٧] – هود ٧

بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[٣٩٨] فقد أتم برء السموات من هذا الدخان سبع سموات فى يومين، وأوجد فى كل سماء ما أعدت له واقتضته حكمته، وزين السماء الدنيا التي نراها بالنجوم المنيرة كالمصابيح في أقرب المجرات إلينا التي نعيش على أطرافها، وهي المعروفة بدرب التبانة، والتي يقدر قطرها بنحو مئة ألف مليون سنة ضوئية، فهي علامات يهتدي بها إلى معرفة الجهات، كجهة الجنوب، وجهة الشمال، وجهة الشرق، وجهة الغرب، ويهتدى بها أيضا إلى معرفة أماكن البلاد والقرى حيث يعرف الإنسان جهة المكان الذي يريد أن يقصده، فإذا أراد السائر ليلا في البر أو في البحر أن يتجه إلى بلد معين، استدل واهتدى بالنجوم إليه، ونحو ذلك مما أجرى الله سنته في برء خلقه، وبرأ الأرض، ثم برأ لها غلافا جويا يحفظها من كل سوء، وجاذبية تثبت الأشياء على ظهرها، فهذا الخلق المتقن هو تدبير البارئ المصور الذي أحكم كل شيء خلقه، والمحيط علمه بكل شيء، فالسموات والأرض برأهما البارئ في مدة ومن مادة غير مادتها التي هي عليها، ولم يذكر القرآن الكريم خلق شيء من لا شيء على الإطلاق، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم تكن شيئاً كما قال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[٣٩٩]، مع إخباره أنه خلقه من نطفة.

وأما قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}[٤٠٠] أي هل خلقوا من غير بارئ أم برئوا من لا شيء؟ وقد علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة، وهذا دليل على إيجادهم برءاً من بعد برءٍ، وهو مثل قوله تعالى: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}[٤٠١] فالمسيح عليه الصلاة والسلام رسول كسائر الرسل، خلقه الله بقدرته وبرأه بكلمته التي ألقاها جبريل عليه السلام إلى مريم فهو سر من أسرار قدرة البارئ.

فالبارئ عز وجل برأ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ابتدأ خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وهيأها لما تصلح له من الأقوات، ثم استوى إلى السماء وهي دخان

---

[٣٩٨] – فصلت ١٢

[٣٩٩] – مريم ٩

[٤٠٠] – الطور ٣٥

[٤٠١] – النساء ١٧١

فسواهن سبع سموات، وأوحي في كل سماء أمرها، فتلك ستة أيام خلق الله فيها السماوات والأرض وأودع فيهن مصالحهن فأخرج من الأرض ماءها ومرعاها وقدر الأقوات فيها تقديرا يناسب الزمان والمكان لتكون الأقوات متنوعة ومستمرة أنواعها في كل زمان وليتبادل الناس الأقوات فيما بينهم، وأما ما برأ في السماء، فما جاء به الخبر من كتاب الله تعالى من الجنة والنار والملائكة الكرام الذين برأهم البارئ من النور، فالملائكة هم أجسام نورانية لطيفة، وهم حقيقة مؤكدة من حقائق هذا الكون وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ثمان وثمانين مرة، لما لهم من دور عظيم فى هذا الكون حسب المشيئة الإلهية. وهم عالم مدرك لطيف غيبي غير محسوس، خلقهم الله تعالى من نور، وهم عباد مكرمون، مبرؤون من الميول النفسية والأهواء الشخصية، ومطهرون من الشهوات، ومنزهون عن الخطايا والآثام، وليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون، وهم أيضا لا يتصفون بذكورة ولا بأنوثة، ولا بأي حالة مادية مما يتصف به البشر، ولهم قدرة على التمثل بصورة بشرية أو غيرها مما يأذن به بارئهم عز وجل، كما قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}[٤٠٢] وخلق الملائكة متقدم على خلق الإنسان، بدليل أن الله تعالى قد أخبرهم سلفا بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله خليفته فى الأرض حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٤٠٣].

أما تفاوت الملائكة كيفما برأهم الله تعالى فهو حاصل، سواء في الخلق أم فى الأقدار، فالتفاوت في الخلق ما ذكره تعالى في قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٠٤] أي أن الله خلق الملائكة وجعل لهم أجنحة، والتفاوت في الأقدار هو ما أوكل إلى كل واحد من الملائكة من عمل، وكما خلق الله الجان من نار، وآدم من طين، خلق الملائكة

---

[٤٠٢] – مريم ١٧

[٤٠٣] البقرة ٣٠.

[٤٠٤] – فاطر ١

من نور، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم"[405]. فالله سبحانه وتعالى هو البارئ قدر كل شيء برأه من خلقه حسب ما اقتضت المشيئة الإلهية، فكما كان إبراء الملائكة من النور، فقد قضى البارئ عز وجل برء الجان من النار حيث قال تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}[406] فخلق جنس الجان من لهيب خالص من نار والمارج هو المختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت فالمارج بالنسبة إلى الجان كالتراب بالنسبة إلى الإنسان، وكذلك قال تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}[407] أي من نار شديدة الحر والسموم وهي الريح الحارة وسميت سموما لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن، و نار السموم نار لا دخان لها.

فالله سبحانه وتعالى هو البارئ الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود وبارؤه، وكل موجود فبقدرته، سواء أكان من المعقولات أو المحسوسات فأوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وإيجاد هذه الأشياء على سبيل الإبراء والإبداع، والبرء في جميع الأحوال هو إيجاد الشيء من الشيء قبله، كخلق الإنسان من التراب، ويقتضي تركيبا ولذلك قال الله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[408] وإلى الأشياء المركبة أشار بقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[409]

والإنسان المبروء كان على حالة آدم الذي هو أبو البشر، ويجري هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه أنشئ غيره، والباري تعالى قد تولى بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه كما نبه على

---

[405] – مسند أحمد ١٩٥،٥١

[406] – الرحمن ١٥

[407] – الحجر ٢٧

[408] – الذاريات ٤٩

[409] – الشعراء ٧

ذلك بقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[410] وهذا دليل على برء آدم عليه الصلاة والسلام بالإيجاد والعناية بشهادة الجن والملائكة كونه آخر المخلوقات، ثم علمه بأمره الأسرار مصداقا لقوله تعالى: {وعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[411].

قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[412] فشأن عيسى عليه الصلاة والسلام في خلقه من غير أب وبرؤه بالكلمة، كشأن آدم في برئه من تراب من غير أب ولا أم، فقد صوَّره وأراد أن يكون فكان بشرا سويا كما كان آدم عليه الصلاة والسلام من تراب، وفي موطن آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}[413] فإخباره الملائكة ببرء آدم عليه الصلاة والسلام، إنما يدل على تفخيم شأنه، لأنه خلق ما خلق من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي والملائكة، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده، ولم يأمر بالسجود لأحد ولا لشيء إلا لآدم عليه الصلاة والسلام، وسبحان البارئ حيث خلق أعز خلقه من أذل شيء وأخسه وهو التراب والطين، وفي المرحلة التي بعدها من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة فقد قال تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ}[414] واللازب هو اللاصق الذي يلصق ويعلق باليد لا رمل فيه وهو المتماسك الثابت الشديد الثبوت ويعبر باللازب عن الواجب فيقال ضربة لازب كما قال الشاعر:

فلا تحسبون الخير لا شرّ بعده ولا تحسبون الشرّ ضربة لازبِ

---

[410] ص، ٧٥.

[411] – البقرة ٣١

[412] –آل عمران ٥٩

[413] – ص ٧١

[414] – الصافات ١١

وفي مرحلة تالية برأه من حمإ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[٤١٥]، والصلصال طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر والحمأ طين تغير واسودّ من مجاورة الماء، ومن صلصال من حمإ مسنون إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي موضع آخر من صلصال كالفخار، وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالزخرف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة وعلى هذا المعنى دل بقوله تعالى: {خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}[٤١٦] فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النار وأن الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له، ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح وبرئه بصورته بقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[٤١٧] فهذه درجات برء الإنسان خلقا بعد خلق، ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة، فنبه على أنه جعلهم أناسا في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٤١٨] فقد أشار البارئ إلى ما جعل للإنسان من قوة العقل والفكر والنطق. فإن قيل فلم قال فكسونا العظام لحما ولم يقل فخلقنا منه لحما كما قال في الأول، فهذا إشارة منه تعالى إلى لطيفة من صنعه وهو أن النطفة انتهت إلى صورة العظم الذي برأه منها، ثم أنشأ الله اللحم إنشاءً آخر لا من النطفة، وأجراها مجرى الكسوة التي قد يخلعها الإنسان ويجددها.

---

[٤١٥] – الحجر ٢٦

[٤١٦] – الرحمن ١٤–١٥

[٤١٧] – ص ٧١–٧٢

[٤١٨] – المؤمنون ١٢–١٤

قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الإنسان إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلأنعَامِكُمْ}[419] فالبارئ عز وجل يلفت نظرنا إلى الأصل الذي برأنا منه وهو يذكرنا بمصدر وجودنا، وأصل نشأتنا، وتيسير حياتنا، وتوليه لموتنا ونشرنا، ومن لطائف الخلق في إبرائها أنها تميل إلى الأصل الذي خلقت منه فلم يكن قبل آدم خلق من التراب، فخلق آدم منه ليكون عبدا خضوعا و ذلولا مائلا إلى السجود لأنه مقام العبودية الكاملة فكل جنس يميل إلى جنسه ولهذا تواضع آدم لله واستكبر إبليس عن التواضع فأبى وعلا وتكبر فمال إلى جنسه لأنه خلق من نار، ولا شك أن الله تعالى قادر على خلق آدم ابتداء على هيئة خاصة من مادة خاصة وإنما خلقه من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار إما لمحض المشيئة الإلهية التي هي محض الحكمة الجامعة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الخلق لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه.

وقد جعل البارئ عز وجل خلقه الذي فطره سواء من الأحياء أم من الجمادات أم من الناميات لها علاقة مترابطة فيما بينها من تبادل في الحياة من المنافع والمصالح وفطر لهم رزقهم ليدلل على أن بارئ جميع الخلق هو الله جل جلاله الذي قال في كتابه العزيز: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[420] فهو البارئ المنشئ للسموات والأرض ومبدعهما ومبدئهما على نظام لم يسبق إليه، وهو بارئ الرزق لخلقه، فالخالق البارئ فطر هذا الكون وفق مشيئته بما يناسب بقية مخلوقاته التي يتوقف عيشها وحياتها على حركة هذا الكون وتقلباته، فإنه تعالى فطر الأفلاك وبرأها فقال خلق السموات والأرض بالحق ثم ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم خلق الأنعام ثم عجائب النبات فقال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي

---

[419] – عبس ٢٤– ٣٢

[420] – الأنعام ١٤

ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٤٢١] فجعل الاستدلال هو عملية التفكر، فإنه استدلال على برء الأنواع المختلفة من النبات على وجود البارئ وكذلك حركات الشمس والقمر والليل والنهار كان مجال التفكر والنظر والتأمل فيها من الدلائل العجيبة حيث أن التغيرات التي تحصل على الأرض من تبدل الفصول لاختلاف المواسم، وتقلب الليل والنهار، وعدد السنين والحساب، وما ينتج عن ذلك إنما كله مربوط بأحوال الأفلاك، وهذا من الخالق البارئ الحكيم الذي نستدل على برئه للوجود بالعقل من خلال التفكر بما برأ وهذا هو المراد بقوله تعالى: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فجعل دلالة اليقين على وجود البارئ دلالة عقلية من خلال التأمل بما برأ.

ومن آيات الإبراء التي جاء بها القرآن الكريم عصا موسى عليه الصلاة والسلام من جهة وما خيله سحرة فرعون للناس على أنه إبراء للحبال والعصي التي ألقوها أمام الناس، حيث خيلت السحرة للعامة أن الحبال والعصي حيات ولم تكن كذلك فقد قال تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}[٤٢٢] وقد كان موسى عليه الصلاة السلام لما ألقى عصاه فكانت حية تسعى خاف منها على نفسه على مجرى العادة، وإنما قدم الله بين يديه معرفة هذا قبل جمع السحرة ليكون على يقين من الله أنها آية برأها البارئ لا تضره، وكان خوفه الثاني تعدد ما ألقت السحرة من الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين على أنها إبراء التبس عليهم الأمر، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة أو بين ما هو إبراء من عند الله وبين ما ليس من عند الله من هذا

---

[٤٢١] – النحل ١٠-١٤

[٤٢٢] – طه ٦٦- ٦٩

السحر الذي استرهبوا به أعين الناس حيث قال تعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}[٤٢٣]

فأفعال السحرة هي خرق للعادة أو لطبيعة الأشياء وليست من الإبراء في شيء، فمنها ما يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوى على حسب ما يظهر لتلك القوة مما ارتبطت في العادة بإدراكه، وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوة مثل قوله تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}[٤٢٤] وهذا يدخل تحت قدرة البشر، وهو على قسمين قسمين منه ما يرجع إلى قوة نفسية ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالا، وما هنالك من الحقيقة شيء، أي ليس في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة، وإنما هو فعل الساحر وهو على علم أنه ما من شيء مما وقع في الأعين والإسماع، والقسم الآخر الذي هو قوة نفسية يكون عنها فيما تراه العين أو أي إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء، والفرق بينهما أن الذي يفعله بطريق الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما من شيء في الخارج، وإنما هو سلطان وسيطرة على الحاضرين، فتخطف أبصار الناظرين فيرى صورا في خياله كما يرى النائم في نومه وما في الخارج شيء مما يدركه وهذا القسم الآخر الذي للقوة النفسية منهم من يعلم أنه ما من شيء في الخارج ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد أن الأمر كما رآه، وأما قضية الخوف التي انتابت الجميع سواء من الإبراء الكاذب أو الإبراء الحقيقي، فمرده إلى مصدره أولا قبل أن ينجلي الأمر، لذلك اختلف تعلق الخوفين من كل جهة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه قوي الجأش بما تقدم له، إذا قيل له في الإلقاء الأول خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى أي سنبرأ العصا من الحية مرة أخرى، أي ترجع عصا كما كانت في عينك، فأخفى تعالى العصا في روحانية الحية فتلقفت جميع حيات السحرة المتخيلة من الإبراء الكاذب في أعين الحاضرين، فلم يبق لتلك الحبال والعصي عين ظاهرة في أعينهم

---

[٤٢٣] – الأعراف ١١٦

[٤٢٤] – طه ٦٦

وهي ظهور حجته على حججهم في صور حبال وعصي فأبصرت السحرة والناس الأمور على حقيقتها، وهي حبال السحرة وعصيهم التي ألقوها حبالا وعصيا كما هي، وهكذا كانت تلقفها ولم تنعدم الحبال والعصي، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبيس في عصا موسى عليه الصلاة والسلام، وكانت الشبهة تدخل عليهم فلما رأى الناس الحبال حبالا، علموا أنها مكيدة طبيعية، وقف في تحديها وإبطالها قوة كيدية روحانية، فتلقفت عصا موسى عليه الصلاة والسلام صور الحيات من الحبال والعصي، فأبطل صورتها المصطنعة، كما يبطل كلام الخصم إذا كان على غير حق في جعل كلامه منفيا للواقع فلا يكون حجة، لا أن ما أتى به ينعدم بل يبقى محفوظا معقولا عند السامعين ويزول عندهم كونه حجة، فلما علم السحرة قدر ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام من قوة الحجة وأنه خارج عما جاؤا به، وتحقق يقين ما جاء به على ما جاؤا به، ورأوا خوفه علموا أن ذلك من عند الله، ولو كان من عنده لم يخف لأنه يعلم ما يجري فآيته عند السحرة خوفه، وآيته عند الناس تلقف عصاه ما ألقت السحرة، وعلموا أن أعظم الآيات في هذا الموطن تلقف هذه الصور من أعين الناظرين وإبقاء صورة حية عصا موسى في أعينهم والحال عندهم واحدة، فعلموا بصدق موسى فيما يدعوهم إليه وأن هذا الذي أتى به خارج عن الصور والحيل المعلومة في السحر، فهو أمر إلهي ليس لموسى عليه السلام فيه عمل، فصدقوا برسالته على بصيرة واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله وآثروا الآخرة على الدنيا، وعلموا من عملهم بذلك أنه على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأن الحقائق لا تتبدل وأن عصا موسى داخلة في صورة الحية عن أعين الجميع وعن الذي ألقاها بخوفه الذي شهدوا منه، وبهذا علموا بوجود البارئ عز وجل.

وعليه البارئ اسم من أسماء الله الدالة على أنه برّء عباده المؤمنين من رجس الشرك والضلال، فقد خلق البارئ الخلق وأهدى لهم العقل للتمييز بين الحق والباطل، ولكن اختلف الخلق في اختيار الطريق الذي سيسلكونه في حياتهم الدنيا، فمنهم من اختار طريق الشيطان فأضل نفسه واتبع هواه، قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}[٤٢٥]، ومنهم من تبرأ بنفسه من هذا الضلال فاتبع سبيل الله تعالى وهو سبيل الحق الذي لا يتغير، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٤٢٦]، إذن فالبارئ قد خلق الخلق وخلق لهم دلائل الهداية في الكون حتى لا يكون لهم حجة على الله يوم القيامة وأرسل لهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، ولكي يكونوا شهداء عليهم يوم يقوم الحساب.

واسم الله البارئ يرتبط باسمه الخالق والمصوّر، إذ أنه لا يمكن الفصل بينها لأنها جميعاً مرتبطة بعملية الخلق التي تحتاج للبرء والتصوير، قال سبحانه وتعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٤٢٧]، وقال تعالى أيضاً: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٤٢٨]، فمن الآيتين السابقتين نجد أن:

أ- استأثر الله تعالى بعملية الخلق وحده فلم يجعل له شريكٌ في ذلك، وهذا تأكيد على وحدانيته من خلال خلقه، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ

---

[٤٢٥] النساء ١١٥ . ١٢١.

[٤٢٦] فصلت ٣٠ . ٣٣.

[٤٢٧] غافر ٦٤، ٦٥.

[٤٢٨] التين ٤.

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[٤٢٩].

ب – الانسجام بين عمليتي الخلق والتصوير، فلا يمكن أن نصف الله تعالى بالخالق ولا نصفه بالمصور، لأن التصوير بحد ذاته هو الخلق والإنشاء من لا شيء سبحانه جل جلاله.

ج – الخلق والتصوير من صنع البارئ الذي أبدع في خلقه.

د – الاتجاه إلى الله تعالى بالإخلاص في العبادة وكيف لا وهو من أوجدنا وصوّرنا في أحسن صورة!

فعملية الخلق هي بحد ذاتها أصل تجسيد القدرة الإلهية المطلقة على كل شيء، فلو تأملنا في خلق البارئ لهذا الكون البديع الذي ينطق بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى لما كان في الخلق حتى هذه اللحظة جاحدٌ أو كافر أو عاصٍ، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أجل مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٤٣٠]، وكذلك قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[٤٣١]، فالكون مليء بالأدلة والشواهد لمن أراد أن يبرأ نفسه من الشرك أو الكفر، فما عليه ألا أن يُعْمِل عقله خالصاً للبحث عن الحقيقة فلابد أن يصل إلى اليقين بوجود الله تعالى وبوحدانيته، الأمر الذي اختلف فيه البشر في هذه الحياة الدنيا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٤٣٢].

---

[٤٢٩] يونس ٣٤، ٣٥.

[٤٣٠] لقمان ٢٩، ٣١.

[٤٣١] النمل ٨٨.

[٤٣٢] التغابن ٢، ٣.

فباختيار الطريق الصحيح فقط يستطيع الإنسان أن يكون مستحقاً لخلافة هذه الأرض كما أراد الخالق له عز وجل، إذ أنه جل جلاله خلقنا أجيالاً وأطواراً وهو عالم بمن سيكون المهتدي ومن سيكون الضال بعلمه المطلق حتى من قبل خلقه، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأجلهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[٤٣٣].

إذن فالخالق البارئ عز وجل بقدرته المطلقة وعلمه المطلق قد أنشأ الخلق وصوّرهم من لا شيء إلى الوجود بتنفيذ أمره الذي لا يُرَد وهو (كن) قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٤٣٤]، فالآية الكريمة السابقة توضّح لنا سهولة قدرته عز وجل على تنفيذ إرادته ومشيئته، وهو بذلك البارئ المنفذ لما قرر وأراد سبحانه وتعالى، فلا أحد سواه يستطيع أن يُخْرِج إلى حيّز التنفيذ كل ما قرره وشاء تحقيقه، لأن قدرة كل شيء محدودة لا تستطيع تعدي خطوطها التي رسمها البارئ لها، فقدرة المخلوق ممزوجة بعلمه وبما أنهما محدودان فإن من شأن ذلك أن تجعل من إبداعه وإظهاره لهذا الإبداع أيضاً محدوداً، غير أن الخالق علمه وقدرته وإبداعه لا حدود لها جميعاً.

وعلى خليفة الله في الأرض الاعتراف الأكيد بقلبه ولسانه بالخالق لكل هذا الكون البديع، وأن لا يكتفي بالاعتراف بذلك فقط بل أن يكون هذا الاعتراف عملياً بظهوره في أفعاله وأقواله، بأن تكون درجة إيمانه بالبارئ تتعالى عن أي شكٍ في قدرته أو علمه أو رحمته.

---

[٤٣٣] صحيح بخاري ، ج ١٠، ص٤٨٥.

[٤٣٤] غافر ٦٧، ٦٨.

بذلك الإيمان بخالق الخلق تستطيع أيها الخليفة أن تكون الوارث لهذه الأرض والداعي لإصلاحها، قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٤٣٥].

فمن الأهمية أن تعرف أيها الخليفة طريقك إلى خالقك الذي يعرف ما تظهر وما تُبطن، فهو خالق نفسك، قال تعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٤٣٦]، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آَذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ}[٤٣٧]، فلا يمكن لأي ملك أو سلطان في الأرض أن يستطيع معرفة ما يكمن الإنسان داخل نفسه، وما يكتم من أشياء لأن قدرته تظل محدودة إذ أنه يتساوى مع أي إنسان آخر ضعيف في أنهما مخلوقان قد خلقهما البارئ، ولكنّ الله تعالى بما أنه هو الخالق لنا فهو العالم بما في نفوسنا وإن لم نظهره.

البارئ هو اللطيف:

المتدبر في خلق الله تعالى لكل شيء فإنه حتماً سيستشعر لطفه ورحمته في كل شيء، فالمتأمل فيه يصل إلى الإيمان بلطفه ورحمته بخلقه، إذ أن كل ما حولنا يدل على ذلك مثل:

أولاً: الهواء:

هذا الهواء الذي نتنفسه محملاً بالأوكسجين الذي يحتاجه الجسم البشري، فلا يمكن للمرء أن يعيش من دونه تمتلئ به الكرة الأرضية، فهو ليس حكراً لدولة قوية أو سلطان جائر يمنحه لمن يرضى عنهم ويمنعه لمن يسخط عليهم، بل بلطفه جعله ملكاً للفقير والغني والكبير والصغير والمؤمن والكافر.

---

[٤٣٥] الأعراف ١٢٨.

[٤٣٦] المائدة ٩٩، ١٠٠.

[٤٣٧] الأنبياء ١٠٨. ١١٠.

فإذن نستطيع من إدراك قيمة الهواء في حياتنا أن نلمس لطفه جل جلاله بعباده، فهو خالق هذا الهواء لهم سبباً في بقائهم على وجه الأرض، فأنت أيها الإنسان لا تستطيع رؤية الهواء لكنك تتنفسه بلطف بقدرة البارئ عز وجل، وهو بالرغم من ذلك يتحول من نسمات لطيفة إلى رياح عاتية تقتلع هذا الإنسان من الأرض، قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}[٤٣٨]، فيكون هذا المخلوق وهو الهواء متحولاً بقدرة القادر المطلق من الهواء اللطيف الذي يسبب الحياة للعباد إلى وسيلة عذاب ونهاية لحياة العباد.

إذن فخلق اللطيف للهواء يكمن فيه الرحمة والعقاب وهذا من دلائل قدرة البارئ على تسخير كل شيء كيفما يشاء.

ثانياً: الماء:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٤٣٩]، فالخالق قد خلق الماء لطفاً بنا وبحاجتنا له، فمنه شربنا ومنبت زرعنا فهو محور الحياة على الأرض، وقد جعل البارئ الأرض مركزاً لا ينضب من المياه لطفاً ورحمةً بعباده، فاستمرار الحياة يبتغي استمرار الماء والهواء.

وبما أن البارئ هو خالق الماء ومنزله من السماء إذن فأمره بيده يمنحه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء بعلمه وحكمته المطلقين.

وقد يجعل الله من الماء الذي يتطلف بحياة الإنسان ويمنحه الاستمرارية في العيش بإذن الله تعالى أن يكون عقاباً رادعاً لمن طغى وتجبر، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ

---

[٤٣٨] القمر ١٨ . ٢٢.

[٤٣٩] الأعراف ٥٧.

إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٤٤٠].

ثالثاً: بتحذيره للبشر:

إن البارئ سبحانه وتعالى لطيفٌ حتى في تحذيره للبشر من عقابه وحسابه، فكما جاء على لسان لقمان في قوله تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[٤٤١]، إذ أن في وسع الخالق أن يجعل من تحذيره وقعاً مرعباً في النفوس، لكنه سبحانه وتعالى انتقى واختار اللطف أحياناً في توجيه التحذير لبني البشر لعلهم يرتدعون.

البارئ هو العليم:

لا يمكن للخلق أن يتحصل على قدرٍ من العلم لم يقدّره الخالق له، فالعلم المحدود من نصيب الإنسان، أما العلم المطلق فهو ملكٌ للبارئ، فعلمه اللامحدود يتضح لنا من قدرته على خلق الخلق ومعرفة ما سيكون عليه حاله مسبقاً، قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٤٤٢]، فالآية الكريمة تدل على أن أمر المعرفة بأمور الخلق تم قبل أن يتم حتى القيام به من قِبَل المخلوق نفسه، وهذا دليل على العلم المطلق الذي يمتزج بعملية الخلق ويترافق معه، مما يجعلنا مدركين ومتيقنين من أن البارئ عز وجل يملك أمر هذا الكون وهذا الخلق بعلمه وقدرته وبوحدانيته.

---

[٤٤٠] هود ٤٠ ـ ٤٤.

[٤٤١] لقمان ١٦.

[٤٤٢] الحديد ٢٢.

ومن المتعارف عليه أن التخطيط لابد أن يكون مدروساً بعلم كي يكون التنفيذ صائباً وصحيحاً، فكيف بالعليم الخبير الذي يملك من قدرة على التدبير والتنفيذ ما لا يحده حد!

إذن فالبارئ هو العليم بما خلق ويخلق، فلا يمكن أن تتم عملية الخلق أو تنفيذها أو حتى مجرد إنشائها بدون علمٍ مطلق، وإلا لكنّا لاحظنا بعض نقاط الضعف هنا وهناك، أو بروز بعض الأخطاء والعيوب والنقائص في عملية الخلق بصفة عامة، ولكن سبحان الله خالق الكون وكل الخلق بلا تعبٍ أو نقص، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}[٤٤٣]، فإذا قلّب الإنسان بصره في هذا الكون وخلقه المحكم أو حتى في نفسه وعظمة خلق البارئ له فإنه بالتأكيد سيدرك أن لهذا الخالق علمٌ لا يحده أي حد وخبرة مطلقة لا تضاهيها أية خبرة.

لذا يجب على خليفة الله أن يكون متصفاً بصفات البارئ عز وجل، فيجعل من علمه نوراً يضيء له ولغيره طريق الحق، فلا سبيل للوصول للحقائق وإقامة الحجج إلا بالعلم المفيد الصحيح الذي منبعه من الإيمان الصادق والثقة بالخالق العظيم الذي يهب لمن طلب العلم الوسيلة لذلك.

فالمجتمع المسلم لابد أن يكون المميز بين المجتمعات الأخرى بما لديه من علمٍ مستقى من الكتاب الكريم، ومن دعوة للأخذ به كسبيل للرقي والحضارة، وقد ترك فينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام أفضل موروث من العلم والمعرفة في أمور ديننا ودنيانا.

البارئ هو المبدع:

الإبداع يكمن في عملية الخلق المتفاوت واشتمال الخالق لكل ما يدور في الكون في وقتٍ واحد، وتنوع المخلوقات، قال تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأنامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ

---

[٤٤٣] لملك ١ . ٤.

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}[٤٤٤]، وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}[٤٤٥]، ففي الآيتين السابقتين إظهار لإبداع الخالق في عملية الخلق، فهو بذلك بريء من التكرار والجمود في التنفيذ والتصوير، فلم يخلق البشر على صورةٍ واحدة ولم يجعلهم بلسان واحد أو لون واحد، بل جعلهم مختلفين في العديد من الأشياء وهذا بحد ذاته إبداعٌ عظيم من خالقٍ عظيم وقد كان ذلك الاختلاف والإبداع لهدف وغاية وليس لمجرد التنويع والتشكيل كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٤٤٦]، ففي الآية الكريمة السابقة يتضح لنا معالم مهمة في خلق البشر وهي:

أولاً: النداء كان للناس ولم يكن للمؤمنين فقط، وهذا توجيه من البارئ عز وجل وتوضيح للبشر أن الخلق جميعاً لله وحده، فهو لم يخص المسلمين بالخلق دون غيرهم بل هو الخالق لكل الناس كافرهم ومسلمهم، فلا برهان للكافر لفكرة أنه ابن الطبيعة أو الصدفة.

ثانياً: يوضح لنا الخالق جل جلاله قانون توالي الأجيال وسبب تزايد البشر، فبعلمه المطلق لم يجعل الله تعالى البشر جميعاً من جنسٍ واحد بل جعل منهم الذكر ومنهم الإناث لغرض التزاوج والإنجاب مما يجعل حياة البشر على الأرض تستمر، وإلا لكانت انتهت الحياة بأسرع ما يكون.

ثالثاً: أن الله تعالى جعل في اختلاف الألسنة والألوان والأشكال آيات للبشر كي يتأملوا إبداعه وخبرته المطلقة في الخلق، ففي قدرة المولى عز وجل أن يجعل من البشر جميعاً لوناً واحداً

---

[٤٤٤] الرحمن ١٠ . ١٥.

[٤٤٥] المؤمنون ١٢ . ١٧.

[٤٤٦] الحجرات ١٣.

أو شكلاً متقارباً لكنه جعلهم مختلفين بهدف أو يجمعهم توحيده عز وجل، ونحن نلاحظ أن هناك من أفريقيا وآسيا وأوروبا من يعتنق الإسلام ويوحد الخالق من غير العرب، على الرغم من تباعدهم واختلافهم إلا أن الإسلام يقرّب بينهم وهذه غاية الله تعالى في ذلك، إذ أنه لم يميّز إنسان عن آخر في الشكل أو اللون لهدف التكبر أو الغرور.

رابعاً: تقرِّر الآية الكريمة مبدأً مهماً من ذكره دائماً فقد نجا من النار، وهذا المبدأ هو الأساس الذي يتم فيه تمييز البشر لدى خالقهم سبحانه وتعالى، فبعد أنه وضّح اختلاف الأشكال والألوان والأجناس فقد أكّد أنه عز وجل لم يجعل من هذا الاختلاف سبباً في قرب العبد منه، بل لا يفرّق الخالق بين عبدٍ وآخر من عباده إلا بما قدّم هذا العبد نفسه في الحياة الدنيا، فالمعادلة واضحة من خلال الآية الكريمة بأنه كلما زادت درجة الطاعة والخوف والخضوع والتقوى في قلب العبد ومعاملته مع خالقه زادت درجة قربه من الله تعالى وارتفعت مكانته عنده عز وجل.

بالتالي فعملية الخلق ليست عملية عبثية لمجرد الخلق فقط، بل هي عملية لهدفٍ وغاية، قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[٤٤٧]، وقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[٤٤٨]، فالبارئ لم يقم بعملية الخلق بدون غايةٍ أو هدف بل كان خلقه قائماً على علمٍ مطلق وخبرةٍ مطلقة بما سيكون عليه حال الخلق، وما سيكون عليه حال الأرض بعد أن يجعلها ميراثاً لعباده المخلصين.

إذن لا نستطيع فصل عملية الخلق عن الإبداع الإلهي المطلق، الأمر الذي لابد وأن يصل بنا إلى وحدانية الخالق البارئ عز وجل، إذ لا يمكن للإنسان المُدْرِك بعقله وبصره أن لا يصل لهذه الحقيقة التي هي أصل النجاح والرقي، فماذا بعد أن ملأ الله الكون بالدلائل والشواهد لك أيها الإنسان ومازلت تُشرك به وكأن من بين من تعرف يستطيع أن يصنع مثل

---

[٤٤٧] القيامة ٣٦ . ٤٠.

[٤٤٨] المؤمنون ١١٥.

ذلك؟ قال تعالى: {إِنَّ اللَّـهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّـهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُوا لِلَّـهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٤٤٩] .

إذن فالبارئ هو المنشئ والمبدع من العدم، وهو الذي يتوحد في كل شيء فلا يشاركه أحد في خلقه وأمره جل جلاله.

فعلى خليفة الله أن يكون مبدعاً في الحياة فلا يرضى بالحياة مغموراً فيها لا يعلم أحد بما لديه من مواهب وقدرات وهبها الله تعالى له، فكل إنسان لابد وأن يكون لديه قدرة معينة أو ميزة تجعل منه إذا استغلها ونمّاها إنساناً مبدعاً، وسبحان الله نلاحظ أحياناً أن الله يجعل من بعض البشر الذين يفتقدون لبعض القدرات الموجودة لدى عامة الناس مبدعين ومميزين، وهذا دليل على أن الإنسان هو طاقة كبيرة لا يجب أن تؤثر فيه حالة نفسية أو جسدية على قدرته على الإبداع، ولابد أن نكون نحن المسلمين أكثر الناس طاقة وقدرة على الإبداع لما لدينا من مخزون وإرادة جبارة على تحدي الصعاب بروح الإيمان والتوكل على الخالق البارئ.

فيا خليفة الله في الأرض تميّز بالإبداع في أي مجال تجد نفسك فيه وثق إذا توكلت على الباري إنك قادر.

ومن الصفات التي يستمدها خليفة الله إذا أدرك المعنى الحقيقي لهذا الاسم الجليل أن يصبح:

---

[٤٤٩] الأنعام ٩٥ ـ ١٠١

١- متوكلاً:

التوكل على الله تعالى لا يأتي إلا إذا وصل الإنسان إلى درجة كبيرة من الطاعة والخضوع لله عز وجل، ولا يوّكل المؤمن أمره إلا للذي يملك القدرة على تدبير الأمور وهذا بحد ذاته يعني أن هذا الإنسان قد منح ثقته الكاملة بخالقه وبارئه، لأنه هو من خلقه وهو أعلم بما يصلح له وما ينفع له، لذلك فإنه يصل لمرحلة حب توكيل البارئ في أمره وهو راضياً مقتنعاً بذلك، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٤٥٠]، وقال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[٤٥١]، فمن الآيتين الكريمتين السابقتين نستطيع أن نلمح مدى عمق إيمان المتوكل على الله تعالى، إذ رافق المولى عز وجل صفة المتوكل عليه مع من يملك خشيته في قلبه وألحق التوكل بمن يؤدي حق الله عليه من واجبات وطاعات، فالتوكل إذن ليس بالأمر الهيِّن الذي يستطيعه أي مسلم، بل هو من ضمن عظائم الأمور التي تكون من نصيب خلفاء الله في الأرض الدائمين ذكره جل جلاله، وكذلك ربط البارئ بين الصبر وهو ذلك الأمر العظيم الذي لا يطيقه كل إنسان لأنه يتطلب من الإيمان والتقوى الشيء الكثير، وفي ربط هذا الأمر العظيم بالتوكل فهذا من شأنه أن يساوي بين الصفتين، فالصبر والتوكل من أساسيات بناء العلاقة الحق بين المؤمن وبارئه، ولا يصل لهذه العلاقة النبيلة إلا خليفة الله، الذي يبحث عن رضا الخالق وحبه.

لذلك فالتوكل على الله تعالى يجعل من العبد أولاً في أمانٍ وطمأنينة، لأن البارئ جل جلاله القادر على تدبير أمر العباد وتسخير الأمور لهم وإيجاد المخرج لهم من كل ضيق، قال تعالى: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ

---

[٤٥٠] الأنفال ٢ . ٤.

[٤٥١] النحل ٤٢.

جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[٤٥٢]، ثانياً التوكل على البارئ يجعل من المؤمن في أمان من وسوسات الشيطان الرجيم، فلا يكون عليه سلطان يتحكم فيه ويضله عن طريق الحق، قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[٤٥٣]، في الآية الكريمة السابقة تأكيد لخروج المؤمن المتوكل على الله من دائرة سيطرة الشيطان الرجيم.

٢- قوياً:

ليست القوة المقصودة هنا هي القوة الجسدية التي قد يتمتع بها بعض الناس، ولكن القوة المقصودة هنا هي القوة المعنوية التي يكون منبعها الإيمان الحقيقي بالله سبحانه وتعالى، هذه القوة التي تجعل من المؤمن سداً قوياً أمام الباطل والفساد، فكل ما نلاقيه في حياتنا الدنيا من مفاسد وشرور يحتاج إلى تحدي وقوة من النفس البشرية الصافية كي لا تضيع في ظلمات الشهوات والملذات التي يزينها الشيطان للبشر، هذا من شأنه أن يجعل من أتباع الشيطان ضعفاء لا يملكون حتى الحجة للدفاع عن أنفسهم أمام الخالق يوم القيامة بعد أن يتبرأ منهم الشيطان، قال تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٤٥٤].

حتى أن البارئ دعا لأن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً قوياً لا يشوبه ضعفٌ أو هوان، وأساس هذا المجتمع القوي هو المسلم القوي ذاته، ولا يكون المسلم قوياً إلا بإيمانه بالبارئ إيماناً خالصاً يجعله يتخلص من كل أنواع الاستسلام لغيره والضعف أمام الباطل والضلال،

---

[٤٥٢] الطلاق ٣.

[٤٥٣] النحل ٩٩.

[٤٥٤] إبراهيم ٢٢،٢١.

فقوة المؤمن يستمدها من خالقه العظيم الذي يكفيه حاجته ومبتغاه فلا يطلبها من أحدٍ غيره، ولا يسعى لغير بارئه عز وجل.

بذلك يمنح البارئ القوة لمن لجأ إليه وطلب عونه، وخليفة الله لا يمكن أن نجده بين الضعفاء والعاجزين، بل سنجده في مقدمة الأقوياء الذين يواجهون أشد المواقف وأصعب الأمور يدعمهم إيمانهم ويقويهم ثقتهم بالبارئ التي لا حد لها، وقد كانت لنا في الرسل والأنبياء القدوة الحسنة لثباتهم وقوتهم وإيمانهم وثقتهم بالله سبحانه وتعالى، فما من إنسان لاقى في حياته كما لاقوا في سبيل تبليغ رسالة الله للبشر وبالرغم من ذلك لم يضعفوا أو يهنوا.

٣- مستسلماً لله تعالى:

إذا توكل المؤمن على الخالق توكلا كاملاً أصبح لديه من القوة ما تكفيه لمواجهة كل المفاسد والشرور، ولا يصل المؤمن لذلك إلا بالاستسلام الكامل للخالق والخضوع المستحب له عز وجل، لأن من شأن الاستسلام للخالق أن يجعل من حياة المؤمن مليئة بالطمأنينة والسلام، فلا يقضي حياته حسرةً وندم على ما لم يستطع الحصول عليه.

وفي الاستسلام للبارئ اعتراف حقيقي وعملي بأنه الخالق البارئ القادر على كل شيء، لأن الإنسان لا يسلّم أمره إلا لمن هو وكيله، قال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[٤٥٥]، والوكيل دائما هو من يملك الخبرة والحكمة والمقدرة والسلطة، وبذلك فإن استسلام المؤمن لله تعالى يحمل معنى رضاه بالقضاء والقدر، فلا يتذمر ولا يضيق ذرعاً بمصيبةٍ حلت به، أم بمشكلة كبيرة طال حلّها، بل يسعى بكل جهدٍ لإيجاد الحلول وهو مستسلم في الوقت نفسه ومتيقن بأن الله معه وبيده مفاتيح الحلول جميعاً.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون مستسلماً للخالق عز وجل، راضياً بما كتبه عليه البارئ وقدّره له في الحياة الدنيا، متأكداً بأنه جل جلاله لا يريد بعبده المؤمن إلا الخير والصلاح، عَنْ عَبْدِ

---

[٤٥٥] آل عمران ١٧٢، ١٧٣.

الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[٤٥٦]، ففي حديث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– دعوة لكل مؤمن صادق الإيمان بالاستسلام للبارئ سبحانه وتعالى لأنه لا يريد بعبده المؤمن إلا كل خير حتى وإن لم يكن هذا الخير واضحاً للإنسان في حينه، لكن من المجدي أن يكون لدى المؤمن هذه القدرة على الخضوع وحب الاستسلام للبارئ عز وجل.

ولابد لخليفة الله أن يدرك أنه لا سبيل للوصول لرضا الخالق إلا بالعمل الصالح، لأن نتيجة الإيمان الحقيقي هو العمل الصالح الذي لا يصدر إلا ممن كان قلبه خاشعاً للبارئ، وهذا ما يحتاجه كل مؤمن لكي يسيطر على الشهوات والرغبات داخل نفسه التي قد تقوى أحياناً على الإنسان فتفقده درجة من درجات الإيمان، إذ أن إيمان الإنسان بخالقه لابد أن تزيد على حبه للشهوات والرغبات التي خُلْقت داخلنا، والذي يحسم النتيجة النهائية لانتصار إحداها على الأخرى هو إعمال عقلنا في تبيّن طريق الحق والسيطرة على هذه الشهوات التي من شأنها أن تسير بالإنسان نحو الجحيم وبئس المصير.

ونلاحظ أن جميع الرسل والأنبياء قد غلّبهم الله تعالى على شهواتهم، إذ أن البارئ عز وجل امتدح رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بالأخلاق الحميدة في قوله جل جلاله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٤٥٧]، وبما أن رسولنا الكريم هو الأسوة الحسنة لنا فلابد أن نسير على نهجه لكي نفلح، ويكتبنا الخالق مع أولئك الذين فلحوا في الدنيا والآخرة، كما جاء في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[٤٥٨]، فخالق الخلق لا يرضى للمؤمن إلا الجنة ولا يحب عذاب البشر بل يريد لهم النجاة من النار، لذلك فقد وجّه دعوته للعقل البشري وإعماله لصالح الإنسان إذا صح استعماله.

---

[٤٥٦] صحيح مسلم ، ج ١٤، ص ١٨٠.

[٤٥٧] القلم ٤.

[٤٥٨] النازعات ٤٠، ٤١.

ألا يستحق أن نعبد هذا الخالق الجليل؟ ألا يستحق أن نوّحد هذا البارئ العظيم؟.
يجب علينا الإيمان به وبوحدانيته وقدرته على كل شيء، وأن نصل إلى درجة من التسليم بأن حياتنا ملكاً له يسيّرها كيفما يشاء لأنه الخالق والمالك لها، فلا يتذمر من نقص مالٍ أو ولدٍ أو يشكي من مسألة أصابته لا يجد لها حلاً، بل عليه أن يتجه بيقين إلى خالقه لعلمه الأكيد بأنه القادر على أمره والذي يفعل ما يريد فيغير الحال إذا أراد إلى حال أخرى في طرفة عين أو أقل.
ومن الملاحظ أن الخالق سبحانه وتعالى قد جعل بعض الأشياء في الآخرة مبرأة منها في الحياة الدنيا ومن هذه الأشياء الآتي:
١ - الخمر:
من البديهي والمتعارف عليه أن الخمر من المشروبات الكحولية التي تتوفر في بعض الأماكن وقد لا يستغني عنها بعض البشر في شتى بقاع الأرض، وشربها لا يقتصر على الكفرة والعصاة فقط، بل أننا نجد أن الكثير من المسلمين يتناولونها بشكل دائم وكبير.
ونجد أن الخمر مشروب من مشروبات الجنة، يتناولها أهل الجنة وهم مقيمون فيها، ولكن هل خمر الدنيوية هو نفس الخمر في الجنة؟.
بالطبع ليست الخمر في المكانين واحدة، إذ أن الخمر في الحياة الدنيا تذهب بالعقول وتخمر التفكير وتضيّع الرشد، فلا يدري شاربها ما الذي حل به بعد شربه لعدة كؤوس منها، فلا يتورع عن فعل أي شيء لغياب عقله من تأثير هذه الكحول عليه، إذ أنها تذهب بعقله وبرشده، فلا يستطيع معرفة ما أقدم عليه إلا بعد فوات الأوان، كذلك من الممكن أن يكون لتأثيرها الجسدي الضرر الكبير إذ أنها تجعل من شاربها يتقيأ ما في جوفه، وهذا دليل على تأثيرها السلبي على معدته.
أما الخمر التي توجد في الجنة كمكافأة للصالحين المتقين فهي مبرأة من الخمر التي في الأرض، قال تعالى: {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}[٤٥٩]، أي أن من شأن هذه

---

[٤٥٩] الطور ٢٣.

الخمر أن تُبقي العقل الإنساني على ما هو عليه، فلا تأثير سلبي عليه من جرّاء شربه لها، بل هي مشروب يمتّعهم دون أن يغيّب عقولهم، ولا يجعلهم يتقيئون من آثار شربه.

فالخمر في الجنة إذن من الأمور المبرأة منها في الدنيا، إذ لا تتكرر في الدارين، بل تختلف عنها في الصفات والمزايا.

٢- الحياة:

الحياة التي سنحياها في الآخرة غير التي عشناها في الدنيا، إذ أن حياتنا في الدنيا محدودة بأجل لا يستطيع أي مخلوق أن يهرب من نهاية أجله الذي قدّره الله له، قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أجل مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٦٠]، وقال تعالى أيضاً: {مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أجل اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٤٦١]، فالخالق للنفس البشرية الذي لا شريك له جعل من الحياة محدودة بكتاب لكل إنسان، فلا يمكن أن تدوم حياة أي إنسان على وجه الأرض مهما وصلت درجة قربه من البارئ، قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}[٤٦٢]، فالموت إذن خُلق مع حياة الإنسان على الأرض، لا يمكن أن يكون لأي مخلوق على الأرض نصيب من أحدهما دون الآخر، فلكل إنسان نصيب من العمر كتبه الله له، وكذلك له أجل لابد وأن يلاقيه في ساعة محددة لا يعلمها إلا الخالق البارئ، قال تعالى: قال تعالى في كتابه الكريم: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أجل مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

[٤٦٠] هود ٣، ٤.

[٤٦١] العنكبوت ٥.

[٤٦٢] آل عمران ١٤٤، ١٤٥.

يَتَفَكَّرُونَ}[463]، فبذلك تكون الحياة الدنيا محدودة بأجل أي أنها تنتهي عند حد معين قدّره الله تعالى على كل مخلوق.

أما الحياة في الآخرة في مبرأة من الانتهاء لأنها حياة باقية لا تنتهي فهي دار الخلد، سواء كان ذلك في الجنة أو في النار، فالبشر سيقسمون يوم الحساب لقسمين إما أن يكون لهم الخلود في الجحيم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[464]، وإما أن يكون نصيبهم دار الخلد في الجنة، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[465]، وهذا الخلود في أحد الدارين إنما يحدده عمل الإنسان في الحياة الدنيا، فميزان أعماله هو الفيصل الذي سيفصل بين مكان تخليده يوم الدين.

لذلك فإن الحياة في الدارين تختلف عن بعضها البعض، فالحياة الأولى للفناء، والحياة الأخرى للبقاء والدوام، وقد بيّن لنا الخالق الفرق بين الدارين وأيهما هي الأبقى في قوله عز وجل: {وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[466]، فهذا نصحٌ لأصحاب العقول الرشيدة التي تخشى البارئ لها فلا تغتر بالحياة الدنيا الفانية بل ترنو إلى الآخرة فتشتري الحياة الدنيا بالآخرة.

٣- العسل:

فالعسل معروف لدينا أنه شرابٌ مفيد نستخلصه من النحل الذي جعله الله تعالى شفاءً للناس ومنافع، وهذا العسل أحياناً يتعذر الحصول عليه بسهولة، بل يتطلب الجهد والوقت الكبيرين

[463] الزمر ٤٢.

[464] البقرة ١٦١، ١٦٢.

[465] آل عمران ١٣٣ . ١٣٦.

[466] الأعلى ١٧.

لذلك، والأصعب من ذلك هو الحصول عليه صافي ونقي من بين الجبال والأشجار، إذ يتعسر أحياناً كثيرة في الحصول على العسل النقي.

وهناك نوعٌ آخر من العسل موجود في مكانٍ آخر، وهو يختلف عن العسل الموجود على الأرض، وهذا العسل هو الموجود في جنان الخلد يُقَدَم للصالحين الذين أثابهم الله بتحقيق ما سعوا إليه في الحياة الدنيا، فما كان من الخالق إلا أن جعل الجنة تحقيقاً لكل ما يشتهون ومن ضمن ذلك العسل الصافي، قال تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ}[٤٦٧]، فالعسل في دار الخلد مبرأ من العسل الدنيوي في أنه دائم الصفاء والنقاء لا يأتي لهم محتاجاً للتنقية أو التصفية بل يأتي خالصاً من كل الشوائب، بل يتحصلون عليه بيسر وسهولة دون عناءٍ أو مشقة.

٤ . اللبن:

اللبن شراب معروفٌ لدينا ومعروفٌ فائدته لجسم الإنسان، كما إن الإنسان يستلذ بمذاقه اللذيذ الذي يميّزه عن باقي أنواع الشراب، وهذا اللبن الدنيوي دائماً يكون بحاجة إلى طريقة حفظٍ جيدة كي لا يفسد، فمن المعروف أن اللبن من المشروبات القابلة للفساد وتغيير الطعم والرائحة مع طول المدة أو إذا خالطه ماء كما يحدث في بعض حالات غش اللبن بالماء.

لذلك فاللبن في حياتنا الدنيا لا نستطيع أن نحتفظ به كما نشاء ونجده وقتما نطلبه طازجاً لذيذاً، لأن هناك من العوامل البيئية ما تحول دون ذلك.

واللبن أيضاً من ضمن الشراب الذي يُقدم في الجنة للمؤمنين المحسنين كمكافأة لهم على طاعتهم وإخلاصهم في العبادة، ولكن اللبن الذي يوجد في الدار الآخرة مبرأ من اللبن الدنيوي، إذ أنه سالم دائماً من تغيير اللون والطعم، فلا يلحقه الفساد والتلوث بل يبقى صافياً متجدد دائماً، قال تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ}[٤٦٨]

---

[٤٦٧] محمد ١٥.

[٤٦٨] محمد ١٥.

فبذلك يكون اللبن من ضمن الأمور التي نجد لها مثيلاً في الحياة الدنيا ولكن مع اختلاف الصفات والمزايا، فالخالق قد خص أهل الجنة بما لذ وطاب من طعام وشراب بعد أن جعل منه خالصاً من كل مفسدة، فأصبح صالحاً لا يشتهيه المؤمن إلا ويجده حاضراً أمامه، بكل يسر وسهولة .

٥ . الغلمان:

لا نجد سلطاناً أو والياً يخلو بلاطه من الغلمان والخدم، يقومون بتنفيذ أوامر الأسياد ويطيعونهم وينفذون رغباتهم، بالطبع على قدر المستطاع، والغلمان في الحياة الدنيا هم بشرٌ مثلنا يأكلون ويشربون وينامون ويفرحون ويغضبون، أي أنهم قابلون للتغيير والتبديل في شكلهم الخارجي والداخلي، إذ أنهم يخضعون لقوانين الطبيعة التي وضعها البارئ سبحانه وتعالى، إذ أنه من المستحيل وفقاً لهذه القوانين أن يثبت شباب الإنسان ويدوم، وأن يظل في عالم الطفولة طوال العمر ، فمراحل العمر البشرية مرتبة كما أرادها الخالق عز وجل، فيبدأ الإنسان طفلاً ثم يمر بمرحلة الشباب فيصل أخيراً إلى الكهولة، وهذه المراحل المتدرجة في العمر لا يفر منها غني أو فقير مسلم أو كافر فالناس سواء فيها لا يمكن لأحد أن يغير فيها شيئاً، وبذلك فإن للغلمان أيضاً عمراً محدوداً لفترة الريعان والفتوة والقوة، لا تمتد إلا لبضع سنوات ويبدأ بعدها الشيخوخة بالسعي إليهم فلا يقدرون على الخدمة كما كانوا يفعلون.

أما غلمان أهل الجنة الذين يقومون على خدمة أهل الجنة فإنهم يختلفون عنهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}[٤٦٩]، ففي وصف الآية الكريمة للغلمان في جنان الخلد نخرج بالتالي:

أ – أن الغلمان لا يأتون حسب الحاجة فقط بل إنهم دائمي الطواف بينهم لعل لأحدهم طلباً فلا يكلف نفسه عناء النداء بل يجدهم أمام ناظريه في وقتٍ شاء، فهم مكلفون من الخالق البارئ لخدمة هؤلاء المخلصين الذين استحقوا كل هذا النعيم بما قدموه من أعمال في الحياة الدنيا.

---

[٤٦٩] الطور ٢٤.

ب – العمر الذي يكون عليه الغلمان هو أوج الصبا والقوة إذ أنهم مبرئون من العجز أو التقدم في السن، لأن دوام الشباب والفتوة لا يكون إلا لهم وهي ميزة ميزهم الخالق بها كي يكونوا في أعلى درجات القوة والجمال.

ج _ هؤلاء الغلمان ليس من بينهم من هو ذميم الخلقة أو قبيح المعشر، بل يتصفون جميعهم بالجمال الذي وهبه الله تعالى لهم، بوصفه لهم كاللؤلؤ الذي ما يزال مخبوءاً في أصدافه، يبقى خيره فيه ونستطيع الاستفادة منه في كل شيء، مع احتفاظه بخواصه.

نوع الخطاب بين أهل الجنة

يتنوع أسلوب الكلام والتخاطب بين البشر على وجه الأرض، فهناك من هو جاهل بكيفية التخاطب،وهناك العالم بالمنطق الحسن للكلام، وهناك من يتعمد أذية غيره وجرح مشاعره بكلمات جارحة، كما نجد بعض البشر لا يتوصلون لطريقة التفاهم مع بعضهم البعض بسبب اختلاف اللغات، فذلك التنوع في أسلوب الخطاب لا يمكن أن نجده بين أهل الجنة الذين لا يسمعون فيها إلا طيب الكلام وأحلى العبارات، وكيف لا وهم الذين انتقاهم الخالق من بين خلقه ليكرمهم بالجنة الخالدة إكراماً لهم على حبهم له وإخلاصه في طاعته؟

كما جاء في قوله الكريم : {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}[٤٧٠]، وقوله تعالى أيضاً: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[٤٧١]

إذن فقد جعل الخالق سبحانه وتعالى الجنة وما فيها مبرأة من الدنيويات وإن كان فيهما بعض الأشياء المتشابهة مع اختلاف الميزات والخواص، فكل ما على الدنيا قابلٌ للفساد والانتهاء والتغيير، أما ما في الجنة فهو دائم لا يتغير ولا يتبدل فيكون على أحسن صورة.

لذلك فعلى خليفة الله أن يرنو بنظره نحو الخير الأبدي الكبير الذي ادخره البارئ لعباده المتقين، الذين استحقوا أن يرثوا الأرض كما أراد الله، فلا ينخدعوا بما في الحياة الدنيا من

---

[٤٧٠] مريم ٦٢، ٦٣.

[٤٧١] الواقعة ٢٥، ٢٦.

زينة زائلة ذات عمرٍ قصير، بل يسعون نحو الأفضل والأبقى والأشهى، قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}[٤٧٢].

اللهم يا البارئ الخلق برئنا فلا براءة بعد براءتك ولا فضل إلا فضلك فبرئنا اللهم بفضلك عن الشرك بك وبرئنا من عبادة غيرك بهدايتك لتوحيدك والانصياع لك عن طيب خاطر.

اللهم برئنا من الظلم بإلهامنا العدل، ومن الخطايا والسيئات بإرشادنا إلى الطاعات. كما نسألك اللهم أن تبرئنا من الإفساد في الأرض بالأفعال والأقوال لنستحق بذلك رضوانك ونكون خلفاؤك في الأرض.

اللهم برئنا من سخطك وعقابك بعفوك ورضاك، وبرئ عقولنا من نسيانك والتلهي عنك بما سواك، وبرئ قلوبنا وألسنتنا عن الانشغال بغيرك، اللهم برئنا من الكذب والإساءة لرسلك، وبرئ المسيئين إليهم من نعيمك ورحمتك واجعل النار مستقرهم الأخير، اللهم برئنا من المرض والهم والغم والفقر والحاجة والبلاء وبرئنا من الهموم والدنس بلطفك ورحمتك أنت الرحمن سبحانك جل جلالك. اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد كما صليت وسلمت على سيدنا إبراهيم.

---

[٤٧٢] القصص ٦٠، ٦١.

المصوِّر

المصوِّر اسم من أسماء الله الحسنى مالك الملك بيده مقاليد الأمر، إنه الله سبحانه وتعالى القادر على الخلق والبريء. قال عزَّ وجل: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤٧٣].

في لسان العرب المحيط المصوِّر هو "الذي صوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وهيئتها"[٤٧٤].

المصوِّر المطلق هو الذي يصوِّر ما يشاء كيف يشاء متى ما يشاء، إنه المصوِّر بالأمر لا ببذل الجهد (كن فيكون). أمَّا المصور بالإضافة فهو المصوّر ببذل الجهد وتصبب العرق وبالكد والاجتهاد.

---

[٤٧٣] الحشر ،٢٤.

[٤٧٤] لسان العرب المحيط، مصدر سابق، ج رقم ٢، ص ٤٩١.

قال ابن الأثير: "الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته"[٤٧٥].

وقال الخطابي: "المصور هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها"[٤٧٦].

وقال الشيخ حافظ الحكمي: "المصور الممثل للمخلوقات بالعلامات التي تميز بعضها عن بعض أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يُريدها"[٤٧٧].

وقال أبو حامد الغزالي: "الله تعالى خالق من حيث إنه مقدَّر، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب ومثاله الإنسان وهو أحد مخلوقاته"[٤٧٨].

المصور المطلق هو الذي يمتلك المقدرة على الخلق والبرء، فيصور ما يشاء كيف يشاء، ليظهر مقدرته على التصوير مما يخلق ويبرئ. ولذا فهو فاعل الشيء ومخرجه للعيان على الهيئة والحركة مع الإمداد بالمقدرة التي تميزه عما يصورون.

وفي الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني ربي وأنا في أحسن صورة"[٤٧٩]. وفي هذا القول الصورة لا تقتصر على المظهر بل تمتد لتحتوي النُضج والاستعداد المُمكّن من حمْل الأمانة والتبشير بها والدعاية والهداية إليها مع البلاغ والتحريض والإنذار.

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٤٨٠]. تدل هذه الآية على أسبقية الأرض والسماء على خلق الإنسان وتصويره بالشكل والهيئة التي أظهره المصور جل جلاله عليها.

---

[٤٧٥] المصدر السابق، ص ٤٩٢.

[٤٧٦] عمر سليمان عبد الله، أسماء الله الحسنى الهداية إلى الله والمعرفة به، عمّان ، دار النفائس، ٢٠٠٤، ص ٨٧.

[٤٧٧] المرجع السابق، ص ٨٧.

[٤٧٨] يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنى، ص ٤٤.

[٤٧٩] سنن الترمذي، ج ١٢، ص ٤٧.

[٤٨٠] غافر، ٦٤.

والحُسن هو الجمال والروعة في الهيئة والمظهر اللذين صُوِّر الإنسان عليهما كلما قورن بغيره من المخلوقات الأخرى مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[481].

في أحسن تقويم تعني أنه المتوَّج على ما خلق الخالق وبرأ وصوَّر، أي أنه على رأسها جميعا، ولهذا سجدت له الملائكة ومن آمن بأمر الله تعالى، قال عز وجل: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}[482].

لا أدري ما العيب الذي ظهر لإبليس في الطين، الم يكن إبليس عاجزا عن أنباء الأسماء التي عُرضت مسمياتها على الملائكة وعجزت عن معرفتها والأنباء بها، في هذه الآية الكريمة الله لم يعرض الأسماء على آدم، بل عرض عليه المسميات بجميع أنواعها وألوانها وأحجامها وصورها التي برأها الله عليها. وتمكَّن آدم بعلم من الله تعالى من إنبائهم بها مصداقا لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[483].

ولذا لو لم يُخلق الإنسان في أحسن تقويم ما استطاع الأنباء بما عجزت بقية المخلوقات الأخرى عن معرفته وبما فهم الملائكة. ولو لم يكن الإنسان كذلك ما كان الرُسُل منه والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، والذين من بينهم سليمان عليه الصلاة والسلام الذي يتحكم في أمر الجن بكامله إي بجميع أجناسه وصفاته، قال تعالى: {فلمَّا قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلمَّا خرَّ تبيَّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب

---

[481] التين، ٤.

[482] الأعراف، ١١ ـ ١٥.

[483] البقرة، ٣١ ـ ٣٣.

ما لبثوا في العذاب المهين}[٤٨٤] أي لمَّا قُضي بالموت على سليمان صلى الله عليه وسلم المتحكم في أمر الجن، فالجن لم يعلم بأمر موت سليمان صلى الله عليه وسلم إلى أن جاءت دابة الأرض (الأرضة) ونخرت عكازه حتى خرَّ على الأرض حينها تبين للجن أن سليمان قد مات، وفي هذا الأمر آية على أن الإنسان هو الأفضل في المعرفة والإدراك والاستنباط والاستقراء. ولو كانت الشياطين العاصية تعلم لعلمت بأمر الموت قبل وصوله وتنفيذه، ولو كانت تُدرك كما يُدرك الإنسان لعرفت أنَّ سليمان قد مات وهو متكئ على منسأته.

سليمان المخلوق من الطين صلوات الله وسلامه عليه يتحكم بقوة وُهِبتْ له من الله تعالى في أمر الجن المخلوق من النار. ومحمد صلى الله عليه وسلم قد جاء بالرسالة الخاتمة للأنس والجن، ولذلك كان المؤمنون والكفرة من الثقلين، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[٤٨٥] وقد كان أيضا الشياطين من الثقلين مصداقا لقوله تعالى: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن}[٤٨٦] اللهمَّ أعوذ بك يا الله من شياطين الإنس والجن، وأعوذ بكلماتك التامة من شر ما خلق. اللهمَّ أني أفوض أمري وأسرتي وما أملك إليك فتقبل مني سبحانك لا إله إلا أنت وليي.

قال تعالى: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تُسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور}[٤٨٧].

المصير تعني الحالة التي سيكون عليها من خُلق في أحسن صورة، الصورة التي لها ما تُسِرُ وتُعلن ما في الصدور. وقبل ذلك قال (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) أي ليس كل من خُلق في أحسن تقويم يكون مصيره حسنا ومناسبا للصورة التي يُراد لها أن تبقى على أحسن تقويم،

---

[٤٨٤] سبأ، ١٤.

[٤٨٥] الذاريات، ٥٦.

[٤٨٦] الأنعام، ١١٢.

[٤٨٧] التغابن، ٣ ، ٤.

وذلك بأسباب كفر البعض وإيمان البعض الآخر. فالصورة هي الانطباع الذي يؤخذ على الإنسان بأعماله وسلوكه ذكرا كان أم أنثى. ولذلك لقد خلق الله الإنسان في حُسن المضمون والصورة، واستخلف منه من استمسك بالعروة الوثقى مصداقا لقوله تعالى: {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إنَّ الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذابا غليظ}[٤٨٨] والعروة الوثقى هي الإيمان الذي يجعله خليفة في الأرض ويُمكِّنه من بلوغ الجنة.

المصوِّر كما جاء في قول ألحليمي: "المهيئ لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف"[٤٨٩].

وقال الخطابي: المصور هو "الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها، وقال: التصوير هو التخطيط والتشكيل"[٤٩٠].

والقرطبي قال: "المصوِّر مُركِّب الصور على هيئات مختلفة فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما"[٤٩١].

وقد يتساءل البعض: لماذا خُلق الإنسان في أحسن صورة وتقويم؟.

١ . لكي لا يُشرك بمن صوره في أحسن تقويم وليدرك الحق ويكون عليه: وليميز بين السليم والمعوج ويتقي ربَّه في حركته وسكونه، ولا يظلم احد. قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[٤٩٢].

٢ . ليتعرَّف على آياته العظام: ويُدرك خالقه ويؤمن عن بينة ويقين إنَّ لله في خلقه شؤون، فلا يغفل حتى يتبين ويؤمن بأن ما صوره الله من ورائه أسرار فعليه بمعرفتها حتى يتعرف

---

[٤٨٨] لقمان، ٢٢ . ٢٤.

[٤٨٩] ابن القيم الجوزية، الجامع لأسماء الله الحسنى. مصدر سابق، ص ٢٦٤.

[٤٩٠] المصدر السابق، ص ٢٦٤.

[٤٩١] المصدر السابق، ص ٢٦٥.

[٤٩٢] آل عمران، ٦٤.

على قدرة خالقه وعظمته قال تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سُطحت فذكر إنما أنت مُذكر} وقوله تعالى: {أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يُبصرون}[٤٩٣].

٣ . لحمْل الأمانة: مع أنَّ قدرات المخلوق محدودة جدا ولا تقارن مع قدرة الخالق تعالى، إلا أنَّ بمقارنتها مع قدرات المخلوقات الأخرى يتميز العقل الإنساني بالمقدرة النسبية التي تُمكِّنه من حمْل الأمانة إذا دخل الإيمان في قلبه. قال تعالى: {إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}[٤٩٤] وقال جل جلاله: {والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون}[٤٩٥].

٤ . ليكوِّن القدوة الحسنة ويقتدي بسلوكها: فالقدوة الحسنة هي المثال الأخلاقي في القول والفعل والسلوك التي تنال الإجماع في صدقها وحمْلها للأمانة وإخلاصها فيما تعمل أو تفعل، فهي التي تخشى الله وتعدل إذا حكمت بين الناس، وإذا شهدت أظهرت الحق مع الحقيقة وهي التي تتذكر لتأخذ العبر، وتتفكر لتدرك عن بينة. قال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لِمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثير}[٤٩٦] وقال تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده}[٤٩٧].

٥ . ليحافظ على صورته باتزان: فلا يقدم على شيء من شأنه أن يشوه الصورة التي صوره الله عليها، ويريده أن يظل عليها مما يجعل في كلِمهِ حُسنا، وفي أعماله حُسنا، وفي تفكيره وتقديره حُسنا قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن

---

[٤٩٣] السجدة، ٢٧.

[٤٩٤] الأحزاب، ٧٢.

[٤٩٥] المؤمنون، ٨.

[٤٩٦] الأحزاب، ٢١.

[٤٩٧] الممتحنة، ٤

يتق الله يُكفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجرا}[٤٩٨] وقوله جل جلاله {يا أيها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم الذي خلقك فسوَّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإنَّ عليكم لحافظين كِراما كاتبين يعلمون ما تفعلون إنَّ الأبرار لفي نعيم وإنَّ الفجَّار لفي جحيم}[٤٩٩].

٦ . ليتعلَّم ويُعلِّم: ليتعلم من علم الله ويُعلِمَ به من يجهله حتى تعم البينة والمعرفة الواسعة التي بها يتمكن الإنسان من أن يكون خليفة لله في الأرض قال تعالى: {الرحمن علَّم القرآن خلق الإنسان علَّمه البيان}[٥٠٠] وقال تعالى: {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربي زدني علما}[٥٠١].

٧ . ليُمارس ما يجب ويمتنع عما لا يجب: قال جل جلاله: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٥٠٢] كل ما خلق المصور على الأرض من حيوانات وطيور وأسماك ونباتات وبحار ومحيطات وجماد هو من أجل أن تُفتح الفرص أمام الإنسان لأن يعمل وفقا لقدراته واستعداداته ما يستطيع أن يقوم به من أعمال صالحة ونافعة ومفيدة. وجاءت في هذه الآية كلمة (الزينة) للإغراء الجمالي الذي يستفز الأنفس ويثيرها لأن تعمل ولا تفسد الزينة والجمال الذي خلقه الله جل جلاله في طبيعة ما خلق. وقال تعالى: {قل يا قومي أعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يُفلح الظالمون}[٥٠٣].

٨ . ليُستخلف في الأرض: قال تعالى: {هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا}[٥٠٤] أي لو لم يكن هو عز وجل ما كنَّا نحن بني الإنسان، وما كان لنا الاختصاص بالاستخلاف في

---

[٤٩٨] الطلاق، ٤ ،٥ .

[٤٩٩] الانفطار، ٦ . ١٣.

[٥٠٠] الرحمن، ١ . ٤.

[٥٠١] طه، ١١٤.

[٥٠٢] الكهف، ٧.

[٥٠٣] الأنعام، ١٣٥.

[٥٠٤] فاطر، ٣٩.

الأرض، ومع ذلك فقد كفر البعض منَّا فكان كفرهم عليهم حرمانا من الاستخلاف الذي به ينعم الإنسان في الدارين. قال تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}[٥٠٥].

٩ . ليتنعَّم بالجنة: أي أن الحياة الدنيا لم تكن هي الغاية بل الغاية تكمن من ورائها فمن عمل عملا صالحا في الدار الدنيا فقد فاز بالمترتب عليها وهو دخول الجنة. قال تعالى: {يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين}[٥٠٦]. وقال عز وجل: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدنٍ يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون}[٥٠٧] وقال تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة}[٥٠٨].

يقول ابن منظور في لسان العرب: "المصور هو الله الذي صور جميع المخلوقات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها"[٥٠٩].

وقال ابن الأثير: "الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته حيث يقال: صورة الفعل هيئته وصورة الأمر صفته"[٥١٠]. ولذا فإن الصورة هيئة الشيء، والمصور هو مهيأ الشيء ومُظهره من الكمون إلى المشاهدة ومن الغموض إلى الوضوح الذي به يتميز عن غيره من المخلوقات وذلك باتخاذه للصفة التي تجعل من البشر

---

[٥٠٥] البقرة، ٣٠.

[٥٠٦] الصف، ١٢، ١٣.

[٥٠٧] النحل، ٣٠ . ٣٢.

[٥٠٨] البقرة، ٨٢.

[٥٠٩] لسان العرب المحيط، ج ٤، ص ٤٧٣.

[٥١٠] المصدر السابق، ص ٤٥١.

بشرا، ومن الطير طيرا، ومن الجماد جمادا، ومن الحيوان حيوانا ومن النبات نباتا، ومن كل الكائنات كائنا.

المصور المطلق هو الذي يصور كل شيء كما يشاء هو، والمصور بالإضافة هو الذي يصور ما يشاء مما صوره الله تعالى. ولذا فإن المصور المطلق إبداعي، والمصور بالإضافة إتباعي فإن آمن أدرك بأنه لا يصور إلا ما صوره المصور الحق جل جلاله، وإن لم يؤمن ظنَّ بأنه يصور ما لم يصوره المصور الحق تعالى، وفي هذا الأمر يسيطر الخيال على إخفاء الحقيقة. أمَّا خيال المؤمن فهو الذي يراد له أن يمتد من الصورة التي صورها المصور والروح فيها، إلى معرفة الأسرار التي تكمن من ورائها، حتى يُدرك الحق فيما صوره الله تعالى ليعمل على إظهاره فيما يصور.

التصوير بالنسبة للمصور خَلْقي، أي من لا شيء يُصوِّر الشيء، ومن الشيء يصور جل جلاله الأشياء. قال تعالى: {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم}[511]. وقوله تعالى: {تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون}[512].

والتصوير بالنسبة للمخلوق صناعي أي أنه يصور من الأشياء التي صورها المصور الحق أشياء ذات أشكال متعلقة بالطبيعة التي صورها الله تعالى، ومنها يُستنبط ما يرشد العقل إلى الهداية للحق. ولذا فالخَلقي قاعدي عليه تؤسس المعارف المشاهدة والمعارف المجردة، والتصويري ترتبي، أي أنه اللاحق للسابق. ولهذا كانت من صفاته تعالى (الخالق البارئ المصور) فهو الذي يخلق أولا، ثم ثانيا يُبرئ ما خلق، ثم ثالثا يصور ما برأ. وهكذا بالنسبة للمصور بالإضافة فهو الذي يستخلص المادة المناسبة من المادة المطلقة، ثم يخلطها بما يناسب الشيء المستهدف بالخلق، ثم يشكله في الصورة المناسبة له.

---

٥١١ آل عمران، ٦.

٥١٢ الفرقان، ١ ـ ٣.

المصور جل جلاله هو "الذي أنشأ خلقه على صورٍ مختلفة ليتعارفوا بها وليميز بعضها عن بعضٍ، فالخلق كله لا يشبه بعضه بعضا"[٥١٣].

المصور هو المميز بين ما خلق وبرأ بالهيئة والصفة، ليجعل لكل ما خلق خصائص مبرءون عليها دون لبس أو غموض لكل ما خلق وسيخلق سبحانه لا إله إلا هو. فالمصور هو المميز لِما خلق من حيث المظهر والشكل والهيئة، فبالصورة يكتمل الخلق ويُبرئ ويتميز بالخاصية التي أراده الله أن يكون عليها. قال تعالى: {يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}[٥١٤]. في أي صورة ما شاء ركبك، تدل على عدم التطابق لِما صوره عز وجل، ولهذا جعل للمخلوقات هيئاتها وصفاتها وجعل للمفردة الواحدة منها خاصية تتميز بها عن غيرها، فالبشر هم البشر يختلفون في هيئتهم وصفتهم عن هيئات الطير والحيوان، وكل مفردة من البشر لا يمكن أن تتطابق مع مفردة أخرى حتى ولو كانتا توأماً، ولذلك يمكن أن تتوحد المشاعر والأحاسيس والأشواق والآمال والأماني ولكن لا يمكن أن تتطابق، وفي هذه الحالة بالتمام كما هو حال البصمة التي خلقها الله وبرءها وصورها لبني الإنسان ولم يخلق لها تطابق سبحانه لا إله إلا هو الخالق البارئ المصور.

ومع أن الأشياء تتعدد والصور كذلك، إلا أن المصور الحق عز وجل واحد لا يتعدد، أما المصور بالإضافة فهو الكم العددي من البشر الذي صوره المصور الحق جل جلاله.

وبما أنَّ الله صورنا فأحسن صورنا، فكيف يظن البعض بأن الإنسان حيوان؟.

وكيف يعتقدون في ذلك والله يقول: {ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[٥١٥]؟.

وكيف يغتر البعض والله تعالى يقول {يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}[٥١٦]؟.

---

[٥١٣] أحمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها. الدار البيضاء. دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص ٥٩.

[٥١٤] الانفطار، ٧.

[٥١٥] التين، ٤.

[٥١٦] الانفطار، ٧.

يقول داروين والتابعين له فيما يقول، إن أصل الإنسان حيوان ثم تطوَّر من حيث الصورة الحيوانية التي خُلق عليها إلى الشكل الآدمي الذي نحن عليه، ويُرجِّعُ ذلك إلى تحليل بعض الجماجم التي عثر عليها عبر التاريخ قِدَماً.

ونحن نقول صدق الله العظيم لما قاله جل جلاله: {إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنتَ الله على الكاذبين}[٥١٧].

نقول ذلك ونحن نعلم بقول البعض بأنَّ آدم عليه الصلاة والسلام لم يكن واحدا حيث يدَّعون بوجود أكثر من آدم، وفي هذا الشأن من سيصدق من!. أننا نعني بآدم من خُلق من الأرض وأديمها، أي أننا نعني آدم الأصل الذي لم تكن له والدة ولا والد، الذي خلقه الله خلقا من تراب وقال له كن فكان بشرا سويا في أحسن تقويم، أي في أحسن صنعة وأجمل مظهر وهيئة وصفة، حيث صوره فأحسن صوره.

نستغفرك يا الله ونعوذ بك من قول الذين قالوا إنك خلقت القردة ثم طورتها إلى أن أصبحت نحن بني الإنسان، الذين فضلتهم في الخلق، واصطفيت منهم الأنبياء والرسل صلواتك وسلامك عليهم جميعا.

أستغفرك يا ألله أن يكون أصل الرسل والأنبياء كما ظن داروين والتابعون لقوله بأن البشر من أصل حيواني، وبالتحديد كما يظن الضالون من أصل قردي. كيف يتم التصديق لِما لا يُصدَّق وأصلنا يعود إلى أبينا آدم صلوات الله وسلامه عليه، وكيف يتم التصديق ومنَّا نوح وإبراهيم وإدريس ويونس وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهارون ويوسف وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى جميع الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم جل جلاله.

---

[٥١٧] آلا عمران، ٥٩ . ٦١.

إنَّ الذين صدَّقوا بأن الجمجمة التي عُثر عليها ولها من العمري آلاف السنين تعود بالإنسان إلى أصل قردي، فهذه ليست بحجة، وما يثبت أنها حقيقة هي جمجمة آدم (جمجمة إنسان)؟ ولما لا تكون حقيقة إنها جمجمة قرد كما خلقه الله تعالى على الهيئة التي براه عليها وصوره هو كما هو ليميزه عن غيره من بقية المخلوقات الحيوانية الأخرى والبشرية التي لا تتطابق مع صورة القردة كرمنا وكرم المستمعين الله تعالى.

كيف يُصدق بالأصل القردي لبني آدم والله تعالى يقول: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}[٥١٨]. ورد التفضيل في هذه الآية الكريمة أساسا في الخلق وذلك بقوله تعالى: (ممن خلقنا تفضيلا) أي من كل ما خلق الله عز وجل كان التكريم لبني آدم المفضلين في الخلق على غيرهم ممن خلق تعالى.

وفي تفسير القرطبي (كرمنا) تعني جعلنا لبني آدم شرفا وفضلا. ويدخل في هذا التفضيل خلقهم على الهيئة ذات القامة والحسن في الصورة. وفي الرزق الطيب ذوق ورفعة لا تجعل الأمر متعلقا بالحيوان، وفي هذا الأمر أيضا يتضح التفضيل لبني الإنسان عن غيرهم من الحيوانات التي تعد القردة واحدة منها أو فئة من فئاتها الدنيا.

ويفسر القرطبي قوله تعالى: {وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) "أي البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء والثواب والجزاء والحفظ والتمييز وإصابة الفراسة"[٥١٩].

بناء على ما تقدم أتساءل: لو كان أصل بني آدم قردا كما يدَّعون، فما بال هذه القردة التي لا زالت قردة باقية هي كما هي ولم تتطوَّر؟.

فلو تطوَّرت القردة كنوع وتغير حالها من النوع الذي هي عليه إلى النوع البشري لَمَا بقيت القردة على أرض الوجود كما هو حالها في الغابات وفي الأسواق تباع وتشترى، وإلا هل يُصدَّق بأن يتطور النوع ويبقي جزءاً منه لم يتطور؟. وإذا قبلنا بذلك علينا أن نقبل بعدم ثبات جنسنا ونوعنا فالزمن كفيل بأن يغيرنا من الحالة التي بلغناها إلى حالة أخرى لا أدري ما هي.

---

[٥١٨] الإسراء، ٧٠.

[٥١٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء العاشر، ص ٢٩٥.

وإذا سلمنا بذلك القول إن القردة تطورت حتى أصبحت نحن بني الإنسان، فهل يقبل أحدنا أن يقال له بأن أصوله العرقية وأجداده الأبرار هم من النوع القردي؟.

وكذلك إذا قبلنا بأن القردة قد تطورت، فلماذا لم تتطور الحيوانات الأخرى لأنواع أخرى؟. فلماذا لم تتطور الطيور والأسماك والديدان والضفادع لأن تكون غير التي هي باقية عليه، أم أنها هي الأخرى كانت شيئا آخر ثم تطورت فأصبحت كما هي عليه؟. وإذا لم يكن حالها في التطور كحال القردة، فلماذا أقتصر التطوُّر والتبدل على القردة فقط؟.

أعرف أنه لا إجابة، وهذه أفضل إجابة.

قال تعالى: {فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين}[٥٢٠]. يظن البعض بأن الله تعالى قد غير جنس اليهود من النوع البشري إلى النوع الحيواني القردي، وفي هذا الخصوص لا يتم الاتفاق مع ما ورد من تفسير لبعض المحللين، فالإنسان إنسانا والقرد قردا من حيث الهيئة والصفة والنوع، ولكن من حيث التفكير والمدركات العقلية والمعرفية قد لا يرتقي تفكير البعض إلى ما ينبغي أن يكون عليه، فالله تعالى قد استجاب لما طلبه الظانين والمشركين لأجل أن يؤمنوا به وبرسله وبما أنزل من آيات ماثلة أمام أبصارهم حقيقة، فقد طلبوا إحياء الميت فأحياه، وطلبوا المائدة فكانت، وطلبوا النجاة من المحن فنجوا ومع ذلك كذبوا وأشركوا ولم يصدقوا، أليس مثل هؤلاء حقا أن يوصفوا بالقردة الخاسئين، وذلك بابتعادهم عن الصفة الآدمية التي ينبغي أن يكونوا عليها. ولنا في الحياة كثير من الأمثال، فعندما تنصح طفلا أو شابا مرات عديدة ولم يستجب لما نُصح من أجله فقد تصفه تجاوزا بصفة غير صفة الإنسان، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن بشرا، بل لأن مستوى تفكيره لم يكن في مستوى الرقي الفكري لبني آدم عليه الصلاة والسلام، هكذا كان حال معظم اليهود من بعد النصائح العديدة والإرشادات التي قدمت لهم وعرضت عليهم فهم لم يهتدوا، أي وكأن عقولهم قرديه، ولهذا فإن أكثرهم لا يؤمنون وأكثرهم لا يفقهون، وأكثرهم للحق كارهون، مما جعل منهم الكاذبين

[٥٢٠] الأعراف، ١٦٦.

والمنافقين والفاسقين والمشركين الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء، وجعل اللعنات تلاحقهم بأوصاف القردة والخنازير وعبدت العجل.

قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأنَّ أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سوء السبيل وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيدهم ولعنوا بما قالوا}[٥٢١]. مثل هؤلاء حق لا يمكن أن يوصفوا إلا بالقردة والخنازير الملعونة، أي كيف ينكرون صفات الله الحسنى ولا يؤمنون بها، ولا يؤمنون بالآيات العظام التي أنزلها الله تعالى شاهدا بين أيدهم وأمام أبصارهم! أنهم يعرفون الحق ولا يؤمنون به، أليس بذلك يستحقوا بأن يوصفوا بالقردة والخنازير الملعونة؟. فالله تعالى يريدهم خليفة له في الأرض وهم يكفرون، الله يريدهم المفضلون على الأرض وهم عن ذلك يشذون، الله يريدهم للحق وهم للحق كارهون، فهل من وَصْفٍ يمكن أن يصفون به غير القردة والخنازير؟.

إنه الحق.

وعليه فإن الهيئة والصورة التي خُلق عليها بني آدم هي الهيئة الباقية التي لم تتبدل، أمَّا الصفة التي يُراد له أن يظل عليها ويُستخلف بها في الأرض فتتبدل وفقا لقاعدة الممكن المتوقع وغير المتوقع. ولذا اهتدى من اهتدى وضل من ضل.

ومع أنَّ القاعدة خَلقُ الإنسان وتصويره في أحسن تقويم، إلا أنَّ الاستثناء وفقا للمشيئة الإلهية أن يُخلق آدمي ويصور في غير أحسن تقويم. {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء}[٥٢٢]. إذن التصوير من حيث الهيئة والشكل لا تطابق فيه، فحال البشر لم يكن كحال

---

[٥٢١] المائدة، ٦٠.

[٥٢٢] آل عمران، ٦.

الأشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ومستطيلات وغيرها من الأشكال، فلكل مخلوق خصوصية يمتاز بها عن خصوصيات الآخرين الذين هم الآخرون يمتازون عنه بخصوصياتهم المتميزين بها.

ولأنه المصور جل جلاله خلق من كل زوجين اثنين، قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٥٢٣].

المصوِّر عز وجل هو الذي نفخ من روحه في صورة بني آدم وتقويمه، وجعل فيها روح التناسخ والتكاثر إلى النهاية، ولذا فهو المصور الأول والآخِر الذي صور الشجرة والنبتة وصور فيها الحَبَ والنوى حتى تستمر الحياة إلى النهاية سبحانه صور الإنسان وجعل الجمال فيه من جماله وصور كل شيء بالحق قال تعالى: {ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار}[٥٢٤].

المصوِّر المطلق هو الذي يصور الأشياء لذاتها لتكون كما يُراد لها أن تكون عليه، وكل ما خلقه الخالق تعالى جعل له ذاكرة تربطه به، مما يجعل كل شيء يُسبح بحمده ونحن لا نفقه تسبيحه، الجماد والنبات والحيوان والطير والأسماك وكل شيء يُسبح بحمد ربه جل جلاله. ونحن بني الإنسان المخلوقون في أحسن صورة وتقويم أكثرنا لا يعلمون ولا يعقلون ولا يفقهون ويجهلون وللحق كارهون، إنهم الجاحدون الناكرون المنافقون والقليل منهم هم المؤمنون المسبحون الذاكرون العابدون الصالحون. ولذا فالفرق كبير بين ذاكرة المسبحين ذاتيا للذات العلية وبين المسبحين إدراكا لها، فالأولى خلقت في صورتها آية لمن يُدرك بعد تفحُّص وقد خُلق السر فيها، وهو إنها تُسبح ولا أحد يفقه تسبيحها، بل من لا يؤمن لا يعقل ذلك بالمطلق، فلا يعتقد أن الجبال والأنهار والأرض بكاملها والسماوات السبع تُسبح بحمد خالقها تعالى،

---

[٥٢٣] الذاريات ٤٩.

[٥٢٤] آل عمران، ١٩١.

والمؤمن يُدرك بأنه الحق، وأن التسبيح عبادة وتقديس وعرفاناً بالوحدانية لله عز وجل، قال تعالى: {وإن من شيء إلا يُسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[٥٢٥].

وقال تعالى: {وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنَّا فاعلين}[٥٢٦].

وقل عز وجل: {إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم}[٥٢٧]. (سبحان الله العظيم استجابة لأمر الله في هذه الآية الكريمة وفي كل أمر) وإلى أن نؤتى من العلم ما يُظهرنا الله عليه سنظل غير قادرين بعقولنا القاصرة أن نعرف ما لم يكن من مقدرتنا، ولكن بحق إنَّ هذا السر ألإعجازي يجعل من المسلمين مؤمنين لو أدركوا العلاقة الوثيقة بين الخالق الأعظم والمخلوق ألجمادي الذي يُسبِّح بحمد ربه في كل حين، وهو لم يكن من الذين يُراد لهم أن يكونوا خليفة في الأرض وهم في أحسن صورة وتقويم.

المصور الحق يصور الأشياء لذاتها، والمصور الخليفة يصور الأشياء لذاته، فهو لا يخترع ولا يصنع أو يبني ويُشيد إلا لأجل نفسه وما يعود عليها من المنافع التي تُسهم في إشباع حاجاتها المتنوعة والمتطورة، أما المصور الحق فلا يكون في مجالات المقارنة فهو الذي لا يجوع ولا يظمى ولا يعرى ولا يمرض ولا يحتاج ولا يتألم إنه مالك الأمر، ومالك الملك، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. خلق الإنسان في أحسن صورة وتقويم خليفة له في الأرض لكي يؤمن به ويعبده ولا يشرك به أحد، ولذا فلينظر الخليفة إلى المُسَبِّحات لله بالإيمان من جبال وطير ورعد وملائكة وكل شيء يُسبح لله تعالى، ويتفكر في خلق السماوات والأرض ليدرك بأنه الحق الذي يعلوا ولا يُعلى عليه، وليتذكر حال الذين سبقوه بالإيمان وجزاءهم، وحال الذين سبقوا بالكفر وجزءهم ليُذكِّرَ البعض ممن خُلقوا في أحسن تقويم، بأنهم أمام الامتحان الذي لم يُوفَّق البعض فيه بما عملت أيديهم ووفِّق البعض منهم بأعمالهم خيرا.

---

[٥٢٥] الإسراء، ٤٤.

[٥٢٦] الأنبياء، ٧٩.

[٥٢٧] الواقعة، ٩٦.

المصور الخليفة هو الذي يُدرك الأشياء ويصور كل مشاهد منها، ولا يستطيع أن يصور كل شيء فيها، أي أنه يصور المادة القابلة للمشاهدة وغير قادر ولن يقدر على تصوير الروح التي هيَّ فيها، فهذا الأمر بيد المصور الحق فقط، قال تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي}[٥٢٨].

إذن المصور الخليفة هو الذي يصور الأشياء لذاته، لتؤدي له خدمة أو وظيفة وتحقق له منفعة تحميه من البرد أو العطش أو الجوع وتشبع له حاجة من حاجاته المتنوعة والمتطورة. أمَّا المصور الحق فهو الذي يصور الأشياء لذاتها، ولذا فإن ما يصوره الخالق تعالى لا يتناسخ بتطابق، وما يصوره الخليفة يتناسخ بالتطابق. أي أن ما يصوره الخليفة يفتقد للخاصية المفردة، وما يصوره الله جل جلاله خاصيته في كل مفردة من مفردات خلقه.

الله جل جلاله لم يصورنا لذاتنا فقط ليتركنا، بل صورنا وصور لنا أرزَّاقنا لنعيش منها

ومع ذلك فالبعض ممن يراد لهم أن يكونوا خلفاء لم يؤمنوا والله عز وجل يقول: {الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله ربُّ العالمين}[٥٢٩].

التصوير يبدأ من الرحم مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم}[٥٣٠] من هذه الآية الكريمة يُدرك الفارق الكبير بين التصوير المادي باليدين وبين التصوير الروحي بأمره تعالى، ففي الأرحام التصوير انبعاث للحياة في كائنٍ مخلوق ومبرأ على خاصية تميزه عن خاصيات الآخرين المماثلين له في الخلق وكذلك المختلفين عنه فيها.

أمَّا التصوير المادي باليدين فهو تصوير بعد معاناة ومحاولة وخطأ، وقد يكون فيه التعرض للخطر، ومع ذلك فهو تصوير مادي لا روح فيه ولا انبعاث حياة.

---

[٥٢٨] الإسراء، ٨٥.

[٥٢٩] غافر، ٦٤.

[٥٣٠] آل عمران، ٦.

مستويات التصوير:

. **مستوى التصوير المباشر:** قال الله تعالى: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين}[٥٣١] ولقد خلقناكم تعود على بني الإنسان، لتذكرهم بأنهم من لا شيء أصبحوا بحمد الله شيئا آخر، ثم هذا الشيء قد صُوِّر على الهيئة والصورة البشرية التي خُلقت في أحسن تقويم، مما جعل الملائكة الطائعة للأمر الإلهي تسجد طاعة واعترافا، وفي مقابل الطاعة والسجود الملائكي إبليس عصي أن يسجد لمن كُرم وفُضل على كثير مما خلق الله تعالى مصداقا لقوله عز وجل: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}[٥٣٢].

لقد خلق الله تعالى الأشياء وصورها فأحسن صورها، فخلق الأرض وخلق من ترابها أبونا آدم وأمنا حواء من دون أم ومن دون أب، ولأن البعض يظن بأن أمنا حواء لم تخلق وتصور من تراب فنحن نعتقد بأن الوحدانية لله وحده أما خلق البشر وكل الكائنات فهو خلق وتصوير زوجي، مصداقا لقوله تعالى: {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون}[٥٣٣]. من كل شيء جاءت مطلقة، دون تخصيص في الخلق الزوجي، حيث لو لم يكن الزوجان ما كان التكاثر لكل ما خلق البارئ وصور، والزوجين هما الذكر والأنثى مصداقا لقوله تعالى: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى}[٥٣٤]. أي أنَّ أساس الخلق الزوجين الذكر والأنثى، فمثلما خلق أبونا آدم صلوات الله وسلامه عليه وأمُنا حواء رضي الله عنها، كذلك خلق وصور بقية الكائنات جميعها خلقا وتصويرا زوجيا مباشرا. ولذلك لا فرق من حيث الخلق والتصوير المباشر من التراب ومما تنبت الأرض، بل الاختلاف في الخصائص التي بُرأ الخلق وصور عليها. قال عز وجل: {سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا

---

[٥٣١] الأعراف، ١١.

[٥٣٢] غافر، ٧٠.

[٥٣٣] الذاريات، ٤٩.

[٥٣٤] القيامة، ٣٩.

يعلمون}[٥٣٥]. كلمة سبحان كلمة إعجاب بعد التبين الحق، وبعد الإدراك لما لم يكن متوقعا أو لم يكن في الحسبان، فسبحان كلمة إيمانية تُعبِّر عن الاستبشار بما حصل ويحصل من إعجازات خارج دائرة المتوقع، ولذا فهي تتضمن الاعتراف والحمد والشكر لله تعالى على ما خلق وبرأ وصور.

وقوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزَّل من السماء ماء بقدرٍ فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تُخرجون والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون}[٥٣٦]. في الآية التاسعة من سورة الزخرف بُني تساؤل عن من خلق السماوات والأرض؛ وجاءت الآيات اللاحقة للآية التاسعة للإجابة التي منها ما احتوته الآية الثانية عشرة من سورة الزخرف بأنه الذي خلق الأزواج كلها، وخلق الفلك والأنعام ليركبها بني آدم صلوات الله وسلامه عليه. فهذه الآيات الكريمة تؤكد على ما صوره الخالق من أزواج خلقا وتصويرا مباشرا دون سابقا للنوع الذي تم تصويره.

قال تعالى: {والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة}[٥٣٧] يُفسر البيضاوي قوله تعالى: (من أنفسكم) بقوله "من جنسكم لتأنسوا بها، وهكذا يكون أولادكم وأولاد أولادكم من جنسكم"[٥٣٨] ولذلك فالأنفس هي التي يُبرئ بني آدم عليها، وهي التي يتوفاه الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها}[٥٣٩] فالأنفس ليست الأبدان بل هي التي تنبعث بالحياة في الأبدان لتمدها بالحركة وفقا للقدرة والاستعداد والأحاسيس والمشاعر التي تجعلها في حالة خوف أو اطمئنان أو هداية أو ظلال لتأمر بالمعروف أو تأمر بالسوء وفقا لما تهوى وتظن، ولذلك عندما تغضب النفس وتثور

---

[٥٣٥] يا سين، ٣٦.

[٥٣٦] الزخرف، ٩ . ١٢.

[٥٣٧] النحل،٧٢.

[٥٣٨] تفسير البيضاوي. ص ٣٥٥.

[٥٣٩] الزمر، ٤٢.

تُعرِّض البدن إلى الأضرار والآلام وعندما تهدى تجعله ينبسط وتمده بالطاقة التي تجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

قال تعالى: {هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها}[٥٤٠] خلقكم من نفسٍ واحدة تعني: خلقكم من جنس واحد. الجنس الذي يجعل كل منكم في حاجة للآخر حتى أنكم تفرحون معا وتغضبون أو تحزنون معا، فالكل يتألم ويغضب ويفرح ويعشق ويحس بالآخر ويعتبره ضرورة لأن يزاوجه ويسكن إليه أو يسكن معه حتى تمتد مشاعر الأبوة والأخوة والعمومة إلى أبنائه وأحفاده من بعده.

وكلمة خلقكم من نفسٍ واحدة تدل على أنه خلق النفس أولا ثم صورنا منها كيف يشاء في أحسن تقويم إرادة لأن نكون الخلفاء في الأرض. وقال تعالى: {وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة فمستقر ومستودع}[٥٤١] في هذه الآية الكريمة قال أنشأكم وفي الآية الكريمة السابقة قال خلقكم، ففي حالة الإنشاء تعني في حالة البدء التي تسبق مرحلة الخلق وهو إنشاء النفس من لا شيء، وهذه المرحلة الإنشائية سابقة على المرحلة الخلقية التي تجعل النفس في حالة توحُّد مع المادة الآدمية التي منها كان خلق الزوجين الذكر والأنثى (آدم وحواء). ولذلك قال جل جلاله: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها}[٥٤٢]. والسكنية هي نتاج توحُّد الأحاسيس والمشاعر والمودة والمحبة بما يحقق الاستئناس والألفة.

قال تعالى: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا}[٥٤٣] فأنت وزوجك تعني الذي حاله كحالك، وزوجك تدل على من لا تستغني عنه ولا يستغنى عنك، وزوجك في هذه الآية تدل على الذي كان معك أو جاء معك حيث كل منكما في حاجة للآخر، فأنتما على علاقة قوية ذات صحبة وهي أقوى من علاقات التوأم، حيث أن التوأم ينجبون إنجابا، أما الزوج المنشئ إنشاء والمخلوق خلقا مباشرا هو المبرأ والمصور على الخاصية والنوع،

---

[٥٤٠] الأعراف، ١٨٩.

[٥٤١] الأنعام، ٩٨.

[٥٤٢] الروم، ٢١.

[٥٤٣] البقرة، ٣٥.

فالخاصية هي التي تميز الذكر من الأنثى، والجنس هو الذي يوحَّدهم على أحسن صورة وتقويم.

قال تعالى: {فقلنا يا آدم إنَّ هذا عدو لك ولزوجك}[٥٤٤]. عدو لك ولزوجك، تعني: من يخدعك أو يعاديك فهو أيضا يعادي زوجك كما يعاديك أنت حيث التماثل بينكما في الخلق والصورة، فما يَمُسك يا آدم يمس زوجك. وزوجك لا يعني زوجتك كما يظن البعض، بل يعني من خُلق معك بالتماثل. ولذا فزوجك الذي لا أسبقية لك عليه ولا أسبقية له عليك فأنتما معا في حالة واحدة. والفرق فقط في أن الله عز وجل اصطفى آدم على حواء وعلى الملائكة والجن ليكلمه ويخاطبه بقوله تعالى: {وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة}[٥٤٥]. وقوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}[٥٤٦].

فلو خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم صلى الله عليه وسلم لجاء ذكرها في القرآن الكريم وهو الحُجَّة التي نحتكم بها ونحتكم إليها في قضايا الخلق، ومن يعتمد في أحكامه أو أرائه على غير القرآن في هذه القضية قد لا يؤيد. وكيف نؤمن بذلك ونحن نعلم أن الرسالات السماوية تتناسخ أي تنسخ بعضها البعض، والقاعدة هي: (استشهد بالناسخ ولا تستشهد بالمنسوخ) فقد جاءت رسالة موسى عليه الصلاة والسلام بالحق وبقيت لمن نزلت إليهم، إلى أن جاءت رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام ونسختها بالحق وبقيت إلى أن نزلت الرسالة الخاتمة

---

[٥٤٤] طه، ١١٧.

[٥٤٥] البقرة، ٣٥.

[٥٤٦] ٣٠ . ٣٣.

بالحق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ونسخت ما سبقها من رسالات السماء ليبقى الإسلام دين الحُجَّة دينا واحدا لمن يؤمن بالله ولا يشرك به أحدا. ولذا فالقاعدة هي: (لا استشهاد بمنسوخ والناسخ باقٍ).

. **مستوى التصوير في الأرحام:** من بعد الخلق الزوجي للكائنات جاء الأمر بالتكاثر مصداقا لقوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}[٥٤٧] إنها مرحلة التصوير في الأرحام التي جاءت من بعد مرحلة الخلق والتصوير الزوجي من التراب، إنها مرحلة إخراج النسل من الصلب بعد التقاء الحيوان المذكر بالبويضة ليتم التوحد والاندماج الذي به يحدث الخلق والتبرئة والتصوير، مما يجعل للنمو في الأرحام مراحل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٥٤٨] والمقصود بخلق الإنسان من سلالة من طين هو خلق الجنس البشري على خاصية إنسانية وليست خاصية حيوانية كما يظن البعض، والسلالة هي مكمن الأصول التي يعود إليها خلق الإنسان الذي يُخلق من نطفة في رحم الأم ثم يمر بمرحلة العلقة التي تستمد حياتها من حياة الأم التي حملت النطفة، وباستمرار الحمل والنمو يتغير حال العلقة إلى حال المضغة ثم يكون الخلق امتدادا هيكليا ليرسم الشكل البشري بهيكله العظمي ثم يستوي بلحم على هيئة وصورة بشرية في جنين متكامل فتبارك الله أحسن الخالقين. ولذا فنحن المخلوقون في الأرحام لم نخلق من تراب، بل أصولنا من سلالة من طين حيث أن أبونا آدم صلى الله عليه وسلم وأمنا حواء رضي الله عنها هما الزوجان المخلوقان من الطين؛ أمَّا نحن فمن نطفة خُلقنا.

إنَّ مرحلة الخلق في الأرحام هي التي جعلت البشر في حالة تكاثر بالأمر الطبيعي، حيث الاختلاط والتزاوج الذي يجعل الحيوان المذكر يتوحد مع البويضة، لتستمر المودة جنبا إلى

---

[٥٤٧] الأعراف، ١٧٢.

[٥٤٨] المؤمنون، ١٢ . ١٤.

جنب مع عملية التكاثر العددي. قال تعالى: {وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قدير}[٥٤٩] فنسبا وصهرا تعني العلاقات التي أساسها الذكور والإناث، حيث النسب للذكور والمصاهرة بالإناث، وهكذا تستمر العلاقات ويزداد التكاثر.

وعليه لقد انتهت مرحلة الخلق من التراب وحلت محلها عملية الخلق في الأرحام، وأصبح البشر ينجبون إنجابا بعد حملٍ ومخاض.

والفرق كبير بين المستوى الخلقي المباشر (كن فيكون)؛ كونا يا زوجان فكانا من كل شيء زوجين خَلقاً وبرءً وتصويراً ومقدرةً على الحركة والعمل. أما مستوى التصوير في الأرحام فيشترك مع التصوير المباشر من حيث الخلق بالأمر (كن) ويختلف معه من حيث الكيفية التي بها يكون كما سبق أن أوضحنا، في مستوى الخلق المباشر فمن البدء كان الزوجان على المقدرة التي بها يستطيعان أن يشبعا حاجاتهما؛ وفي مستوى الخلق في الأرحام فالمخلوق يبرأ ويصور على الحاجة التي لا يستطيع إشباعها بنفسه إلى أن ينمو عبر السنين. فبعد أن يصدر الأمر (كن) يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم تخلق له العظام ثم تكتسي العظام لحما ثم يصبح خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، ثم ينجب بعد تسعة أشهر ويرضع حتى الفطام في عامين، ثم يربى على القيم والفضائل الأخلاقية التي تجعل منه إنسانا في أحسن تقويم ليعمل ويتزوج حتى يتم الاتصال والتواصل من جيل لجيل وليستمر الخلق والتصوير بالأمر (كن).

. **مستوى التصوير الروحي:** الله جل جلاله صورنا فأحسن صورنا ورزقنا من الطيبات يحي ويميت وهو على كل شيء قدير. فالله تعالى الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، وجعل منهما نسبا وصهرا، خلق عيسى عليه الصلاة والسلام وصوره من أمٍ كريمة من دون أبٍ، مصداقا لقوله تعالى: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما انا رسول ربِّكِ لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك

---

[٥٤٩] الفرقان، ٥٤.

بغيا قال كذلك قال ربكِ هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منَّا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا}[550] يقال أن المكان الشرقي هو شرق بيت المقدس، والذي من بعد ذلك اتخذوه النصارى قبلة لهم[551]. ويقال أن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الروح الذي بُعث لمريم عليها السلام وهو متمثل في صورة بشرٍ سويٍ، لينفخ من روح الله فيها غلاما زكيا، وبهذا الأمر جاءت الروح إلى مريم في صورة بشرٍ سويٍ ونَفخت الروح فيها من روح الله تعالى فكان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسولا من الله تقيا.

قال تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[552] إنَّ حمل مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام لم يكن من حيوان منوي بشري بل كان من نفخة روح في فرج مريم عليها السلام. مما يجعل مثل عيسى كمثل آدم عليهما الصلاة والسلام مصداقا لقوله عز وجل: {إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}[553]. والمثل يعود على الحالات الإستغرابيه المتماثلة والمتشابهة التي لم تقع في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع بالنسبة للعقل البشري، ولهذا كان شأن عيسى كشأن آدم عليهما الصلاة والسلام حيث أنَّ الخلق بدون أب معجزة شأنه كشأن معجزة الخلق من التراب.

ومع أن الله واحد أحد لا شريك له يخلق ويصور كل شيء إعجازا إلا أن أهل الكتاب بمعجزة التصوير الروحي لعيسى ابن مريم قد ظنوا بأن عيسى هو ابن الله حيث قالوا: أن الله ثالث ثلاثة والله تعالى قال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

---

[550] مريم، ١٦ ـ ٢٢.

[551] تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٣٩٧.

[552] التحريم، ١٢.

[553] آل عمران، ٥٩.

فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ}[٥٥٤]. الغلو في الشيء المبالغة في أمره حتى الحياد عن الحق والميل إلى باطل، ولذا فقد غلت اليهود برميهم ونعتهم لعيسى عليه الصلاة والسلام بأنه أبن زانية، وغلت النصارى في رفعه حتى اتخذوه إلها. ولا تقولوا على الله إلا الحق تعني: تنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد ولهذا جاء الحق بقوله تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد}[٥٥٥].

ولا تقولوا ثلاثة، تعني: ولا تشركوا مع الله أحد، فجبريل (روح القدس) خالقه الله تعالى، ومريم بنت عمران خالقها الله تعالى والمسيح عيسى عليه الصلاة والسلام هو المخلوق من المخلوق أي أنه ابن مريم التي نُفخ في فرجها بروح مخلوقة وبالأمر (كن).

ولذا فالقاعدة هي: (المصوِّر لا يتساوى مع المصوَّر في شيء). فالمصوِّر هو الله تعالى، والمصوَّر كل ما خلق الله عز وجل. ولذلك فإن هذه القاعدة تذكرنا بقاعدة (الخالق لا يقارن مع المخلوق).

وحظ الخليفة من هذا الاسم أن يصور ما يشاء كيف يشاء مما صوره المصور الأعظم دون أن يجهل أمر ما يصور، حتى يدرك القدرة التي من وراء مقدرته تعالى على التصوير والإبداع، ولينظر إلى ما صوره الله تعالى حتى يُدرك بأن ما صوره تعالى هو الحق مصداقا لقوله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر}[٥٥٦].

الخليفة في الأرض هو الذي يُدرك بأنه لا نظر إلا بمصورَّ ولا نظر إلا إلى مصوَّر، فبالعينين المصورتين ينظر إلى الإبل والسماء والجبال والأرض المصوَّرة ليعرف الكيفية التي بها خُلقت والتي خُلقت عليها، حتى يدرك الحق الذي به خُلِقتْ وصُوِرتْ، وليرى الجمال ألإعجازي في الصورة والحركة والوظيفة التي صورت من أجلها.

---

[٥٥٤] النساء، ٧١ . ٧٢.

[٥٥٥] الإخلاص، ١ . ٤.

[٥٥٦] الغاشية،

فالخليفة هو الذي يستمد صفة التصوير من المصور المطلق ويعمل بها كل ما من شأنه أن يُمكِّنه من الاستخلاف في الأرض، ويُمكِّنه من معرفة الأسرار التي من وراء خلقها. وهو الذي كلما اكتشف سرا عمل على تصويره حتى ينقله إلى المحسوس بعد أن كان مجردا. ولأن التصوير الصالح لا يتحقق إلا بالعمل فعلى المصور بالإضافة أن يعمل صالحا لتعمَّه المنفعة مع ذوي العلاقة به من الخلفاء.

قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[٥٥٧] فالله سبحانه الخالق البارئ المصور وهو أنه أعطى كل شيء خلقه وصورته وتكوينه، فها هو الإنسان قد فضله الله تعالى على العالمين ليس بعقله فحسب، وإنما في كل شيء من تكوينه وتصويره، فقد كان لا شيء فلا نطفة ولا علقة، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى إلى عالم الوجود من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين ثم كان علقة ثم مضغة إلى إخراجه وتسويته خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، فمن اعتبار وجوده من لا شيء، ثم تقلبه في هذه الأطوار المستنكف حالها والواضح فناؤها واضمحلالها، فسبحان الله ما أعظم حلمه وكرمه ورفقه وما أبدع تصويره، ثم بيَّن تعالى ما جعله للإنسان من السمع والبصر ابتلاء له، ولما ذكر مطلق خلقه، وقرر أنه خلاصة الكون لأنه آخر ما خلق وصور مما هو معروف لنا، شرع يذكر كيفية خلقه ويدل على ما لزم من خلقه للإنسان وتصويره مفصلا أمر الإيجاد بالفعل والصورة والمادة والغاية وأكده لإنكار بعض البشر لهذه القدرة بقوله: (إنا خلقنا الإنسان) أي على ما لنا من العظمة فقدرنا وصورنا، أي بعد خلق آدم عليه الصلاة والسلام من التراب قدرنا ذريته أن تكون من نطفة أي من مادة هي ماء من الرجل والمرأة، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وهي المادة التي هي السبب الحامل للقوة المولدة المصوَرة. ولما كان خلق الإنسان على طبائع مختلفة وأمزجة متفاوتة مما يتنازعه من المختلفات بأمر ربه الذي لا يختلف، وكانت أفعاله تابعة لأخلاقه وأخلاقه تابعة لذاته قال تعالى: (أمشاج) أي أخلاط إذا مشجتَ الشيء أي خلطته، لأنه من مني الرجل ومني المرأة،

---

[٥٥٧] – الإنسان ٢– ٣

وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في المادة واللون والصورة، وهي أطوار الخلق من النطفة وما بعدها، عندما تستقر بالرحم وتمتزج فتأخذ اللون الأحمر القاتم وحينئذ تسمى علقة، فإذا اشتد ذلك الامتزاج وقوي وتمتن حتى استعد لأن يقسم فيه الأعضاء سمي مضغة، فإذا أفيضت عليه صورة الأعضاء وتقسم كساه حينئذ مفيضه عز وجل لحما، فأفاض عليه القوة العاقلة، ويسمى حينئذ جنينا، وكل مرحلة من هذه المراحل تأخذ شكلا وصورة يصورها المصور عز وجل، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[٥٥٨].

ثم إن المصور جل شأنه ينقله من صورة إلى أخرى فيقسم أجزاءه إلى عظام وعروق وأعصاب وأوتار ولحم، وهكذا يكون للكل صورة وتمام وللجزء صورة وتمام، فالعجب كل العجب ممن يرى نقشا حسنا على جدار فيتعجب من حسنه وحذق صانعه ثم لا يزال يستعظمه ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ويحيره جلاله وحكمته. فالإنسان مكوَّن من جسد ونفس وروح، أما الجسد فقد قام علم الطب بدراسته وتشريح جميع أجزائه وأعضائه وقد تبين له ما في خلق الإنسان من معجزات وآيات تدعو إلى الإيمان بقدرة الله وحكمته وإبداعه في خلق أجهزته الدقيقة التكوين، والنفس قد حاول علمائها ويحاولون معرفة كنهها ولا زالوا عاجزين عن معرفتها بالتمام فهي الكل المعقد الذي يتأثر مع كل خصوصية وظرف، أما الروح فأمرها بعلم ربي، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[٥٥٩]،

---

[٥٥٨] – صحيح مسلم، ١٣ . ١٠٠

[٥٥٩] الإسراء ٨٥.

فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذي له الأسماء الحسنى حيث قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥٦٠] ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبريء والتصوير وإن كان أغلب الخلق لقصورهم لا يفهمون منه إلا مطلق التقدير، أردفه تنبيها على ذلك وتصريحا وتأكيدا قوله: (البارئ) أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال، فإن كان من المحيطين بالعلم كان تمام التهيؤ للصورة على كمال المشيئة فيها، وإن كان ممن لا يحيط علما طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة، ولا يكاد يقع الإحسان للخلق في مصوراتهم إلا لماما لأنهم لا يعلمون كنهه ولا يثقون بحصوله. ولما كان من يهيئ الأمور للتصوير قد لا يتقنه قال: (المصور) فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور، ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة، أردفه بقوله تعالى: (له) أي خاصة لا لغيره الأسماء الحسنى أي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه، وليس وراء ظهور الصور كون إلا لطائف تطويرها في إتمام كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الروح المقوم لها سواء كان إنسانا أو حيونا أو نباتا أو غير ذلك مما خلق إلى غاية إكمالها الذي يعطيه المصور لها، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله الخالق البارئ، فالتصوير موجود في كل أجزاء العالم والموجودات فيه وإن صغر، حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة، والكلام يطول في تصوير الإنسان أو أي عضو من أعضائه، فطبقات العين مثلا وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها، ووجه الحكمة فيها، هو من الدقة والغرابة ما يأخذ الألباب، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل، وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء

---

[٥٦٠] – الحشر ٢٢– ٢٤

من نبات وحيوان من موجودات هذا الكون الرحيب من هذه الأشياء المركبة التي نشاهدها ونعيشها في الآفاق وفي أنفسنا مما لا يخلو شيء في الوجود من هيئة صورة وشكل تناسب طبيعة خلقه في البدن، وميوله ورغباته وتصرفاته في النفس.

فالصورة هي تركيب الأشياء وإظهارها لحيز الوجود المشاهد، والمصوِّر هو المركب لهذه الأشياء، والمصوَّر هو المرَكب من هذه الأشياء. قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٥٦١] فالخالق أوجد خلق الإنسان، فخلق له أعضاء ينتفع بها، وجعلها في صورة تناسب خلقه وشكله، في أي صورة من الصور التي شاءها المصور، وسوّاه في أعضائه بحيث جعلها متناسبة ومعتدلة في صورة حسنة هي من أعجب الصور وأحكمها في ترتيب هذا الخلق الذي أراده. فقد قرر الله تعالى صفة ثابتة للذات الإلهية قبل التصوير ألا وهي الربوبية المبينة للكرم الإلهي لأن الخلق منح وإعطاء وهبة للوجود وهو من جانب آخر تنبه على أن من قدر على الخلق بداية فهو على إعادته بعد فنائه أقدر وهو أهون عليه، ثم بعد ذلك جاءت عملية التسوية تسوية الأعضاء سليمة معدة لمنافعها والوظائف التي تؤديها، بحيث يترتب على كل عضو منها منفعته التي خلق ذلك العضو لأجلها كالبطش لليد والمشي للرجل والتكلم للسان والإبصار للبصر والسمع للإذن إلى غير ذلك من مهام كل عضو من الأعضاء، ويدخل في التصوير عملية التعديل أي تعدل بعض تلك الأعضاء بالبعض الآخر بحيث اعتدلت ولم تتفاوت مثل أن تكون إحدى اليدين أو الرجلين أو الأذنين أطول من الأخرى أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود أو بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر وقد أقر علماء التشريح من الأطباء أنه الله تعالى ركب جانبي هذه جثة الإنسان على التساوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا فى أشكالها ولا فى الأوردة أو الشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما فى الجانب الآخر، ومن جانب آخر في عملية التعديل فإنه يقال عدله عن الطريق أي صرفه فيكون المعنى أنه يصرف عنه

---

[٥٦١] – الانفطار ٦– ٨

الخلقة المكروهة بالنسبة للإنسان والمقبولة في الحيوانات، فقد خلق الإنسان وصوره بخلقة وصورة حسنة مفارقة لسائر الخلق لأن الإنسان خلق في أحس تقويم، ولذا فخليفة الله في الأرض هو من فضَّله الخالق على الخلق، وبما يستمده المخلوق من خالقه، ولهذا كان خلقه لبني آدم معتدلا في أحسن صورة وتسويته في أحسن تقويم فجعل بنيته المادية هي الصورة وبنيته المعنوية سليمة في النفس والروح، وفي معرض القول للذين قالوا إن الله تعالى خلق الإنسان على هيأته معناه على هيأة الإنسان بهذا الشكل، ولا يجوز التشبيه والتمثيل، فلا يجوز أن يكون الباري تعالى مصوَرا ولا أن يكون له صورة، لأن الصورة مختلفة، والهيئات متضادة، "ولا يجوز اتصافه بجميعها لتضادها، ولا يجوز اختصاصه ببعضها إلا بمخصص، لجواز جميعها على من جاز عليه بعضها فإذا اختص ببعضها اقتضى مخصصا خصصه به، وذلك يوجب أن يكون مخلوقا وهو محال، فاستحال أن يكون مصورا، وهو الخالق البارئ المصور"[٥٦٢]، والمصور هو الذي يرتب الموجودات على صفات مختلفات وهيئات متغايرات، والمصور هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة وهو الذي ابتدأ الأشياء مخترعا لها عن غير أصل وهو المتهيئ لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف وتنوع والاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بما هو من لواحقه قال الخطابي: المصور الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها، ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل، وخلق الله عز وجل الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خلق يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها، جعله علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به ذا صورة وهيئة فأبدعه المبدع وأحدثه مما لم يكن مثله قط، فلما ثبت وجود الإبداع من الله وعز وجل لعامة الجواهر والأعراض، استحق أن يسمى بديعا أو مبدعا لما برأ وصور فكان الموجد لما كان في علمه من أصناف الخلائق وتصويرها لما فيه من الصنعة ووجود الحكمة، فهو الموجد للصور والمركب لها على هيئات مختلفة، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما، والتصوير هو التخطيط والتشكيل، وقوله (في أي صورة ما شاء ركبك) فهو الاسم المصور وهنا أسرار من علوم الطبيعة لما

---

[٥٦٢] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ٢، ص ١٧٨

جعل الله فيها من الاشتراك في التكوين بين الخلائق على اختلاف أنواعها من الأعراض والجواهر إذ لا خلق يخلو من العرض والجوهر، وينتفي هذا عن الله سبحانه وتعالى لذلك كان علمه بكل شيء قائما بذاته قبل أن يخلقه فذلك جاء قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥٦٣]، فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء مهما كان صغيرا أو كبيرا ظاهرا أو باطنا، وفيه تعبير عن الخفاء وإشارة إلى أن علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين، فالمخلوقون هم الذين يصوَّرون، والله هو الذي يصوّرهم فيجعلهم صورا مختلفة في أرحام أمهاتهم، فإنه يجعل هذا ذكراً، وهذه أنثى، وهذا اسود وهذا أحمر. وكل ذلك يتم على أدق ما يكون، فمن المستحيل أن يكون هذا الخلق قد جاء من قبيل الاتفاق والمصادفة. فالله هو المتفرد بالخلق والتصوير، وهو العزيز الذي لا يُغلب على ما قضى به علمه الحكيم الذي يوجِد الأشياء على مقتضى الحكمة بأن يجعل هذا الخلق على هيئة مخصوصة فى أرحام أمهاتهم من ذكر وأنثى وتام وناقص وطويل وقصير وحسن وقبيح، هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدَّر أحوالهم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة والتصوير وجعل الشيء على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشيء بتأليف الصور المختلفة المتفاوتة في الشكل والطبع واللون وذلك كله من نطفة، والتصوير من نطفة أو غيرها لا ينفرد بنفسه عن بقية صفات الله تعالى المختصة بالخلق.

وقوله تعالى: (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا فى السماء) لأنه مصور كل شيء، ومصور كل شيء لا يخفى عليه شيء قد صوره، إنه المصور الذي صور الأرض والسماوات العلا وما فيهنَّ من مصورين سبحانه إنه على كل شيء قدير، وهو أنه هو الذي صور في ظلمات الأرحام ما شاء من بنية وصورة، وركبه من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، وذلك يدل على كمال قدرته حيث قدر أن يخلق الإنسان من قطرة من النطفة هذه الأعضاء المختلفة في الطبائع والشكل واللون، ويدل على كونه عالما من حيث إن الفعل

---

[٥٦٣] – آل عمران ٥– ٦

المحكم لا يصدر إلا عن العالم، فكان قوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) دالا على كونه قادرا على كل الممكنات في دائرة المطلق، ولهذا لا يخفى عليه شيء، (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا فى السماء) ولأنه تعالى عالم بجميع المعلومات، وقادر على كل الممكنات بالمطلق، فهو قيوم المحدثات والممكنات من السموات والأرض وما بينهما وما فيهنَّ من المخلوقات.

فقد أورد القرآن الكريم من صفات الخلق والتصوير والقدرة لكي يتأمل أولوا الألباب، ففصل بيانه بالنظم العجيب والتأليف الرصين، فوافق الصورة في مبانيه ومعانيه المقصودة وجعلها من التنبيهات الجلية والخفية، والدلالات الظاهرة والباطنة ما قد استوى في إدراك ذلك لذوي العقول من دقة التصوير ما يهيج له بواعث الأفكار، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[٥٦٤] إن فى خلق الله للسموات والأرض مع ما فيهما من إبداع وإحكام، واختلاف الليل والنهار نوراً وظلمة وطولاً وقصراً لدلائل بيِّنات لأصحاب العقول المدركة على وحدانية الله وقدرته، والخلق هو التقدير والترتيب والتصوير الدال على الإتقان وكذلك اختلاف الليل والنهار في هذا التعاقب العجيب، إذ أن كثيرا من المصورين يصورن الليل أو النهار بصور تجسيدية، ولكن المصور المبدع أعطى كل شيء خلقه وهداه لما خلق له، فلما كان خلق الإنسان وتصويره على هذه الصورة ذات الروح والنفس، وكانت الأجرام الضخمة خالية من ذلك، فكانت الحركة والدوران لهذه الأجرام والأجسام هي بما يقابل الروح والنفس في الإنسان على ما نرى ليناسب كل خلق صورته، ومن أسلوب التصوير في القرآن الكريم انه يجذب النفوس والعقول من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فيأتي بين الآيات وفي أواخر السور بآيات مشوقة تريح الأعصاب وتشوق القلوب. فقد اشتملت هذه الآيات الحكمة في إبداع الخلق وتصويره بصرف النظر عن شكل الصورة وطبيعتها، وإنما الاعتبار بقدرة المصور ودقة إتقانه، ولما طال الكلام في تقرير الأخذ والرد والجواب عن شبهات المبطلين، عاد التنزيل إلى إثارة القلوب بذكر ما

---

٥٦٤ – آل عمران ١٩٠

يدل على التوحيد والألوهية من خلال تصوير الكون الذي يحمل من دلائل التصوير والقدرة ما يدعو إلى الإيمان، ويشير إلى أن وراء هذا الكون قدرة وقوة تدبره بحكمة، ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى، ولكل حياة صورها التي تناسبها فسبحان الله المصور جل جلاله، ولقد آمن من آمن بما أدرك من صور تقود إلى معرفة الإعجاز حيث وراء كل مخلوق خالق، لذلك جاء إيمان البعض من خلال تأملهم في قدرة الصانع وعجيب تصويره لمخلوقاته، ومن هنا كانت صور الخلق بما صور المصور للسماوات والأرض ومن فيهنَّ، وبما فيهما من إبداع، وإحكام نظام، وبديع تقدير، وعظيم تصوير وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق نحس آثاره في أجسامنا بفعل حرارة الشمس وبرد الليل لدلائل بينات لأصحاب العقول المدركة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته في خلقه وبرئه وتصويره، وفي هذه الآية إشارة إلى حقائق مذهلة في هذا الكون العجيب، ذلك أن السماء ما هي إلا آية من آيات الله تبدو لنا بتأثير الأشعة الشمسية على الغلاف الجوي المحيط بهذه الصورة بالأرض ومن خلال التأمل يقف المتأمل على نتائج الاعتبار، فيتبين ذلك المتثبت، والناظر المتدبر، ويدعو المصور المطلق من يتبين صنعه وتصويره ويتنبه على ما أقامه من أدلته حيث قال تعالى: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}[٥٦٥] فخلق السموات والأرض بالقدرة والحكمة والتدبير الكامل لصالح الناس، وفى هذا دلائل صادقة لمن يؤمنون بالحق مبينا أنه اخترعها وصورها بما يشتمل عليه حقا لا باطلا وحتما لا عبثا لتوفر على طوائف خلقه منافعها، ثم كرر ذكر ذلك في مواضع كثيرة في جملتها ما يقتضي الكشف عن نظمها وتصريفها لما يكشفها من الغموض، بترتيبه عملية الخلق والإبداع والتصوير، فمن ذلك قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٥٦٦] فالله وحده الذي خلق السموات والأرض، وأقام خلقهما على الحق والحكمة، وفى أي وقت تتجه إرادته سبحانه إلى

---

[٥٦٥] – العنكبوت ٤٤

[٥٦٦] – الأنعام ٧٣

إيجاد شيء يوجد فورا،يوجد الأشياء بكلمة (كن) وكل قول له هو الصدق والحق، وله وحده التصرف المطلق يوم القيامة، حين ينفخ فى نفخته إيذانا بالبعث، وهو سبحانه الذي يستوي في علمه الغائب والحاضر، وهو الذي يتصرف بالحكمة في جميع أفعاله، والذي يحيط علمه ببواطن الأمور وظواهره، ووصف الله تعالى نفسه فيما بسط من كلامه بأنواع الخلق والقدرة والإبداع والتصوير، كل منها عند التأمل جملة مكتفية بنفسها عن غيرها، ودالة على كثير من صفاته التي استبد بها. فقوله تعالى: (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) والمعنى في قوله: بالحق، أن الحكمة البالغة أوجبت ذلك، ففطرها ليدل على نفسه بها ويظهر من آثاره العجيبة فيها ما تحقق إلهيته وتثبت قدمه، وربوبيته ويظهر أن ما سواه مدبر مخلوق ومسخر مقهور، وأنه الحق يتم له ما أحدثه، وأنشأه لا بباطل، ووجبت له العبادة من خليقته بقول فصل لا بهزل، فحجته بينة وآياته محكمة، لا تخفى على الناظر، ولا تلتبس على المتأمل الباحث إذ كانت الأبصار لا تدركه، والحواس لا تلحقه، فعرف عباده قدرته، وألزمهم بما غمرهم من منافعه ونعمة عبادته، فلا مانع لما منح، ولا واهب لما منع، أو حرم تسليماً لأمره ورضي بحكمه. فالمصور جل شأنه عالم بالأشياء قبل كونها وبعده، وقادر على كل ما يصح أن يكون مقدورا، وهو حيّ بنفسه قيوم بخلقه، وغني لا حاجة به إلى غيره في شيء من إرادته، وحكيم لا يجيل الفكر في كل ما يأتيه ويفعله، بل لا يفعل إلا ما هو حسن وواجب في الحكمة والصواب، فتعالى الله وجل علوا كبيرا عن صفات المخلوقين.

فالله سبحانه وتعالى هو المصور الذي يصوركم في الأرحام كيفما يشاء وهذا توحيد المشيئة ووصف الهوية بالعزة فهو لم يلد ولم يولد فهو العزيز القادر إذ كان هو الذي صورنا في الأرحام من غير مباشرة "إذ لو باشر لضمه الرحم كما يضم القابل للصورة ولو لم يكن هو المصور لما صدقت هذه النسبة وهو الصادق فإنه ما أضاف التصوير إلى غيره فقال كيف يشاء أي كيف أراد فظهر في هذه الكيفية أن مشيئته تقبل الكيفية مع نعته بالعزة ثم بالحكمة والحكيم هو المرتب للأشياء التي أنزلت منازلها فالتصوير يستدعيه إذ كان هو المصور لا الملك مع العزة التي تليق بجلاله فحير العقول السليمة التي تعرف جلاله وأما أهل التأويل فما

حاروا ولا أصابوا أعني في خوضهم في التأويل وأن وافقوا العلم فقد ارتكبوا محرماً عليهم يسألون عنه يوم القيامة هم وكل من تكلم في ذاته تعالى ونزهه عما نسبه إلى نفسه ورجح عقله على إيمانه وحكم نظره في علم ربه ولم يكن ينبغي له ذلك"[٥٦٧].

ولقد خلقناكم ثم صورناكم، الخلق تهيؤ للكينونة، والتصوير إظهار لما هو كائن، أي خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور بصورته المخصوصة ثم صورناه، والمقصود من خلقه وتصويره تعمير الأرض بأولاده فكان خلقه بمنزلة خلق أولاده، والمعنى خلقنا أباكم آدم عليه الصلاة والسلام طيناً غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ثم صورناكم على هيئة أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام. والله سبحانه وتعالى أسبغ نعمه على الخلق، ثم خلق لهم ما في الأرض جميعا من المنافع، ثم أتبع تلك المنفعة بأن جعل آدم خليفة في الأرض وأمر الملائكة بالسجود له، والمقصود هو تقرير هذه النعم العظيمة. إن الله سبحانه وتعالى هو المصور الذي أوجد الموجودات وصورها، وموضع الإنسان منها في أعظم مكانة، والله تعالى هو الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود، وقد جمع كلا الخلقين في قوله تعالى: {والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٥٦٨]، أي خلقها زينة لتركبوها، وهو بمعنى التزين قيل: وأما لزوم تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة وكون الحكمة في خلقها وكون ذلك هو المقصود الأصلي لنا فلا ضير فيه لأن التجمل بالملابس والمراكب لا مانع منه شرعاً وهو لا ينافي أن يكون لخلقها حكم أهم من الزينة كالجهاد عليها وسفر الطاعات والانتقال من مكان إلى مكان، فكانت صورتها تلائم طبع الإنسان بقبوله لها، وكذلك ذكر خلق ما لا نعلم وهذا من الغيبيات، وذكر ما جاء به الخبر المتواتر من العقليات التي أخبر بها الكتاب والسنة كالملائكة والجنة والنار ومشاهد يوم القيامة، كل ذلك صوره

[٥٦٧] – الفتوحات المكية، ج ٤ ، ص ٦٤

[٥٦٨] – النحل ٥– ٨

البارئ المصور جل جلاله وفق مشيئته. فالمدركات الحسية المادية نعرف صورها وفق ما صورها الخالق، وأكرمها الإنسان الذي أبدعه في أحسن تقويم، وأما المعقولات العلوية، فقد صورها المصور وفق المشيئة أيضا ولكن لكل عاقل أن يرسم لها صورة ذهنية بما علم من أوصافها مما جاء به الخبر المتواتر من الكتاب والسنة مثل ما ذكرنا من مشاهد يوم القيامة والجنة ونعيمها والنار وجحيمها، حيث رسم لنا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف صورة ذهنية تتفاوت من عقل إلى عقل بما أوتي صاحبه من إدراك وتحليل وربط الصور الجزئية بعضها ببعض ليصل إلى صورة مركبة للمشهد الواحد، وأما النوع الثالث من الخلق الذي لابد وأن له صورة، بصرف النظر عن نوعها جزئية كانت أم مركبة فهو مما استأثر به المصور عز وجل كونها من الغيبيات التي قال فيها (ويخلق ما لا تعلمون). ثم أوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وإيجاد هذه الأشياء على سبيل الإبداع ولها صور خارجة عن الحس والذهن. والأمر الذي يهمنا فيما نحن بصدده هو إبداع المبدع وتصويره لمخلوقاته وبرئها، وهو إيجاد الشيء لا عن شيءٍ موجود من قبل. والخلق في أكثر الأحوال يقال في إيجاد الشيءِ من الشيءِ قبله كخلق الإنسان من التراب، ويقتضي تركيباً ولذلك قال اله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٥٦٩] فالله تعالى خلق الشيء، وصور من كل شيء صنفين ونوعين متميزين بالخصوصية كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والبر والبحر، والسهل والجبل، والإنس والجن، والنور والظلمة، والأبيض والأسود، والدنيا والآخرة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر، والموت والحياة، والرطب واليابس، والجامد والنامي، والناطق والصامت، والحلم والقهر، والجود والبخل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والضحك والبكاء، وهكذا يمكن العد إلى النهاية (نهاية ألعاد أو نهاية المعدود)، ولهذا فالقاعدة هي: (الخلق زوجي لا فردي). قال تعالى:

---

[٥٦٩] – الذاريات ٤٩

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[٥٧٠] وهنا نتبيَّن خلق وتصوير سائر نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، وقد ذكر لفظة (كل) للإحاطة بجميع أزواج النبات و(كم) لكثرة المحاط به من الأزواج، والكريم، من كل شيء خلق، وأن كل شيءٍ من المبدعات المصورات فتامٌّ لا نقص فيه، ولو كان فيه نقص لدل ذلك على نقصان مبدعه وصانعه، فأَما المخلوق الذي هو مركب من المادة والصورة فقد يحتمل أن يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضا من جهة ما تركب منه لا من جهة مركِبه وفاعله.

ولأن المصوِّر واحد، فكان من خلقه المثنى الزوجي، ولذا لا مصور بالمطلق واحدا أحدا إلا هو، واحدا لا يتعدد، وأحدا لا يتكرر بالمثيل والشبيه ولا مركب ولا متجزئ، إنه مصوّر الشيء، ومصور الأشياء مما صوّر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[٥٧١] فهو خطاب إلى الخلق العاقل وتذكيرهم بإبداع الله لهم وتصويرهم على أحسن صورة خلقها الله لذلك كان الخطاب للعاقل: يا أيها الناس إن كنتم فى شك من بعثنا لكم بعد الموت ففي خلقكم الدليل على قدرتنا على البعث، فقد خلقنا أصلكم من تراب، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، ثم جعلنا في صلبه نطفة لتنتشر منه ذريته هو وزوجه، وحولنا تلك النطفة بعد مدة إلى قطعة دم متماسكة، ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الإنسان، أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا على الإبداع والتدرج فى التكوين، والتغيير من حال إلى حال، ونسقط من الأرحام ما نشاء، ونقر فيها ما نشاء، حتى تكمل مدة الحمل، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة بصورة مكتملة ومنكم بعد ذلك من يتوفى، ومنكم من يمد له عمره حتى يصير

---

٥٧٠ – الشعراء ٧

٥٧١ – الحج ٥

إلى الهرم، ومن بدأ خلقكم بهذه الصورة فلا إعجاز في إعادتكم وخلقكم مرة أخرى بصوركم هذه أو بخلافها.

إن من حكمة المصور جل شأنه، أن ماهية كل شيء تحصل بصورته التي يتميز بها عن غيره، كصورة الفرس والنخلة والجبل ونحوها. ولمَّا كان الإنسان مكون بدني يتجزأ إلى أعضاء تتجزأ، ومكون نفسي يتنوع ويتعدد، ومكون روحي ثابت، لذا يعد الإنسان مكوّن مركب وفي تركيبه أحسن صورة ركبها الله كيف ما يشاء سبحانه جل جلاله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٥٧٢]، ولأنه كذلك هو المصور في أحسن صورة من المصور المطلق قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٥٧٣]، أي أنه المقوّم بالبدن والروح والنفس، ولهذا كان المؤهل لأن يكون الخليفة في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[٥٧٤]، كما نبه الله تعالى عليه بقوله: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[٥٧٥]. ولأنه خلق مركبا وفي أحسن تقويم، كانت له صورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة وظهور الجوارح وإلى ما هنالك من الصفات المحسوسة التي تميز صورة الإنسان عن غيره من المخلوقات المصورة ماديا،

---

[٥٧٢] الانفطار ٦ ـ ٨.

[٥٧٣] التين، ٤.

[٥٧٤] البقرة، ٣٠ . ٣٥.

[٥٧٥] – ص ٧١– ٧٢

وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والروية والنطق والمزاج الرائع عندما يكون من المستخلفين، فلذلك قالوا: الإنسان هو العاقل الناطق، ولم يعنوا بالناطق اللفظ المعبر به فقط، بل عنوا به أيضا المعاني المختصة بالإنسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق فقد يعبر عن جملة الشيء بأخص ما فيه أو بأشرفه أو بأوله، كقولنا سورة البقرة وزعيم القوم وشيخ القبيلة ونحو ذلك، فالإنسان يقال على ضربين عام وخاص، فالعام أن يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم والمعرفة بصرف النظر عن قيمة العلم والمعرفة وإنما هو الإنسان المتمثل هيئة وشكل وصورة كما قال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[٥٧٦] والخاص أن يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتا بعيدا كما هو حال الخليفة مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٥٧٧] فكلاً من الإنسان في آية المنافقون وآية الحشر له صورة ومادة متطابقة مع الآخر من حيث التصوير المادي، ولكن يختلف هذا التطابق ويتباعد ويفترق عند مقاربة الصور النفسية والروحية، وبحسب تحصيله من الصورة المعنوية التي تتمثل في النفس والروح يستحق الصورة الإنسانية وهي تعاطي الفعل المختص لصورة الإنسان فيقال فلأن أكثر إنسانية، وكما يقال الإنسان على وجهين عام ويراد به من في قوة نوعه استفادة الحق والخير والشر وهي انعكاسات الصورة الروحية بما يحمل من العقل، كقولك الإنسان هو الكاتب دون الفرس والأسد على الرغم من أن كل منهم يحمل صورة لها أبعادها غير أن الذي زين صورة الإنسان وأفرده عن بقية المصوَرات هو العقل، أي هو الذي في قوته استفادة الكتابة، وهذه الصورة العاقلة الكاتبة التي صورها المصور إنما هي على وجهين: عام ويراد به جميع الخلق

---

٥٧٦ – المنافقون ٤

٥٧٧ – الحشر ٩

الذين خلقهم الله تعالى وصورهم، فهم جميعا متعرضون لارتسام أوامر الله ارتسم أو لم يرتسم وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}[٥٧٨] فهذا في عموم الخلق الذين برأهم الله وصورهم وهو استحضار قهر وجبروت كونهم عبيدا مملوكين للمصور، وخاص وهو المرتسم لأوامر الله تعالى كما هو حال الخليفة مصداقا لقوله سبحانه: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}[٥٧٩] فهؤلاء عباد حافظوا على العهد الذي أعطوه للمصور الذي ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة، وكذلك يقال في بقية الصور المعنوية غير الصورة المادية التي تعطي الإنسان هذه الأبعاد المعروفة الشكل، ففي الصور المعنوية حي وسميع وبصير ومتكلم وعاقل كل ذلك على وجهين: يقال عاما وهو لمن له الحياة الحيوانية التي بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الأصوات ولمن يدرك الألوان، ولمن يفهم ويقوم بما يريده، ولمن له القوة التي يتبعها التكليف، والثاني يقال له خاص وهو لمن له الحياة التي هي العلم المقصود في صورته كأحسن تقويم حيث قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[٥٨٠] له السمع الذي به يسمع حقائق المعقولات، والبصيرة التي بها يدرك الاعتبارات، واللسان الذي به يورد التحقيقات، وهي التي نفاها عن الجهلة الكفرة في قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٥٨١] وهنا يجدر بنا الإشارة إلى ثلاث صور برأها الله على ما فيها من الاختلاف والتباين، وكل صورة لها خصائصها وفق ما كلفت به من خلقها وبارئها، وهي الملائكة والإنسان والحيوان، ففي كون الإنسان مستصلحا للدارين فهو من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين بصورته المادية والمعنوية، فالله تعالى أوجد ثلاثة أنواع من الأحياء، نوعا لدار الدنيا وهي الحيوانات، ونوعا للدار الآخرة وهم الملأ الأعلى، ونوعا للدارين وهو الإنسان، فالإنسان واسطة بين جوهرين، وضيع وهو الحيوانات، ورفيع وهو الملائكة، فجمع فيه قوى العالمين وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية

---

[٥٧٨] – مريم ٩٣

[٥٧٩] – الحجر ٤٢

[٥٨٠] – ق، ٣٧

[٥٨١] – البقرة ١٧١

والغذاء والتناسل والمنازعة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات، وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء، ونحو ذلك من الأخلاق الشريفة ووجه الحكمة في ذلك أنه تعالى لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيأه مع ذلك لمجاورته في جنته اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين، فإنه لو خلق كالبهيمة معرى عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته، كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجاورته ودخول جنته. ولو خلق كالملائكة معرى عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى في جوابهم عندما اعترضوا على أن يكون الإنسان خليفة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٥٨٢] فاقتضى علم الله والحكمة الإلهية أن تجمع له القوتان، وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على أن الإنسان دنيوي وأخروي، وأنه لم يخلق عبثا كما نبه الله عليه بقوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[٥٨٣].

اللهم باسمك المصور جعلت لنا الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرتنا فَأَحْسَنَت صُوَرَنا وَرَزَقَتنا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فاجعل لنا الطيبات في كل حين واجعلنا على أحسن التقويم يا من بيده الأمر والمصير يا الله.

اللهم إنك خلقتنا وسويتنا وعدلتنا في أي صورة ما شئت ركبتنا نحمدك ونشكرك فلا تجعل أولادنا من بعدنا من المكذبين وكن بنا وبهم رؤوف رحيم واجعلنا من الأبرار في النعيم ولا تجعلنا من الفجار في الجحيم.

اللهم إنك المصور فصورت لنا الجنة حق لمن اهتدى وأحسن عملا، وأنت المصور فصورت لنا النار حق لمن ضل وأفسد فاجعلنا من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه واجعلنا من المصلحين لا من الضالين والمفسدين فيها وسافكي الدماء.

---

[٥٨٢] – البقرة ٣٠

[٥٨٣] – المؤمنون ١١٥

الغفَّار

الغفَّار هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي بيده أمر كل شيء، ولأن من صفاته تعالى الرحمة وهو رحيم لذا فالمغفرة صفة متضمنة في شمولية صفة الرحمة. فلو لم يكن رحمنا ورحيما ما كان غفوراً وغفَّاراً.

وفي لسان العرب الغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب والعفو عنها والغفَّار جل جلاله ومعناه الستار لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[٥٨٤].

قال ابن القيم في النونية:

وهو الغفور فلو أتى بِقُرابِهَا   من غير شركٍ بل من العصيانِ
لأتاه بالغفران ملءَ قرابِها   سبحانه هو واسع الغفرانِ[٥٨٥].

وقال ابن القيم أيضا: "إن مغفرة الله وتجاوزه عن الذنوب والسيئات فضل منه ورحمة عظيمة للعباد وهو غني عن العالمين، لا ينتفع بالمغفرة لهم لأنه سبحانه لا يضره كفرهم أصلا ولا يغفر لهم خوفا منهم ولا جهلا ولا عجزا"[٥٨٦].

---

٥٨٤ لسان العرب المحيط. ج ٢، مصدر سابق، ص ١٠٠٠.

٥٨٥ النونية، ص ١٤٥.

٥٨٦ منهج الإمام ابن القيم الجوزية، في شرح أسماء الله الحسنى، ص ٣١١.

الغفَّار: "الغفار أبلغ من الغافر، والغفور أبلغ من الغفَّار، والغفار والغفور، التَّام المغفرة الكثير الغفران، والغفران ستر الذنوب وإزالتها"[٥٨٧].

المغفرة لا تتم إلا في مقابل توبة مصداقا لقوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٥٨٨].

الغفَّار: اسم من أسماء الله الحسنى، يُزيل اليأس عن النفوس ويُبقي الأمل فيها، ولذا فإن التعلق بالغفَّار هو تعلق بالرحمن الرحيم. قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٥٨٩]. وقال تعالى: {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما}[٥٩٠].

يقول الشيخ الشعراوي غفر في اللغة: "غطى وستر"[٥٩١].

يقول أحمد عبد الجواد: "الغفَّار هو من يغفر الذنوب مرة بعد مرة وهو كثير الغفران لعباده الذين تابوا إليه واستغفروه فغفر لهم وسترهم لئلا يُفتضحوا يوم الحساب"[٥٩٢].

ومع أن معظم التعريفات تؤيد بأن الغفار هو الستار، إلا أننا لم نتفق معها بالتمام حيث الفارق في الدلالة والمعنى للاسم الغفَّار والستار من حيث الآتي:

. الغفار صفة من صفات الله الحسنى: فهو الذي يحدد الذنب ويكشفه، ويحدد له العقاب، ويحدد له الثواب، ويتحكَّم في أمر كل منها، ومع ذلك يعفو عمن يشاء متى يشاء وكيفما يشاء. فالغفار جل جلاله يُحرِّم الذنب ولا يقبله ولا يقبل بإخفائه إلا بمعاقبة مرتكبه أو بالغفران له.

---

[٥٨٧] عمر سليمان الأشقر، أسماء الله الحسنى. عمّان ، دار النفائس، ٢٠٠٤، ص ٩٠.

[٥٨٨] نوح، ١٠.

[٥٨٩] الزمر، ٥٣.

[٥٩٠] النساء، ١١٠.

[٥٩١] الشعراوي، أسماء الله الحسنى. ص ٢٠٥.

[٥٩٢] احمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. القاهرة. دار الريان للتراث، ص ٥٤.

. الستار: لم يكن من أسماء الله الحسنى المتفق عليها ولم يرد في نص من الكتاب، وهذه الصفة تعني: إخفاء الذنب وإنكاره حتى لا يحدث الضرر أو يقع العقاب لمن كان سببا في ارتكابه. ولذا فإن سترة الذنب لا تلغي وجوده بل تُخفيه وتُبقي عليه حتى لا ينكشف أمره، وهذه السترة والإخفاء يمكن أن يتم عن أعين الناس، ولكنه لا يمكن أن يُخفى عن عين الله التي لا تنام مما يجعل له العقاب أجلا أم عاجلا، وذلك فإن إخفاء الذنب يميل إلى إنكاره أكثر من ميله إلى تصحيحه أو إصلاحه.

ولذا فالغفار يمحو الذنب ويزيله حقيقة إلى الأبد، أما الستار الذي لم يكن من أسماء الله الحسنى فيخفي الحقيقة ويحجب أمرها كي لا تتكشف حتى لا يكون العقاب وفقا للنصوص القانونية أو العرفية أو الشرعية. إنها سترة بين البشر، فحالها كحال الملابس التي بها تُستر العورات، فالملابس بسترتها للعورات لا تلغي وجودها بل تسترها فقط دون أن يكون لها أثر فاعل على طمسها أو تغيير أحوالها فتظل هي كما هي. أما الغفَّار فبمغفرته لا يترك الذنب هو كما هو، بل يغير حال مرتكبه من الحالة السالبة إلى الحالة الموجبة، أي من حالة الجزاء بالعقاب إلى حالة الجزاء بالثواب.

وعليه فالستار هو من يُبقي ويحافظ على الحالة حتى لا يزداد التوتر بشأنها، والغفَّار هو الذي يُنهيها بإصلاح أمرها أو يعاقب مرتكبها بما ينبغي أن يعاقب به.

من يُستِّر على ارتكاب الذنب، يلحقه ذنبا بشأنه، ومن يغفر ذنب يجازي عليه بالثواب. وفي مقابل ذلك من يكشف ذنبا أو جريمة ويعمل على تقويمها أو تقويم مرتكبها يجازى من الله تعالى ثوابا.

قال تعالى: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا}[٥٩٣]. الحجاب المستور هو الذي يحول بين الطرفين فيجعل أحدهما مكشوفا للعيان والآخر محجوبا عنها، ولذا فالحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولكنه يستره، مما يجعل الحجاب المستور هو

---

[٥٩٣] الإسراء، ٤٥.

الذي يحول بين الطرفين فيجعل إحداهما مكشوفا للعيان والآخر محجوبا عنها، ولهذا فإن الحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولكنه يستره إلى حين زوال الخطر.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "لما نزلت سورة (تبت يدا أبي لهب) أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه ابوبكر رضي الله عنه فلما رآها ابوبكر قال: يا رسول الله لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لن تراني) وقرأ قرآنا فاعتصم به وقرأ قوله تعالى: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا أبا بكر أُخبرت أن صاحبكم هجاني فقال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها"[٥٩٤].

والحجاب المستور له صفتان هما:

الصفة الأولى: إنه المستور في ذاته حيث لا تراه الأبصار.

والصفة الثانية: إنه يحجب الرؤية عمن خلفه أي مع أنه يستر من يكون من خلفه فهو غير قابل لأن يشاهد.

ولذا فإن الستار هو من يحجب الحقيقة ولا يكشف أمرها في زمن تستُّرِه عليها، وفي الوقت نفسه فإن فعل السترة غير قابل للمشاهدة، مما يجعل هذه الصفات ليس بصفات الغفَّار الذي يكشف الأمر ويجازي عليه بِقلب أمر العقاب ثوابا.

وعليه فالحجاب في دائرة الممكن المتوقع يمكن أن يكون على حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون ساترا ومستورا. أي مع أنه يحول بين الهدف وبين من يريد بلوغه إلا أنه غير قابل للمشاهدة مصداقا لقوله تعالى: {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا}[٥٩٥].

---

[٥٩٤] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. مصدر سابق، الجزء العاشر، ص ٢٦٩.

[٥٩٥] الإسراء، ٤٥.

الحالة الثانية: أن يكون ساترا مكشوفا، وهو كالملابس التي يرتديها الإنسان لتستر بدنه وعوراته التي هي جزء من جسده مما يجعل الملابس تُرى بالعينين وتحول بين الرؤية والمستهدف، وكذلك كجدران المنازل التي تستر أفراد الأسرة وحركاتهم عمن لا يكون محرما.

بناء على ما تقدم فإن الغفار أعظم شأنا من الستار، فالله لا يخاف من أحد ليستره أو يتستر عليه كما هو الحال بين البشر، ولا يجامل أحدا ولا يطمع في أحد ولا تربطه علاقة خاصة بأحد سوى الذين يرتبطون به إيمانا تاما ووحدانية تامة ولذا فهو يغفر الذنوب والعيوب ولا يقصر أمره على سترتها.

السترة بين الناس هي عدم إظهار العيوب والنقائص، فهم الذين يَقدِمون عليها وهم الذين يسعون لإخفائها حتى لا تترتب الفتنة عليها.

والمغفرة لا تتم إلا بعد كشف الفعل أو السلوك المحرَّم أو المجرَّم إنسانيا واجتماعيا ثم إعلان التنازل إرضاءاً إراديا عما يترتب عليه من عقاب أو قبول ثمن يعوِّض ما تركه الجرم أو الذنب من أثر سالب على نفسية أو سمعة أو كرامة الفرد أو الجماعة أو المجتمع.

الغفّار بالإضافة هو الذي يتجاوز عن الذنب بعد كشفه وإظهاره وتحديده وتحديد المترتب عليه، وتقديم الطاعة والاعتراف به وبالحق الذي من أجله ولذا جُعِل العقاب قيمة مرضية لمن ظُلِمَ وجزاءا مناسبا لمن ظَلَمَ.

الغفار هو من يمتلك الأمر، (أمر العقاب وأمر المغفرة والثواب) فهو الذي لا ينوب عنه أحد ليحل محله أو يشاركه في أمره. ولذا لا يغفر الذنب إلا الذي بيده الأمر بعد تبيُّن ومُحاقَّه وتنفيذ العدالة.

المغفرة صفة مترتبة على الفعل الإعفائي كما يترتب الفعل الإعفائي على التوبة مصداقا لقوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون}[٥٩٦] أي أن الله جل جلاله يقبل توبة من يعود إليه بعد ارتكاب الذنوب، فأبواب رحمته الواسعة مفتوحة ولا

---

[٥٩٦] الشورى، ٢٥.

تُقفل أبدا في وجه من يرتضي توبة عن معصية أو ذنب أُرتكب، فالتوبة عودة إلى الله تعالى، يترتب عليها إعفاء منه (من الله عز وجل) لمن اعترف بذنبه وحاد عنه بالالتجاء إليه تعالى.

عن على رضي الله عنه قال: "التوبة اسم يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته"[٥٩٧].

والذي يؤدي ببني آدم إلى بلوغ المغفرة هو التوبة والعفو والإصلاح مصداقا لقوله عز وجل: {وليعفوا وليصلحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم}[٥٩٨] أي من يُحب رغبة أن يغفر الله له ذنبه فعليه بالتوبة والعفو ويُصلِح ولا يُفسد. قال تعالى: {وليعفوا وليصفحوا آلا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}[٥٩٩]. المغفرة صفة حسنة تترتب على العفو المترتب على التوبة والمترتب عليه الصفح والإصلاح، وعليه فمن أراد مغفرة فعليه بالآتي:

. الاستغفار:

طلب المغفرة من الله على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو لِما قام به من عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لِما ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُحيِّده عن إيمانه به تعالى.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}[٦٠٠] في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط بها. وقال جل جلاله: {وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قومي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من

---

[٥٩٧] تفسير البيضاوي. مصدر سابق، ص ٦٤٢.

[٥٩٨] النور، ٢٣.

[٥٩٩] النور، ٢٢.

[٦٠٠] هود، ٣.

الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه}[601]. ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن صالحا صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى ثمود، ليحرضهم على عبادة الله واحد أحد، أما قوله (أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها) تأكيد على أن أصل خلق الإنسان من تراب، والأرض هي الأصل وهي مصدر الرزق والعيش، ولهذا فالاستخلاف فيها لأجل إعمارها بالبناء والعيش من خيراتها الوافرة التي تتطلب من الخليفة أن لا يغض بصره عن مكامن الخيرات فيها ويعمل ليتطوَّر ويشبع حاجاته طوال عمره حتى النهاية. والاستغفار هو ذكر الله دائما بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكُّر عن غفلة أو انقياد للشهوة على حساب التمسك بالحق. والتوبة هي: عودة إلى الله بالتصديق دون شك فيما يقول. ولهذا جاء الاستغفار مقدما للتوبة، أي أن الاستغفار إذانا بإعلان التوبة.

وقال تعالى: {واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إنَّ ربّي رحيم ودود}[602] كما سبق أن بينا في الآيات السابقة، جاء الاستغفار أولا ثم التوبة ثانية والاستغفار والتوبة يُقدِّمان طاعة لرحيم ودود لتكون الإجابة المغفرة.

. التوبة:

التوبة تصحيح أخطاء والتمسك بالصواب المُرضِي لله تعالى، فالتوبة حق وواجب على المؤمنين جميعا، مصداقا لقوله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[603]. ولأن الكمال لله وحده، فالإنسان مع أنه خلق في أحسن تقويم إلا انه لم يكن كاملا، ولذا فهو مُعرَّض لأن يقع في الأخطاء، ولأنه يتذكر ويتفكر فهو قادر على أن يصحح أخطاءه كلما تداركها بالإيمان.

قال جل جلاله: {أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم}[604] أي من عمل خطيئة وهو لا يعلم بعاقبة الأمور المترتبة عليها نتيجة جهله بمعرفة

---

[601] هود، ٦١.

[602] هود، ٩٠.

[603] النور، ٣١.

[604] الأنعام، ٥٤.

الحقيقة ثم عاد عن ارتكاب الخطيئة إلى التمسك بما هو صواب وحق فإن الله غفور رحيم. فالله عظيم ليس لديه حاجة لأن يخاصم العباد، ولذا فالمغفرة خاصية لله تعالى، ولأنها خاصية إذن بطبيعة الحال سيكون غفورا لمن يكفر بالذنوب والخطايا ويتوب إليه عز وجل.

قال تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}[٦٠٥]. الغفَّار هو القادر على التجاوز عن الأخطاء، وغفران الذنوب والخطايا، وهو الذي يمتلك أمر المغفرة لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحا يرضاه. وقوله تعالى: (وإني لغفار) تعود على ذات الله الذي بيده الأمر فيغفر لمن يشاء ويعاقب من يشاء بيده الخير وهو الرحمن الرحيم. وهذه الآية تدل على أن أمر مغفرة الذنوب والخطايا بيد الله وحده ولا أحد غيره قادر على أن يغفر ذنبا أو خطيئة، ولذا فمن أراد أن يُغفر له فعليه بالتوجه إليه جل جلاله وأن يتوب أولاً ثم يؤمن ثم يعمل عملا صالحا حتى يهتدي وينال المغفرة من الله تعالى. وعليه لا مغفرة إلا بتوبة وإيمانٍ وعملٍ صالحٍ وهدايةٍ، وبدون هذه مجتمعة فلا مغفرة، فالمغفرة ليست أمراً هينا بل هي مطلبا يسعى المؤمن لنيله من الغفار الحق؛ ومن يظن أنه بإمكانه الحصول عليها متى ما يشاء فنقول له هذه قد لا تَهِب لك، فعليك من بعد التوبة بالإيمان والعمل الصالح والهداية وإلا لن تنال من أمر المغفرة شيئا.

وقال عز وجل: {والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك بعدها لغفور رحيم}[٦٠٦] الذين عملوا السيئات هم الذين تابوا من بعد أن ارتكبوها، ولذا فإن التوبة هي عودة منحرف عن انحرافه أي العودة إلى التمسك بما أمر به الله تعالى والابتعاد عمَّا نهى عنه. يتضح من هذه الآية الكريمة أن أمر المغفرة مترتب على ما يسبقها من أعمال إيمانية.

قال تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب}[٦٠٧]. لهذه الآية عمومية مطلقة بأن الله يتوب على من يشاء متى ما يشاء بعد أن يتوب العبد عن أفعال

---

[٦٠٥] طه، ٨٢.

[٦٠٦] الأعراف، ١٥٣.

[٦٠٧] النساء، ١٧.

السوء التي ارتكبها بجهالة، والذين يتوبون من قريب هم الذين لم يبلغ الأمر بهم للشرك به، أي ما دون الشرك حيث باب التوبة مفتوح، وهذا الأمر يتعلق بإعطاء الفرص للمؤمن المُدرِك لأمر ربه قبل فوات الأوان عليه بالموت أو ارتكاب المعصية الكبرى والشرك.

(إنما التوبة على الله) تتضمن ضمانا تاما ومؤكدا بأن الله سيغفر للذين يعملون السوء عن جهالة وليس عن وعي ويقين وبيِّنة مع الإصرار، بل لأنهم جهلاء بما سيترتب عليها من عقاب وغضب من الله مما يجعلهم يقدمون عليها ويرتكبونها، ومن بعد أن يعوا ويعرفوا حقيقة الأمر يتوبون ويكفِّرون عن سيئاتهم ويؤمنون ويهتدون إلى الحق ويبتعدون عن الباطل بعدها حقا يجدون الله غفارا ودودا رحيما.

. اتباع السبيل:

هو السير على الطريق الحق بالتمسك بما أمر الله به والحياد أو الابتعاد عما نهى عنه، واتباع سنة رسوله الكريم مصداقا لقوله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[٦٠٨]. وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأعلم بالقرآن وإعجازاته الواردة في كل آية من آياته الكريمة، ولا أحدا يعلم بأمر القرآن وأبعاده الإعجازية إلا من بعده، ولهذا اتباع الرسول اتباع للحقيقة.

وسبيل الله في لسان العرب: "طريق الهدى الذي دعا إليه"[٦٠٩] قال تعالى: {فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم}[٦١٠]. تعود هذه الآية بِدُعائها على الذين يحملون العرش من الملائكة وهم يدعون الله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيل الهدى بالقول والفعل عبادة. ولذا فسبيلك تعني: طريق الحق الذي أنت ارتضيته للعالمين.

والمستخلفون في الأرض هم الذين ينتهجون سبيله تعالى في تنظيم حياتهم الاجتماعية والإنسانية بما يُقدِّر الفرد والجماعة والمجتمع بكامله، من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدى

---

[٦٠٨] الحشر، ٧.

[٦٠٩] لسان العرب المحيط. ج ٢ ، ص ٩١.

[٦١٠] غافر، ٧.

ومسؤوليات يتم حمْلها. ولذا فمن يتبع سبيل الله يعمل صالحا ويؤمن به ولا يُشرك ويقول الحق ويفعله في كل مكان وحين.

قال تعالى: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى}[٦١١]. تأكيدا بأن الله يعلم بكل أمر فهو يعلم بأمر من استجاب له بالطاعة، ويعلم بأمر من عصى ولم يستجب للإيمان، ويعلم بأمر من آمن ثم ضل، ويعلم بأمر من آمن ثم ضل ثم اهتدى. والحديث في هذه الآية موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أن لا يهتم بأمر من ضل ولم يهتدِ وعصى وفضَّل الحياة الدنيا على الحياة الآخرة.

فالله يعلم حقيقة بيِّنة بمن ضل عن سبيله، ولذا فهو الأعلم الذي لم نؤت من علمه إلا قليلا، فنطلبه أن يزيدنا علما ويقينا لنكون من المصلحين الصالحين. وفي الوقت ذاته فإن الله أعلم بمن اهتدى، اللهم اجعلنا من المستخلفين في الأرض الذين اهتدوا ولن يضلوا سبيله.

قال عز وجل: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}[٦١٢] هذه الآية تعني: قل يا محمد هذه سنتي ومنهاجي الذي ارتضيت فبه آمنت عن بينة ويقين وآمن به من اتبعني من المؤمنين فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، لا شريك له فالحمد والشكر له أنني لم أكن من المشركين.

وعليه فإن حظ الخليفة أن يدعو إلى الحق الذي ارتضاه الله تعالى، وأن يحرض الذين تربطه بهم علاقات أبوة أو إخوة أو قربى أو جيرة أو علاقات تعليم وتعلم أو عمل أن يدعوا بالمعروف إلى سبيل الله بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ـ الإيمان:

تصديق عن بيِّنة بأن الله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ولا محل للظنون ولا الشكوك فيما قاله جل جلاله.

---

[٦١١] النجم، ٣٠.

[٦١٢] يوسف، ١٠٨.

وفي لسان العرب الإيمان: الثقة التي تُمكِّن من تحقيق الطمأنينة[٦١٣]. قال تعالى: {وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون}[٦١٤] أي كلما جاءتهم آية أو تُليت عليهم ازدادوا تصديقا لكل ما تُلي عليهم من الآيات مسبقا وذلك لعدم وجود تناقض في آيات الكتاب الحكيم المحفوظ الذي لم يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

سأل رجل الحسن فقال: "يا أبا سعيد؛ أمؤمنا أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم . إلى قوله . أولئك هم المؤمنون حقا) فوالله ما أدري أنا منهم أم لا"[٦١٥].

قال جل جلاله: {وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم}[٦١٦]. الإيمان ثبات على المعتقد المُوحِّد لله تعالى، ولذا فهو الرسوخ في المعتقد والثبات عليه دون تبدل، فالإيمان بالله تعالى وعدم الشرك به إيمانا ثابتا راسخا مثلما هو واحد أحد، ولهذا فإن قوله تعالى: (ما كان الله ليضيع إيمانكم) تعود على الذين آمنوا بالله وهم يصلون إلى بيت المقدس. قبل أن تُغير القِبلة إلى البيت الحرام؛ إن تغير القبلة لا يعني تغير الرب الواحد الأحد، فالرب الذي يصلون إليه ثابت لم يتغير، والقبلة تغيرت إلى الكعبة وهي بيت الله الحرام. قال الترمذي عن ابن عباس قال: "لما وُجّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ما توا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: (ما كان الله ليضيع إيمانكم)"[٦١٧]. ولأن القِبلة هي مجمع الالتقاء على التوحيد لله تعالى ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام جاءت للناس كافة، فكان تغيير الاتجاه ضرورة بعد أن كُسِّرة الأصنام من قبل والتي كانت علامة من علامة الفرقة بين العباد.

---

[٦١٣] لسان العرب المحيط. ج ١ ، ص ١٠٧.

[٦١٤] الأنفال، ٢.

[٦١٥] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السابع، ص ٣٦٧.

[٦١٦] البقرة ، ١٤٣.

[٦١٧] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثاني، ص ١٥٧.

. العفو:

العفو قيمة أخلاقية تُظهر الفضل بين الناس لتجعل بينهم مودة ورحمة. قال تعالى: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦١٨]. فالعفو يعني: عدم مؤاخذة من ارتكب ذنبا حيث أن أمر الله آتٍ لا محالة، والصفح يعني: إزالة ما تُرك في النفس من سيئات وأثر فمع أنَّ الله غفور رحيم إلا أنه شديد العقاب، ولذا أتى أمر الله بقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير[٦١٩].

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٦٢٠]

هناك استغراب ضمني في بداية هذه الآية فكأنها تقول بأي رحمة أنت يا محمد قد لنت لهم!. ولهم: تعود على الذين ولَّوا يوم أُحد[٦٢١]، الذين يعود عليهم لين محمد صلى الله عليه وسلم، حيث مع أنهم ولوا إلا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يغلظ عليهم، إي لم يشتد ويقسو عليهم، ولذا كان معهم لينا، ولو كان غليظ القلب بالقسوة والشدة لتركوه وابتعدوا عنه ولم يعودوا له ثانية، في هذه الآية الكريمة ظهر تسامح محمد صلى الله عليه وسلم، وطيب نفسه، وبعد نظره، وحنكته وخبرته في أمور النفس بإعفائه عنهم واستغفاره لهم.

وقوله (فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) جاءت بصيغ أوامر ثلاثة:

أولا : أمر العفو عنهم فيما يختص بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثانيا : أمر الاستغفار لهم فيما لله عليهم من تَبِعَة.

ثالثا : أمر مشاورتهم في الأمر. كلمة الأمر جاءت مطلقة، ولذا فهي تعني: أي أمر يتعلق بهم، ينبغي أن لا يفرض عليهم شيء فيه، فالسلم أمر، والحرب أمر، والسياسة الداخلية أمر،

---

[٦١٨] البقرة، ١٠٩.

[٦١٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. مصدر سابق، الجزء الثاني، ص ٧٣.

[٦٢٠] آل عمران، ١٥٩.

[٦٢١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الرابع، ص ٢٤٨.

.

والسياسة الخارجية أمر، وكل ما يتعلق بمصائرهم وحياتهم فهو أمر يخصهم فلا يجب فرض شيء عليهم وهم له كارهون.

قال أعرابيٌّ: "ما غُبنت قط حتى يُغبن قومي؛ قيل: وكيف ذلك؟ قال لا أفعل شيء حتى أشاورهم"[٦٢٢].

قال تعالى: {وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلكم لعلكم تشكرون}[٦٢٣]. فبعد أن اتخذ اليهود العجل إلها من بعد مضي موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه وتابوا عفي الله عنهم.

والعفو في دائرة الممكن قد يكون بعد العقوبة وقد يكون قبلها، أما الغفران فتبرئة بدون عقوبة.

وبما أن الله عفو رحيم ورسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه عفو يحب العفو، إذن من حظ الخليفة أن يكون عفوا مع الذين تربطه علاقة بهم ومع الذين يسعون للهداية. فالعفو قيمة أخلاقية كلما سادت بين الناس كلما ساد التسامح بينهم في غير معصية الله تعالى، ولذا فمن عفا وأصلح فأجره على الله. وليعلم المؤمن أن الناس خطاؤون وأنهم لم يُخلقوا ملائكة مبرَّؤون، وليعلم أن العفو مقوٍ للعلاقات بين الناس وموحد للمؤمنين على الكلمة السواء، فمن أراد خيرا فعليه بالعفو.

. العمل الصالح:

هو الذي لا يترك في الأرض فسادا، ويُطفئ نار الفتنة كلما اشتعلت، ويقوي العلاقات ويغرس المحبة بين المستخلفين في الأرض، وينمي كل ما من شأنه أن يشبع حاجةً بالحق حتى يتمكن المخلوق من لقاء ربه. قال تعالى: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}[٦٢٤]. لقاء الله لا يتم إلا بالعمل الصالح، ولذا فمن أراد هذا اللقاء فعليه به، وأن يعبد الله ولا يشرك بعبادته أحدا.

---

[٦٢٢] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع، ص ٢٥٠.

[٦٢٣] البقرة، ٥١، ٥٢.

[٦٢٤] الكهف، ١١٠.

قال عز وجل: {إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا}[٦٢٥].

في هذه الآية علاقات ثلاثة تُدخل الجنة ولا تنقص شيئا:

الأولى العلاقة مع الثواب. فالثواب رحمة من الله تعالى على عباده المستخلفين في الأرض، ولهذا يقولون: التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الثانية العلاقة مع الإيمان. الإيمان بالله تعالى واحد أحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة هذا الإيمان يدخل الجنة حتى ولو كان بعد جهل أو ارتكاب ذنب.

الثالثة العلاقة من العمل الصالح. قال تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}[٦٢٦].

وقال جل جلاله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم}[٦٢٧] في هذه الآية استثناء للذين تابوا بعد ارتكابهم الذنب بقذف المحصنات الذي ورد ذكره في الآية الرابعة من سورة النور. والذين أصلحوا: هم الذين عرفوا أخطاءهم وأصلحوا أحوالهم بالابتعاد عنها وعدم تكرارها ثانية، أي أنهم كفَّروا عن سيئاتهم فتاب الله عليهم بتوبتهم إليه.

وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[٦٢٨] قال سعيد ابن جبير: "الزَّبورِ هو الكتاب (التوراة والإنجيل والقرآن)"[٦٢٩] وقوله تعالى: (أَنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون) الأرض هي الأرض التي منها خلق آدم وزوجه، وهي التي جعل الله فيها الخليفة، الذي أورثه الأرض من بعد آدم عليه الصلاة والسلام. والعباد الصالحون هم الذين يعملون أفعال الخير ليصلوا فيما استخلفهم الله فيه وهم الذين لا يُفسدون في الأرض. قال تعالى: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده}[٦٣٠] ثم جاءت الإجابة في

---

[٦٢٥] مريم، ٦٠.

[٦٢٦] فصلت، ٤٦.

[٦٢٧] النور، ٥.

[٦٢٨] الأنبياء، ١٠٥.

[٦٢٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الحادي عشر، ص ٣٤٩.

[٦٣٠] الأعراف، ١٢٨.

الآية (أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون)، ولذا فإن مشيئة الله هي التي أورثت الأرض لعباد الله الصالحين، أي الذين لا يُفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق.

وحظ الخليفة في الأرض العمل الصالح، وهو الشرط الرئيس للاستخلاف فيها، فعليه بالعمل الصالح من عمار وقول معروف ونهي عن منكر واجتنابه، فليتعلم ويكد ويجد ويعمل من أجل الإصلاح في الأرض التي منها خُلق ومنها يُرزق، وإليها يعود ومنها يُبعث للحياة الدائمة بقوة الحي الدائم.

. الاهتداء:

توجُّه للحق والطريق المستقيم والسير عليه بعد ضلال وضياع. وفي لسان العرب: "الهُدى ضد الضلال وهو الرشاد"[631] قال تعالى: {إنَّ ربَّك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}[632]. الآية موجَّهة للرسول صلى الله عليه وسلم المراد منه البلاغ والدعوة وليس المراد منه أمر الضلال والهداية والمجازاة عليهما فهذا الأمر خاصية لله تعالى؛ ولذا فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

قال تعالى: {إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم}[633]. الذين آمنوا هم: الذين صدَّقوا بالحق، ويعملون على إحقاقه حتى يبقى، ويعملون على إزهاق الباطل حتى يزول. والذين عملوا الصالحات هم: أهل الخير والفاعلون له، الذين استخلفهم الله في الأرض وجعلهم الوارثين؛ وهم الذين هداهم الله أي أرشدهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه وهو الإيمان به جل جلاله.

قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}[634]. يُفهم من هذه الآية أن المغفرة تتطلب التوبة من الذنب أو التوبة من الشرك والمعصية، والإيمان بالله الواحد القهار، وبالعمل الصالح في الحياة، وبالاهتداء إلى الحق والصراط المستقيم.

---

[631] لسان العرب المحيط، ج ٣ ، ص ٧٨٦.

[632] النحل ، ١٢٥.

[633] يونس، ٩.

[634] طه، ٨٢.

قال تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[٦٣٥] تبين هذه الآية الكريمة أن هداية الله تختص ببعض دون بعض، فمن أراد الهداية اتبع طريقها ومن اختار طريق الضلالة ضل، وما ربك بظلام للعبيد.

. الصفح:

الصفح في لسان العرب: مجانبة الشيء[٦٣٦]. ولذا فإن الصفح هو تجاوز عن الأخطاء والتسامح مع مرتكبيها، والصفح فعل إرادي لا يقدم عليه إلا قادر، وله مقصد من ورأي صفحه كالسترة في الدار الدنيا والرحمة في الدار الآخرة. وفي حديث لعائشة رضي الله عنها تصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صفوح عن الجاهلين[٦٣٧]. أي أنه يعفو ويتجاوز عنهم ويتسامح معهم بسلوكه القدوة الحسنة.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم}[٦٣٨]. إنه قول الحق، فقد كانت الفتنة من بداية الخلق بين ابني آدم هابيل وقابيل حتى قتل أحدهما الآخر وهما على خلاف من يتزوج أخت من. ولذا فالعداء والفتنة قد يوقد نارهما بعض من الأزواج وبعض من الأبناء، وكذلك الصفح والإصلاح قد تُبنى صروحهما بجهود بعض الأزواج وبعض الأبناء، ولهذا جاءت (من) للتبعيض حيث أن الضلالة والهدى بين الناس يمتدان من الشرك إلى الإيمان. واحذروهم تعني: خذوا حذركم منهم حتى تأمنوا جانبهم وغوائلهم وإلا أوقعوكم في الفتنة في الدين والمال وما يترتب على ذلك من ضرر.

ولأن الصفح فيه تسامح فإن العفو عن الذنوب فيه خير لمن عفا عن زوجه أو أبنائه أو غيرهم، وما تخصيص الأزواج والولدان إلا لأنهم أولى بالمعروف.

---

[٦٣٥] الأعراف، ١٧٨.

[٦٣٦] لسان العرب المحيط. ج ٢ ، ص ٤٤٦.

[٦٣٧] المصدر السابق، ص ٤٤٧.

[٦٣٨] التغابن، ١٤.

سبحان الله العظيم ولأنه رحمن رحيم فهو يحب العفو والصفح والغفران مع كل العِداء الذي قد يلاقيه الإنسان المؤمن في حياته. فهل يا ترى سنكون من المُصفحين لأزواجنا وأولادنا لننال الأجر العظيم؟ أو نكون كمن يخربون بيوتهم بأيديهم؟ اللهم تُب علينا وزدنا إيمانا راسخا وعملا صالحا، وهداية طيبة ومغفرة واسعة إنك لا تخلف الميعاد.

هناك روايات كثيرة تتكلم عن أسباب نزول هذه الآية الكريمة التي منها: "ما رواه الترمذي وغيره عن عبد الله ابن بُرَيْدة عن أبيه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران؛ فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: (صدق الله عز وجل إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما) ثم أخذ في خطبته"[٦٣٩]. اللهم اجعل لنا من سيرته القدوة الحسنة.

قال عز وجل: {وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}[٦٤٠]. يقال أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد حلف أن لا ينفق على مُسطح ابن أثاثة وهو ابن بنت خالته الفقير بعد أن وقع أمر الإفك وقال فيه مُسطح ما قال؛ بعدها حلف ابوبكر رضي الله عنه ألا ينفق عليه، فجاء مسطح واعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجالس فاسمع ولا أقول، فقال له ابوبكر لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومر على يمينه، فنزلت الآية: (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)[٦٤١]. ولما نزلت قال ابوبكر رضي الله عنه: بلى أنا أحب أن يغفر الله لي، ورجَّع لمُسطح ما كان ينفقه عليه[٦٤٢].

قال تعالى: {فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين}[٦٤٣]، في هذه الآية أمران هما: أولا: أمر العفو.

---

[٦٣٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر، ص ١٤٣.

[٦٤٠] النور، ٢٢.

[٦٤١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن . الجزء الثاني عشر، ص ٢٠٧.

[٦٤٢] تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت . دار لبنان لطباعة والنشر، ١٩٨٤، ص ٤٦٠.

[٦٤٣] المائدة، ١٣.

وثانيا: أمر الصفح.

وذلك لما في الأمرين من أفعال الإحسان التي يفضلها الله تعالى ويرتضيها لعباده الصالحين. والمترتب على العفو والصفح هو المغفرة، ولذا فمن أراد المغفرة فعليه بهما؛ ولأن من طبيعة البشر يتعرضون لمواقف وظروف واختبارات قد تكون صعبة وقد تكون قاسية على أنفسهم فهم يغضبون ويتألمون ويحزنون ويفرحون ويأملون ويتطلعون وهذه المعطيات تجعلهم يتبدلون من حال إلى حال، ولذا فليدركوا أن هذه الأمور قد تتكرر وأن جميع بني آدم معرضون لها، مما يجعل الصفح قيمة مقدَّرة بين الناس المستغفرين لله عن ذنوبهم وسيئاتهم وفلتات ألسنتهم فلا ينسوا الفضل بينهم وليعلموا أن الله غفور رحيم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ عبدا أذنب ذنبا. فقال: ربِّ أذنبت، فاغفر لي، فقال ربَّه: أعَلِمَ عبدي أنا له ربا يغفر الذنب ويأخُذُ به؟!غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا، فقال: ربِّ أذنبت آخر فاغفره، فقال أعَلِمَ عبدي أنا له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا، وقال: أذنبت آخر، فاغفر لي، فقال: أعَلِمَ عبدي أنَّ له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء"[٦٤٤].

قال ابن القيم: "للعبد أسماء ثلاثة تشتق من المعصية: أحدهما الظالم. كقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}[٦٤٥]. وثانيها: الظلوم. قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٦٤٦]. وثالثها: الظلاَّم. قال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٦٤٧]. وكأنه قال: عبدي لك ثلاثة

---

[٦٤٤] شرح السنة للبغوي، ج ٢، ص ٤١٤.

[٦٤٥] فاطر ٣٢.

[٦٤٦] الأحزاب ٧٢.

[٦٤٧] الزمر ٥٣.

أسماء في الظلم والمعصية ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة، فإن كنت ظالما فأنا غافر، وإن كنت ظلوما فأنا غفور، وإن كنت ظلاَّما فأنا غفار، ثم إن صفاتك متناهية كما يليق بك، وصفاتي غير متناهية كما يليق بي، وغير المتناهي يغلب المتناهي، فلا تكن من القانطين مصداقا لقوله تعالى: (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)"[٦٤٨].

قال تعالى: {وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى}[٦٤٩]. معظم الظن ما ليس بحق، أو ما ليس بصواب حيث قوله تعالى: {إنَّ بعض الظن إثم}[٦٥٠]. ولذا فداود غير متيقِّن بدليل أنه لم يُفتن في شيء بالرغم من ظن بعض المفسرين في قصة امرأة الجندي أو خطيبته الذي أمر داود بإرساله لجبهة القتال حتى مات وتزوجها من بعده وأنجب منها سليمان عليه الصلاة والسلام، وهذا الأمر يتنافى مع أخلاق داود.

فلو كان الظن يقينا كما يظن البعض لكانت الفتنة حقيقة. وهذه تدل على أن ما ظنه داود من الذيِّن تسوَّرا عليه المحراب ليس بصواب، ولهذا خرَّ راكعا وأناب أي رجع مستغفرا تائبا من ظنه إلى الله تعالى فغفر له ذلك الظن، ولأنه تيقَّن الله باستدراكه ما وقع فيه من خطأ فكان مقرَّبا بمقامه وعودته الحسنة، بعد مخافته الفتنة.

قال الشاعر:

فخرَّ على وجهه راكعا وتاب إلى الله من كل ذنب

السجود فعل طاعة يحدث في الحالات الآتية:

الأولى: أثناء الصلاة.

الثانية: إشهار الطاعة المطلقة لله وحده.

الثالثة: للاستدراك من الوقوع في أخطاء السهو كما هو الحال عند الصلاة.

---

[٦٤٨] ابن القيم، المصدر السابق ص ٢١٣.

[٦٤٩] ص، ٢٤ . ٢٦.

[٦٥٠] الحجرات، ١٢.

الرابعة: عند الوقوف على آيات الإعجاز والعرفان أثناء قراءة القرآن الكريم.

الخامسة: عندما يكون الحمد والشكر لله على ما آتاك من فضل.

السادسة: لاستجابة الدعاء.

وقوله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) أي أننا أتيناك ملكا فاعدل به بين الناس، حتى تخلف من سبقك من الأنبياء والصالحين، الذين استخلفهم الله من قبلك. ولا تتبع الهوى فيحيد بك عما جعلناك به خليفة في الأرض.

قال ابن عباس في قوله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) قال: "إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى فلا تشته في نفسك الحق له ليُفلج على صاحبه، فإن فعلت محوت اسمك من نبوئتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي. وألا تميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة أو غيرها"[٦٥١].

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه على أن الحكم العادل يُمكِّن الحاكم من أن يكون خليفة في الأرض، والحكم غير العادل يحيد من الاستخلاف من يراد له أن يكون خليفة. وقوله تعالى: (فاحكم بين الناس بالحق) تنبيه لمن يريد أن يحكم أن لا ينسى أو يغفل عن الحق وهو قول الله عز وجل. ولذا فالحكم بالحق هو الذي يبعد من يحكم بين الناس عن الهوى. وفي هذا الأمر قال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب أنزلناه إليك مباركا ليدَّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب}[٦٥٢].

قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}[٦٥٣]، "ذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن على ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه أن رسول الله

---

[٦٥١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء الخامس عشر، ص ١٨٩.

[٦٥٢] ص، ٢٧ . ٢٩.

[٦٥٣] آل عمران، ١٣٥.

صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبدٍ أذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له ذنبه ثم تلا هذه الآية"[٦٥٤]. بما أن الغفار صفة لله تعالى واسم من أسمائه الحسنى فبدون شك أنه غفَّار الذنوب لمن استغفر وتاب وآمن وعمل عملا صالحا ثم اهتدى.

عن عائشة رضي الله عنها: "عن النبي صلى الله عليه وسلم إنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه"[٦٥٥]. يقصد بالاعتراف أن يعترف بأخطائه بينه وبين نفسه أمام الله ليستغفره ويتوب إليه.

ولأن المغفرة لا تتم إلا بمثوبة، لذا فهي لا تتم إلا باشتراطات العودة عن الذنوب، ومخافة من المظالم والعقاب، وحبا في إحقاق الحق بالعمل عليه والدعاية له، ولهذا من استغفر عن ذنب ارتكبه بنية انعدام العودة إليه ولِما يماثله من ذنوب وخطايا ويتوب إلى الله مخلصا له يجد الله غفورا رحيما. مصداقا لقوله تعالى: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّارا}[٦٥٦] القائل لهم بالاستغفار نوح عليه الصلاة والسلام، المؤمن بالله والداعي لعبادته واحدا أحدا.

الغفَّار: هو الذي بيده الأمر يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فإن غفر تجاوز عن الذنوب والخطايا، وإن لم يغفر كان عذابه شديدا. فالغفران تبرئة من الأفعال المترتب عليها الذنب والخطيئة والعقاب. ولذا فإن الخليفة هو الذي يتوجه إلى الغفار ليغفر له ذنوبه وخطاياه كلما ارتكب ذنبا أو أخطأ في أقواله وأفعاله. قال تعالى: {وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين}[٦٥٧]. أي بالرغم من إيمانهم وثباتهم على الطاعة إلا أنهم يدعون الغفار بأن يغفر لهم إن أخطؤوا.

الغفَّار المطلق هو الله تعالى، والغفَّار بالإضافة هو الخليفة، الذي يغفر لمن يخطئ معه أو يُخطئ في حقه، أو مع الذين يتولى أمرهم ورعايتهم من زوجة أو أبناء قُصَّر بعد مُراضاتهم في غير معصية الله تعالى.

---

[٦٥٤] مسند الطيالس، ج ١، ص ٣.

[٦٥٥] صحيح مسلم، ج ٨، ص ١١٢.

[٦٥٦] نوح، ١٠.

[٦٥٧] آل عمران، ١٤٧.

فالذي يقتل نفسا خطأ غير متعمد كما هو في حوادث السيارات وما يشابهها من غير قصد فهو في حاجة لمغفرتين:

المغفرة الأولى: من الله تعالى وهذه لا تتم إلا بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلَّمة لأهله المؤمنين فإن لم يستطع فعليه صيام شهرين متتابعين مع الاستغفار لِما حدث. قال تعالى: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما}[٦٥٨].

المغفرة الثانية: من الذين تربطه علاقة بالمقتول خطأ بعد أخذهم الدية أو بعد التسامح من غيرها بالتراضي. والمغفرة منهم يُقصد بها أن لا تحمل أنفسهم على من ارتكب الفعل خطأ غلطة أو كراهية أو كيدا أو مكرا.

إنَّ تقديم الدية لمن يتعلق الأمر بهم هو دليل اعتراف بالذنب والاستغفار منه والتوبة لله تعالى، وهي أيضا اعتذار لطلب العفو والتسامح والمغفرة من أهل المقتول خطأ.

وعليه فحظ الخليفة أن يؤمن التزاما ذاتيا بما أمر الغفار الأعظم ليكون قدوة حسنة أمام ربَّه تعالى، وأمام نفسه حتى يكون قدوة حسنة للآخرين ليهتدوا. وهو الذي يخشى ربَّه في القتل حيث من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا، وليخشى ربَّه في كل شيء ويتوب إليه من كل ذنب ويستغفره من كل خطيئة. قال تعالى: {ومن يغفر الذنوب إلا الله}[٦٥٩] وقوله تعالى: {ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}[٦٦٠].

وعليه فإن التسامح صفة بشرية تجري بين بني الإنسان، وهو يتمركز على طرفين متشابهين في الصفات والخصائص، ويتم التسامح بعد إدراك الأمر ومعرفة الأخطاء وتقديم الاعتذار أو

---

[٦٥٨] النساء، ٩٢.

[٦٥٩] آل عمران، ١٣٥.

[٦٦٠] الفتح، ١١٤.

تبادله بين المختصمين أو المتصارعين أو المخطئين، أو بين المخطئ والمخطأ في حقه. وفي بعض الأحيان لا يتم التسامح إلا بتدخل وسطاء وأهل الخير، وفي بعض الأحيان يتم بلقاء الطرفين دون وسطاء. وفي بعض الأحيان يتم بدون لقاء وسطاء ويترك الأمر لله تعالى.

ولذا فالمتسامح هو كثير العفو وهو الذي يتنازل إرادة لمن أخطأ في حقه، والمسامح: العفوُ، الذي لا رغبة له في إثارة القلاقل والمشاكل والصدامات مع الذين يخطئون. والتسامح قد يكون إراديا مع امتلاك المقدرة على الصدام والمغالبة، وقد يكون لأجل المداراة على علاقات قربى أو صداقة أو صحبة، وقد يكون التسامح لعدم المقدرة على مقارعة الطرف المناظر له في الاختصام أو النزاع. وفي كل ذلك فإن الله غفور رحيم.

والفرق بين التسامح والمغفرة هو: أن التسامح يتم بين طرفين أو خصمين، والمغفرة تتم من طرف واحد وهو الذي لم يكن خصما.

ولأن لكل شيء بداية ونهاية فإن لكل شيء حدود، ولذا فالمغفرة فرص تعطى فمن يغتنمها فاز، ومن لم يغتنمها هُزم. ولذلك فإن الله يغفر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء، قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[٦٦١]. بطبيعة الحال من يؤمن بالله لا يُمكن أن يُشرك به، ومن يُشرك به لا يمكن أن يكون مؤمنا، ولهذا لا يمكن أن يغفر الله تعالى لمشرك به. أي إما أن تكون مشركا فلا تؤمن بالله تعالى، وإما أن تؤمن به وتترك الشرك عنك إلى أبد الآبدين. فإن تركته بالمطلق تجد الله غفورا رحيما، وإن لم تتركه بالمطلق ستجده شديد العقاب. ولذا فالمؤمن في كلتا الحالتين يقول: الحمد لله ربِّ العالمين، أي الحمد لله في الأولى إن آمن ابن آدم فيغفر، والحمد لله في الثانية إن كفر ابن آدم فيعذب. ولذلك قال تعالى: {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين}[٦٦٢].

---

[٦٦١] النساء، ٤٨.

[٦٦٢] التوبة، ٨٠.

الاستغفار يفيد من أسلم وجهه لله، ولا يفيد من لم يسلم وجهه لله، ولذا لا يحق أن تستغفر لكافر مشرك، فالاستغفار يفيد من يؤمن بالمستغفر به. وبما أن القاعدة تنص على إنَّ (الاستغفار لا يُفيد من لا يؤمن بالمستغفر به). إذن لا سبعين مرة تفيد ولا المليون مرة تفيد، فالذي يفيد هو الإيمان به واحداً أحداً لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

أما الذين أسلموا وجههم لله ثم أخطؤوا ثم استغفروا لأنفسهم أو استغفر لهم الرسول لوجدوا الله غفارا رحيما، قال تعالى: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما}[٦٦٣]. وقال تعالى: {قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم}[٦٦٤]. وقال تعالى: {يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تقِ السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم}[٦٦٥]. وقال تعالى: {ربِّ اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات}[٦٦٦] بهذه الآيات الكريمة يتم التأكيد على الاستغفار من المؤمن بالله تعالى فيفيد المؤمن به في حالة ارتكابه ذنبا أو خطيئة، ولا يفيد من يشرك به حتى ولو استغفرت له سبعين مرة. ولذا فالمهم في الاستغفار أن يكون من مؤمن لأجل توبة وعمل صالح وهداية لله تعالى لمن كفّر عن سيئاته.

وإذا تساءل البعض: لماذا المغفرة؟ فليعلم أن مبرراتها هي:

. اتساع دائرة المؤمنين بالله تعالى.

. حتى لا يتمادى العصاه في عصيانهم.

. لعلمه تعالى بقصور خلقه عن الكمال الذي يقيهم ارتكاب الخطايا والمعاصي والذنوب.

---

[٦٦٣] النساء، ٦٤.

[٦٦٤] يوسف، ٩٧، ٩٨.

[٦٦٥] غافر ، ٧ . ٩.

[٦٦٦] نوح، ٢٨.

. لعلمه بأنهم خلقه الذين يراد لهم أن يكونوا في أحسن تقويم.
. لأنه يعلم أن البعض من عباده يرتكب الخطايا تحت طائلة الضرورة، وفي هذا الأمر يرى البعض أنه لا إثم في ذلك، ونحن نتفق معهم بأسباب المغفرة السابقة على ارتكاب الفعل.
. لأنه يعلم البعض من عباده يرتكبون الخطيئة تحت طائلة الإجبار، وهذه أيضا لها المغفرة السابقة.
. لأن قانون المشيئة الإلهية مؤسس على قاعدة الغفران، والاستثناء منها هو العذاب، قال تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[٦٦٧]، وقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[٦٦٨].
وحظ الخليفة من الاسم الغفار: أن يتدارك أمره بالتكفير عن سيئاته، وأن يستغفر ربه على كل كبيرة وصغيرة ظلم فيها نفسه أو ظلم بها الآخرين، وأن يتوب إلى خالقه بترك ما لم يرضه تعالى من قول وعمل، وأن يعمل صالحا يرضاه، وأن يهتدي إلى سبيل ربِّه ولا يشرك بعبادته أحدا.
أن يعفو عن الذين أخطؤوا في حقه والذين تأسفوا له على ما بدا منهم، وأن يتقي الله في زوجه وأبنائه ومن صاحبه وصادقه على المحبة في الله تعالى، وليعلم أن الإنسان خَطَّاء إلا من رحم ربِّي فليعفُ وليصفح ليجد الله غفارا رحيما.
المغفرة صفة من صفات الله الحسان فمن اتخذها سلوكا وعملا في حياته استمد صفة من صفاته تعالى، وفاز بالمغفرة في حياته ومماته ويوم بعثه.
ولذا فعليه بتوحيد الله في كل مكان وزمان، وأن يتبع سنة نبيه محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، يقول الحق ويفعله، يصلي ويصوم ويزكي ويحج البيت الحرام، ويذكر ربُّه كثيرا، ويجاهد في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتقي الله ربه.

---

[٦٦٧] ق ٣٠.

[٦٦٨] يوسف ١٠٣.

وعليه لا أقول إلا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ الشيطان قال وعزتك يا ربِّ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني"[٦٦٩]. فاستغفر الله العظيم من كل ذنب أو خطيئة والحمد لله ربِّ العالمين.

الغفَّار هو الرحمن الرحيم وهو الذي بيده الملك والأمر، ولذا لو لم يكن هو الرحمن الرحيم ومالك الملك ما كان غفارا، فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، الذي جاء بالحق المبين الذي به آمنا وكنا مسلمين.

الغفار: هو الذي يعلم علم الماضي والحاضر والمستقبل ويعلم علم الغيب الذي يكون متداخلا في كل زمان ومكان، ولذا فالغفار هو الذي يعلم ما تقوله الألسن وما تكتمه العقول والقلوب وما تضمره النوايا، ولذا فهو الغفار الذي يعلم بأسباب ومبررات المغفرة، فهو لا يغفر هكذا ضربة عشواء، بل يعلم الأسباب قبل حدوثها، ولهذا لا يحاسب عليها بل يحاسب على ما تكنه الصدور. فسبحانه يعلم ما تكتمه وما تضمر عليه وما تأمله وهو يعلم ما يترتب على ذلك من أفعال وأقوال واستغفار وتوبة أو ضلال ولهذا فهو وحده الذي يغفر وهو يعلم مبررات غفرانه.

قال أبو نواس:

يا ربِّ إن عَظُمَت ذُنوني كَثرةً فلقَد علِمتُ بأنَّ عَفوكَ أعظَمُ

إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ فمَن الذي يَرجو ويدعُو المُجرمُ

مالي إليك وسيلةٌ إلاَّ الرجا وجَميلُ عفوك ثم إنِّي مُسلِمُ[٦٧٠].

الغفار: أي المريد لإزالة العقوبة عن مستحقها فهو راجع إلى صفة الإرادة واشتقاقه من الغفر بمعنى الستر[٦٧١]، والغفار: هو الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة[٦٧٢]. ومن أسماء الله تعالى ما يكون نقلها إلى العبد مجازا وهو الأكثر،

---

٦٦٩ مسند أحمد، ج ١٧، ص ٣٣٧.

٦٧٠ ديوان أبي نؤاس ، ص ٦١٨ .

٦٧١ كتاب المواقف، ج ٣ ، ص ٣١٧.

٦٧٢ المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٠٥.

ومنها ما يكون في حق العبد حقيقة، وفي حق الله تعالى مجازا: كالصبور والشكور، ولا ينبغي أن تلاحظ المشاركة في الاسم وتذهل عن هذا التفاوت العظيم، فالغفار هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح والذنوب من جملة القبائح التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة والغفر هو الستر:

وأول ستره على العبد أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه مغطاة بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقذارة وفي القبح والجمال فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره.

وستره الثاني أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سر قلبه حتى لا يطلع أحد على سره ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وسواسه وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة وسوء الظن بالناس لمقتوه بل سعوا في تلف روحه وأهلكوه فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته.

وستره الثالث مغفرته ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها على ملأ الخلق وقد وعد أن يبدل سيئاته حسنات ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته مهما مات على الإيمان.

وحظ الخليفة من هذا الاسم أن يستر من غيره ما يجب أن يستر منه[٦٧٣]، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ من ستر على مؤمن عورته ستر الله عز وجل عورته يوم القيامة"[٦٧٤]. والمغتاب والمتجسس والمكافئ على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف وإنما المتصف به من لا يفشى من خلق الله تعالى إلا أحسن ما فيه ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص وعن قبح وحسن فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب من هذا الوصف كما روي عن عيسى صلوات الله عليه وسلامه أنه مر مع

---

[٦٧٣] المقصد الأسنى، ج ١، ص ٨٠.

[٦٧٤] سنن ابن ماجه، ج ٧ ، ص ٤٤٠.

الحواريين بكلب ميت قد غلب نتنه، فقالوا: ما أنتن هذه الجيفة، فقال عيسى عليه السلام: (ما أحسن بياض أسنانه)، تنبيها على أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء ما هو أحسن[٦٧٥].

أصل الغفر: الستر والتغطية، وغفر الله الذنوب: سترها وتجاوز عنها بما هو أفضل وأجود وأحسن. والمغفرة دائما تلاحق أخطاء أو أفعال أو أقوال حدثت ثم تجاوزت بأفعال أكثر إيجابية. وكل شيء سترته فقد غفرته، ومغفرة الذنوب، سترها والإعفاء عما سلف ببديل مرضي عنه. ولهذا فعلى الخليفة أن يغفر ويعذر ويتجاوز عن الأخطاء كلما مدَّ الآخر يداه للإنقاذ من الخطايا. ولأن بطبيعة الحال العبد يخطئ ويصيب، والخليفة إذا ما تعرض لأسباب الوقوع في الخطأ تيقَّن أنه لا خروج منها إلا بالاستغفار وهو الحياد عن السالب بأفعال موجبة، أو بإصلاح الحال بعد غفلة أو خطأ. وهذا سلوك الخليفة في مستخلفيه بأن يصلح ما يستطيع إصلاحه في مجتمعه والذي بإصلاحه يصلح المجتمع.

والاستغفار: طلب الغفران قولا وفعلا. وعند أهل الكلام: طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية، والإعراض عنها. وفي التنزيل المجيد قال تعالى: {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا}[٦٧٦]. وفيه: "عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ قَالَ: غُفْرَانَكَ "[٦٧٧]. وفي تَخْصِيصه بذلك قَوْلان:

أَحَدْهما: التَّوْبة مِن تقَصْيره في شُكْر النّعْمة التي أنعَمَ بها عليه من إطْعامِه وهَضْمِه وتَسْهيل مَخْرجه فلجأ إلى الاسْتِغفار من التَّقْصير.

والثَّاني: أنه استغْفَر من تَرْكِه ذِكْرَ اللّه تعالى مدَّة لُبْثِه في الخَلاَء فإنه كان لا يَترُك ذِكر اللّه بلسانه أو قَلْبه إلاّ عِند قَضاء الحاجة فكأنه رأى ذلك تقصيرا فتداركه بالاسْتِغفار[٦٧٨].

الغفَّار: فهو غفور بمعنى أنه تام المغفرة. والغفَّار كثير المغفرة في حدود كثرة الأخطاء مع عدم الكلل أو الملل من المغفرة وهي من تفضيلات الرحمن الرحيم لعباده المستخلفين في

---

[٦٧٥] المقصد الأسنى، ج١، ص ٨١.

[٦٧٦] نوح ١٠.

[٦٧٧] سنن الترمذي، ج ١ ، ص ١٣.

[٦٧٨] النهاية في غريب الأثر ، ج ٣، ص ٧٠٣.

الأرض، إنه يغفر ويغفر ثم يغفر ويغفر وهكذا حتى تقوم الساعة وذلك لأن المغفرة من صفاته الحسان جل جلاله، ولهذا فهو الغفَّار المطلق، الذي بواسع مغفرته جعل في الأرض خليفة ليقتدي بهذه الصفة الحسنة حتى يبلغ ما يراد له أنْ يكون عليه وهو ما طُبِعَ عليه خلقا مصداقا لقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). ولذا فالغفار يشير إلى كثرة على سبيل التكرار أي يغفر الذنوب مرة بعد أخرى حتى إنه يغفر جميع الذنوب والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}[٦٧٩]. قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ: أي: معطي الفرصة التي تُمكِّن العباد من الاستغفار ليغفر لهم عز وجل، مع تنبيه وإيقاظ عن الغفلة، وتخويف من العاقبة لأجل الإدراك بأنه الحق والتمسك به. وَمَا مِنْ إله يستحق العبادة إلاَّ الله الواحد القهار الذي لا شريك له في الملك والأمر، ولأنه غفار فهو القادر على فعل كل شيء، فمن أراد الهداية فليهتدِ ويتوب إليه ربا واحد لا شريك له.وقوله تعالى: الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ: الذي يعز الحق وينصره ويعز الخليفة ويناصره، في كل قول حق وفعل حق، ويغفر له فيما يخطئ دون الشرك به واحد أحد لا شريك له سبحانه وتعالى عمَّا يصفون.

وأما رَبّ السموات والأرض وما بينهما: الربُّ هو مالك أمر الشيء، ولذا فرب السماوات والأرض وما بينهما هو الله غفار الذنوب والخطايا سبحانه جل جلاله، وقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهة إلاَّ الله لَفَسَدَتَا}[٦٨٠]. حيث أمر التسيير يكون بأيدي أكثر من واحد، وعندما يكون الحال هكذا يكون الاختلاف بينهم على إدارة الأمر من السكون إلى الحركة، ولن يكون التحكم في الأمر مما يجعل الكواكب والنجوم والسماوات السبع والأراضي السبع تتصادم باختلال التوقيت الحركي الذي لم يكن الأمر فيه بيد واحد أحد، وتكون المصائب والدمار وتكون النهاية وهذه

---

[٦٧٩] سورة ص ٦٤ – ٦٦.

[٦٨٠] الأنبياء ٢٢.

قمة الفساد، خاصة إذا حلل أحد ما يحرمه الآخر أو ينهى عنه، ولذا الحمد لله الواحد الأحد الغفار سبحانه وتعالى عما يصفون.

والغفار هو من يقتضي أن يغفر ما يشاء لمن يشاء كيف شاء، وبأسباب يجعلها الغفار مخارج للعبد المذنب من الخطيئة.

من مظاهر غفرانه:

القول في تأويل قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجل مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}[٦٨١].

يقول تعالى ذكره واصفا نفسه بصفته: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) يقول: يغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال تعالى: (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) الولوج إدخال وتداخل لا ينفصلان إلا بآذان الحق الله أكبر فجرا وصباحا، والله أكبر مغربا وعشاء، إنها الحركة المتصلة غير المنفصلة ولا المتوقفة بأي حال من الأحوال، وقوله تعالى: (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) التكوير على: ملاحقة بعضهما لبعض حتى لا نعلم يقينا أيهما الأسبق، وبالتالي فإن حركة متصلة من حيث التداخل وكأنهما لا ينفصلان، وبعد صوت الحق الذي يؤذن فيه بقدوم اللاحق على السابق تتم عملية التكوير بالملاحقة المتوازنة والمعتدلة دون أن يُحس بها وكأن الأرض ثابتة وهي ليس كذلك. وقوله: وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ: جعلهما طائعتين وفي هذا الأمر حالهما كحال السماء والأرض اللتين أتيتا طائعين مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[٦٨٢] وفي هذه الطاعة تسليم دون تردد، وخضوع وخشوع لله تعالى.

يقول تعالى: وسخر الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم (كُلٌّ يَجْرِي لأجل مُسَمًّى) وكُلّ يعني الشمس والقمر يَجْرِي لأجل

---

[٦٨١] الزمر ٥.

[٦٨٢] فصلت، ١١.

مُسَمًّى، إلى قيام الساعة، وذلك إلى أن تكوّر الشمس، وتتكدر النجوم. أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ: استغراب يقدمه الله تعالى للعباد الذين يُدركون خلق الله لكل شيء ولا يدركون أنه بقادر على أن يغفر الذنوب جميعا، كيف تكون عقول مثل هؤلاء وهم لم يتذكروا ويتفكروا في أمر الخلق وحركة الكواكب والنجوم، وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل في حركة متداخلة لا يفصلها إلا هو جل جلاله.

إن الناظر إلى دور الخليفة في رسالته سواء أكان ظاهرا أو باطنا يجده مبنيا على الحرص في أن ينجح فيما كلف به من الدعوة إلى العزيز الغفار فيكون شعاره قوله تعالى: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ}[٦٨٣]. أي الدعوة إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدوّ له شيء، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه، لعفوه عنه، فلا يضرّه شيء مع عفوه عنه، فهذا الذي هذه الصفة صفته اعبدوه، فتكون دعوته إلى إتباع طريق النجاة بعبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه فيهم وتحذيرهم من النار بعدم اتباعه ودعوتهم له بالشرك كما جاء في كتابه العزيز، قال تعالى: {وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}[٦٨٤] أي: جهل بلا دليل وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ الذي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، وإلى النظر إلى هذا الكون وما فيه من نعم لا تحصى ولا يكون العمل بخلاف طاعته سبحانه فقد قال تعالى: {وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[٦٨٥]. فقوله: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) يقصد الكثرة والوفرة الزائدة عن الحاجات المتنوعة والمتعددة والمتطورة ويخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب:"إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين"[٦٨٦]. ولذا فمن يهجر الذنوب وينكب على التقوى يجد له الغفار

---

[٦٨٣] غافر ٤٢.

[٦٨٤] غافر ٤٢.

[٦٨٥] إبراهيم ٣٤.

[٦٨٦] تفسير ابن كثير، ج ٤ ، ص ٥١١.

مخرج من كل ضائقة، ويره من آياته فضل كبير، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٦٨٧]، فإنه يجد الله ولا أحد غيره ليغفر ذنوبه، حيث لا أحد قادر على ذلك إلا هو جل جلاله، ولذا مع أن لكل معصية عقاب إلا أن الذي يفرض العقاب للمعاصي يُقر المغفرة مكفرة عن الذنوب دون الشرك به، ودون إصرار على معصية، فقوله تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا. "وقال مجاهد: أي ولم يمضوا. والإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه. وقال قتادة: "الإصرار الثبوت على المعاصي"[٦٨٨] وقيل: الإصرار هو أن ينوي أن يتوب فإذا نوى التوبة النصوح خرج عن الإصرار. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا توبة مع إصرار)[٢٧]. وفي ذلك قال العلماء: "الباعث على التوبة وحل الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رغبا ورهبا، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب"[٦٨٩]. هكذا حال الخليفة فهو الطائع لله تعالى وبطاعته له جل جلاله ينال راضاه ومغفرته، وفي مقابل هذا الحال يكون حال العصاة كما يقولون كمن حاله بين المطرقة والسندان وأكثر شدة، ولن تفرج الشدة عنهم إلا بالرجوع إليه بالطاعة والاستغفار والتوبة من الذنوب، حينها يجدونه غفار شكور. فالإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرا على المعصية وملازما لأسباب الهلكة.

---

[٦٨٧] آل عمران ١٣٥.

[٦٨٨] تفسير القرطبي، ج ٤، ص٢١١.

[٦٨٩] تفسير القرطبي، ج ٤، ص٢١١.

وفي قوله تعالى: (وهم يعلمون) أي هم على دراية بما فعلوا وعملوا من سيئات أو حسنات ولهذا فهم لم يكونوا مغيبين عن ذلك، لهم عيون يبصرون بها وأذان يسمعون بها، والسُنُ ينطقون بها وعقول يفكرون بها، فكيف إذن لا يعلمون؟ العلم بما حدث يعرف من قام به، ويعلمه من شهد عليه. وفي هذا الأمر هم يعلمون بما أمر الله حيث كل في كتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصداقا لقوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}[٦٩٠] ولذلك فإن تابوا تاب الله عليهم وإن كفروا فعليهم كفرهم وما ربك بظلام للعبيد.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: "أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئت فقد غفرت لك"[٦٩١] وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب، لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه، لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها، لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الغفار الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه. قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}[٦٩٢]. المقصود بالمتقين هم الخلفاء الذين كانوا على ما أرادهم الله عليه من أقوال وأفعال وإيمان تام به واحد أحد لا شريك له في الملك والأمر. وآخر

---

[٦٩٠] فصلت، ٤٢، ٤٣.

[٦٩١] أخرجه مسلم في صحيحة، ج١٣، ص٣٢١. تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢١٢.

[٦٩٢] الحجر ٤٥ . ٥١.

الكلام خبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه، قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه"[٦٩٣]. والذنوب التي يتاب منها إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، ولذا فإن حقوق الآدميين فلابد من إيصالها إلى مستحقيها، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول، وفضله مبذول، فكم ضمن من التبعات وبدل من السيئات بالحسنات. (ألا هو العزيز الغفار) (ألا) تنبيه أي تنبهوا فإني أنا (العزيز) الغالب (الغفار) الساتر لذنوب خلقه برحمته[٦٩٤]. قال تعالى: {وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[٦٩٥].

فما دام العبدُ يُلحُّ في الدُّعاء، ويَطمعُ في الإجابة من غير قطع الرّجاء، فهو قريبٌ من الإجابة، القاعدة تقول: (مَنْ أَدمن قرعَ الباب، يُوشك أنْ يُفتح له).

ومن أهمِّ ما يسألُ الخليفة ربَّه مغفرةُ ذنوبه، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة من النار، ودخول الجنة، وقد قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "حولَها نُدنْدِن"[٦٩٦] يعني: حول سؤال الجنة والنجاة من النار[٦٩٧]. وقال أبو مسلم الخَولاني: "ما عَرَضت لي دعوةٌ فذكرتُ النار إلا صرفتُها إلى الاستعاذة منها"[٦٩٨].

ومن رحمة الله تعالى بالخليفة أنَّ الخليفة يدعوه بحاجةٍ من الدنيا، فيصرفها عنه، ويعوِّضه خيراً منها، إما أنْ يَصرِفَ عنه بذلك سوءاً، أو أنْ يدَّخِرَها له في الآخرة، أو يَغفِر له بها ذنباً، ولأنه غفَّار فهو رحيم بمن آمن به واهتدى إلى الحق سبيلا. وسبيل الحق يحتوي الأمر

---

[٦٩٣] صحيح البخاري، ج٩، ص١٤٨.

[٦٩٤] تفسير القرطبي، ج ١٥، ص ٢٣٥.

[٦٩٥] الأعراف ٥٦ .

[٦٩٦] أخرجه ابن ماجه ٩١٠ . و ٣٨٤٧ .، وابن حبان ٨٦٨ ..

[٦٩٧] النهاية، ج٢، ص١٣٧.

[٦٩٨] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص٥.

بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ما يفسده المفسدون في الأرض، وتقوى الله ومخافته في كل أمر.

وعن أبي سعيدٍ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "ما مِنْ مُسلِمٍ يَدعو بدعوةٍ ليس له فيها إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاثٍ : إما أنْ يُعجِّلَ له دعوته، وإما أنْ يدَّخرها له في الآخرة، وإما أنْ يكشِفَ عنه من السُّوءِ مثلها "، قالوا : إذاً نُكثر؟ قال: "الله أكثرُ"[٦٩٩].

وبكلِّ حالٍ، فالإلحاحُ بالدعاء بالمغفرة مع رجاء الله تعالى موجبٌ للمغفرة. وهذا من طبيعة الخلفاء المستغفرين الذين يعرفون الله حق المعرفة فيمارسون حقوقهم بإرادة دون خوف من أحد إلا منه جل جلاله، ويؤدون واجباتهم بكل حرية طاعة لعبادة الله وحده لا شريك له، ويحمْلون مسؤولياتهم ومسؤوليات من لهم علاقة بهم دون خوف إلا منه عز وجل، ولذا فهم المستخلفون على الطاعة والشهادة بالحق ولا طاعة لهم في غير ذلك.

أسباب المغفرة:

السبب الأول:

من أعظم أسباب المغفرة أنَّ العبد إذا أذنب ذنباً لم يرج مغفرته من غير ربِّه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوبَ ويأخذ بها غيرُه، فعن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا دعا أَحدُكم فليُعظِمِ الرَّغبَةَ، فإنَّ الله لا يَتعاظَمهُ شيءٌ"[٧٠٠]. فذنوب العباد وإنْ عظُمَت فإنَّ عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم، فهي صغيرةٌ في جنب عفوِ الله ومغفرته. وعن جابر أنَّ رجلاً جاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولُ: واذنوباه، واذنوباه، مرَّتين أو ثلاثاً، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم:" قل: اللهمَّ مغفرتُك أوسَعُ من ذنوبي، ورحمتُك أرجى عندي من عملي"، فقالها، ثم قال له: عُدْ، فعاد، ثم قال له: عُدْ، فعاد، فقال له: "قُمْ، فقد غفر الله لك"[٧٠١]. وفي هذا يقول بعضهم:

---

[٦٩٩] مسند الإمام أحمد، ج٣، ص١٨. و" صحيح الحاكم، ج١، ص٤٩٣.

[٧٠٠] صحيح مسلم، ج٨، ص٦٤، ٢٦٧٩ .

[٧٠١] المستدرك، ج١، ص٥٤٣ – ٥٤٤، جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص٧.

يا كَبير الذَّنب عفوُ اللَّه مِن ذنبك أكبر   أعظَمُ الأشياء في جَنب عفوِ الله يَصغُرُ[٧٠٢]

السبب الثاني:

طلب الستزة: يعتبر الاستغفار مفتاح خير للدخول مع أبواب السترة، وهو إعلان رجعة من ارتكاب خطايا أو أقوال خطايا، وبهذا يعد الاستغفار عودة إلى الصواب، أي عودة عن انحراف وتخلي عنه، بعد مقارنة مع الموجب المفضل مع توفر النية المُكفِّرة عن الخطأ أو الذنب، ولأن النية هي المفتاح المُمكِّن من القبول والرحمة فإن الاستغفار عن الكافرين لا يفيد إن لم يهتدوا للتي هي أحسن وأقوم ويوحدوه واحد أحد لا شريك له. قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[٧٠٣]. ولهذا قلنا الاستغفار هو مفاتح المغفرة المحققة للسترة، أي السترة من الذنوب والخطايا. عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ". والاستغفارُ: طلبُ المغفرة، والمغفرة: هي وقاية شرِّ الذنوب مع سترها[٧٠٤]. وقد كثر في القرآن ذكرُ الاستغفار، فتارةً يؤمر به، كقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٠٥]، وقوله: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}[٧٠٦]. وتارةً يمدحُ أهلَه، كقوله: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}[٧٠٧]، وقوله: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[٧٠٨]، وقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ}[٧٠٩]. هذه الآيات الكريمة هي التي يعكف الخليفة على التمسك بأفعالها وأعمالها، ويدعوه بها غفارا لكل ذنب، وهي مفاتيح الإجابة للعبد الصالح المطيع لله تعالى.

---

[٧٠٢] ديوان أبي نؤاس، ص٦٢٠.جامع العلوم والحكم،ج ٤٢ ، ص ٨.

[٧٠٣] التوبة ٨٠.

[٧٠٤] سنن ابن ماجه، ج ١٢، ص ٢٩٩.

[٧٠٥] البقرة ١٩٩.

[٧٠٦] هود ٣.

[٧٠٧] آل عمران ١٧.

[٧٠٨] الذاريات ١٨ .

[٧٠٩] آل عمران ١٣٥.

ولأن الله يغفر لمن استغفره، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً}[٧١٠]. وكثيراً ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبة، فيكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح[٧١١]. وقد يفرد تعالى ذكره الاستغفار، ويُرتب عليه المغفرة، فقد قيل: إنَّه أريد به الاستغفارُ المقترن بالتوبة، وقيل: إنَّ نصوص الاستغفار المفردة كلّها مطلقة تُقيَّدُ بما ذكر في الآية ١٣٥ التي سبق ورودها من سورة آل عمران. التي وعد الله فيها المغفرة لمن استغفره من ذنوبه ولم يُصر على فعله، فتُحْمَلُ النُّصوص المطلقة في الاستغفار كلّها على هذا المقيد، ومجرَّدُ قولِ القائل: اللهمَّ اغفر لي، طلبٌ منه للمغفرة ودعاءٌ بها، فيكون حكمه حكمَ سائرِ الدعاء، فإنْ شاء الله أجابه وغفر لصاحبه، لاسيما إذا خرج عن قلبٍ منكسرٍ بالذنب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات[٥٥]. ويُروى عن لُقمان عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لابنه: "يا بنيَّ عَوِّدْ لسانك: اللهمَّ اغفر لي، فإنَّ لله ساعاتٍ لا يرُدُّ فيها سائلاً"[٧١٢].

وقال الحسن: "أكثِروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طُرُقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كُنتم، فإنَّكم ما تدرون متى تنْزل المغفرة"[٧١٣]. وعن مُغيث بن سُميٍّ، قال:"بينما رجلٌ خبيثٌ، فتذكر يوماً، فقال: اللهمَّ غُفرانَك، اللهمَّ غُفرانك، اللهمَّ غُفرانك، ثم مات، فغُفِر له"[٧١٤]. ولهذا فهو الغفار الودود الرحمن الرحيم.

وأمّا استغفارُ اللسان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دُعاء مجرَّد إنْ شاء الله أجابه، وإنْ شاء ردَّه. وقد يكون الإصرار مانعاً من الإجابة. فالاستغفارُ التامُّ الموجبُ للمغفرة: هو ما قارن عدمَ الإصرار، كما مدح الله أهله، ووعدهم المغفرة، قال بعض العارفين: "من لم يكن ثمرةُ

---

[٧١٠] النساء ١١٠ .

[٧١١] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص٨.

[٥٥] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص ٩.

[٧١٢] نوادر الأصول لحكيم الترمذي، ٢ج، ص٢٩٤ .

[٧١٣] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص ٩.

[٧١٤] الحلية لأبي نعيم، ج٦، ص٦٨.

استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره"[٧١٥]. وكان بعضُهم يقول:" استغفارُنا هذا يحتاج إلى استغفارٍ كثير"، فأفضل الاستغفار ما اقترن به تركُ الإصرار، وإنْ قال بلسانه: أستغفر الله وهو غيرُ مقلع بقلبه، فهو داعٍ لله بالمغفرة، كما يقول: اللهمَّ اغفر لي، وهو حسن وقد يُرجى له الإجابة، وأما من قال: توبةُ الكذابين، فمرادُه أنَّه ليس بتوبة، كما يعتقده بعضُ الناس، وهذا حقٌّ، فإنَّ التَّوبةَ لا تكون مَعَ الإصرار[٧١٦]. وإن قال: أستغفر الله وأتوبُ إليه فله حالتان:

إحداهما: أن يكونَ مصرّاً بقلبه على المعصية، فهذا كاذب في قوله:" وأتوب إليه " لأنه غيرُ تائبٍ، فلا يجوزُ له أن يخبر عن نفسه بأنَّه تائبٌ وهو غير تائب.

والثانية: أنْ يكون مقلعاً عن المعصية بقلبه، فاختلف الناس في جوازِ قوله: وأتوب إليه، فكرهه طائفةٌ من السَّلف[٧١٧]، وقال جمهورُ العلماء بجواز أنْ يقول التائب: أتوبُ إلى الله، وأنْ يُعاهِدَ العبدُ ربَّه على أنْ لا يعود إلى المعصية، فإنَّ العزم على ذلك واجبٌ عليه، فهو مخبر بما عزم عليه في الحال، لهذا قال: "ما أصرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة "[٧١٨].

الاستغفار نعمة أنعم بها الله على عباده وهو نتاج اعتراف إذا ما قيل بنية صافية كانت له الاستجابة من الغفار المطلق جل جلاله. ومن المفضل في الاستغفار التيقن بأنه هو عز وجل صاحب القول الفصل، وأنْ يبدأ الخليفة بالثَّناء على ربِّه الغفار الودود، ثم يثني بالاعتراف بذنبه جهارا نهارا حيث لا تخفى عنه خافية في الليل ولا في النهار سواء كانت منطوقة أو منوي بها ومكتومة في الصدور، ثم يسأل الله المغفرة فهو سميع بصير ومجيب الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٧١٩].

---

[٧١٥] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص ١١.

[٧١٦] جامع العلوم والحكم، ج ٤٢، ص ١٢.

[٧١٧] المصدر السابق، ص١٢.

[٧١٨] سنن أبي داود، ج٤، ص ٣١٠ .

[٧١٩] البقرة، ١٨٦.

السبب الثالث:

التوحيدُ، وهو السببُ الأعظم، فمن فقده، فَقَدَ المغفرة، ومن جاء به، فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[٧٢٠]، فمن جاء مع التوحيد بقُراب الأرض وهو ملؤها أو ما يُقارب ملؤها خطايا، لقيه وفقا لمشيئته تعالى بقُرابها مغفرة، فإنْ شاء غَفَرَ، وإنْ شاء أخذ العبد بذنوبه، ثم كان عاقبته أنْ لا يُخلَّد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنَّة. قال بعضُهم: الموحِّد لا يُلقى في النار كما يُلقى الكفار، ولا يَلقى فيها ما يَلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإنْ كمُلَ توحيدُ العبد وإخلاصُه لله فيه، وقام بشروطه كلِّها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عندَ الموت، أوجبَ ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها، ومنعه من دخول النَّار بالكلية. فمن تحقَّق بكلمة التوحيد قَلبُه، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله محبةً وتعظيماً وإجلالا ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً وتوكُّلاً، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلُّها ولو كانت مِثلَ زبد البحر، وربما قلبتها حسناتٍ، فإنَّ هذا التوحيدَ هو الإكسيرُ الأعظمُ، فلو وضع ذرَّة منها على جبالِ الذنوب والخطايا، لقلبها حسناتٍ ولهذا فهو وحده غفار الذنوب[٧٢١].

قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٧٢٢]. بطبيعة الحال لو لم يكن المسيء أو مرتكب السيئات والخطايا جاهلا بأمره وأمر ربه جل جلاله، وأمر الدين الذي ارتضاه الله للعباد، ما كانت له التوبة، ولهذا حال الجاهل بالأمر أخف من حال العالم به ويعمل السوء.

ثم يتوبون من قريب: أي أن زمن الرجوع عن الخطايا والسيئات ليس ببعيد، فالمستغفر لم ينس ما ارتكبه من ذنب ويعلم به ويدركه جيدا ويدرك الأمر الذي يخلصه منه وهو الاستغفار فيقدم على فعله فيفعله وينال التوبة. قال تعالى {قل متاع الدنيا قليل} فعمر الدنيا قليل قريب

---

[٧٢٠] النساء ٤٨.

[٧٢١] مسند الإمام أحمد، ج ٦، ص٤٢٥.

[٧٢٢] النساء ١٧.

الانقضاء فما ظنك بعمر فرد ومن تبعيضه أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب. فأولئك يتوب الله عليهم: بقبول توبتهم، وكان الله عليما، بخلقه فيعلم إخلاصهم في التوبة وحكيما في صنعه والحكيم لا يعاقب التائب. فعلى الخليفة المؤمن أن يتدارك الزلة بالتوبة والاستغفار ويسارع في الرجوع الى الملك الغفار، ويدعو المستخلفين لذلك بتوجههم إلى طريق الاستغفار والتوبة النصوحة ليكونوا من المقبولين في الدارين. رُوِىَ أن جبريل عليه السلام أتى سيدنا محمد عند موته فقال: "يا محمد الرب يقرئك السلام، ويقول من تاب قبل موته بجمعة قبلت توبته"، قال صلى الله عليه وسلم:" الجمعة كثيرة"، فذهب، ثم رجع، وقال: قال: "الله تعالى من تاب قبل موته بساعة قبلت توبته"، فقال: "الساعة كثيرة" فذهب ثم رجع، وقال: "إن الله يقرئك السلام، ويقول: إن كان هذا كثيرا فلو بلغ روحه الحلق ولم يمكنه الاعتذار بلسانه واستحيى مني وندم بقلبه غفرت له ولا أبالي"، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر"[٧٢٣]. قبل أن يبلغ روحه الحلقوم وعند ذلك يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان ولا ينفع حينئذ توبة ولا إيمان، فالتوبة مبسوطة للعبد يعاين قابض الأرواح وذلك عند غرغرته بالروح وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين فشخص من الصدر الى الحلقوم فعندها المعاينة وعندها حضور الموت فيجب على الخليفة أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة وهو معنى قوله تعالى: {ثم يتوبون من قريب}.

والتوبة فرض على المؤمنين ولها سبعة شروط:

الشرط الأول: الاعتراف بالذنب.

الشرط الثاني: الندم بالقلب.

الشرط الثالث: ترك المعصية.

الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود الى مثلها.

الشرط الخامس: إعلان الطاعة والتمسك بالتوبة.

---

[٧٢٣] بغية الحارث، ج١، ص٨٠، سنن ابن ماجه، ج١٢، ص٣٠٤.

الشرط السادس: تجنب الخطايا.

الشرط السابع: الإقدام على القول الحق والفعل الحق.

خاصية الاسم الغفار:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب"[٧٢٤]. هذا الحديث موجه للخليفة، فمن يطيع رسول الله فقد أطاع الله تعالى، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مستخلف من عند الله اصطفاء، ورسول الله يوصي المستخلفين من بعده بالاستغفار، الذي يقصد به ربط العبد بخالقه، والرجوع إليه في كل أمر وكل حين واحد أحد لا شريك له، لذا فإن الاستغفار اعتراف ظاهر بالقول وباطن بالقلب، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فلن يجد لغير الله سبيلا.

قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}[٧٢٥]. بموجب هذه الآية الكريمة فإن طاعة الرسل صلوات الله عليهم جميعا واجبة، للأسباب الآتية:

السبب الأول: طاعة الله.

السبب الثاني: طاعة أمر الله.

السبب الثالث طاعة رسول الله.

ولأن رسول الله خليفة مصطفى من عند الغفار المطلق فهو يملك الاستغفار لمن يتوب ويسلم على يديه. أي من يستغفر أمام رسول الله يُقبل استغفاره من عند الله تعالى وكأن الاستغفار أمامه ساعة استجابة والحمد لله رب العالمين.

بموجب هذه الآية فإن طاعة الخليفة واجبة في غير معصية الله؛ لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ

---

[٧٢٤] سنن أبي داود، ج٤، ص٣١٤.

[٧٢٥] النساء، ٦٤.

عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٢٦]. أي فبايعهن على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام أي بايعهن إذا بايعنك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء فإن المبايعة من جهة الرسول هو الوعد والثواب ومن جهة الآخر التزام طاعته، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها، واستكمالا لموجبات الخلافة فقد أمر الله خليفته بقوله: (واستغفر لهن الله) وذلك لأن المستغفر يعلم عاقبة ما لم يعلمه المستغفر من أجله. ولهذا من يدرك العاقبة السلبية لا يقدم على الأفعال المؤدية إليها، وهنا يكون الجهل بالشيء أو الظن به يضعف المستوى اليقيني للعباد، مما يجعل الخليفة المتيقن (المؤمن) يستغفر لأخيه الذي لم يعلم بعد العاقبة هي كما هي.

والاستغفار طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب (إن الله غفور رحيم) أي أن الله مسبقا يعلن أنه غفور، فمن تاب إليه يجد الغفور برحمته غفار لكل ذنب. ولذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أمر المغفرة ومفوض به من عند الغفار المطلق، فمن جاءه مبايع فغفور له، ولأن هذه الآية جاءت على مبايعة النسوة لرسول الله على أن لا يشركن ويسرقن ولا يزنين الآية: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه. لذا جعل قلب العبد محلا ومعدنا لمعرفته ومحبته فعلى الخليفة أن يطهره عن لوث التعلق بما سوى الله فإن الله تعالى لطف به بوجود القلب في جوفه ووصف نفسه بأنه لطيف خبير مطلع على ما في الباطن فإذا كان هو المنظر الإلهي وجب تخليته عن الأفكار والأغيار وتحليته

---

[٧٢٦] الممتحنة ١٢.

بأنواع المعارف والعلوم والأسرار وتجليته بتجلى الله الملك العزيز الغفار بوجوه أسمائه وصفاته بل بعين ذاته.

وحظ الخليفة منه أن يستر من مستخلفيه ما يجب أن يستر منه ولا يفشى منه إلا أحسن ما كان فيه ويتجاوز عما يندر عنه يكافئ المسيء إليه المخطئ في حقه بالصفح عنه والأنعام عليه نسأل الله سبحانه أن يجعلنا متخلقين بأخلاق خلفائه الكريمة ومتصفين بصفاتهم العظيمة إنه هو الغفور الرحيم. ونسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار. والخليفة من شأنه أن يغرس في النفوس الخلق القويم، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتى تكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ويرجع السبب الرئيس لحلول العقوبة لاشتمال السيئات وإحاطتها بالإنسان فيكون قد أحاط نفسه بالخطايا والآثام فقد قال تعالى في حق مرتكبها: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٧٢٧]. قال صاحب الكشاف: (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي لقولهم وهو قوله تعالى: {لَن تَمَسَّنَا النار}[٧٢٨]، أي بلى تمسكم أبداً بدليل قوله: (هُمْ فِيهَا خالدون). أما السيئة فإنها تتناول جميع المعاصي. قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}[٧٢٩]، قال تعالى: {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}[٧٣٠]. إنه الأمر الطبيعي أن من يعمل سوء يجازي به، ومن يفعل خير يجازي به، وذلك لأن الله لم يكن ظلاما للعبيد، ولكن بما عملت أيدي العباد يكون العقاب إن لم تكن المغفرة. وفي أمر السترة والإحاطة أمران:

أحدهما: أن المحيط يستر المحاط به والكبيرة لكونها محيطة لثواب الطاعات كالساترة لتلك الطاعات، فكانت المشابهة حاصلة من هذه الجهة.

---

[٧٢٧] البقرة ٨١.

[٧٢٨] البقرة ٨٠.

[٧٢٩] الشورى ٤٠.

[٧٣٠] النساء ١٢٣.

والثاني: أن الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت على تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان، بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه، فكأنه تعالى قال: بلى من كسب كبيرة وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، فإن قيل: هذه الآية وردت في حق اليهود، قلنا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، هذا هو الوجه الذي استدلت المعتزلة به في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر[٧٣١].

وبعد هذا التفصيل في مسألة صاحب الكبيرة فإن هناك سؤال يُطرح فيما يتعلق بصاحب الكبيرة: هل للخليفة أن ينتقم منه؟ للإجابة على هذا السؤال نرجع إلى تفسير قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[٧٣٢]. قال الإمام الرازي: في قوله تعالى: (واستغفره) في هذه العبارة وجوه:

أحدها: لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه، ويسأل الله أن ينصره، فلما سمع: (إِذَا جَاء نَصْرُ الله) استبشر، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام، وهذا هو سلوك الخليفة الحق؛ لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول: إن قبول التوبة من اختصاص الغفار المطلق ومن اختصاص من أذن له بذلك وهو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا فالمغفرة مكرمة من الله تعالى على عباده الصالحين المستخلفين في الأرض فله الحمد والشكر على كل مغفرة ومكرمة، واستغفر الله من كل ذنب أو خطيئة والحمد لله رب العالمين الذي له الملك وهو على كل شيء قدير.

الله سبحانه وتعالى عادل في ملكه ويتوب على عباده فيقبل التوبة من التائب أينما كان ويكون، وهكذا قبل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه توبة المكي والمدني دون أن يفرق

---

[٧٣١] تفسير الرازي، ج ٢ ، ص ١٧٦.

[٧٣٢] النصر٣.

بينهما، فحين قالوا له: أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم: {لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ}[٧٣٣]. أي وكأنه يقول: قد أمرني الله تعالى أن استغفر لكم، فلكم استغفر الله حتى يتوب عليكم ويرحمكم بواسع فضله.

وثانيها: أن قوله: (استغفره) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا؟ فمن قال: صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهاً:

أحدها: أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة.

وثانيها: لزمه الإستغفار لينجو عن ذنب الإصرار.

وثالثها: لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً، وأما من قال: ما صدرت المعصية عنه فذكر في هذا الاستغفار وجوهاً:

أحدها: أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار.

وثانيها: تعبده الله بذلك ليقتدي به الخليفة من بعده إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف من دونه.

وثالثها: أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل.

ورابعها: أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة، فليستغفر الله لأجل ذلك.

وخامسها: الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية.

وهناك احتمال: وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر؛ لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله: {واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات}[٧٣٤]. فههنا لما كثرت

---

[٧٣٣] يوسف ٩٢.

الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم، وهكذا إذا قلنا: المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته[٧٣٥].

ومادمنا في هذه الآية فإنه ثمة إشكالية تطرح نفسها، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح، لأن الحمد يكون بسبب الأنعام، والأنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكوراً على العكس من هذا الترتيب؟ وجوابه من نواحٍ:

أولها: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق.

وثانيها: فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه.

وثالثها: للتسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله)، والأول كالصلاة، والثاني كالزكاة، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا ههنا.

وقد يخطر ببال الإنسان هل الآية تدل على أن عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار؟ وجوابها يكون نعم، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواتراً، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض.

وثانيها: أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة، ما فعله الرسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة .

---

[٧٣٤] محمد ١٩.

[٧٣٥] تفسير الرازي ، ج ١٧، ص ٢٧٨.

وثالثها: أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره، ثم قال: واستغفره حين نعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك.

وفي الآية سؤالات:

أحدها: وهو أنه قال: (إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا) على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل.

وثانيها: قال: غفاراً كما قاله: في سورة نوح.

وثالثها: أنه قال: (نَصْرُ الله) وقال: (في دِينِ الله) فلم لم يقل: بحمد الله بل قال: (بِحَمْدِ رَبّكَ).

والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: أن هذا أبلغ كأنه يقول: ألست أثنيت عليكم بأنكم: خير أمة أخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة، وفلق البحر ونتق الجبل، ونزول المن والسلوى عصوا ربهم. وأتوا بالقبائح، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم؟.

وثانيها: منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف في كرم الرحمن؟.

وثالثها: كنت تواباً قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار؟.

ورابعها: كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتي، والجناية مصيبة للجاني[٧٣٦].

والجواب: عن السؤال الثاني من وجوه:

أحدها: لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار، ويقال: تواب إذا كان آتياً بالتوبة، فيقول تعالى: كنت لي سمياً من أول الأمر أنت مؤمن، وأنا مؤمن، وإن كان المعنى مختلفاً فتب حتى تصير سمياً لي آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب، ثم إن

[٧٣٦] تفسير الرازي، ج ١٧ ، ص ٢٧٩.

التواب في حق الله، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيراً.

وثانيها: إنما قيل: تواباً لأن القائل قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، إن قيل: فقد يقول: أتوب، وليس بتائب، قلنا: فإذاً يكون كاذباً، لأن التوبة اسم للرجوع والندم، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه، فصار تقدير الكلام، واستغفره بالتوبة، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمال.

والجواب: عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين:

أحدهما : الرب.

والثاني : التواب.

ولما كانت التربية تحصل أولاً والتوابية آخراً، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخراً[٧٣٧].

وعليه قد يتساءل البعض:

هل يستطيع المؤمن أن يعيش دون أمل أو رجاء في المغفرة؟.

من المؤكد أن المؤمن بحاجة للغفران المتكرر والدائم، وهذا هو الأمل الذي يمنع اليأس والقنوط من الولوج إلى قلب المؤمنين، فالإنسان بصفة عامة كثير الزلات والأخطاء لا يخرج من خطأ وإلا ويقع في آخر طبعاً مع تفاوت هذه الزلات والأخطاء، فما من إنسان ممنوع عنها أو لا يقع في إحداها، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا}[٧٣٨]، ولكن التفاوت فيها يأتي بين المسلمين من التالي:

أولاً: حجم هذا الخطأ:

---

[٧٣٧] تفسير الرازي، ج ١٧، ص ٢٨٠.

[٧٣٨] النساء ٢٨.

هناك الكثير من أنواع وأشكال الأخطاء والذنوب التي من الممكن أن يرتكبها الإنسان عندما يكون ضعيف في نفسه أو عندما يكون على خطوات الشيطان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٧٣٩]، فخطوات الشيطان لا تقود إلا للهلاك والضلال والخسران الكبير، فإذا سيطر على النفس البشرية جعل منها تابعاً أعمى وأصم وأبكم لا يفقه شيء، بأن الشيطان يسلبه نعمة العلم والتفكير والإدراك الصحيح، كما أن الإنسان يفقد كل مقومات الآدمية حين يُلغي علمه وتفكيره ووعيه فلا يتوانى عن القيام بأي فاحشة أو ذنب أو رذيلة من شأنها أن تجعله خاسراً بعصيانه لله تعالى دنياه وآخرته.

ولكن تأثير هذا الشيطان الرجيم يتفاوت بين الناس، فهناك من يتبعونه دون أدنى وعي أو تفكير أو اعتراض، كالكافرين الذين يشاهدون بأم أعينهم آيات الله في الكون وفي أنفسهم ولكنهم لا يلقون بالاً لها، ولا يتلفتون بعقولهم إليها، قال تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٧٤٠]، وقال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٧٤١]، فالخالق عز وجل وهب لنا من الإمكانيات ما تجعلنا مدركين للحق وللباطل وترك لنا التخيير، ولكن هناك من يميل إلى اتباع الضلال والباطل فيكفر ويجحد بهذه النعم، وهناك نوع ثاني من البشر من يملكون من الإيمان القدر الذي يردعهم عند ميلهم ميلاً مؤقتاً وراء الشيطان الرجيم، وهذا النوع من المسلمين المذنبين الذين يقعون في الذنب ثم لا يلبثوا أن يستفيقوا منه،

---

[٧٣٩] البقرة ١٦٨، ١٦٩.

[٧٤٠] الجاثية ٣. ٩.

[٧٤١] الذاريات ٢١.

خائفين وراغبين في رضا الغفّار عنهم، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٤٢]، قال تعالى أيضاً: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٤٣]، أولئك الفئة هم بحاجة دائمة للغفار المطلق الذي وهب وأنعم عليهم بغفران لما ارتكبوه من ذنوب رحمةً بهم ورأفة كي لا يقنطوا من هذه المغفرة التي وسعت كل شيء، كما جاء في قوله جل جلاله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٧٤٤].

إذن هذه الفئة من المسلمين التي تضم عدداً كبيراً منهم تسعى دائماً للبحث عن الغفار بعد ارتكابها الذنب والخطأ، فتجده غفارا رحيماً بها مشترطاً عليها التوبة الصادقة، وهناك الفئة الثالثة من العباد وهم من لا يملك الشيطان أية سلطة عليهم، فقد وصلوا إلى درجة عند خالقهم بما قدموه لا يستطيع معها الشيطان أن يجعلهم تابعين خاسرين، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[٧٤٥].

إذن فالخطأ له أحجام منها ما يصل الكفر والجحود وهو ما لا يغفره الله تعالى لعباده، لأن الغفّار اشترط في منح مغفرته لمن يستحقها عدم الإشراك به، فلو أشرك الإنسان به مُنعت عنه مغفرته يوم الدين، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}[٧٤٦]، وقال تعالى أيضاً: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا

---

[٧٤٢] النور ٥.

[٧٤٣] الأعراف ١٥٣.

[٧٤٤] الزمر ٥٣.

[٧٤٥] الحجر ٣٦ . ٤٢.

[٧٤٦] النساء ٤٨.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}[٧٤٧]، أما الفئتين الباقيتين فهما اللتان ترجوان غفران الله دائماً، وتطلبه وتسعى خلفه.

فما من مسلم ولو كان كثير الذنوب إلا في زاوية من زوايا قلبه يرقد جزء من محبة اللجوء إلى الله، والحاجة لمغفرته والعفو عنه، لذلك على المسلمين أن يبحثوا عن هذا الجزء الراقد فيهم كي يستطيعوا أن يفيقوا من هذه المفاسد والشرور التي بدأت تغزو مجتمعاتنا المسلمة من جرّاء غفلة المسلمين عن دقائق أمور ديننا ودنيانا.

ثانياً: تأثير هذا الخطأ في نفسه وفيمن حوله:

هناك أنواع من الأخطاء يكون مردودها السيئ على الشخص نفسه أكثر من الآخرين، وهناك من الأخطاء التي يرتكبها المرء يكون مردودها السيئ متكافئ عليه وعلى من حوله، وبالتأكيد كلما زاد ضرر الخطأ وعم وكبر كلما كان الذنب أكبر كانت العقوبة أشد، فمثلاً في موضوع الزنا فقد وضع الخالق عز وجل العقابين في حالات الزنا: قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَأجلدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[٧٤٨]، وكذلك في أنواع القتل نلاحظ أن لكل نوع عقوبة مفروضة تناسب نوع القتل إذا كان متعمداً أو خطأً أو شبه العمد، لأن كل نوع من تلك الأنواع لها تأثيرها المختلف في النفوس ممن حوله.

لذلك فالذنب الصغير الذي يعود بالضرر على صاحبه يختلف عن الذنوب الكبيرة التي تستوجب عقوبة شديدة إذا لم يتم التراجع والتوبة الصادقة عنها.

ثالثاً: العوامل المحيطة به:

---

[٧٤٧] النساء ١١٦، ١٢١.

[٧٤٨] النور ٢، ٣.

الإنسان لا يعيش بمفرده في المجتمع، فالمولى عز وجل جعل الإنسان مخلوق اجتماعي لا يستطيع أن يعيش وحيداً مغترباً عن باقي البشر، وهذا المجتمع يتدرج بدايةً من الأهل إلى الأقارب ثم إلى الأصحاب والجيران وأخيراً إلى من يعملون معه، وبما أن الإنسان مخلوق ضعيف فإنه سريع التأثر بمن حوله، وهذا التأثير إما أن يكون سلبي أو إيجابي حسب المؤثرين فيه، فأحياناً نجد أن أقرب الناس للمرء وهما الوالدان يكون لهما تأثيراً سلبياً عليه من خلال الجهل في التعامل معه، أو من خلال نقص الوازع الديني لديهما أو لدى أحدهما، أو لأي سبب آخر، مما يؤدي بهذا الشخص إلى الهروب لزاوية مظلمة في الحياة وهي معاقبة الوالدين على سوء التعامل فيغرق في الضلال والفساد، وأحياناً يكون لعامل سوء اختيار الأصدقاء فيؤثر تأثيراً سلبياً على المرء، إذ أنه يسير خلفهم دون أن يملك القدرة على تمييز الحسن من الخبيث في أفعالهم، أو أنه يقلّد من حوله في الشر والضياع.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[٧٤٩]، ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أسوة حسنة فقد حذّرنا من مخالطة أصدقاء السوء لما في ذلك من نتيجة سيئة تحيق بنا وبمن حولنا.

كذلك معاملة المجتمع ككل معه وطريقة التفاهم المتبعة في المجتمع نفسه والأسلوب الذي ينشأ بين أفراده كلها عوامل من شأنها أن تجعل من الشخص إنساناً مسلماً راقياً بفكره وتعامله أو أن تجعله منحرفاً لا يسعى إلا للدمار والفساد، ولذلك فقد جعل العادل المطلق الأوضاع التي تم فيها ارتكاب الذنب أساساً لتحديد العقوبة، قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا

[٧٤٩] صحيح مسلم، ج ١٣، ص٧٣.

الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٧٥٠]، فقد فرّق الغفّار المطلق العلم بالذنب قبل ارتكابه بالجهل به وبعواقبه، وهذا الجهل يأتي أحياناً من تقصير الأهل في إفهام الأبناء ببعض الأمور، أو أحياناً يكون من الجهل بأمور ديننا بالرغم من الفرص المتاحة حالياً التي تجعل من المسلم واعياً عالماً بما ينفعه وما يضره.

لذلك ليس العالِم بالذنب كالجاهل به، إذ أن العلم بالذنب قبل ارتكابه له عقوبة شديدة إذا لم يتب ويصدق التوبة، ولكنّ الجاهل به فقد يغفر الله له لعدم علمه وفهمه لعواقب ذلك.

رابعاً: الزمن الذي يستغرقه للعودة عن الذنب

بما أن المسلمين قد اختلفوا في قبولهم لارتكاب الذنوب والغرق فيها فقد كان لزاماً أن يتفاوتوا أيضاً في زمن الصحوة التي يحتاجها كل مسلم لأن يفوق من هذه الذنوب، ولهذه الصحوة التي تستحق غفران الله تعالى له عدة عوامل تؤثر في تأخيرها أو تقديمها، مثل الطريقة التي يتبعها الأهل في علاج الخطأ أو الذنب الذي قام به الفرد، وكذلك نظرة المجتمع له فيما بعد، ووجود الأشخاص المتعلمين المثقفين ممن حوله لكي يأخذوا بيده ويساعدوه في تصويب ما في عقله وقلبه من أفكار هدامة ومدمرة، وهناك أيضاً الضمير الذي أوجده الخالق فينا كي يكون القاضي العادل داخل كل نفس بشرية، فهناك من يستمع إليه بأسرع مما قد يستمع إليه شخصٌ آخر، وهذا الضمير من شأنه أن يصحّح خطانا إذا استمعنا إليه.

خامساً: مدى صدق التوبة:

قد يتوب الإنسان بعد ارتكابه ذنباً معيناً، ثم نجد أنه قد عاد إليه بشكلٍ أكبر، وذلك بعد أن يكون قد عزم على عدم العودة إليه، ولكنه يضعف أحياناً أخرى فيرجع له، لذلك فتكرر الذنب والخطأ تطلب المغفرة المتكررة والمستمرة، ولو أن الغفّار عز وجل اشترط لنزول مغفرته أن يكون ذنباً واحداً لما كان الأمل في النجاة من الجحيم يراود الكثير من المسلمين العاصين الآن، لأن الذنب الواحد لا يمكن أن يرتكبه عامة المسلمين، أما الذنوب المتكررة فهي موجودة بين المسلمين بشكل كبير جداً، لذلك فالله غفار كثير المغفرة، ولكن لكي نستحق مغفرة الغفّار

---

[٧٥٠] النساء ١٧، ١٨.

سبحانه وتعالى لابد لنا من أن نصدقه أولاً في توبتنا، فلا نستسهل الرجوع عنها والعودة للخطأ مع علمنا به، لأنك حين تتوب إلى الله تعالى عن ذنبٍ كنت قد ارتكبته فكأنك تقطع عهداً قد عقدته مع خالقك، فكيف تستسهل قطع العهد؟.

لذلك فقد جعل الخالق عز وجل من شروط قبول التوبة واستحقاق مغفرته صدق التوبة، فالصدق أساس كل تعامل ناجح، ولا يمكن أن تولد الثقة واليقين إلا بوجود الصدق في كل فعل وقول، لذلك كان نصيب الصادقين من رحمة الله ومحبته وكرمه كبيراً جداً، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٧٥١]، وقال تعالى أيضاً: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٧٥٢] .

إذن صدق التوبة هو الطريق للوصول إلى استحقاق المذنب لمغفرة الله بل وتبديل سيئاته حسنات، لأن الله هو الغفار الذي يحب أن يغفر لعباده ويرحمهم لا أن يعذبهم ويأخذهم بذنوبهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[٧٥٣].

فعلى خليفة الله أن يحفظ نفسه من الزلات والذنوب بما أهداه الخالق من عقل يميّز به الحق من الضلال، فنعمة التفكير والتحليل من شأنها أن تصل بالخليفة إلى أعلى مراتب العلم الصحيح الذي يجعله من الفائزين عند الله تعالى، ويجعله ينأى عن الذنوب والخطايا.

---

[٧٥١] المائدة ١١٩، ١٢٠.

[٧٥٢] الأحزاب٢٤.

[٧٥٣] النساء ١٤٤ . ١٤٧.

وبهذا العقل يصل الخليفة إلى أن يعيش حياته بالشكل الصحيح البعيد عن الأخطاء والذنوب وذلك باتباع الآتي:

. اتباع القرآن الكريم:

فالقرآن الكريم هو هداية للبشر أجمعين فهو شامل لكل أساليب الترغيب بالهداية والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {طس تِلْكَ آَيَاتُ القرآن وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[٧٥٤]، وقال تعالى أيضاً: {الم تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٧٥٥]، فإتباع القرآن هو طريق الحفظ للنفس البشرية من وسوسات الشيطان الرجيم الذي يقود إلى الهلاك، إن في المحافظة على اتباع القرآن الكريم وما جاء فيه لخيراً عظيماً، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القرآن كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ"[٧٥٦]، فالتمسك بالقرآن الكريم يحيط الإنسان بالحفظ والحماية من كل رذيلة أو مفسدة، ويجعله قريباً من الخالق عز وجل مستحقاً لحبه ووده ورحمته ومغفرته.

اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من اتبع سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام لن يضيع أبداً، لأن من شأن ذلك أن يجعل من المسلم ذو خلقٍ نبيل لاقتدائه بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي رباه الله وعلّمه، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٧٥٧]، فهذه الأخلاق إذا حاول السير عليها أي مسلم فإنه بالتأكيد سوف يصل إلى أقصر الطرق لحب الله، هذا الحب الذي يحفظ المرء من الذنوب والخطايا، لأن من سكن حب الله في قلبه نجا من عذاب الحريق.

---

[٧٥٤] النمل ١، ٢.

[٧٥٥] لقمان ١ . ٥.

[٧٥٦] موطأ مالك ، ج ٢، ص ١٢٠.

[٧٥٧] القلم ٤.

الاقتداء بصحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوّم من سلوك المؤمن لما يجده في سيرتهم من نقاوة وطهارة وحسن تدبير، ولما في موقفهم من معاني سامية تحمل المؤمن للتحلي بأروع الصفات، وكيف لا يكونوا كذلك وقد عايشوا رسول الله – صلى الله عليه ويلم- لحظة بلحظة وشربوا من نبع نصائحه ومواعظه، فتخلّقوا بخلقه الكريم، لذلك فمن اتبع سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وسار على نهجهم ما خسر أبداً، فمن شأن ذلك أن يربي النفس على الصبر على الشهوات التي تؤدي إلى المفاسد والمهالك، وتقدّم حب الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام عن أي حب آخر.

لذلك فعلى خليفة الله أن يشرب من هذه الينابيع ليقي نفسه ارتكاب الذنوب والخطايا، وليكون سداً في وجه الرذائل، فكيف سيؤدي الأمانة وهو نفسه لا يملك القوة للسيطرة على نفسه، فكيف سيصلح من كان به الخلل!

وتتجلى في مغفرة الله تعالى رحمته المطلقة التي لا تخفى على أي إنسان مسلم أو كافر، إذ أن الله تعالى يوضّح لنا مدى وده وحبه بالكشف عن رحمته بنا حينما نذنب أو نخطئ، فالمحب يغفر دائماً لمحبوبه ويعطي له الفرصة لكي يعود عن ذلك، وبالتالي لابد للمحبوب أن يكون حريصاً لعدم الوقوع ثانيةً في الأخطاء والزلات خجلاً واحتراما لذلك المحب، فكيف إذا كان هذا المحب هو خالقك جل جلاله، الذي هو بغنى عنك وليست له حاجة فيك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[٧٥٨]، فهذا الحب والود ليس لمصلحة أو لمنفعة له عز وجل، وبالرغم من ذلك فإنه إلى جانب هذا الحب فإنه سبحانه وتعالى قد خص البشر برحمة منه، ونلاحظها متجلية في التالي:

تقديم النصيحة والموعظة:

إن الخالق عز وجل منذ بدء الخليقة وضّح طريق الخير من الشر، وجعل الخيار للإنسان أي الطريقين يريد أن يسلك، وقد جعل من الكتب السماوية طريقاً وسبيلاً واضحاً يكشف ما قد

---

[٧٥٨] فاطر ١٥ . ١٧.

يحتار المرء فيه، فكانت المواعظ والنصائح بعدم اتباع طريق الشيطان الذي توعد بتضليل الإنسان بسبب حقده عليه وكراهيته له، وبالرغم من ذلك نجد أن هذا الإنسان أحياناً يسعى خلفه ويأتمر بأمره، وقد بعث الله تعالى الرسل والمنذرين لكي يبلّغوا الناس رسالة ربهم، ناصحين لهم، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}[٧٥٩]، وكثير من القصص التي تدل على اعتماد الرسل والأنبياء طريق النصح والإرشاد لهداية البشر، وهذا بحد ذاته يمثّل رحمة الله بعباده ورأفته بهم، وحرصه عز وجل على إبعادهم عن طريق الضلال والخسران المبين.

وقد قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}[٧٦٠]، ففي هذه الآية تصريح برغبة الخالق عز وجل في إرشاد الخلق للنور والحق، فقد بيّن للناس أنه يريد الخير بهم ولكن بعضهم يميل عن الحق بالرغم من معرفتهم به بإتباعهم أولياء الشيطان الذين يدعون الخلق للفساد واللهث وراء الشهوات التي لا تدفعنا إلا للهلاك والخسارة في الدنيا والآخرة.

تبديل السيئات حسنات:

---

[٧٥٩] الأعراف ٧٤ . ٧٩.

[٧٦٠] النساء ٢٧.

من رحمة الغفّار بعباده التائبين منهم، أنه لا يكتفي بغفران الذنب بل يبدّل أحياناً سيئاتهم حسنات، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}[٧٦١]، فيقلب الغفّار سيئاتهم إلى حسنات، أية رحمةٍ أكبر من هذه الرحمة، وأي كرم أشد من هذا الكرم!

وعليه فلا يأس من رحمة الله للتائب الصادق التوبة، الذي يسعى لنيل رضاه بعد أن استحق عقابه، ولكنّ الغفّار يعطي للإنسان الذي يمد يده إليه راجياً طامعاً أكثر مما يتوقع، لأنه الرحيم الذي تتسع رحمته كل شيء قال تعالى: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}[٧٦٢].

عدم تسجيل الذنب إلا بعد وقوعه:

من رحمة الله بعباده أن لا يتم تسجيل عمل الإنسان السيئ إلا بعد وقوعه فعلاً، في حين أننا نجد أن مجرد التفكير أو نية عمل فعل خيّر يقع أجره أي يسجله الخالق على الإنسان وكأنه قام به، فمثلاً من كان له نية الحج صادقة ومات وهو لم يدركها كتبت له حجاً، من غير أن يقوم بها فعلاً لأن الله يريد الرحمة بعباده المؤمنين، أما بالنسبة للعمل السيئ أو الذنب فإنه لا يُسجَل في كتاب الإنسان إلا بعد وقوعه فعلاً بالرغم من علم العليم المسبق بذلك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ – " يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أجلي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"[٧٦٣]، فلا يُكتَب الذنب على صاحبه إذا نوى وحسب، بل يجب أن ينفذ ما نوى لكي يكتبه عليه الله تعالى، ولو كان الوضع مختلفاً، أي أن تسجل الملائكة نوايانا الشريرة والفاسدة لما بقيَ لأكثر المسلمين أملاً في رحمة الله، ولكن الغفّار أخّر تسجيل ما نوى المسلم من شر.

---

[٧٦١] الفرقان ٧٠، ٧١.

[٧٦٢] الإنسان ٣١.

[٧٦٣] صحيح بخاري، ج٢٣، ص٢٠.

عدم مضاعفة الذنب:

إن الذنب يكتب كما هو فلا يُضَاعف لعشرات أمثاله، كما في الحسنات، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٧٦٤]، وهذا بابٌ واسع لمعرفة مدى رحمة الغفّار بعباده، فلو تخيلنا مثلاً أن كل ذنب يقوم به المسلم يضاعفه له الخالق جل جلاله فكيف سيكون ميزان أعمالنا؟

ولكن من رحمته وحبه لمغفرة ذنوبنا وتشجيعه للتوبة واللجوء إليه فقد جعل من الذنب عملاً لا يتضاعف العقاب عليه، وجعل بالمقابل الحسنة بعشرة أمثالها، كما جاء في قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٧٦٥]، كم تتجلى في هذه الآية رحمته المطلقة بعباده، وحبه في ترغيب المذنبين في التوبة والعودة للحق، إذ أن مغفرته سبحانه وتعالى تسبق عقابه ورحمته تسبق عذابه وهذا كله لأنه الغفّار المطلق الذي لا يترك باباً مقفلاً في وجه من يطلبه.

عدم أخذ الإنسان بجريرة غيره:

الحمد لله رب العالمين الذي هو ربنا وخالقنا، فهو الرحيم بنا بمغفرته المطلقة، فالخالق عز وجل من حبه للمغفرة ومن باب عدله في مغفرته لم يأخذ أي عبدٍ من عباده بجريرة والده مثلاً أو أمه أو أي إنسان يربطه به صلة، فمثلاً إذا جاء الطفل إلى هذه الدنيا عن طريق الزنا بين اثنين، فلا يحمل هذا الطفل جريرة أحد والديه، بارتكابهما هذه الكبيرة التي نهانا عنها المولى عز وجل، بل أن الله تعالى جعل لكل إنسان حسابه الذي لا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٧٦٦]، وكذلك قوله جل جلاله: {إِذَا زُلْزِلَتِ

---

[٧٦٤] غافر ٤٠.

[٧٦٥] الأنعام ١٦٠.

[٧٦٦] الأنبياء ٤٧.

الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[٧٦٧]، وهنا يضع رب العالمين الميزان العادل للحساب، فلا يتعدى حدود العقاب العادل لكل إنسان يوم يقوم الحساب.

فعلى خليفة الله أن يكون مدركاً لمدى هذه الرحمة، من المسارعين لطلب مغفرته ورضاه، ومن الدائمين على الاقتراب منه عز وجل، ومن الحريصين على الابتعاد عن خطوات الشيطان التي ترسل الإنسان إلى دار العذاب، فالخليفة عليه من العمل الكثير في الأرض، فالتبشير بكل تلك الأبواب المفتوحة لقبول المغفرة أول أعمال الخليفة في الأرض، كي لا يبقى يائسا أو قانطا من هذه المغفرة، وكذلك عليه ترغيب من حوله من المسلمين في اللجوء للتوبة الصادقة، وعدم السماح للركض وراء الرغبات والشهوات، بمثل هذه النفوس المليئة بالأمل والحب والرغبة في المحاولة سوف نصل إلى نتيجة مذهلة في المجتمعات المسلمة من شجاعة نفسية وعقول متفتحة وتوكل على الله تعالى.

وليكن خليفة الله متصفاً بصفات الله تعالى التي من ضمنها المغفرة، فلابد أن يكون في قلبه من الرحمة ما يجعله غافراً للإساءة، كما جاء في قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}[٧٦٨]، طالباً بهذه المغفرة أجراً كبيراً من عند المولى عز وجل كما جاء في قوله تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[٧٦٩]، فهذه الآية توضّح أهمية المغفرة التي تتطلب

---

[٧٦٧] الزلزلة ١ . ٨.

[٧٦٨] الشورى ٣٦ . ٤١.

[٧٦٩] الشورى ٤٢.

الصبر والتريث، فلا يمكن أن تغفر وأن دائم التعجل والسرعة، فالإنسان العجول دائم الزلل والخطأ فتعجله يجعله منتقماً ومحباً للرد والعقاب السريع، أما من شروط أن تغفر لمن أساء إليك فهو الصبر الذي يجعلك تغفر وتسامح كما أرادك الخالق أن تكون، وبالطبع فإن ذلك الأمر ليس بمتناول جميع البشر، لأنه يتطلب درجة عالية من الورع وتقوى الله سبحانه وتعالى وحب الاتصاف بصفاته.

وصف الغفران هي نعمة أودعها الخالق جل جلاله في قلوب من شاء من عباده الذين رضي عنهم وأحبهم فغفر لهم وجعلهم من الذين يغفرون السيئة ويحفظون الحسنة ويدعون للغفران بين المسلمين، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[٧٧٠].

ولأن الغفار هو القادر لذا فهو المستطيع أن يجازي أو يعاقب، ولهذا فالمولى غفور لمن يشاء، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}[٧٧١]، وقوله تعالى أيضاً: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٧٢]، فمشيئة المولى عز وجل في المغفرة لمن أراد تنبع من قدرته على فعل كل شيء.

لذلك يجب على خليفة الله في الأرض أن يكون قادراً على الغفران، أي أن يكون غفرانه عن قوة لا عن ضعف واستكانة، وإلا لتطاول عليه الجميع وظل عاجزاً عن فعل شيء، فالمغفرة تتطلب قدرة وقوة متلازمتين كي تكون في موضعها الصحيح، فلا تأتي المغفرة إلا من قادر عليها لا مرغم عليها.

ولأن الغفّار هو العليم لذا فالمغفرة تتطلب علماً مسبقاً بمن استحق مغفرته وعفوه، فالخالق عز وجل علمه مطلق لا حدود له وبهذا العلم اللامحدود يدرك أن في مغفرته خيرٌ.

---

[٧٧٠] الجاثية ١٤، ١٥.

[٧٧١] النساء ٤٨.

[٧٧٢] آل عمران ١٢٩.

فمن البشر من هو مصر على الظلم وارتكاب الذنب، ومنهم من يتركه ثم يرجع إليه، ومنهم من يرتكبه دون علم به، وقد وافق علم الله بالنفوس البشرية استحقاق مغفرته لمن علم به خيراً. فعلى خليفة الله أن يكون عالماً بمن يستحق غفرانه وسماحه والمقدار الذي يستحقه والزمن لذلك، لأن الجهل بذلك يجعل منه إنساناً ضعيفاً في أعين الناس من حوله، فلا يقيمون له وزناً، لذلك فالعلم ضروري.

فليتذكر خليفة الله في الأرض قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [٧٧٣]، لكي يكون ذاكراً لهذه المغفرة التي لولاها لما بقي على الأرض من أمل في قلب أي إنسان في النجاة من عذابه الشديد جل جلاله، فيحفظ بذلك نفسه من النزوات والميل وراء الأهواء، بذلك ينأى عن الذنوب وتجد توبته طريقها إلى القبول عند المولى عز وجل.

وإن شاء الله نكون ممن امتدحهم المولى عز وجل في كتابه العزيز، في قوله تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [٧٧٤]، وكذلك في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [٧٧٥]، فهؤلاء هم من رضي عنهم الله تعالى وقرّبهم منه وجعلهم من عبيده الصالحين المستخلفين والوارثين.

وقد تساوى الأنبياء والرسل مع العباد الآخرين في طلب مغفرة المولى عز وجل، وهذا دليل على حاجة البشر وضعفهم لله الغفار الكريم، قال تعالى: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى

---

[٧٧٣] غافر٣.

[٧٧٤] آل عمران ١٥ ـ ١٧.

[٧٧٥] الذاريات ١٥ ـ ١٦.

نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ}[٧٧٦]، فهل نتكبر ونترفع عما قام به أفضل العباد، وهو الاستغفار والتوبة لله تعالى؟

ولابد لخليفة الله أن يدقق في معنى الغفار الذي بمشيئته يغفر ليعطي للإنسان المؤمن حباً وأملاً في الاستغفار والتوبة، لا أن يتهاون في ردع نفسه عن ارتكاب الذنوب بحجة أن الله تعالى هو الغفار الذي سيغفر له كل مرة يعود فيها عن ذنبه، بل إن الله تعالى شديد العقاب لمن يتعمد فعل الذنب والإصرار عليه مع علمه به، لذلك فالخليفة هو من كان لهذا الاسم التأثير الإيجابي في نفسه، فلا يهمل عقاب الله ولا ينسى أن الخالق عالم بما في نفسه وعالم بما يستحقه كل إنسان من ثواب ومن عقاب.

اللهم يا الغفَّار أغفر ذنوبنا واستر بالأعمال الصالحات عيوبنا، أنت مولنا فنعم المولى ونعم النصير، اللهم إنك الغفار الكريم فأكرمنا بواسع مغفرتك، اللهم إنك تعلم بحالنا وبما يلم بنا وبما تهواه أنفسنا فاغفر لنا في ما نظرنا إن كان لا يرضيك ولِما سمعنا إن كان لا يرضيك وما عملنا إن كان لا يرضيك فنحن ما قصدنا وإن قصدنا بأسباب غفلة أو ضعف أنت تعلمه فأنت الغفَّار الذي نتضرع إليه أن يغفر لنا فاغفر وارحم واجعلنا من التائبين، اللهم يا الغفار إن قصَّرنا في طاعة الوالدين في غير معصيتك فاغفر، وإن قصرنا في رعاية الأبناء فاغفر، وإن ارتكبنا الخطايا فاغفر وها نحن نعترف إن الكمال لك وحدك فاغفر.

القهَّار

في لسان العرب القهر: "الغلبة، والقهَّار من صفات الله الحسنى"[٧٧٧].

قال ابن الأثير: "القهَّار هو الغالب لجميع الخلق. وقهره يقهره قهرا: غلبه"[٧٧٨].

---

[٧٧٦] ص ٢٤، ٢٥.

[٧٧٧] لسان العرب المحيط، ج ٣، ص ١٨٠.

[٧٧٨] المصدر السابق، ص ١٨٠.

وقال الإمام الغزالي: "القهَّار هو الذي يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال"[779].

يقول الشيخ الشعراوي: "القهر في اللغة هو السيطرة والغلبة، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعني لا شيء يخرج عن سيطرته وغلبته، وكل شيء خاضع لأمره في حركته وسكونه"[780].

قال الإمام الصديقي: القهَّار: "هو الذي لا موجود إلا وهو مقهور تحت قدرته، مسخر لقضائه، عاجز في قبضته، وقيل هو الذي أذل الجبابرة وقصم ظهورهم بالهلاك، وحصل مراده من خلقه طوعا أو كرها، والقاهر: هو الغالب أمره وقضاؤه نافذ حكمه في مخلوقاته على وفق إرادته"[781].

القهر صفة حسنة بها يُقهر الأعداء بالحق، والقهر قوة بها يتم ترويض الطغاة والمتكبرين كما يتم ترويض الشاة لِما تنفر؛ ولذا فالقهر صفة مغالبة لإحقاق الحق.

قال الله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}[782]. هذه الآية تعني: أنه خلقكم وخلق لكم ما تعملون؛ ولا تعني أنه لم يترك لكم شيئا لتفكِّروا فيه وتصنعوه بأيديكم. وترك لكم حرية الصنعة، ومع ذلك فقد صنعتم أصناما آلهة تعبدونها من دونه تعالى، فكيف يكون حالكم وأنتم لا تعملون مما خلق الله لكم ما يُمكنكم من معرفة علمه الذي لم تؤتوا منه إلا قليلا ولتؤمنوا؟.

فالله خلقكم وما تعملون: جاءت لتُذكِّر من يَعمل ويصنع بيديه فَضْلُ الله عليه ليحمده ويشكره لا لأن يكفر به ويشرك به أحدا.

هناك من يظن بأن الله خلقكم وما تعملون، تُبرئ المسؤولية عن بني آدم مما يقترفون من ذنوب وجرائم حتى ظن البعض بأن من يقتل بريئاً عمدا أو خطأ فإنما قتله الله؛ استغفر الله

---

[779] الإمام الغزالي، المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتاب العلمية، ص ٥٧.

[780] الشعراوي، أسماء الله الحسنى. ص ٢١٤.

[781] محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية، المدائن للنشر والتوزيع، ١٩٩٦، ص ٣٦.

[782] الصافات، ٩٦.

تعالى، الله لا يقتل. الله يميت، والموت حق. أما القتل فهو فعل بشري ترتقي الإنسانية عنه فيحرمه الله.

قال الشيخ الشعراوي: "إنَّ فكرة المصير المحتوم مسبقا إلى الجنة أو إلى النار فكرة خاطئة، وما دُمت على قيد الحياة فتؤمن أن مصيرك لم يتحدد بعد، ولو كان العلم الإلهي المسبق بالأحداث بهذا المعنى الخاطئ الذي يفهمه هذا الشخص لما قال المولى عز وجل في سورة البقرة[٧٨٣]: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.

فلو كان المصير كما يظن البعض بأنه محتوم فلماذا الاستجابة إذن؟. ولماذا يقول {وقال ربكم أدعوني أستجب لكم}[٧٨٤]؟.

وعلينا أن نتذكر قوله تعالى: {ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله}[٧٨٥] وقوله عز وجل {فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه}[٧٨٦]

لقد خلق الله الإنسان قوة بقوته حتى أنه فضَّله وميَّزه على ما خلق؛ ومع ذلك فهو ضعيف إذا قارن قوته بقوة الله الواحد القهار. ولذا جعل له من العقل قوة للتفكُّر والتذكُّر، ولم يجعله له ليخون الأمانة ويشرك به ولا يوحده واحدا أحدا. ولقد خلق له البصر والسمع والفؤاد قوى للمشاهدة والملاحظة ولإدراك الحق ولم يخلقها له ليُفسد بها في الأرض ويسفك الدماء فيها بغير حق.

القهَّار الحق هو الذي يحيي ويميت، والقهار بالإضافة هو المقهور بعدم الاستطاعة لتنفيذ هذا الأمر، ولكنه يستطيع أن يقتل، ومع ذلك حُرِّم عليه قتل النفس إلا بالحق. وأمَّا من غيرها فيستطيع أن يقتل الصيد ويذبح الغنم وينحر الإبل في حدود القتل الحلال.

---

[٧٨٣] الشعراوي، أسماء الله الحسنى. القاهرة، دار أخبار اليوم، ص ٢١٨..

[٧٨٤] غافر، ٦٠.

[٧٨٥] الأنبياء، ٨٦.

[٧٨٦] الأنبياء، ٩٠.

القهَّار الحق هو الذي خلق للإنسان ما يعمل فخلق له الطبيعة، والقهَّار بالإضافة هو الخليفة الذي يُصلح فيها ويعمل لِما يُشبع حاجاته كما يشاء في مرضاة الله تعالى.

القهر: مغالبة الظلم بالحق ودمغه حتى يزهق، والقهَّار قاهر الظلم ودامغه بالحق. ولذا فإن القهر مغالبة الباطل بغير باطل مصداقا لقوله تعالى: {فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث}[٧٨٧].

القهَّار: الفعَّال لِما يُريد، والغلاَّب الذي لا غالب له، مِلؤه الكمال، كاشف الأمر هو كما هو حُجَّة دامغة، مع التحكم التام الذي لا يُمكِّن من التبدل والتغيير والجحود.

وبما أن القهر مغالبة الباطل بالحق. إذن القهَّار هو الغلاَّب بالحق.

وبما أنه الغلاَّب بالحق. إذن فلماذا الخوف؟!

للإجابة عن هذا السؤال نقول للخوف وجهتي نظر:

الأولى . الخوف من الحق: بالنسبة لأهل الباطل لا يخافون إلا من إحقاق الحق، الذي به يُكشف أمرهم وما يخفون من ورائه، فالزاني لا يأمل أن يشهد عليه أحد إذا انتشر أمره بين الناس، والسارق كذلك، والظالم أعظم. ولذا فإن الخوف من القهر لَكشِفه الحقيقة بلا مجاملة، التي على ضوئها يُبرأ من يُبرأ ويُدان من يُدان. وأصحاب الباطل هم الذين يُقهرون بإظهار الحقيقة، ومع أنهم يعرفون أنها الحق، إلا أنهم لا يأملون كشفها أمام أعين الناس وخاصة المناصرين لها، ولذا فهم يُقهرون.

والثانية . الخوف من الباطل: أصحاب الحق دائما يلحُّون مع سعيهم الجاد وآمالهم على كشف الحقيقة وإظهارها أمام أعين الناس حتى ينجلي الظلم عنهم.

المؤمنون الذين يُظهرون إيمانهم بالحق لا يأملون نصر المشركين عليهم، وإن انتصروا عليهم لا قدَّر الله فأنفسهم تُقهر بنصر المشركين عليهم، ومع أنهم يؤمنون بأنهم الغالبون في النهاية إلا أنهم يتألمون مع الحسرة الشديدة على قهرهم المؤقت. وهكذا حال أنفس الضالين والمشركين فهي تحس بالقهر كلما انتصر عليها مهتدٍ لله تعالى ومؤمنٍ به.

---

[٧٨٧] الضحى، ٩ . ١١.

فالقهر دائما مترتب على ما يناقض الأمر. فإن تُصدِرَ أمرا ولا يُنفذ، وأنت لا ترغب أن لا ينفذ، قد تثور وتغضب وقد تَقدِم على فعل لتعاقب به من عصاك أمرا، وقد تكتشف أنك لن تستطيع أن تعمل له شيئا، بعد أن استمد القوة التي جعلتك لن تستطيع أن تفعل له شيئا، وإلى جانب ما كنت تعتقد أن لا يجاهرك أحد بعدم الطاعة سواء كنت على حق أو على باطلٍ فبطبيعة الحال في هذه الحالة ستحس بالقهر من الذي كنت تعتقد أنه لا يساويك في شيء، وأصبح من المتطاولين عليك ويرفض أن يسمعك وينفذ أمرك.

وللقهر خاصيتان:

الخاصية الأولى: القهر المُطلق، للذي يمتلك القوة المطلقة، مما يجعل الكل يأتي مُسلِما له طوعا وكرها مصداقا لقوله تعالى: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون}[٧٨٨]. نزلت هذه الآية ردا على أقوال المتخاصمين في الأمر، وقال الكلبي: "إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أينا أحق بدين إبراهيم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كلا الفريقين برئ من دينه) فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت هذه الآية الكريمة (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها)"[٧٨٩]. وله أسلم تعني: وله اعترف الكل من غير استثناء بالمقدرة والقوة التي ليس بإمكانهم مقارعتها، كما هو حال إبراهيم والنمرود في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٧٩٠]. النمرود كان ذو مُلك كبير حتى أنه كان يَمير الذين يؤمنون به طعاما؛ وذكر زيد بن أسلم: "أن النمرود كان يأمر الناس بالميرة، فكلما جاءه قوم يقول: من ربكم وإلهكم؟ فيقولون أنت؛ فيقول ميروهم. وجاء إبراهيم عليه الصلاة

[٧٨٨] آل عمران، ٨٣.

[٧٨٩] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع، ص١٢٧.

[٧٩٠] البقرة، ٢٥٨.

والسلام يمتار فقال له: من ربك وإلهك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت؛ فلما سمعها النمرود قال: أنا أحيي وأميت فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر؛ وقال لا تميروه. وقال الربيع وغيره في هذا القصص: أنَّ النمرود لما قال أنا أحيي وأميت أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال: قد أحييت هذا وأمت هذا؛ فلما رد عليه بأمر الشمس بهت"[٧٩١].

وقوله: (له أسلم من في السماوات والأرض) تعني ولله تم الاعتراف بالمطلق بعدم المقدرة التي يمتلك لها تعالى القوة الفاعلة وينفرد بأمرها. ولذا لقد قُهر النمرود بأمر إبراهيم بالرغم من أنه في حاجة لمير الطعام، وازداد قهرا بعدما كانت النار على إبراهيم بردا وسلاما، مصداقا لقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أفٍ لكم ولِما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرِّقوه وانصروا ألهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم}[٧٩٢]. فكانت بردا وسلاما عليه فالحمد لله ربِّ العالمين.

وقوله تعالى: (طوعا وكرها) تعني الآتي:

طوعا: إرادة وإيمانا؛ حيث كان له الاعتراف بالقوة القاهرة لأية قوة؛ إنها القوة التي استوجبت من بعضهم الطاعة بالإيمان. قال تعالى: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أتينا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين}[٧٩٣] أي بإرادة تامة واعترافٍ خالصٍ بقوتك القاهرة التي تفردت بها لقهر أية قوة ولذا فنحن من الطائعين المسبحين بحمدك.

وكرها: مغالبة بالحق برغم كيد الكائدين ومكر الماكرين مصداقا لقوله تعالى: {يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}[٧٩٤] وقوله تعالى: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}[٧٩٥].

---

[٧٩١] القرطبي، ج ٣، ص ٢٨٥.

[٧٩٢] الأنبياء، ٦٦ . ٦٩.

[٧٩٣] فصلت، ١١.

[٧٩٤] الطارق، ١٥، ١٦.

[٧٩٥] الأنفال، ٣٠.

وعليه: فقوله تعالى: (وله أسلم من في السماوات طوعا وكرها) تدل على أنَّ الاستسلام قد كان من قبل الجميع دون التبعيض؛ التبعيض جاء من أنهم لم يكونوا جميعا مسلَّمين له بالعرفان طواعية، مما جعل البعض يستسلمون له كرها، وجعل البعض إليه مسلمون. وقوله (له أسلم) تعني له أقرَّ واعترف بعدم المقدرة والاستطاعة على فعل ما يستطيع أن يفعله هو تعالى بذاته العلية. ولو استطاعوا أن يفعلوا لفعلوا، ولهذا كانت المغالبة لمن أسلم طوعا ولمن أسلم كرها.

والفرق بين من أسلم طوعا وبين من أسلم كرها هو أن الذي أسلم طوعا: اعترف بثلاثة أشياء هي:

الشيء الأول: الطاعة بعد العرفان بأنهم قاصرون عما يقدر عليه ويفعل.

والشيء الثاني: الطاعة بعد العرفان بأن الذي قهرهم بإظهار القوة المطلقة يستوجب الإيمان به واحدا أحدا.

الشيء الثالث: التصديق بما يقوله على لسان من يصطفيهم من أنبياء ورسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم جميعا.

والذي أسلم كرها: اعترف بشيء واحدٍ على أنهم لا يغلبوه في الإعجاز وهم مجبورون على أن تكون قدراتهم هكذا طبيعيا، ومع أنهم لا يغالبوه تعالى في شيء إلا أنهم يظنوا أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يُمكِّنهم من امتلاك زمام القوة. حتى أنهم ظنوا وكأن الحياة في أساسها مرتبة طبيعيا دون تدخل من أحد. فهم اعترفوا بأنهم لن يأتوا بالشمس من المغرب، وأنهم لن يُحيوا الموتى وأنهم لن يخلقوا حياة أو يبعثوا أحدا من جديد، ومع ذلك لم يعترفوا بما قاله على لسان أنبيائه ورسله صلوات الله تعالى عليهم وسلم تسليما.

وكلمة كرها: تحتوي في مضمونها التبيان المنكشف أمره، فهو التبيان الذي لا يمكن أن يُخفى مما يستوجب الاعتراف به وبالقدرة التي من ورائه. وإلا هل هناك من يخفي الشمس والقمر والنجوم وحركتها الفلكية؟.

وهل هناك من ينكر الشروق والغروب والأهلة والحساب؟.

ألا تكون هذه دلائل وحجج ثابتة مَثَلُ حُجَّتها كمثل حُجَّة وجودنا ونحن مميزون عن غيرنا مما خلق تعالى؟.

ألا تكون هذه الحُجج دامغة لمن آمن ولمن كفر؟.

فإذا كانت كذلك، ألا تكون هي القاهرة لمن آمن طوعا وكرها؟.

وإذا كانت الإجابة ببلى؟. ألا يكون فوق ما يُقهر قهَّارا؟.

القهَّار: هو العادل مصداقا لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عمَّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيزا ذو انتقام}[٧٩٦] فالذي نخصَّه بالاستشهاد للقهر هو قوله تعالى: (ليذوق وبال أمره). وبال الأمر مرارته وقسوته فكانت الاستعارة بالذوق الذي به تُميز المرارة عن الطعم اللذيذ، وذلك للتذكير بالمشابهة من حيث معرفة الأثر المترتب على مرارة الذوق مع مرارة الألم والتأسف على ما يحدث من أمرٍ لا خير فيه. ويقال الوبال سوء العاقبة.

ولذا فوبال أمره: هو ما يترتب على ما قام به من فعل منهي عنه من الله تعالى أو محرمٍ على من كان حُرم مما يستوجب قهر النفس التي قبلت بأن تتبع ما نهى الله عنه.

في هذه الآية النهي لم يأت مطلقا للكافة، بل جاء للخاصة وهم المؤمنون الذين هم في حالة إحرام. مصداقا لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم) في هذه الآية الكريمة مجموعة من الأحكام الرئيسة:

الحكم الأول:

مخاطبة المؤمنين بدون استثناء بأمر المُحُرم.

الحكم الثاني:

---

[٧٩٦] المائدة، ٩٥.

نهي المؤمن عن قتل الصيد وهو حُرم وليس أي صيد وذلك لاستثنائه لصيد البحر وقصوره على صيد البر. ولأنه ليس كل صيد بر بمحللٍ لذا فحرَّمه تعالى بالمطلق على المؤمن المُحرِم، ولذلك ليس للمؤمن إلا الطاعة للأمر المنهي عنه.

الحكم الثالث:

المؤمنون الذين هم حُرم، مما يجعل النهي عنه لا يتعلق بالمؤمنين غير الحُرم.

الحكم الرابع:

قتل الصيد المتعمد وليس القتل الخطأ. قال: قتل ولم يقل ذبح أو نحر أو أي نص من النصوص التي لا التباس ولا غموض في معاني استخدامها أو القيام بها وفقا للمتعارف عليه بين المؤمنين، وذلك ليشمل الصيدين (صيد البر وصيد البحر) حيث أنَّ صيد البحر في أساسه لا يُذبح ولا ينحر، ومع ذلك فهو نعمة من أنعم الله التي انعم بها على الإنسان.

وقتل الصيد تعني كل حيوان بري أو بحري هو صيد، والفرق بين الصيدين: أن صيد البحر لا محرم فيه وصيد البر محرم على الحُرم، مصداقا لقوله تعالى: {أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحُرم عليكم صيد البر ما دمتم حُرم}[٧٩٧]. في الآية ٩٥ من سورة المائدة نهى عن قتل صيد البر على المؤمن المُحرم وفي الآية ٩٦ من نفس السورة حرَّم قتله بالمطلق ولذا فإن قضايا التحريم أكثر شدة من القضايا المهني عنها، ولهذا ليذوق من يرتكب الجرم وبال أمره.

وقد يتساءل البعض: لِماذا حُرِّم صيد البر على المؤمن المُحرم، ولم يُحرَّم عليه صيد البحر؟.

نعتقد لوجود السببين الآتيين:

السبب الأول: أن طبيعة البيئة في مكة والمدينة المنورة والمساحات التي بينها والتي يمشيها الحجيج تعيش فيها الحيوانات البرية وخاصة أيام تنقل الحجيج على الأقدام والخيل والإبل وما يتيسر لديهم من حيوانات مساعدة على التنقل والنقل والترحال، مما يجعل الحجيج يبيتون بين المسافات أياما وهم في طرقهم قد يتعرضون إلى حيوانات برية فليأخذوا حذرهم حيث المفترس

---

[٧٩٧] المائدة ٩٦.

والضار منها؛ فنهى الله عن قتلها مع أخذ الحيطة، ففي حالة ما إذا حسَّ المؤمن المحرم بخطورة عليه أو على آخرين معه من صيد بري مفترس فليس له بد من قتله.

ثم حرَّم صيده عمدا تحريما قاطعا، أي حرَّم أن يقتل مُحرِما صيدا بريا عن عمدٍ إلا إذا واجهته منه خطورة.

والمُحرِم بلباس الحج إذا قتل صيدا ثم ثنى عليه بالانقضاض وقد لا يلحقه بأنفاسه وفي هذه الحالة قد يختلط أمره بين حلال وحرام، ويتعرض إلى ذبحه وسلخه وقد يتعرض إلى شيء من الدم الذي قد يدنس إحرامه وقد يشوه طهارته.

وفي مقابل ذلك كل ما يخرج من البحر صيدا فهو حي إلى أن يتم إخراجه.

السبب الثاني: ليس كل صيد بر يؤكل حلالا طيبا، وفي مقابل ذلك كل صيد بحر يؤكل حلالا طيبا.

الحكم الخامس:

الجزاء بالمماثلة أي الجزاء بالقيمة التي تساويها قيمة الصيد المقتول عمدا وهو المقصود بالنعم، أي أن الصيد نعمة من النعم التي أنعم بها الله على عباده.

الحكم السادس:

الحكم الذي لا يصدر جزافا بل يشترط فيه المشاركة بين ذوي العدل من المؤمنين وذلك لتقدير القيمة المناسبة موضوعيا للصيد المقتول خطأ من المؤمن المحُرِم.

وبناء على هذه المتغيرات فمن يتمعن فيها وفي الأسرار التي من ورائها ألا يكون من ورائها القهَّار العدل الذي به تطمئن نفوس المؤمنين بعد أن يُكفِّروا عن ذنوبهم؟.

نحن نعتقد في ذلك وقد لا يرى غيرنا ما نرى؟.

ولذا لا عيب أن تتباين وجهات نظرنا حتى يتبيِّن لنا الخطأ من الصواب لنبتعد عن الخطأ ونجتنبه، ونستأنس للصواب ونأخذ به.

وقوله تعالى: (هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) في هذه الآية أيضا أحكام:

الحكم الأول:

الهدي إلى الكعبة: أي أن تعود قيمته إلى ما يخدم بيت الله الحرام. حيث يُفعل به كما يُفعل بالهدي من تصدق وأعمال الخير.

الحكم الثاني:

الكفارة عن قتل صيد البر عمدا لإطعام المساكين الذين هم في حاجة.

الحكم الثالث:

الصيام للذي لا يستطيع أن يهدي شيئاً إلى الكعبة وهذا الصوم هو أيضا في حاجة لمن يُقدِّره عددا من ذوي العدل من المؤمنين.

وفي قوله تعالى: (ليذوق وبال أمره عفا الله عمَّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيزا ذو انتقام) تحتوي هذه الآية على الأحكام الآتية:

الحكم الأول:

ذوق الوبال، الذي فيه شدة وقسوة على من آمن طوعا حتى ينال المغفرة والرحمة بالهدي أو الكفارة أو الصوم.

الحكم الثاني:

العفو عمَّا سلف قبل نزول هذه الآيات المُبيِّنة للمنهي عنه والمحرَّم منه.

الحكم الثالث:

انتقام الله تعالى من الذين يعودون بتكرار الفعل المُحرَّم من قِبله تعالى.

وبناء على ما تقدم نلحظ التضارب بين ما يرغبه بني آدم وبين كبحهم عنه فهم لو لم يحبوا الصيد ويهووه ما ابتلاهم الله بتحريمه عليهم في فترات كونهم حُرماً، ولذا فهم مقهورون بهذه الحجة من الذي يؤمنون به ويحجون إلى بيته الحرام أي مجبرون إجبارا ومكرهون على الالتزام وإلا يتعرضون للعقاب الشديد من القهَّار الأعظم جل جلاله.

الحكم الرابع:

عزة الله للمؤمن المُحرم بأن يكون طائعا له غير عاص لأمره، فإن عصاه سيكون ذو انتقام شديد. ولذا فإن العزة لله بالإيمان به والأخذ بما يأمر والابتعاد والاجتناب عما ينهى عنه ويُحرِّم.

يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "قهره مصاحب لعدله، وعدله مصاحب لرحمته، وانتقامه مصاحب لحلمه، وهذا هو السر في كمال أسمائه وصفاته، فلا ينفرد اسم عن اسم، ولا صفة عن صفة، فهو سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا هو السر في اقتران القهَّار بالواحد في القرآن الكريم"[٧٩٨].

نعم يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ما قاله الدكتور فأسماء الله وصفاته تتعدد وهو واحد لا يتعدد، ولذا فالله هو المحتوي لمضامين أسمائه وصفاته الحسان، وكل صفة أو اسم فهو يحتوي الصفات الأخرى ويتضمن كل ما تدل عليه.

قال تعالى: {يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهَّار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل بها الله من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون}[٧٩٩]. صاحبي السجن هما الفتيان اللذان دخلا مع يوسف عليه الصلاة والسلام السجن، واللذان اعتقدا فيه حُسنا فطلبا منه أن يُنبئهما برؤية كل منهما حيث أحدهما رأى أنه يعصر خمرا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبز تأكل الطير منه فاستفتاهما بما رأى كما هو مبين في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام الذي صدق استفتاؤه لِما رأى.

وقوله تعالى: (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهَّار) في هذه الآية تساؤل استغرابي وتعجبي، مع حملهِ لمضمون السخرية من الذين يعبدون أرباباً من دون الله الواحد القهار. فأرباب متفرقون تعني: غير متساوين في الرأي والقدرة والاستعداد والأمل والرغبة والحاجة فهم إن كانوا بشرا فهم يمرضون ويتألمون ويطمعون ويتسيسون ويظلمون ويجوعون ويضحكون مع

---

[٧٩٨] محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٦٦.

[٧٩٩] يوسف، ٣٩.

وعلى، متى ما يشاؤون وكيف يشاؤون؛ وهم الذين ينامون ويختصمون ويتصادمون وهم الذين لهم غرائز تجعلهم يُقهرون بتُعرَّضهم للضعف والاستسلام، وهم الذين ينتهون وبالموت يُقهرون؛ فهل مثل هؤلاء يحق أن يُتخذوا أربابا؟.

ولو كانوا أربابا لفسدت حيث امتلاك كل منهم القوة التي تقيم الساعة والقوة التي تُعيدها بعد قيامها؛ وهكذا تصبح الحياة بين أيدي الغاضبين مِنْ، والغاضبين عَلى. وبما أنهم لا يملكون هذا الأمر ولو اجتمعوا بقواهم جميعا؛ إذن هم يفتقدن القدرة التي تجعل من الربِّ إلهاً يُعبد.

وما بالك إن كان الرب إلهاً صنما من حجارة أو تمر أو حديد، فهو الذي لا يغضب لحقٍ، ولا يفعل خيراً ولا يُحيي ولا يُميت، ولا يشفي مريضاً ولا يرحم ولا يغفر، ولا يتحكم في الأمر وهو بالزمن يبيد.

هذه الأصنام لو كانت تنطق لقالت: أنا المخلوقة ومن ورائي خالق قهَّار، وأنا التي تُسبِّح بحمد خالقها صباحا مساء، فأنا في حاجة لرحمته مما تفعلون بي، فلو كانت لي مقدرة لقوَّمتكم قبل أن تقيموني صنما، فأنا في حاجة لرضاه، وأستغرب أنكم لا تسعون لنيله قبل أن تنتهوا وحينها لا ينفعكم الندم. فأنا أيها العُبَّاد مخلوقة من خالق قهار، فأنا المنتهية وهو الباقي، فعليكم بالحياد عمن لا يبقى وتمسكوا بالحي الدائم الذي لا يموت.

يَقهر: تعني يَهزِم ويَغْلِب، والقهَّار: هو الغالب الفعَّال الذي لا غالب له.

وقد يتساءل البعض: كيف يَهزِم القهَّار ويَغلِب؟.

. يهزم بالحجة، مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[٨٠٠].

وقوله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[٨٠١]

---

[٨٠٠] الغاشية ١٧ . ٢١.

[٨٠١] التين، ٤.

. ويغلب بالبرهان: مصداقا لقوله تعالى: {ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي الذي قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فآت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين}[٨٠٢].

الرب الذي يستوجب أن يُعبد هو الرب القهَّار، الذي يقهر بالحجة والبرهان ولا يُقهر بغلبة.

وعليه أتساءل: عندما تعرف بأن الله يخلق كل شيء حيا، وأنت لا تستطيع أن تخلق شيئا حيا، ألا تكون مقهورا أي مغلوبا في هذا الأمر؟.

. وإذا قيل لك أن الله يحيي ويميت، وأنت لا تستطيع على واحدة منهما ولو اجتمعت معك الإنس والجن، ألا تكون مغلوبا أيضا في هذين الأمرين؟.

. وإذا عرفت أن الله جلَّ جلاله يأتي بالشمس من المشرق وأنت لا تمتلك المقدرة على إيقافها أو الإتيان بها من المغرب، ألا تكون مقهورا وأنت لا حُجَّة لك ولا برهان.

. وإذا قيل لك أن الله غفَّار الذنوب جميعها وأنت لا تقدر على غفران ذنب واحد ألا تكون مقهورا مغلوبا.

. وإذا قيل لك أن الله يخلق ما يشاء كيف يشاء وأنت لا تستطيع إيقافه عما يخلق، ألا تكون مقهورا لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئا؟.

. وإذا قيل لك أنه بكل شيء عليم، وأنت لا تعلم، ألا تكون مقهورا مع مجموع ما قُهرت به سابقا؟.

. وإذا عرفت أنه القوي وأنت الضعيف ألا تعترف بأنك المقهور في هذا الأمر.

وللإجابة على هذه التساؤلات: على الإنسان أن يبحث حتى يأتي بما يخالف ذلك أو يتمكَّن بمعرفة تامة بأنه المغلوب أمام قدرته تعالى، وحينها ليس له بد إلا أن يؤمن بأنه الله الواحد القهار.

قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا

---

[٨٠٢] البقرة، ٢٥٨.

لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٨٠٣].

الأمر (قل) موجَّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن يسأل المشركين عن من ربُّ السماوات والأرض؟ وأمره بأن يقول لهم إي يُجيبهم بأنه الله عز وجل. وذلك لأن أمر الله بالنسبة للرسول والذين آمنوا معه هو أمر تسليم.

ثم قال الله تعالى لرسوله الكريم: قل لهم (أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) في هذه الآية تساؤل استغرابي يتساءل عن الكيفية التي هم عليها أي كيف تعترفون بالله تعالى وتعبدون من دونه من لا يستطيع على مشاركته في شيء ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؟.

ثم قال له قل لهم: (هل يستوي الأعمى والبصير)؟ بطبيعة الحال يحمل هذا التساؤل ما يفيد الإجابة، بعدم التساوي، وفي ذلك استدلال على من يرى الحقيقة ويعرفها وعلى الذي لا يراها. مما جعله يؤكد ذلك بقوله: (هل تستوي الظلمات والنور) بمعنى هل يستوي الجهل والعلم، والشرك والإيمان؟. أم أنهم (جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم)؟. إنه استهزاء بعقولهم مع سخرية تُمكِّن من الإدراك، فكيف يكونون عقلاء وهم لا يميزون بين الظلمات والنور ولا يميزون بين الأعمى والبصير ويعرفون أن آلهتهم لا تخلق شيئاً وهي المخلوقة بأيديهم مما خلق الخالق الأعظم. ولذا فإن كانت خلاَّقة فعليهم أن يَروا ما خلقت، أم أنَّ ما خلقته اختلط مع ما خلقه الله تعالى حتى أنهم لا يستطيعوا فرزه وتمييزه عن بعضه البعض؟.

جاءت الإجابة على جميع التساؤلات السابقة بقوله تعالى: (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهَّار). أي بما أن الله هو خالقهم وخالق المادة التي خُلقوا منها آلهتهم أو صوَّروها، وأن آلهتهم لا تقدر على أن تفعل شيئا لها ولا لهم، وأنها لم تكن مشاركة في أي أمر ولن تكون؛ إذن فعليهم أن يعترفوا بأنهم مقهورون بمغالبة الحق للباطل فليؤمنوا أو لا يؤمنوا فإن الله هو الواحد القهَّار.

---

[٨٠٣] الرعد، ١٦.

وعليه من أراد أن يكون من خلفاء لله تعالى في الأرض، فعليه بالحق فيها، وأن لا يُغيِّب عقله الذي ميزه به عن الضمير الذي يعود به إليه تعالى، وهو العرفان بالعبودية الممتلئة بالطاعة التامة في غير معصية ولا شرك.

إنَّ قهر الخالق لعباده يزيدهم إيمانا تاما به، وذلك لإدراكهم على أنهم مهما عملوا وفعلوا من خير فلن يستطيعوا أن يعملوا ما خلق لهم خالقهم من خير، وإذا اكتشفوا وعرفوا وتعلموا يجدوا أنفسهم لن يؤتوا من العلم إلا قليلا مما علمهم الله تعالى من آيات وعلوم ومعارف واسعة، وهكذا يسعون ويبحثون حتى يُدركوا أنهم مهما فعلوا وعملوا وخلقوا فهم مقهورون أمام خلق الله وعلمه وأسراره وعزته وقوته وجبروته سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار.

قال تعالى: {يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار}[٨٠٤] المؤمن لا يناقش أن الأرض والسماوات تُبدل أو لا تبدل فهذا الأمر بالنسبة له قول حق لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. بل الذي يود أن يُظهره: هل يمكن أن يتم هذا التبُّدل بدون قوة قاهرة؟. وعندما تأتي الساعة التي سيحدث فيها هذا الأمر هل يمكن أن تكون هناك إجابة غير الاستسلام لله الواحد القهار؟. في الاعتقاد الإيماني ليست هناك إجابة غير أن يؤذِّن ذلك المؤذِّن المؤمن الذي اطمأن قلبه بإجابة أصحاب النار الذين وجدوا ما وعدهم الله حق بعد ما قال لهم لقد وجدنا ما وعدنا الله حقا.

أمَّا مع غير المؤمنين إذا كانت الإجابة بنعم بين اتفاق واختلاف، فما هي الإجابة التي يمكن أن تكون لنا حُجَّة؟.

بالتأكيد من يقول نعم لن يجد إلا الله الواحد القهار. ومن يقول لا، لن يجد إلا الله الواحد القهار.

وعلى الذين يعيشون على الأرض قبل تبدلها والسماوات، أن يتبينوا الأمر قبل فوات الأوان فإن الله غفور رحيم. وليبدأوا بموضوعية تامة، بطرح التساؤلات التالية على أنفسهم ولا داعي لأن يجيبوا عليها فإجاباتها محمولة فيها وهي:

---

[٨٠٤] إبراهيم، ٤٨.

. ألا يكون الألم فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون المرض فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون العطش فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون الجوع فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون الجنس فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون الهرم والكبر فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون الموت فعل قهر ومغالبة؟.

. ألا يكون البعث فعل قهر ومغالبة؟.

. وختاما فمن الذي يملك أمر ما قدمنا من تساؤلات؟. بالتأكيد سيكون الإجماع على نعم تلك التي جعلت المؤمن يؤذن بين أصحاب الجنة بعد ما سمع بأمر أصحاب النار بأنهم قد وجدوا ما وعدهم به ربهم حقا. والذين عندما سئلوا: لمن الملك اليوم أجابوا أنه لله الواحد القهار.

وبالعودة إلى قوله تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) قالت عائشة رضي الله عنها: "سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن قوله: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) فأين يكون الناس يومئذ؟ قال صلى الله عليه وسلم: (على الصراط) أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم وأخرجه الترمذي عن عائشة وهي السائلة"[٨٠٥].

قال تعالى: {رفيع الدرجات ذو العرش يُلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ليُنذِر يوم التلاقي يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار}[٨٠٦].

الرفعة والعلو خاصية من خاصيات الله تعالى، وإلا هل يمكن أن يكون قهَّارا لو لم تكن هذه من خاصيته؟ فالرفعة والعلو خاصية القوي القادر على القهر لمن يحاول أن يعلو عليه. وهو الذي يرفع من يشاء بالإيمان درجات. فرفيع الدرجات تعني: رفيع المكانة والعرش والصفات الحسان. فهو الذي يرفع درجات من يشاء بالتوبة والعمل الصالح.

---

[٨٠٥] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص ٣٨٣.

[٨٠٦] غافر، ١٥، ١٦.

وجاءت (الدرجات) جمع للشمولية حيث مقدرته الشاملة لرفع الدرجات بالعلم والعمل والإيمان والصدق والكسب الحلال، فهو الغني الذي يغني، وهو مالك الملك الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، وهو الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، وهو الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

ولذا فمن أراد أن يكون من بين الذين يُستخلفون في الأرض فعليه بالإيمان الذي يمده بالرفعة والعلو عن النواقص وعن الطمع والجهل والرذيلة ويمده بالهيبة ويجعله في مقام محمود.

وقوله (ذو العرش) تدل على اختصاصه به دون غيره، وجاء العرش مُعرَّف، لعدم التثنية والجمع والتعدد بالمشاركة، فالعرش واحد مثلما الله واحد، ولذا لا مشاركة فيه. ومع أنه لا تجوز المشاركة فهو يؤتى لمن دونه ممن يشاء من المُلك، وينزعه منه متى ما شاء كيف يشاء. فذو العرش: تعني المُلك والحُكم الذي لا يزول كما تزول عروش الملوك والسلاطين والأمراء والحكام بمختلف أنظمتهم ومذاهبهم وأساليبهم السياسية، ولذا تتكوَّن العُروش بمشيئته وتُنزع بمشيئته، فهي لم تكن موضع مقارنه مع العرش القهّار رفيع الدرجات الذي بيده أمر الروح والملائكة والإنس والجن.

ولأنه مالك الملك فهو الذي يبعث الحياة في مُلكه وينظمه كما يشاء، ولأنه كذلك بعث الأنبياء والمرسلين واستخلفهم في الأرض مبشرين ومنذرين على اتباع ما يريده القهار الأعظم لصالح مخلوقاته وتنظيم العلاقات بينها. فمن يعمل خيرا يجد الله مجازيا له بالخير الأوفر، ومن تجني يداه إثما سيجد الله شديد العقاب ويجده غفوراً رحيماً لمن استغفر وتاب وعمل صالحا واهتدى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويوم التلاقي: هو اليوم الذي يُبعثون فيه، فيلتقي فيه السابقون مع اللاحقين، ويلتقي المذنب والشاهدين عليه، والظالم والمظلوم والسارق والمسروق، ويلتقي فيه المؤمن مع الكافر، ويلتقي أهل السماء والأرض ليبرزوا هؤلاء جميعا أمام الخالق القهّار للجزاء بالثواب أو العقاب أي بالجنة أو النار. اللهم اجعلنا من أهل الجنة ولا تجعلنا من أهل العار والنار يا عزيز يا قهّار يا الله.

وبارزون تعني: واضحون هم وأعمالهم وذنوبهم على الأشهاد حيث لا سرَّ ولا جرم بعد ذلك اليوم، الذي سيسألون فيه (لمن الملك اليوم)؟ حيث لا إجابة في ذلك اليوم إلا قول الحق القاهر للجميع: (لله الواحد القهار).

قال تعالى: {قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهَّار}[٨٠٧]. قل يا محمد لمن يشرك أنا رسول الله أنذر بأمره ولا أشرك بعبادة ربي أحدا، إنه الله الواحد القهَّار. ولذا فإن محمد صلوات الله وسلامه عليه جاء منذرا مصداقا لقوله تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون}[٨٠٨].

قال تعالى: {لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهَّار}[٨٠٩] بما أن الله تعالى هو خالق كل شيء، فخالق كل شيء لا يحتاج لأيِّ شيء. ولذا من يُسلِّم بأنه خالق كل شيء، يُسلِّم بأن الخالق لو لم يكن سابقا على ما خلق ما خلقه، وبما أنه سابق على كل ما خلق، فهو ليس في حاجة لِما خَلَقَ، وذلك لأن الحاجة لو كان فيها لكان في حاجة لِما يُشبِعَها حتى يتمكن من أن يَخلق، ولأنه خلق كل شيء وهو لم يكن في حاجة لشيء، لذا فإن الله هو الواحد القهَّار.

قال تعالى: {وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير}[٨١٠] القهر: الغلبة؛ والقهَّار هو الغلاَّب؛ والقاهر: هو الغالب بأمره وقوته وعزته وهيمنته وقدرته ومقته وكيده ومكره، ولذا فهو فوق عباده بالمغالبة بالرحمة والعزة، والقوة والقهر.

وفوق عباده: مكانةً ومُلكاً وعرشاً وهيمنةً وعلماً وحكمةً، أي منزلة لا محل لها في المقارنات، حيث التفرد بالوحدانية والقهر.

---

[٨٠٧] ص ، ٦٥.

[٨٠٨] الأنعام، ١٩.

[٨٠٩] الزمر، ٤.

[٨١٠] الأنعام، ١٨.

والحكيم الخبير: العالم بما يجب والمقدِّر له، ولهذا خلق كل شيء بميزان مصداقا لقوله تعالى: {والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون}[٨١١] أي كل شيء أسس وقُدِّر بمقدار معين تقتضيه حكمته.

قال تعالى: {وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رُسُلُنا وهم لا يُفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين}[٨١٢].

القاهر: كما بينا هو الغالب، وهو صاحب المكانة العلية والعرش المحمول من قبل الملائكة المُسبِّحين بحمد الله تعالى والداعين للعباد بالمغفرة والتوبة والهداية.

والحفظة هم الملائكة المأمورون بحفظ العباد والدعاء لهم بالهداية ومتابعتهم ومتابعة أعمالهم وحفظها، وهم شهود الحق الذين لا يفعلون إلا ما يُؤمرون.

حظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصفة الحسنى، أن يستمد منها ما يُمكِّنه من مغالبة الجهل وقهره بالعلم، ومغالبة الفقر وقهره بالغنى، ومغالبة المرض وقهره بالشفاء، ومغالبة الظلم وقهره بالعدل، ومغالبة الباطل وزهقه بالحق، ومغالبة الانفراد بالأمر وقهره بالمشاركة والمشورة، ومغالبة الأنا الطاغية وقهرها بالنحن سوياً. ومغالبة التخلف وقهره بالتطلُّع.

ومن يدَّعي القوة فليتذكر قوة الله عليه، ومن يدَّعي القدرة فليتذكر قدرة الله الواحد القهار؛ والذي يعتقد أنه بماله وغناه يقدر على قهر الناس فليتذكر غنىَ الله ومُلكه الواسع مصداقا لقوله تعالى: {أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}[٨١٣]. والذي يعتقد أنه قادر على قهر الناس بعلمه فليتذكر قوله تعالى: {وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[٨١٤] وقوله عز وجل: {وقل ربِّ زدني علما}[٨١٥]. ومن يعتقد أنه قادر على قهر الناس بفصاحته فليتذكر البيان الحكيم، ومن يعتقد أنه قادر على قهر الناس بعرشه فليتذكر العرش العظيم الذي تحمله الملائكة وليتقِ الله به.

---

[٨١١] الحِجر، ١٩.

[٨١٢] الأنعام ٦١، ٦٢.

[٨١٣] فاطر، ١٥.

[٨١٤] الإسراء، ٨٥.

[٨١٥] طه، ١١٤.

ومن يعتقد أنه قادر على قهر الناس بجماله فليتذكر قوله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٨١٦]. ومن يعتقد أنه قادر على تخويف الناس فليخف الله ولِيتذكر قوله تعالى: {إِنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[٨١٧] وقوله تعالى: {فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}[٨١٨].

ولذا فالخليفة هو الذي يقهر الذل في نفسه ولا يقهر الآخرين بغير حق، وهكذا يقهر الخوف والظلم والجشع والشرك وأن يفوض أمره لله الواحد القهار. وليعلم أن المغفرة لا تتم إلا بمثوبة وعمل صالح، فليتب إليه ويعمل عملا صالحا حتى يغفر الله له ذنبه وخطاياه.

فالمؤمن هو الذي بذكر القهار يطمئن قلبه بالإيمان ثقة بأنه لا يُهزم أبدا مادام يؤمن بالواحد القهار ويلتجئ إليه في كل أمر؛ ولهذا من يقول أنا الغالب يقال له: لا غالب إلا الله الواحد القهار. وليتذكر قهره تعالى للجبابرة وأخذه لهم أخذ عزيز مقتدر، فقد قهر فرعون وهامان وقارون والنمرود وأُبي بن خلف، وأبو لهب وكل ملك أو طاغية من يوم الخلق الأول إلى يومنا هذا سيقهر وإلى أبد الآبدين الله الواحد القهار.

القهَّار مُغالب لكل قوة ولكل قدرة، ولذلك فهو فعَّال لما يريد، ولذا فهو مالك الملك ومالك الأمر سبحانه جل جلاله.

قهر القهار مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتمّ قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره. إذ لولا هذه الأوصاف الثلاثة لا يتم له قهر ولا سلطان[٨١٩]، فالقهار حي، قال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ

---

[٨١٦] يوسف ٥٣.

[٨١٧] يونس، ٦٢.

[٨١٨] قريش، ٤.

[٨١٩] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١ ، ص ٦٦.

الْعَـالَمِينَ}[820]، وهـو عزيـز، {إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُـمْ فَإِنَّـكَ أَنْـتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ}[821]، وهو مقتدر، {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}[822].

وهذه الصفات الثلاث توضح بجلاء قهره سبحانه لمن يشاء من عباده، فالحي متمكن من إدامة القهر لكل شيء، ولا يزال قهره يتكرر أبداً، ما دامت السموات والأرض، فالحي قادر على القهر من قبل ومن بعد، فالله عز وجل أهلك قوم نوح وقهرهم، وقهر قوم هود، وقهر فرعون وهامان والنمرود، قال تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْل إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظلمَ وَأطغَى وَالمؤْتَفِكة أهْوَى فغَشَّاهَا مَا غشَّى فبِأيِّ آلاء رَبِّكَ تتَمَارَى هَذا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذرِ الأولَى}[823].

والله سبحانه قهَّار لكل متكبر جبَّار، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم، وفيها المجرمون وما أظلمهم، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلى معين قهَّار، وملك قادر جبار، فالواحد القهار هو ملجأهم وهو بالمرصاد لكل متكبر جبار[824]، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ التِي لَمْ يُخْلقْ مِثلهَا فِي البِلادِ وَثمودَ الذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكثرُوا فِيهَا الفَسَادَ فَصَبَّ عَليْهِمْ رَبكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِن رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[825]، وسيقهر بالحق من يكتب عليه القهر من المستحق من عباده، فهل في هذا القهر ظلم؟ إن الذات القاهرة منزهة عن ذلك، فالقهار ليس ظالماً وقد نص على نفي الظلم عنه في خمس آيات ثلاث منها باسمه الأعظم فقال: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[826]، وقال: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[827]، وقال تعالى:

---

[820] غافر ٦٥-٦٦.

[821] المائدة ١١٨.

[822] الكهف ٤٥.

[823] النجم ٥٠-٥٦.

[824] أسماء الله الحسنى ٧٢-٧٣.

[825] الفجر ٦-١٣.

[826] آل عمران ١٨٢

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[828]، والملاحظ في الآيات الثلاث نسبة عمل السوء إلى العبد مما يجعل نسبة الظلم إلى القهار منتفية، فلولا هذا العمل الذي أقدم عليه العبد ما كان القهر بالعقوبة، أما في الآيتين الأخريين فقد كان نفي الظلم عنه سبحانه بصفة الربوبية في الأولى منها وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[829]، أما الثانية فجاء النفي بصيغة الخطاب المباشر من القاهر سبحانه وتعالى لعباده إذ يقول لهم: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[830]، وفي هذه الآيات دلالة بالغة لكل ذوي الألباب تفيد بأن قهر القهّار حق وعدل.

وللمعاند ولمن في قلبه مرض يزيد القهار الإفادة بكون قهره حق، فيأتي بالآيات الدالة على أنه لا يحب الظلم ولا يحب الظالمين، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[831]، ومن كرهه لهم جعل العقاب يحل بهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يعذب الظالمين ويتوعد من يرغب بالظلم بعذاب شديد في الدنيا فيقول: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[832]، أما الآخرة فإن عقاب الظالم فيها أشد من عقابه في الدنيا بكثير، وقد أتى في مشهد يذهل منه العقول، {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}[833]، والصورة المتمثلة في هذه الآية شديدة على المتأمل لحال الظالمين في النار، فهم يتوسدون هذه النار ويلتحفون بها وكأنما هم يحتمون منها بها! لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا ما عملت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد.

---

[827] الأنفال ٥١.

[828] الحج ١٠.

[829] فصلت ٤٦.

[830] ق ٢٨-٢٩.

[831] الشورى ٤٠.

[832] هود ٨٢-٨٣.

[833] الأعراف ٤١.

وتوصلنا هذه الحجج البينة إلى حقيقة مفادها أن قهره سبحانه حق، فعلى الخليفة أن يعي هذا الدرس فيكون قهره للمستحق عن حق، أي نتيجة لجرم ارتكبه العبد وليس دون فعل موجب للقهر لأن ذلك يجعل القهر باطلاً، والحق أي أن يكون القهر لأجل إقرار الحق ومنع الفساد وكل ما سوى ذلك يوقع الخليفة في غياهب الباطل التي نهاه ربه عنها وحذره منها، وبحق أي أن يكون القهر بما علمه القهار من وسائل القهر فلا يجور على العباد، وإذا سأل سائل عن وسائل القهر المتاحة للخليفة نقول: إن كل ما نص عليه القهَّار في شرعه من وسائل لمعاقبة الجناة من تعزير إلى جَلد إلى قطع إلى قتل هي من وسائل قهر الظلم المؤدي إلى إقرار الحق ومنع الفساد وإعمار الأرض، وقد يُرى في هذه الوسائل بعض الوهن وهو حقيقة يُفسرها النقص في قدرة القهار بالإضافة (الخليفة)، أما القهَّار المطلق فقهره لا يشبه بشكل من الأشكال قهر خليفته في الأرض.

والقهَّار الحي العزيز، فهو الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه[٨٣٤]، ويرتبط فعل القهَّار بالعزة، فأخذ القهار أخذ عزيز مقتدر، {وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}[٨٣٥]، فهو عزيز مقتدر، إذ هو الواحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله وقهَّار لجميع خلقه داخلون تحت قدرته والسماوات مطويات بيمينه ومقهورون في قبضته وتحت سلطانه قهر اقتدار[٨٣٦]، والاقتدار من صفات القهار ويتجسد في شمول القهر لمن يشاء، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[٨٣٧]، وانتفاء منع قهره من أحد من المخلوقات، قال تعالى:

---

[٨٣٤] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج١ ، ص ٤١.

[٨٣٥] القمر ٤١-٤٢.

[٨٣٦] حز الغلاصم ، ابن الحاج القفطي، ج ١ ، ص ٦٩.

[٨٣٧] النساء ١٤٠.

{يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى}[٨٣٨].

ويجمع ابن القيم هذه الصفات الثلاث في أبيات شعر فيقول:

وكذلك القهار من أوصافه ... فالخلق مقهورون بالسلطان

لو لم يكن حيا عزيزا قادرا ... ما كان من قهر ولا سلطان[٨٣٩]

فالقهار قادر على قهر من يشاء من المخلوقات، فهو القادر على قهر الأحياء بالموت، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[٨٤٠]، وهو القادر على تحديد وقت ذلك دون أن يكون لأحد القدرة على تأخير أو تقديم هذا القهر، قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أجل فَإِذَا جَاءَ أجلهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٨٤١].

ويمتد القهر ليشمل غير الأحياء، فالجبال تنسف، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[٨٤٢]، أي أن القهار بقوته وقدرته ينسف كل قوة، ولهذا فهو القهار للأرض والسماء مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٨٤٣].

والقهار هو المُذل، فالقهر في وضع العربية الرياضة والتذليل يقال قهر فلأن الناقة إذا راضها وذللها، والله تعالى قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على وحدانيته وقهر جبابرة خلقه بعز سلطانه[٨٤٤]، وذل القهار شامل للدنيا والآخرة، ففي الدنيا يذل المعاندين بالهزيمة، {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

---

[٨٣٨] المعارج ١١-١٧.

[٨٣٩] توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، ج ٢ ، ص ٢٣٢.

[٨٤٠] الأنبياء ٣٥.

[٨٤١] الأعراف ٣٤.

[٨٤٢] طه ١٠٥-١٠٧.

[٨٤٣] إبراهيم ٤٨.

[٨٤٤] تفسير أسماء الله الحسنى ، الزجاج، ج ١ ، ص ٣٨.

الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[٨٤٥]، وبالخزي، {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[٨٤٦]، وبالموت، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}[٨٤٧]، فالقهَّار هو الذي يقهر عباده بالموت، فهل يمكن لمخلوق أن يرد الموت عنه أو عن أحد آخر! وهو الَّذِي يَقْهَرُ وَلا يُقْهَرُ بِحَالٍ، وَقَهَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِالْمَوْتِ[٨٤٨].

أما في الآخرة فإنه قاهر الجميع، قال تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ}[٨٤٩]، قهراً خاصاً بقدرته وعزته وتفرده عن بقية خلقه، وقد أشار سبحانه إلى ذلك تذكرة لمن يعقل فقال: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}[٨٥٠]، ويستثني القهّار من خلقه صفوة من أحسن القول والعمل في الدنيا من قهر ذلك اليوم ويبشرهم بذلك بقوله سبحانه: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}[٨٥١].

---

[٨٤٥] البقرة ٢٥٠-٢٥١.

[٨٤٦] البقرة ٨٥.

[٨٤٧] الأنعام ٦٣.

[٨٤٨] الأسماء والصفات للبيقهي، ج ١ ، ص ١٦٤ .

[٨٤٩] الشورى ٤٥.

[٨٥٠] الفجر ٢٥-٢٦.

[٨٥١] النمل ٨٩.

والقهَّار هو الذي قهر الخلق على ما أراد[٨٥٢]، وذلك بأن كتب لإرادته العلو على كل إرادة، وهو بذلك أنزل القهر بمن يعارض هذه الإرادة عن طريق العجز الحاصل فيه عن رد إرادة القهار وهذا هو القهر الحقيقي، أن يكون المعاند مسلوب القدرة على رد أو منع إرادة الله، وإذ عرفنا ماذا يريد القهار لاشك سنفهم نوع القهر الذي يقع على المعاند أو الكافر، ولذا فالقهار يريد أشياء تقع بالقوة والقدرة دون معاندة ومن هذه الأشياء:

١. يريد البيان والهداية، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٨٥٣]، وهذه الإرادة متحققة قهراً لكل من لا يريد لها أن تكون شريعة الأرض، فكل الأمم كانت بين أمرين لا ثالث لهما من القهار، إما الإقرار والإيمان بما يريد القهار أو أن يحل بهم القهر المطلق الذي عليه تترتب أفعال العذاب الماحق الذي لا يبقي ولا يذر، وقد قرّب القهار العباد من سبل الهداية بأن أرسل إليهم الأنبياء والرسل في كل الأمم والشعوب والمدن والقرى، مبشرين ومنذرين وداعين للعمل الصالح والفلاح في الأرض وإعمارها، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٨٥٤]، فإذا أبوا بعد ذلك قهرهم القهار بقوته وعزته فأرسل عليهم العذاب الدنيوي ولهم في الآخرة عذاب أليم، قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[٨٥٥]، بينما الناجي من هذا القهر الخليفة المتقي، ولاشك يظهر هنا للمتأمل أن القهر حق وليس فيه ظلم أو جور على أحد من العباد، وهذا ما يجب أن يعيه الخليفة القهار بالإضافة، وأن يتمثل دلالة القهر الحقيقية فينزهها من الشوائب التي تنحى به إلى الظلم فيتحول من قهر حق إلى قهر باطل.

---

[٨٥٢] الاعتقاد للبيقهي، ج ١ ، ص ٥٦.

[٨٥٣] النساء ٢٦.

[٨٥٤] النحل ٣٦.

[٨٥٥] فصلت ١٧-١٨.

٢ . يريد تمييز المؤمن عن الكافر، هذه الإرادة من حِكم القهَّار سبحانه لا يعلمها إلا هو، لأن سبحانه قادر على أن يجعل الناس كلهم على الهدى وليس فيهم ضال ولا جاحد ولا كافر ولا منافق، ولكن ذلك يعني بالتأكيد أن يكون الإنسان مسيرا محكوما وله طريق واحد هو الإيمان والعمل بالطاعات على أساس الجبر لا الاختيار، وليس هذا هو المراد من خلق الإنسان ومن استخلافه على الأرض، فالإنسان خلق لغاية يذكرنا بها القهار في كتابه وفي كل رسالته، فيقول سبحانه وتعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٨٥٦]، فالمطلب الأول هو العبادة ولكن أي عبادة! إنها عباد الاختيار أي أن تؤمن بالله القهار سبحانه إيمانا مطلقاً وتاماً وذلك بأن تتمثل قوله جل وعلا: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٨٥٧]، هذا هو الإيمان المطلق، ونعود إلى إرادة التمييز فبعد كل الدلائل وكل الأمثال يبقى الاختيار عند الإنسان إما الإيمان وإما الكفر، فهل يمكن لأحد من المخلوقات رد هذا الاختيار، لقد قهر القهار عباده به فهو لا يرد ولو لم يقهرهم به لما بقي من حجة على كافر يعذب أو مؤمن يجازى.

٣ . عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[٨٥٨]، ويلاحظ في إرادة القهَّار أن منعها مستحيل بالمطلق وذلك لأن الأداة المحققة للقهر مكنونة في ذوات هؤلاء الكافرين على سبيل الافتخار، فهم يحبون المال حباً جما، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[٨٥٩] والقهار سبحانه يزيدهم منه في الدنيا، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٨٦٠]، والأموال كما الأولاد هما من الفتن التي فتن بها القهار هؤلاء الكافرين،

---

[٨٥٦] الذاريات ٥٦.

[٨٥٧] البقرة ٢٨٥.

[٨٥٨] التوبة ٨٥.

[٨٥٩] الفجر ٢٠.

[٨٦٠] آل عمران ١٧٨.

قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[٨٦١]، فهل يستطيع أحد من هؤلاء أن يرفض ما جُبل على حبه؟ وهل يستطيع بعد ذلك أن يرد إرادة القهار؟ فإذا كان الجواب لا وهو كذلك علمنا ما هو القهر.

٤ . إرادة التسليم بالطاعة، يريد القهار أن يسلم العباد له بالأمر والطاعة بعد أن يرسل إليهم من ينبههم ويدعوهم ويذكرهم، فإذا أطاعوا فقد قهر القهار تجبرهم وأبدلهم به إيماناً يجزون عليه في الآخرة فلا يقهرون بالعذاب كما يبشرهم القهار سبحانه وتعالى بقوله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٨٦٢]، وأما إذا أبوا التسليم فالقهار يقهرهم بقدرته، ويضرب لنا القهار مثلاً عميق الدلالة على قدرة القهر وطبيعتها فيقول: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[٨٦٣].

القهار: غالب لا يُغلب[٨٦٤]، وغلبة القهار مطلقة بالأمر كما يقول سبحانه: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٨٦٥]، وهو غالب بجنده، قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[٨٦٦]، وحزبه غالب: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[٨٦٧]، (حزب الله) هم المتعاضدون على الحق بالحق. وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم. ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرسول والمؤمنين. ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب[٨٦٨]، وهو القهار سبحانه.

---

[٨٦١] التغابن ١٥.

[٨٦٢] الأنعام ٤٨.

[٨٦٣] الإسراء ١٦.

[٨٦٤] المواقف الإيجي ، ج٣ ، ص ٣٠٨.

[٨٦٥] يوسف ٢١.

[٨٦٦] الصافات ١٧١-١٧٣.

[٨٦٧] المائدة ٥٦.

[٨٦٨] تفسير الزمخشري، ج ٢ ، ص ٣٩.

وعباده غالبون، على الخصوص كما حدث مع سيدنا موسى، {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[٨٦٩]، وعلى العموم كما تنص الآية على غلبة المؤمنين عموماً، {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[٨٧٠]، أما أعداء القهار فلن يغلبوا وإن سعوا وأعدوا واستعدوا، قال تعالى: {فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[٨٧١]، ولن يغلبوا وإن طال بهم الأمد وغرهم الأمل، {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}[٨٧٢]، وإن اعتضدوا بالشيطان وجنوده، {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٨٧٣] .

هنا يجب أن يعلم الخليفة أنه قهار غالب إذا كان له من العمل والغاية ما يرتقي بهما إلى مصاف القهار بالإضافة، وذلك بأن يعمل بالحق وللحق عندها سيكون بالتأكيد غالب لا يغلب كما القهار جل وعلا. والقهَّار من العباد "من قهر أعداءه وأعدى عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه فهي أعدى له من الشيطان الذي قد حذر عداوته ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان إذ الشيطان يستهويه إلى الهلاك بواسطة شهواته وإحدى حبائك الشيطان النساء ومن

---

[٨٦٩] القصص ٣٥.

[٨٧٠] آل عمران ١٦٠.

[٨٧١] الشعراء ٤٤-٤٧.

[٨٧٢] الأنبياء ٤٠-٤٤.

[٨٧٣] الأنفال ٤٨.

فقد شهوة النساء لم يتصور أن ينعقل بهذه الأحبولة فكذلك من قهر هذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل ومهما قهر شهوات النفس فقد قهر الناس كافة فلم يقدر عليه أحد إذ غاية أعدائه السعي في إهلاك بدنه وذلك إحياء لروحه فإن من مات عن شهواته في حياته عاش في مماته"[٨٧٤]، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٨٧٥] .

والقهار: "قهر الكل ولم يدخل في القهر ذاته وصفاته"[٨٧٦]، فهو الذي قهر الناس بالحُجَّة المعجزة، فكلما ارتقى الناس في أمر واتخذوه حُجة على قوتهم وجبروتهم وتسلطهم جاء القهار بحجة من جنس ما يعرفون فقهرهم بها، وأول من احتج بوحي القهار سبحانه سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٨٧٧]، ويلاحظ أن معجزة زمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت الفكر والجدل الذي عُرفت به بابل حيث كان النمرود يحكم، لذا فإن الحجَّة القاهرة كانت من جنس ما يعرفون وهو جدال إبراهيم عليه الصلاة والسلام جدلاً عقليا وذلك باستخدام أسلوب الاستدراج العقلي حيث استدرج إبراهيم النمرود إلى ما يستطيع الرد عليه (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) فجاء النمرود بشخصين كما تذكر الروايات فقتل واحداً ثم ترك الآخر، ثم انقض عليه إبراهيم بما لا يستطيع رده (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) مستمداً المعطيات الواقعية وهي الشمس وشروقها والقمر وغروبه وكلها مما شاهده النمرود وعايشه يومياً، وهؤلاء قوم فرعون عرفوا السحر حتى خدعوا أعين الناس به وأوجسوا

---

[٨٧٤] المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ، الغزالي، ج ١ ، ص ٨٢.

[٨٧٥] آل عمران ١٦٩-١٧٠.

[٨٧٦] الإنصاف ، الباقلاني، ج ١ ، ص ٥٦.

[٨٧٧] البقرة ٢٨٥.

في أنفسهم ما لا يرضي الله، {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}[٨٧٨]، لكن القهَّار غالب لا يغلب فلابد أن تكون حجته غالبة قاهرة، {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}[٨٧٩]، وفي الآية دلالات عظيمة من القهار، ففيها إشارة إلى عِظم سحر هؤلاء تتمثل في خوف سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام من سحرهم، لكنه من جند القهار فهو أعلى وإن عَظُم فعلهم مهما كان، وفيها إشارة إلى أن فعل هؤلاء سحر أما فعل موسى فهو قهر لهذا السحر.

وهذا عيسى عليه الصلاة والسلام حجته من جنس ما يبرع فيه القوم الذين أرسل إليهم، فقد كان الطب عمل القوم الذي برعوا فيه، فما من مرض إلا ووجدوا له علاجاً حاشا بعض الأمراض التي أعيتهم، فجاء عيسى عليه الصلاة والسلام بعلاج لها متحدياً ومحتجاً بذلك عليهم، فلما لم يؤمنوا قهرهم بما لم يتخيلوا فجاء بإحياء الموتى بإذن الله، قال تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٨٨٠] .

ثم جاء النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام حيث كان العرب في أوج بلاغتهم وفصاحة لسانهم إلى الحد الذي كانت فخرهم الذي يفتخرون وعزهم الذي يأملون، فكانت القبائل تذبح الذبائح وتقيم الولائم إذا ظهر فيها شاعر، لأن من شأن ذلك أن يشهد لهذه القبيلة بالبلاغة والفصاحة، لذلك كانت الحجة القاهرة من جنس علمهم وهو القرآن الآية في الفصاحة والبلاغة مع تحدٍ من القهار أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[٨٨١]، فلما تبين عجزهم

---

[٨٧٨] الأعراف ١١٦.

[٨٧٩] طه ٦٦.

[٨٨٠] آل عمران ٤٩.

[٨٨١] هود ١٣.

تحداهم الإتيان بسورة واحدة من مثله، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[٨٨٢]، طويلة كانت أو قصيرة مّثْلِهِ في البلاغة وحسن الارتباط وجزالة المعنى على وجه الافتراء، وحاصله على ما قيل: إن كان ذاك افتراء مني فافتروا سورة مثله فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً واعتياداً في النظم والنثر، وعلى هذا فالمراد بإتيان المخاطبين بذلك إنشاؤهم له والتكلم به من عند أنفسهم لا ما يعم ذلك وإيراده من كلام الغير ممن تقدم، ويجوز أن يكون المراد ما ذكر ولعله السر في العدول عن قولوا سورة مثله مثلاً إلى ما في النظم الكريم، أي إن كان الأمر كما زعمتم فأتوا من عند أنفسكم أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب وبلغائها كامرئ القيس وزهير وأضاربهما بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة فحيث عجزتم عن ذلك مع شدة تمرنكم ولم يوجد في كلام أولئك وهم الذين نصبت لهم المنابر في عكاظ الفصاحة والبلاغة وبهم دارت رحى النظم والنثر دل على أنه ليس من كلام البشر بل هو من كلام خالق القوى والقدر[٨٨٣].

ولابد لنا من الوقوف مع مسألة اختيار الحجة من جنس علم القوم التي تنزل عليهم، ولماذا هي قريبة من إفهامهم مع قدرة الله على أن يأتي بما هو أقوى وأعظم؟ إن في هذا الاختيار أعظم العبر على أن القهَّار عادل، فلو كانت الحُجة مما يفوق قدراتهم ومعارفهم لاختل ميزان الاحتجاج، ولسقط التحدي، من هنا كانت الحجة قريبة تُمكّن من يشاء أن يحاول تحدي هذه الحجة، فالسحرة حاولوا غلبة حجة موسى لكن القهار سبحانه وتعالى قهرهم، والعرب حاولت أن تأتي بمثل القرآن إلا أن تلك النصوص بدت سخيفة سمجة لا ترقى إلى مستوى فصاحة العرب وبلاغتهم مما جعلهم يستهجنوها قبل غيرهم.

والقهار يقهر ولا يُقهر، ومن مظاهر قهره قهر الكيد والمكر، ونقول أن هذا من شأن القهَّار وحده سبحانه وتعالى القادر على قهر الكيد والمكر وذلك لما فيهما من السرية والكتمان من

---

[٨٨٢] يونس ٣٨.

[٨٨٣] تفسير الالوسي، ج ٤، ص ٨ .

قبل الكائد والماكر، ولكن القهار عالم علام، {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}[٨٨٤]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإنجيل وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}[٨٨٥] من هنا من علمه سبحانه قهر كيد الكائدين ومكر الماكرين، قال تعالى: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين}[٨٨٦]، وقد سألنا معاند عن وصف القهار نفسه بخير الماكرين، فرددنا عليه بما قال من سبقنا من العلماء حيث فسروا المكر بأن قالوا: "إن أصل المكر في اللغة، السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ}[٨٨٧]، وقال: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}[٨٨٨]، وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه.

فالمكر هو إحكام تدبير الأمر، وهو على نوعين إما مكر سيء ذكره القهار بقوله جل شأنه: {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}[٨٨٩]، ومكر حسن نسبه القهَّار إلى

---

[٨٨٤] طه ٧.

[٨٨٥] المائدة ١٠٩ ـ ١١٣.

[٨٨٦] آل عمران ٥٤.

[٨٨٧] الأنفال ٣٠.

[٨٨٨] يوسف ١٠٢.

[٨٨٩] فاطر ٤٣.

نفسه فقال: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}[٨٩٠]، وهذا المكر الحسن هو رد مكر السوء عن الناس فهو أفضل وأحسن من مكرهم، وهو كذلك أقوى وأعلى من مكرهم، قال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}[٨٩١]. وهو أسرع لأن من صفات المكر السرعة في تنفيذه لكن مكر القهار أسرع، {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}[٨٩٢].

ومكر هؤلاء وإن كان عظيما كما وصفه تعالى بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}[٨٩٣]، إلا أن القهَّار قهر مكرهم هذا بقدرته التي ليس لهم ولا لغيرهم القدرة على مطاولتها أو ردها، {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}[٨٩٤].

ومكر الله جل وعلا "من صفاته التي تطلق مقيدة، فالله – جل وعلا – يمكر بمكر من مكر بأوليائه وأنبيائه المستخلفين في الأرض، وبمن مكر بدينه؛ وذلك لأنها في الأصل صفة نقص، ولكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة؛ لأنها حينئذ فيها معنى إظهار العزة، والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلال والكمال، فمكر الله – جل وعلا – من صفاته التي يتصف بها، على وجه التقييد، فنقول: يمكر بأعداء رسله، ويمكر بأعدائه، ويمكر بمن مكر به، ونحو ذلك"[٨٩٥].

وتظهر في تفسير اسمه القهار سبحانه قضية اقتران الواحد بالقهار في كل الآيات التي ذكر فيها اسم القهار سبحانه والآيات هي:

---

[٨٩٠] الرعد ٤٢.

[٨٩١] النمل ٥٠-٥١.

[٨٩٢] يونس ٢١.

[٨٩٣] نوح ٢٢.

[٨٩٤] النحل ٢٦.

[٨٩٥] التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، ج ٢ ، ص ٣٩.

١ . {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٨٩٦].

٢ . {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٨٩٧].

٣ . {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٨٩٨] .

٤ . {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٨٩٩] .

٥ . {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٩٠٠].

٦ . {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٩٠١] .

وللعلماء في تفسير ذلك آراء كثيرة منها:

١- جاء هذان الاسمان الكريمان (الواحد القهار) في القرآن مقترنان معرّفتان في المواضع كلها، و كل ذلك في سياق إقامة الحجة على المشركين في الإلوهية الزاعمين أن لله شركاء في استحقاق العبادة. فحصل المقصود مع بقاء الاسم (الواحد) على معناه المعروف الموافق لسائر الآيات، هذا ولما كان الاسم (الواحد) إنما هو صريح في نفي النظير في الربوبية، وما يقتضي استحقاق العبادة، أردف في الآيات كلها بالاسم (القهار) ليتمم المعنى المقصود[٩٠٢].

---

[٨٩٦] يوسف ٣٩.

[٨٩٧] الرعد ١٦.

[٨٩٨] إبراهيم ٤٨.

[٨٩٩] ص ٦٥.

[٩٠٠] الزمر ٤.

[٩٠١] غافر ١٦.

[٩٠٢] القائد إلى العقائد ، عبد الرحمن المعلمي اليماني، ج ١ ، ص ١٣٨.

٢- واسم الله القهار ارتبط باسمه الواحد في القرآن والسنة وذلك لأن الله قاهر فوق كل قاهر، فلا يوجد الانفراد في القهر إلا لله وحده، وذلك لأن كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى، حتى تنتهي قوة القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان[٩٠٣].

٣- الواحد القهار، وذلك لأن شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكناً لكان مقهوراً لا قاهراً ويجب أن يكون واحداً، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ما سواه، فالإله لا يكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً[٩٠٤].

ويمكن لنا أن نقول بالإضافة إلى ما سبق: أن اقتران الواحد بالقهار فيه إيحاء عظيم الدلالة بقدرته عز وجل، فهو الواحد وغيره يكون أكثر من واحد كآلهة الكافرين، وكثرة المعاندين، وأصناف المنكرين فلمن تكون الغلبة؟ ألهؤلاء المجتمعين؟ أم للواحد؟ لاشك أنها للواحد الذي قهر الجميع فهو القهار جل شأنه.

والفرق بين القاهر والقهار أن القاهر هو الذي له علو القهر الكلي المطلق باعتبار جميع المخلوقات وعلى اختلاف تنوعهم، فهو قاهر فوق عباده، له علو القهر مقترنا بعلو الشأن والفوقية، فلا يقوى ملك من الملوك على أن ينازعه في علوه مهما تمادى في سلطانه وظلمه وإلا قهره القهار، ومعلوم أن المقهور يحتمي من ملك بملك، ويخرج بخوفه من سلطان أحدهما ليتقوى بالآخر، لكن الملوك جميعا إذا كان فوقهم ملك قاهر قادر فإلى من يخرجون وإلى جوار من يلجؤون، قال تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٩٠٥]، فالقاهر هو الذي له علو القهر الكلي المطلق.

أما القهَّار فهو الذي له علو القهر باعتبار الكثرة والتعيين في الجزء، أو باعتبار نوعية المقهور، فالله عز وجل أهلك قوم نوح وقهرهم، وقهر قوم هود، وقهر فرعون وهامان والنمرود،

---

٩٠٣ أسماء الله الحسنى، ج٦، ص ٢٢.

٩٠٤ تفسير الرازي ، ج٩ ، ص ٤٥.

٩٠٥ المؤمنون ٨٨.

قال تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قبْل إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى وَالمؤْتَفِكَة أَهْوَى فغَشَّاهَا مَا غشَّى فبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تَتَمَارَى هَذا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذرِ الأولَى}[906]، وقهر قوم صالح وقوم لوط، وقهر أبا جهل والمشركين وقهر الفرس والصليبيين، والله سبحانه قهار لكل متكبر جبار، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم، وفيها المجرمون وما أظلمهم، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلى معين قهار، وملك قادر جبار. فالقهار كثير القهر قهره عظيم أليم، يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال، ويقهر من نازعه في ألوهيته وعبادته، وربوبيته وحاكميته وأسمائه وصفاته[907].

اللهم يا القهَّار اقهر العصيان فينا بالطاعة، والضعف بالقوة، والقلق والاستعجال بالطمأنينة والصبر، واقهر الجهل بالعلم الذي يؤتى منك وآتينا الحكمة حتى لا نضل، واقهر الخوف من غيرك بالخوف منك، اللهم اقهر المرض بالشفاء والداء بالدواء يا من به آمنا وعليه توكلنا، اللهم يا القهَّار اقهر أعداءنا وحاسدينا، واقهر الظلم بالعدل والإحسان، واقهر الطغاة بسيادة العباد في البلاد، واقهر الفساد بالإصلاح واقهر سافكي الدماء بغير حق بالقصاص، واقهر الكره بيننا بالمحبة في غير معصيتك واجعلنا من الوارثين، اللهم اقهر الماكرين ومكرهم والكائدين وكيدهم إنك أنت القهار جل جلالك. اللهم يا القهَّار هب لنا القوة والقدرة التي بها نتمكن من مغالبة وقهر الأعداء ومعرفة الدواء لكل داء، اللهم إنك قلت وقولك الحق (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) سبحانك مالك الملك الواحد القهَّار.

---

[906] النجم ٥٠-٥٦.

[907] أسماء الله الحسنى -٧٢-٧٣.

الوهاب

الوهاب أسم من أسماء الله الحسنى جل جلاله، وصفة من صفات العطاء بدون من أو انتظار عائد.

وفي لسان العرب:

الوهَّاب: من صفات الله المُنعِم على العباد.

والوَهُوبُ: الرجل كثير الهبات.

والهبة: العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبُها وهاباً"[٩٠٨].

وفي منهاج الحلمي الوهاب: هو "المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا عن استحقاق عليه"[٩٠٩].

---

[٩٠٨] لسان العرب المحيط، ج ٣، ص ٩٩٠.

[٩٠٩] المنهاج للحلمي. ج ٣، ص ١٢٥.

قال ابن سيده: الوهاب هو من "وهب كل شيء وهبه وهبا، ووهوب ووهابة كثير الهبة لأمواله"[٩١٠].

وقال الإمام الطبري: الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد للثبات على الدين وتصديق الكتاب والرسل وهو من يهب لمن يشاء من مُلك وسلطان وغيره.[٩١١].

أما الإمام الغزالي فقال: "الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض فإذا كثرت العطايا بهذه الصفة يسمى صاحبها جوادا وهابا"[٩١٢].

ويقول الخطابي: الوهاب هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة[٩١٣].

والوهاب في نونية ابن القيم جاء على الآتي:

وكذلك الوهاب من أسمـائه فانظر مواهبه مدى الأزمانِ

أهل السماوات العُلى والأرض عن تلك المواهبِ ليس ينفكانِ[٩١٤].

الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها: وهَّاباً"[٩١٥].

ويقول أحمد عبد الجواد: "القهار جل جلاله الجوَّاد المنعم المفضل بالعطايا، كثير النَّوالِ دائم المعروف على جميع خلقه، وسع الخلق بوجوده ورحمته"[٩١٦].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ في الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أني أستغفرك لذنبي وأسألك برحمتك، اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"[٩١٧].

---

[٩١٠] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث. ج ٥، ص ٢٣١.

[٩١١] الطبري، جامع البيان. ج ٣، ص ١٢٥.

[٩١٢] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت ، دار الكتاب العلمية، ص ٥٧.

[٩١٣] شأن الدعاء للخطابي، ص ٥٣.

[٩١٤] النونية، ص ١٤٦.

[٩١٥] يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنى. بيروت . دار المعرفة، ٢٠٠٣، ص ١٣٦.

[٩١٦] أحمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنى فادعوه ها. القاهرة. دار الريان للتراث ص ٥٩.

[٩١٧] سنن أبي داود ، ج ١٤، ص ٤١٦.

الوهَّاب هو الفعَّال لِما يُريد، فهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء، ذرية صالحة ذكورا أو إناثا، أو حِكمة أو حكما أو مالا حلالا.

الوهَّاب كثير العطايا وهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئا. ولو كان ينتظر شيئا لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحدا لديه ما يعطي للمعطي المطلق، وذلك لأنه لم يكن من الذين خُلقوا على الحاجة. فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطائه عن كل الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئا، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطاءه عن الذين كفروا به وأشركوا. فمقابل ماذا يهبُ لهم الرزق والبنين والمُلك والعلم، هل يُعطِهم هذا لأجل أن يشركوا ويكفروا به؟ أم من أجل أن يعبدوه؟ أم مقابل ماذا؟.

لم يكن بمقابل. ولكن لأنهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك العزيز الحكيم}[٩١٨].

وهذا لا يعني أنهم سيتركون هكذا، بل لإعطائهم الفرص فهو يُمهل ولا يُهمل مصداقا لقوله تعالى: {فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا}[٩١٩].

ولذا فإن الوهَّاب المطلق: هو الغلاَّب المطلق، الذي لا يقدر على مغالبته أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه. فهو الغالب بهباته ألاَّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنه الذي يهب الحِكمة والحكم، والعلم والرزق، وكل شيء لمن يشاء. ومع أنه يعطي كل ذلك إلا أنَّ البعض يكفر به ويُشرك.

قال تعالى: {ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب}[٩٢٠].

في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربه لأن يُثبت قلبه على الإيمان ولا يحيده عنه، ومع أن هذه الآية سابقة على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت

---

[٩١٨] المائدة، ١١٨.

[٩١٩] الطارق، ١٧.

[٩٢٠] آل عمران، ٨.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدعاء لله الوهَّاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون مِنَّة ولا انتظار مقابل.

وإزاغة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحق، فالبعض بعد موت الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولُّو وارتدُّوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكُفر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق المِعوِج. ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح مما جعل ابوبكر يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمَّه الرحمة هبة من الله تعالى. وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالى هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا}[٩٢١].

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاءاً من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لدنك، تعني) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنك أنت الوهاب) تأكيد على أنه لا وهَّاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدل على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك. فأنت الوهاب: واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانك لا إله إلا أنت الوهاب.

عن أم سَلَمَة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثم قرأ الآية"[٩٢٢] (ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

---

[٩٢١] غافر، ٧.

[٩٢٢] سنن الترمذي، ج ١٣، ص ٢١..

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها، مما يجعله متميزا على أقرانه أو متميزا في جيله. يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب، ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزا ويملأ به فراغا حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أنه موهوب، إذن فمن ورائه وهَّاب، وإلا من أين جاءته المواهب، ولذا فالوهاب مصدر الهيبة التي جاءت في اللغة من المصدر يهب. ولأنه الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء، مما يجعله هو الآخر يهب من ما وهب إليه الوهاب الأعظم. ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهَّاب المطلق حتى أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة الممكن غير المتوقع.

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ}[٩٢٣] في هذه الآية جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاءاً على ما يقوله المشركون من كبائر ويفعلون، فما هي حُجَّة هؤلاء فيما يقولون على الله ورسوله وأيضا فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أربابا من دون الله تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟.

فهل هؤلاء وما يدَّعون يملكون خزائن الرحمة التي مفاتيحها عند الله العزيز الوهاب حتى يقولوا ما يفترون؟. فهؤلاء وما يعبدون من دون الله لا يستطيعوا أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا، ولذا لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم وأريد به لأن يرث الأرض ويُستخلف فيها، ولا يسفك الدماء بغير حق، ويتقي الله ربه، أن يتخذ مع الله إلها آخر. قال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا}[٩٢٤] وقال عز وجل: {إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا}[٩٢٥].

---

[٩٢٣] ص، ٩، ١٠.

[٩٢٤] الفرقان، ٥٥.

[٩٢٥] العنكبوت، ١٧.

قال تعالى: {ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال ربِّ أغفر لي وهب لي مُلكا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنَّك أنت الوهَّاب}[٩٢٦] في اعتقادنا فتنة سليمان فتنة مُلك الذي يتعلق أمره بالخاتم الذي به سرا، حيث ضياعه جعل المُلك يضيع من سليمان صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن وجده بعد ضياع فعاد له المُلك وأزيل من كان متربعا على كرسي الحكم جسدا لأيام معدودة دون أن يعمل شيئا بأمر المُلك والحكم مصداقا لقوله (جسدا) أي صورة فقط ولا صلاحيات لها. و (ثم أناب) تاب إلى الله تعالى أي حمده وشكره على ما وهب له من فضل ونِعم بإعادة الخاتم إليه بعد ضياع؛ ثم قال: (ربِّ أغفر لي) على الأسباب التي جعلتني أضيع الحكم بإضاعة الخاتم. ثم تلاها قائلا: (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) الوهب عطاء لا يؤخذ، ولذلك قال: (هب لي) ولم يقل أعطني أو أرزقني أو امنحني؛ وذلك لأن الوهب يبقى ولا يزول إلا بزوال الحاكم الموهوب إليه الحكم، وهذا ما جرى مع سليمان عليه الصلاة والسلام وحُكمه.

ولذا علينا أن نستقراء المُطلقية من اسمه الوهَّاب جل جلاله، فهو الذي إن وهب بث المُطلقية فيه حيث لا يعترضه عارض ولا يحول بينه حائل حتى النهاية، أو أن ينزعه منه نزعا إن دخل الحكم الموهوب منه في دوائر الفساد، ولذلك فهو يؤتي الحكم لمن يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[٩٢٧].

وقد يتساءل البعض: عن السر الذي من وراء قوله (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)؟ السر إنه يريده مُلكا لا يزول إلا بزواله، أي ربط بقاء الملك ببقائه وزواله بزواله، فإذا ما وهب له الله ملكا فلا يأمل أن ينزعه عنه أو منه نتيجة إيمانه بأنه قادر على أن يؤتي المُلك لمن يشاء وعلى أن ينزعه ممن يشاء مصداقا لقوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء).

---

[٩٢٦] ص، ٣٤، ٣٥.

[٩٢٧] آل عمران، ٢٦.

وقوله أنت الوهاب: تعني لا غيرك قادر على أن يستجيب لهذا المطلب أو هذا الترجي والأمل، ولوجود الأمل في قلب سليمان قال أنت الوهاب أي لا شك لي في أنك لا تهب لي مُلكا لا يكون لأحدٍ من بعدي، وهذا لا يعني أن سليمان يعلم بعلم الغيب، بل يعني وثوق الإيمان في قلب سليمان عليه الصلاة والسلام.

ومع أن غالبية العباد المراد استخلافهم في الأرض يقصرون تفكيرهم على ما هو متوقع إلا أن القلة والذين منهم سليمان لا يقصرون تفكيرهم في دائرة الممكن المتوقع فقط، بل يمدونه إلى دائرة الممكن غير المتوقع. ولهذا كان الإيمان راسخا في قلب سليمان بأن الوهاب الأعظم إن دعوته مخلصا له الدين استجاب لك بتوبةٍ أو غفرانٍ أو هدايةٍ أو يُهِبُكَ رحمة مما هو أكبر. ولهذا دعاه بما هو أكبر فاستجاب له الوهَّاب الأكبر بأن وهبه ملكا لم يكن لأحدٍ من بعده.

الوهَّاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّع إذا ما استثنينا الأنبياء والرسل والصالحين الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتمُسَّ المتوقع وغير المتوقع اللذين يخترقهما الله بعلم الغيب.

في ما يتعلق بالأمر المتوقع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقع وفقا لحسابات العباد، ولذا فالعباد المؤمنين برسالة محمد يتوقعون دائما إعطاء الزكاة وأخذها من قِبل من هو في حاجة، وهكذا الصدقات تعطى في دائرة الممكن المتوقع لمن هم في حاجة إليها؛ وهكذا يدخل الصوم والصلاة والحج في دائرة المتوقع في المجتمعات المؤمنة. أما ما يَهِبَهُ الوهَّاب تعالى فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقعين مما يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبه له في عقول العباد.

وعليه: فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهَّاب الذي يملك الأمر الذي إن صدره وقال له كن، فيكون. ومع ذلك بما أن الوهاب اسم وصفة، إذن فاستمداد هذه الصفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقع.

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما مما يجعلهما يقعان معا في دائرة الزمن المتوقع. أما الرحمة فتوهب ولا تعطى كما هو حال الزكاة والصدقات، ومع أنَّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقع.

وبالنسبة للوهَّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم. ومما يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حق في الزمن غير المتوقع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبرأ أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحق. وهكذا الحال مع من ينقذ غارقا أو مظلوما أو يعتق عبدا ويحرره دون انتظار مقابل.

يُحكى أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي على الثقفي رحمه الله فقال: "أي اسم من أسمائه يجري على لسان أبي علي أكثر؟ فقال الرجل: اسم (الوهاب) فقال الشبلي: لذلك كثر ماله"[٩٢٨].

قال تعالى: {وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها إنَّ الإنسان لظلوم كفار}[٩٢٩]. أي من كل ما دعوتم وطلبتم وهب لكم وأعطاكم، و (من كل ما سألتموه) تدل على أشياء أربع:

الشيء الأول: أنه يملك أكثر مما سألتموه، وهو لم يعطكم إلا ما سألتم،

والشيء الثاني: أنه يملك أشياء أخرى وأنتم لم تسألوه عنها.

---

[٩٢٨] مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة . مكتبة العلم، ١٩٩٩، ص ٤٦٧.

[٩٢٩] إبراهيم، ٣٤.

الشيء الثالث: ولأن باب العطاء لم يقفل ما دمتم تسألوه، فإن سألتم ومتى ما تسألون سيأتيكم مما تسألون سواء بالمزيد مما سألتم منه تعالى، أو مما لم يسبق لكم أن سألتموه عنه جل جلاله.

الشيء الرابع: ولأن سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإن باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء مما لا تتوقعون.

أمَّا قوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها) النعمة جاءت مطلقة، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنه استكثر على ربه العظيم سؤالا فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب.

ومهما ظن الإنسان أنه فكَّر في كل شيء أو قادر على أن يُفكر في كل شيء سيجد نفسه غافلا وقاصرا عما يفاجئه في الدائرتين الآتيتين:

دائرة علم الغيب:

هي الدائرة التي لا يعلمها إلا هو حيث مهما فكَّرنا فلن نفكر فيما لم يكن لنا به علم أو دراية. قال تعالى: {قل لا أقول لكم عند خزائن الله ولا أعلم الغيب}[٩٣٠]. تحتوي هذه الآية على اعتراف المؤمن العالم بعلم الغيب الذي لا يعلمه. أي أنه يعلم بما أعلمه الله به بأن هناك بعث وحساب وثواب وعقاب وغيب، ولكنه لا يعلم بما سيكون حيث ما سيكون من عند الوهاب هو علم غيب مصداقا لقوله تعالى: {وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو}[٩٣١]. فنحن نعلم بأن الساعة آتية، ولكننا لا نعلم متى، ولا نعلم الكيفية التي ستكون عليها أو تأتي لنا بها، ولذا لا نعلم بما لا نعلم، فالذي يعلم بما لا نعلم هو العليم الحكيم.

دائرة الممكن:

الممكن هو الذي (لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلما توفرت معطياته أو شروطه).

---

[٩٣٠] الأنعام، ٥٠.

[٩٣١] الأنعام، ٥٩.

ولهذا لا يعد الممكن مستحيلاً، ولأنه غير مستحيل فهو سيقع بطبيعة الحال وفقاً لما نتوقع أو وفقاً لما لا نتوقع. فما يبدوا متوقعا من شخص ما قد لا يكون كذلك من شخص غيره فالإنسان مهما توقَّع سيجد نفسه قاصرا على أن يتوقع كل شيء مما خلق مصداقا لقوله تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون}[٩٣٢]. وقوله تعالى: {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم}[٩٣٣] في اعتقادنا الذين لا يؤمنون بهذا الأمر الذي تحتويه هذه الآية الكريمة لا يعدونه أمرا متوقعا. أما بالنسبة للمؤمنين فيعدونه أمراً متوقعاً في دائرة الممكن، وذلك لأن الوهَّاب الأعظم وهب لعباده المؤمنين المعرفة الإعجازية التي جعلتهم يسلِّمون بأمر المقدرة الإلهية المطلقة، ولذا فهم يؤمنون بأنه قادر. أي بما أن الله تعالى خلق الأرض والسماوات العلا إثباتا، إذن بطبيعة الحال من يقدر على خلق الشيء يقدر على خلق مثله عددا، وذلك لأن الأمر لا مستحيل بالنسبة له، ولم يعد صعبا بل إن كانت هناك صعوبة أو استحالة وفقا لما نفكر به على مستوى العقل البشري أن تكون في الخلق الأول. فقوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنَّ}[٩٣٤]. تدل على أنه قادر على خلق أي شيء، حيث لا شيء أعظم خلقا من خلق السماوات والأرض التي في عددها تتماثل مع السماوات السبع مصداقا لقوله (ومن الأرض مثلهنَّ). وعليه الصعوبة والاستحالة أن تخلق الشيء أو تصنعه، ولا صعوبة أو استحالة في أن تضاعفه عددا.

مكونات دائرة الممكن:

دائرة الممكن تتكون من (المتوقع وغير المتوقع) وفقا للآتي:

المتوقع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

---

[٩٣٢] النحل، ١٧.

[٩٣٣] ياسين، ٨١.

[٩٣٤] الطلاق، ١٢.

ولهذا معطيات حدوث المتوقع أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، مما يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب والدهشة.

والمتوقع يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا.

الموجب المتوقع: كطاعة الوالدين، وإظهار الزكاة في وقتها والتصدق بأنواعه؛ فبالنسبة للمسلمين هذه من المتوقعات الموجبة مثلها كمثل الإخلاص في العمل، والتمسك بالعبادة والقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

السالب المتوقع: الغش على سبيل المثال وتطفيف الميزان وشهادة الزور وأكل أموال الناس بالباطل والسرقة بشكل عام، والاغتصاب وغيره من السلوك السالب المتوقع.

غير المتوقع:

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع، مما يجعله في حالة تساوي نسبي مع المتوقع في دائرة الممكن، ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو يقع نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، مما يجعله يقع (كما هو) إثباتاً.

وعليه، ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقع وعلى علله ومسبباته لاحقاً ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

فغير المتوقع يمكن أن يكون موجبا ويمكن أن يكون سالبا، فمن الموجب غير المتوقع على سبيل المثال: من كنت تعتقد بأنه سيخونك كان أول من حمى ظهرك عندما تعرضت للخطر.

أما السالب غير المتوقع أن تجد من كنت تعتقد أن يكون حاميا لظهرك أول الخائنين لك.

ولذا فالممكن ليس بمستحيلٍ.

المستحيل: هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزمن. ولذا فإن كل ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن.

وعليه:

. لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

. لا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

لذلك على من يراد له أن يكون خليفة في الأرض أن لا يغفل عن إظهار مواهبه وفقا للقاعدة (كل ما ليس بمستحيل فهو ممكن).

ولذا فإن المستحيل من اختصاصات الخالق.

أما الممكن من اختصاص المخلوق.

الممكن له معطيات وله مؤشرات، ويقع في الزمان والمكان كلما تهيأت له الظروف المناسبة لظهوره.

إذن الممكن ليس مستحيلاً .

وبما أن الممكن ليس بمستحيل.

إذن حظ الخليفة من الاسم الوهاب هو:

. أن يُفكّر حتى يكتشف مواهبه، ويخطط ويعمل بلا تردد.

. أن يتأكد قطعا للشك أن كل شيء ممكن.

. لا ييأس إن فشل في المحاولة الأولى لإظهار مواهبه.

. أن يُقيِّم ما يقوم به من جهد حتى لا يستمر في الخطأ وهو لا يدري.

. أن يكرر المحاولة باجتياز ما وقع فيه من أخطأ.

. أن يثق بنفسه أنه قوة فليقبل بتحدي الصعاب.

. أن لا يلحقه شك في مواهبه التي وهبها له الله تعالى وأن يتمسك بالحق قولا وعملا وأن يتحدى الصعاب فهي الهشة التي لا تصمد أمام المتوكلين على الوهاب الأعظم.

. أن يثق بأنه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

ولذا فإن القاعدة هي: (كل ما هو متوقع وغير متوقع ممكنا).

بما أن كل ما هو متوقع وغير متوقع ممكنا. إذن بالنسبة لبني الإنسان فالممكن مؤسس على قاعدة. وغير الممكن مؤسس على استثناء وذلك نتيجة اختصاص الوهاب المطلق به.

ولهذا فالمتوقع استقراء وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات. أما غير المتوقع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء.

وعليه:

لو لم يكن المتوقع في دائرة الممكن، ما كان لأحد أن يتوقعه.

وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقع، ما لم يكن في دائرة الممكن.

وبما أن كل شيء ممكن، إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقع، بدلاً مما هو متوقع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان.

لذا: فالعبد الذي يفكر في المتوقع فقط، في معالجة الظواهر أو المشاكل، قد يواجهه غير المتوقع فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يقرر.

فعلى سبيل المثال: قيل لأحد الأصدقاء أنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كل خير قد قَدِمَ على أفعال لا أخلاقية مع أحد أقاربه قبل خمس سنوات من هذا العام، فأجاب على الفور وبكل سرعة. هذا ليس ممكنا. أنا لا أصدق. وطلب الدليل والبرهان.

مع أن الأمر قد وقع قبل خمس سنوات من هذا التاريخ إلا أنّ صديقنا لا زال لم يُصدِّق، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد. وعندما أثبت له دليلاً وبرهاناً قاطعاً دخل في دائرة الاستغراب وكأنه لم يُصدِّق.

وعليه :

. فكَّر في المتوقع.

. فكَّر في غير المتوقع.

. خطط في دائرة الممكن.

. لا تستغرب.

. تطلّع فإن كل شيء ممكن.

ولذا فالوهَّاب بالإضافة مهما امتلك من المواهب فهو على المستوى البشري يؤمن بالقاعدة التي تقول: (لا تتاح الأشياء للمخلوق إن لم تكن ممكنة) وفي مقابل ذلك يؤمن بالقاعدة التي تنص على أنه (لا مستحيل على الوهَّاب المطلق) فكل شيء بالنسبة له ممكن.

هذا صحيح. ذلك لأن المخلوق هو محدود المقدرة.

أما الوهاب المطلق فهو القادر على كل مطلق. ونحن بني الإنسان لا نخلق مستحيلا، ولكننا نؤمن بأنه لا يخرج عن دائرة الممكن بالنسبة للوهاب تعالى، ويخرج عنها بالنسبة للوهاب بالإضافة.

وعليه فالمستحيل يُخلق عن الخالق الأعظم، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل. ولهذا يقول الله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكِّر إنما أنت مذكر}[٩٣٥]

ولذا فإنَّ الموهوب لا يغفل عن دائرة الممكن والتفكير فيها، والعمل وفقا للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها، حيث لا مستحيل في كل أمرٍ ممكن.

وعليه يعمل الموهوب على الآتي:

. إظهار الممكن.

. إنجاز الممكن.

. بلوغ الممكن.

. التخطيط وفق الممكن.

. التطلُّع وفق الممكن.

وبما أن كل شيء ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟.

[٩٣٥] الغاشية، ٢٠.

الاستغراب هو حدوث غير المتوقع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب على المؤمن أن يضع في حسبانه كل ما هو ممكن حتى لا يفاجأ. فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل لو لم يكن ممكناً، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكناً، والحصول عليه ممكناً. وأيضا عدم الحصول عليه ممكناً. هذا الأمر هو المتوقع؛ لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع.

أمَّا في دائرة المستحيل على المستوى البشري فإنه من غير الممكن أن:

. نأتي بالشمس من المغرب.

. ندمج الشمس في القمر.

. يطير الإنسان من غير جناحين.

. نفكر إن فقدنا عقولنا.

. ومن غير الممكن أن نحيي الموتى.

وقد يتساءل البعض: ما الفرق بين الممكن والمستحيل؟.

– الممكن، قابل للإثبات والاكتشاف، أي أنه في حاجة لمن يثبته ويبرهن على معطياته ومبرراته. ولذا فهو قابل للإثبات والنفي والرفض، والظهور والكمون والشك والمقارنة والثبات والاهتزاز، وقابل للدراسة والبحث والتقويم.

أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم بيوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر يعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنه موجود إلا أنه لا ينفى.

. عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا ولكن قد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه إذا صدر له الأمر كن من عالم الغيب.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك العباد أمره حيث خروجه عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا.

إذن المتوقع وغير المتوقع هما اللذان يقعان من قِبل المخلوق أو من طرفه. والمستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق.

ولذا فكلاهما يحدث، وفقا لتوقعاتنا. إلا أن الممكن يتحقق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله.

وعليه المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا أما الممكن نتوقعه ويحدث من داخلنا.

بناء على ما تقدم هل يمكن لنا أن نفرق بين الصعب والمستحيل؟.

الصعب فعل يُنفى ويُثبت، ولهذا فهو ممكنا، وبالرغم من أنه ممكنا إلا أنه ليس سهلا. ولذا فهو في حاجه لبذل الجهد، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية. والمستحيل هو الذي لا يتحقق وذلك لانعدام مقومات وجوده أو إثباته.

وعليه: من المستحيل أن يكون الإنسان إلها. ومن الصعب أن يصبح الإنسان عالماً.

وبما أنه من الصعب أن يصبح الإنسان عالماً، إذن فمن الممكن أن يكون.

قال تعالى: {ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين}[٩٣٦]. أي كيف يمكن له الولد وامرأته عاقر لو لم يهبه الله إياه؟ ولذا قال: (وهبنا له إسحاق) للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولد له من بعده هو يعقوب عليه الصلاة والسلام. (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاءها من بيت واحد، إلا

---

[٩٣٦] العنكبوت، ٢٧.

من بعده حيث أصبحت النبوة والرسالات في ذريته عليهم جميعا الصلاة والسلام. وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبيا مثلما إبراهيم نبيا وكذلك جعل من يعقوب حفيدا لإسحاق ونبيا. إذن الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصَّهم الله باصطفاء الأنبياء منهم مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران}[٩٣٧]. فآل إبراهيم هم الذين يؤولون إليه في حالتين:

الحالة الأولى: أنهم من صلبه.

والحالة الثانية: أنهم من دينه مصداقا لقوله تعالى: {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا}[٩٣٨] وقوله تعالى: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما}[٩٣٩].

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آلا بيته وهم:

آل عمران وآل ياسين، وآل موسى وهارون، وآل داود، ومحمد. قال تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت}[٩٤٠] وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل موسى وآل هارون وآل داود ثم ذكر أهل البيت في هذه الآية فكان المقصود به نساء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وكذلك لم يبق له ولد ذكر حتى يَنجب مما يدل على انقطاع الاصطفاء من بعد محمد الذي يعود كما يعود الأنبياء من قبله إلى آل بيت إبراهيم. وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم وهم الذين أسلموا لله ربِّ العالمين.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت ينبغي أن يتوفر فيه شرطان:

الشرط الأول: أنه من الذين يؤولون إلى إبراهيم دما.

الشرط الثاني: أنه من الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما. ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده

---

٩٣٧ آل عمران، ٣٣.

٩٣٨ آل عمران، ٩٥.

٩٣٩ آل عمران، ٦٧.

٩٤٠ الأحزاب، ٣٣.

إبراهيم وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل}[٩٤١]، والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب المؤمنين وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك، ولهذا فالتوحيد يؤدي إلى الاطمئنان ويحقق الأمن والشرك لا يحقق إلا الخوف قال عز وجل: {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وآمنا}[٩٤٢] وقوله تعالى: {فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}[٩٤٣].

ولأن ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا ينقطع فقد أضاف (وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين) أي أنه كسب الدنيا بما عمل دعاءا متصلا مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله جلا جلاله: (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما).

قال تعالى: {فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ عليا}[٩٤٤] فلما هاجر إبراهيم من أجل دينه وحيدا وهب الله تعالى له ولداً هو إسحاق، ووهب له ولد ولدٍ هو يعقوب عليهما الصلاة والسلام حتى لا يكون وحيدا وبقيت النبوة فيهم إلى الرسالة الخاتمة التي وهبها الله تعالى رحمة لمحمد عليه الصلاة والسلام، وبقيت الرسالة هداية للعالمين وبقي البيت لله وحده مثابة وآمنا.

قال تعالى: {ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا}[٩٤٥] وذلك استجابة لسؤال موسى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري}[٩٤٦] لذا لذا كانت الاستجابة هبة من رحمته على موسى عليه الصلاة والسلام.

---

[٩٤١] البقرة، ١٢٧.

[٩٤٢] البقرة، ١٢٥.

[٩٤٣] قريش، ٣، ٤.

[٩٤٤] مريم، ٤٩، ٥٠.

[٩٤٥] مريم، ٥٣.

[٩٤٦] طه، ٢٩.

قال تعالى: {ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب}[٩٤٧]. فالوهَّاب المطلق مثلما وهب هارون لموسى عليهما الصلاة والسلام وهب سليمان لداود عليهما الصلاة والسلام، وبالتالي بما أن باب الوهب مفتوح لمن يصدر الأمر له رحمة من الرحمن الرحيم فلا يستطيع أحد من العباد غلقه. وبهذا الوهب سينتصر الإسلام حتى يعم المعمورة وحينها يثق الإنسان بأنه في الأرض خليفة.

قال تعالى: {وزكرِيَّا إذ نادى ربَّه ربِّ لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين}[٩٤٨]. أي أن يحيى عليه الصلاة والسلام كان استجابة لدعاء زكريا عليه الصلاة والسلام وهِبة من الله تعالى عليه بالرغم من أن زوجه عاقر ولهذا قال (أصلحنا له زوجه) حتى أنجبت يحيى الذي وهبه الله تعالى لزكريا، حتى لا يتركه منفردا لا ولد له ليرثه من بعده، ولأن الوارث المطلق هو الله قال زكريا: (وأنت خير الوارثين) ببقائك الدائم الذي لا يماثلك فيه أحد من خلقك سبحانك أتوب إليك، لا إله إلا أنت الحي الدائم.

وحظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصة لله تعالى، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية الله، حتى أنه يخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وأن يهب الطاعة للحق والعدل وأفعال الخير الحسان، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن.

وحظ الخليفة من أسمه الوهاب أيضا: أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهدا أو فكرة أو قولا أو مالا، ودون مقابل عائد منتظر. وأن لا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهبا دون منَّة منه أو انتظار ثواب عاجلا أم أجلا.

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكِّنه من أن يعطي ولا يمنن، ويعطي ولا ينهر، ويعطي ولا يندم، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطى شيئا عاجلا أو أجلا. وأن يستثمر مواهبه

---

[٩٤٧] ص، ٣٠.

[٩٤٨] الأنبياء، ٩٠.

التي وهبها إليه الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقق لهم الأمن والسلام ويجعلهم على الوحدة والمحبة والوئام لا على الفُرقة والشقاق والصدام.

إن المواهب التي يهبها الوهاب الحق لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُجحد، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثرا طيبا بين الناس.

وعليه فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخّر لنا الفلك تجري بأمره في البحر بما ينفع الناس، ووهب لنا الماء فجعل منه كل شيء حيا، ووهبا لنا الرزق وجعلنا النافقين منه، وهو الذي أرسل الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السماء والأرض لقوم يفقهون، وأحل لنا ما تشتهيه الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر، ووهب لنا من أنفسنا أزواج ورحمة لنسكن إليها، ووهب لنا ذرية صالحة وفضل كبير.

وعليه، يوضع اسم الله تعالى (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة الهبة والعطاء وهي (البر، الكريم، الواسع). هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب، بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر، والحظ التام، إذ يقول تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٩٤٩]

(الوهاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه، فلا يستحق أن يسمى وهابا إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا ورزقا، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولدا لعقيم ولا هدى لضال ولا عافية لذي

[٩٤٩] – الأعراف ١٥٦

بلاء، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها "المعطي والمانع"[٩٥٠].

واسم الله تعالى (الوهاب) هو مصدر كل هيبة، والهبة هي العطية الخالية من العوض والغرض، فالهبة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض، يقال وهبته هبة وموهبة وموهبا، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} وقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}[٩٥١] أما قوله تعالى:{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}[٩٥٢] فنسب الملك إلى نفسه الهبة لما كان سببا في إيصاله إليها، ويوصف الله تعالى بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطى كلا على استحقاقه[٩٥٣]، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك بالمطلق سواه، و المالك هو القاعدة الأساسية لكل هبه أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٩٥٤] هذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة على ملك الله تعالى، تعظم في أنفسنا عظم ملك الله تعالى، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل بمجموعها تشكلا معرفيا يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة، ابرز ما يسم هذه الدلالات إنها تمركزت على ملك الله تعالى وقدرته في الهبة والعطاء، وفي قضايا مهمة جدا، ومن هذه القضايا هي قضية الذرية، التي تشغل حيزا كبيرا في الفكر البشري، فهي أصل

---

[٩٥٠] – الأسماء والصفات، ج ١ ، ص ١٣٨

[٩٥١] – إبراهيم ٣٩

[٩٥٢] – مريم ١٩

[٩٥٣] المفردات في غريب القرآن، ج ١، ص ٥٣٣

[٩٥٤] – أل عمران ٢٦ – ٢٧

الاستمرار وبقاء النوع، فضلا عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[٩٥٥]. هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها، وهذه الصورة تبقى ملازمة للخليفة يطلبها حثيثا مما يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلى تشكل من تشكلات المغفرة التي يسعى لها، لكن هذا لا يتحقق للجميع، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[٩٥٦] النص القرآني هنا يحيل إلى تشكيلات مختلفة من الهبة، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك الله تعالى ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، والهبة المتحققة هنا تجري وفق مشيئة الله تعالى وحكمته، فالثنائية التي يرتكز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثى وعدم الاستمرار العقم، والأمور هنا تعود إلى قاعدة واحدة وهي الزواج، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٩٥٧] ومن هذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه، فمن الخلق من يهب له الله تعالى إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له. وفي كل هذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم الله تعالى، فانه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه جل جلاله إنه ربي، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته. وتتضح صورة علم الله تعالى في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}[٩٥٨]، وهنا قتل الغلام رغم انه إحدى الهبات الثلاث، إذ يتجلى الأمر ليحيل لنا علم الله تعالى بما يصلح للخلق، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ

---

[٩٥٥] – صحيح مسلم، ج ٨ ، ص ٤٠٥

[٩٥٦] – الشورى ٤٩ – ٥٠

[٩٥٧] – الروم ٢١

[٩٥٨] – الكهف ٧٤

فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}[959] هنا ترتسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} إلا أن دلالتها هنا موجودة وان لم ترد في النص القرآني، إذ أن الهبة تحققت هنا بالذكر، لكن هذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرحمة المتحققة للأبويين، مما يعزز هنا فكرة الرحمة المصاحبة للهبة. وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}[960] هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنة، وبطريق هو يختاره دون باقي الطرق، فضلا عن ذلك أن هذه الصفة تعنى بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدْعُون الله أن يرزقهم أزواجاً وذرّيّات تقَرُّ بهم أعينُهم، فالأزواج يُطعنهم بإتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذّريات إذا نَشَأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة {قرة أعين} . فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقَرّ عيون المؤمنين إلاّ بأزواج وأبناء مؤمنين[961]. هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكليه متعددة تسير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكأ على الآخر من أجل الوصول إلى نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيل الجنة كما صورت له في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}[962] وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقول تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[963]

[959] – الكهف ٨٠ ، ٨١

[960] – الفرقان ٧٤

[961] – التحرير والتنوير، ج ١٠ ، ص ١٢٦

[962] – الإسراء ١٩

[963] – الأنعام ٨٤

وقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[٩٦٤] إلا لموسى عليه الصلاة والسلام فان الهبة كانت أن وهب الله تعالى له أخاه هارون عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}[٩٦٥] والهبة المتحققة هنا سبقها سؤال من موسى عليه الصلاة والسلام لله تعالى تضمن أن يكون هارون وزيرا له، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}[٩٦٦]، والهبتان المتحققتان تدلان على حكمة الله تعالى في تيسير دعوته، فكل الهبات عدا هبة موسى عليه الصلاة والسلام جرت ضمن تشكل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترى وختاما، قال تعالى: {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إمام}[٩٦٧].

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[٩٦٨] فهنا يحدث تشكلا ملازما ومستمرا للرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو العقوبة المتحققة المستمرة التي لا تنقطع، فكلما بعث رسول إلى القوم الذين أُرسل إليهم، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكل الوسائل، فأهلكهم الله تعالى وألحقهم بمن تقدمهم من المهلكين، وجعلهم أخبارا وأحاديث يتحدث بها الناس، فهنا يحصل التزامن بين إرسال الرسل وبين العذاب المتحقق، وكلا الأمرين في حالة استمرار إلى أن تتحقق الدعوة التي يريدها الله تبارك وتعالى كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر جل جلاله.

---

[٩٦٤] – ص ٣٠

[٩٦٥] – مريم ٥١ – ٥٣

[٩٦٦] – طه ٢٥ – ٣٦

[٩٦٧] الفرقان، ٧٤.

[٩٦٨] – المؤمنون ٤٤

أما هبة موسى عليه الصلاة والسلام، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصلاة والسلام، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب، وطلب موسى عليه الصلاة والسلام اشتمل على أمور كثيرة ذكرها وكلها تتعلق بهارون عليه الصلاة والسلام، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت، وهنا نعود إلى سؤال موسى عليه الصلاة والسلام، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والإلوهية، فقد أحس أنه يحتاج إلى أمور تعينه وتكون سببا في إصلاح المرسل إليهم، فكانت البداية بشرح الصدر، لأن في سعته تحمل للأذى الذي قد يتعرض له، وقد يكون أذى قولي أو فعلي، لأن الصدر إذ ضاق ، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم. وهنا نتذكر قول الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٩٦٩].

أما قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}[٩٧٠] فهنا صورة التيسير غير محدده فهي مطلقة يريد موسى عليه الصلاة والسلام كل الطرق الموصلة لتحقيق الهدف المنشود أو المأمول، ثم بعد ذلك يعرض عيبا فيه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهما في التواصل والتفاهم والحوار والجدل، إذ أن مهمته تتطلب هذه الأداة فلابد أن تكون مهيأة كي تؤدي عملها المرتقب، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير والمهم: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلا عن المؤازرة والمساعدة وهي أن الاختيار أراده لأخيه هارون عليه الصلاة والسلام فذلك من باب البر وأحق بالبر القرابة، {وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} ولم يكتفي موسى عليه الصلاة والسلام بالمشاركة

---

[٩٦٩] – آل عمران ١٥٩

[٩٧٠] طه ٢٦.

لهارون معه بالأمر بل الإشراك بالنبوة، بأن يجعله الله تعالى نبيا رسولا مثله. فكانت الإجابة من الله تعالى: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} أي أعطيت جميع ما سألت، فكل ما سأله موسى عليه الصلاة والسلام يصب في صلب دعوة الله تعالى، فهو على معرفة تامة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلبه.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[٩٧١] هذه الآية تمثل صورة من صور الدعاء، والدعاء هو العبادة، وهنا ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة، فلنتعرف على آداب الدعاء وأسباب الإجابة:

١- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.

٢ . الإخلاص في طاعة الله قولا وعملا.

٣- الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة.

٤- الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال.

٥ - الدعاء في الرخاء والشدة .

٦- لا يسأل إلا الله وحده.

٧ - الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكر الله عليها.

٨ - التضرع والخشوع والرغبة والرهبة.

٩ . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعليك بمعرفة أن لكل صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.

١٠ - أن يكون الداعي طعامه ومشربه وملبسه حلال.

١١ - أن يكون مصلحا في الأرض.

---

[٩٧١] - الأنبياء ٨٩ - ٩٠

١٢ – أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .
١٣ – الابتعاد عن جميع المعاصي[٩٧٢].

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النص القرآني علل سبب الاستجابة بقوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويرهبون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

أما علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} وجملة {وأنت خير الوارثين} ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحق فاقض عليّ من صفتك العلية شيئاً[٩٧٣] فزكريا عليه الصلاة والسلام فكَّر في أمر الدعوة ومن يقم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} أي: خير الباقين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقق أيضا للنبي أيوب عليه الصلاة والسلام بعد أن مسه الضر، يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[٩٧٤]. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كل الخلق، يعنى أن أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنيات دعاء الخلق فيقع الاختيار

---

[٩٧٢] – الدعاء ويليه العلاج بالرقى الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤
[٩٧٣] – التحرير والتنوير، ج ٩ ، ص ٢٠١
[٩٧٤] – الأنبياء ٨٣ ، ٨٤

عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرأفة والرحمة يكون في دعائه (الرحمن – الرحيم – الفتاح – اللطيف – الرءوف – الودود) والمحتاج للهبة والعطاء يكون في دعائه (الوهاب – البر – الكريم – الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير مما يرى فيه تحقيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الأجلة، بوصفه نفسا إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}[٩٧٥] ولما كان تحقيق ما ترجوه هذه النفس مرتبطا بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لابد من التوجه إلى الله تعالى، فهو الرب المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}[٩٧٦].

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهابا كريما، واسع العطاء مما تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبذل السخي في أبواب البر التي حضّته على البذل فيها شريعة الله تعالى.

واسم (الوهاب جل جلاله) في حق الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير مكلف ولا عرض ولا عوض، وكل من يعطي سواه فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا، أو في الدين عاجلا أم أجلا، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده، لأن الهبات قدر منه سبحانه على عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاد بل في نماء وازدياد، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

---

[٩٧٥] – الكهف ٤٦

[٩٧٦] – غافر ٦٠ ، ٦١

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٩٧٧] هذه صورة من صور النماء التي بينها الله تبارك وتعالى لعباده، هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة} وهنا قال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة} وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنة للأنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، {والله يضاعف} هذه المضاعفة {لمن يشاء} أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون {والله يضاعف} أكثر من هذه المضاعفة {لمن يشاء} فيعطيهم أجرهم بغير حساب {والله واسع} الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يخفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو {عليم} بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته[٩٧٨].

وختاما {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إمام}[٩٧٩].

اللهم يا الوهاب هب لنا الرزق الحلال والملك الحلال وهب لنا الصحة والعافية وهب لنا القوة والبركة في كل قول وفي كل فعل وعمل، اللهم هب لنا سلطان العلم والحكمة والتقوى والهيبة، وهب لنا القدرة على تفادي المخاطر وكيد الكائدين وحسد الحاسدين ومكر الماكرين وسحر الساحرين إنك أنت ربنا الوهاب سبحانك ما أعظم شأنك سبحانك جل جلالك.

---

[٩٧٧] – البقرة ٢٦١

[٩٧٨] – تفسير السعدي، ج ١ ، ص ١١٢

[٩٧٩] الفرقان، ٧٤.

اللهم هب لنا نور ينير دروبنا وبصائرنا، وهب لنا قول يكون حُجة لنا لا حُجَّة علينا، وهب لنا سمعاً لا تضيق به أنفسنا، وبصر لا يغفل عن رؤية جمالك، وعقل لا يقصر عن معرفة معجزاتك، ولسان يذكرك كثيرا ويسبح بحمدك وشكرك كثيرا، اللهم هب لنا الفطنة التي تمكننا من قول الحق وفعل الحق وتجنب الزلات إنك سميع قريب مجيب الدعوات سبحانك أنت الوهاب جل جلالك، اللهم هب لنا الفوز على وسوسة الشياطين من آبالسة الإنس والجن أجمعين، وهب لنا حفظة كرام يحيطون بنا وبما نملك، اللهم هب لنا الثقة التي بها نكون ثابتين على طاعتك وعبادتك وهب لنا من الصالحين أعواناً وهب لنا صحة الأنفس والأبدان وسلامة العقل واللسان وسلامة العمل والفعل. نحمدك يا وهاب يا من جعلتنا من الذين يدعونك واحدا أحدا ولا يشركون بك شيئا، وندعوك يا وهاب باسمك الأعظم (الله) أن تجعل في ألسنتنا القوة والقدرة وفي سمعنا القوة والقدرة، وفي بصرنا القوة والقدرة، وفي جميع حواسنا ومشاعرنا أنت القوة والقدرة سبحانك جل جلالك.

الرزَّاق

الرزَّاق اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين}[٩٨٠].

وفي لسان العرب المحيط الرزَّاق: هو "خالق الأرزَّاق وهو من أعطى الخلائق أرزَّاقها وأوصلها إليهم؛ والأرزَّاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم. والرزق ما يُنفع به وهو العطاء"[٩٨١].

والبيهقي يقول: "الرزَّاق هو القائم على كل شيء بما يقيمها من قوتها، وما مكنها من الانتفاع من مُباح وغير مُباح"[٩٨٢].

ويقول الإمام الغزالي: "الرزَّاق هو الذي خلق الأرزَّاق والمرزوقين، وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها"[٩٨٣].

قال الحليمي: "الرزَّاق هو المُفيض على عباده بما يجعل لأبدانهم قواما"[٩٨٤].

وقال الطحاوي: "رازق بلا مؤنة بل لو سألوه جميعا فأعطاهم ما سألوه لم ينقص ذلك من مُلكه كما قال في الحديث القدسي: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد

---

[٩٨٠] الذاريات، ٥٨.

[٩٨١] لسان العرب المحيط. ج الأول، ص ١١٦٠.

[٩٨٢] محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية. ١٩٩٦، ص ٣٨؟

[٩٨٣] الإمام الغزالي، القول الأسنى. ص ٧٩.

[٩٨٤] مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. مكتبة العلم، ١٩٩٩، ص ٢٦٥.

واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر"[٩٨٥].

وقال الخطابي: "الرزَّاق هو المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها"[٩٨٦].

الرزَّاق: هو الذي له صفتي خلق الرزق، وإيصاله لمن هم في حاجة، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر.

وقد يتساءل البعض عن كونه المصدر الذي به تتعدد المصادر، فيقال الرزَّاق هو مصدر الرزق، والرزق يتعدد بمصادره في السماوات والأرض، فالرزَّاق سابق على السماوات والأرض وهما من المصادر الرئيسة للأرزَّاق حيث لولاها ما خُلقنا والكائنات وما رُزقنا على ظهرها. ولذا فالرزَّاق هو المصدر الذي خلق للرزق مصادر، فخلق السماوات وخلق الأرض وخلق فيها رزقا ثم خلق منها الإنسان تاليا على الرزق ليكون كغيره من المخلوقات على الرزق يعيش ويحيا مما آتاه الرزَّاق من نصيب ليشبع حاجاته المتنوعة والمتعددة والمتطورة، ثم يجازى في الحياة الآخرة بالثواب أو العقاب ليكون بما فعل من حسنات أو سيئات من أصحاب الجنة أو أصحاب النار.

والرزَّاق: مصدر يرزق رزقا، ومع أن رَزِقَ مصدر لمن يرزق رزقا، إلا أنها لا تأتي إلا من مصدر، ومصدرها الرزَّاق جل جلاله، فلو لم يكن رزَّاقا ما كان للرزق محل من الوجود والإعراب. ولذا فالرزق لا يستمد إلا من رزَّاق أعظم ولكي يكون رزَّاقا أعظم لابد أن يكون خلاَّقاً أعظم، وهذه الصفات الحسان لا تكون إلا لله تعالى. وعليه تتعدد مصادر الأرزَّاق والرزَّاق واحد.

وقد يتساءل البعض عن الكيفية التي بها تتعدد مصادر الرزق والرزَّاق واحد، فيقال: لو لم يكن هناك رزَّاقا ما كان للرزق من مصدر. وفي هذا الأمر بالتمام لو لم يكن هناك خلاَّق ما

---

[٩٨٥] الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. رسائل جامعية بيروت ، دار ابن الجوزية، ٢٠٠٥، ص ٣٢٢.

[٩٨٦] حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنى ابن القيم الجوزية. القاهرة ، دار الفجر للتراث، ٢٠٠٢، ص ١٢٨.

خلقنا، ولو لم يكن هناك مصور ما صُورنا وهكذا لو لم يكن هناك رحمن ما رُحِمنا بالأرزَّاق منه جل جلاله، ولذا فإن الرزَّاق هو مصدر الأرزَّاق. وعليه بإمكاننا أن نُرَتِب مصادر الأرزَّاق أولويا وفقا للآتي:

أولا . المصدر الخالق: وهو الرزَّاق الأول والآخر: فالأول من حيث لم يكن سابقاً عليه أول، مصداقا لقوله تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم}[٩٨٧]. وقوله تعالى: {إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين}[٩٨٨]. ولأنه هو الرزَّاق الأول والآخِر فلا خوف من عدم على حياتنا وحياة أولادنا فالأرزَّاق منه تأتي إن توجهنا إليه وعملنا عملا صالحا مصداقا لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم}[٩٨٩].

ولذا فالرزَّاق الأول هو خالق كل مخلوق وسابق عليه وضامن معاشه إلى النهاية التي ينبغي أن يكون عليها، ولهذا فهو الآخِر الذي كما سبق أن كان رزَّاقا أولا فهو الأول الذي ينهي الرزق عمن لم يكن له رزق في الحياة. وعليه فإن القاعدة تقول: (من يرحل رزقه يرحل). ولا يبقى إلا هو جل جلاله عليما بما نحن عليه وبما سنكون عليه مصداقا لقوله تعالى: {هو الأول وهو الآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}[٩٩٠].

والأول والآخِر تعني: (هو واحد أحد) هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يُعيده، أي أنه هو الذي يملك أمر البداية والنهاية سبحانه جل جلاله.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تُحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}[٩٩١]. في هذه الآية نهى الله تعالى عن تحريم الرزق الحلال فبما أن الرزَّاق أوجد الأرزَّاق فلماذا تُحرَّم بما أنها

---

[٩٨٧] الروم، ٤٠.

[٩٨٨] الذاريات، ٥٨.

[٩٨٩] الأنعام، ١٥١.

[٩٩٠] الحديد، ٣.

[٩٩١] المائدة، ٨٧ ، ٨٨ .

تؤخذ وتؤكل حلالا طيبا؟. ولهذا قوله كلوا مما رزقكم تعني كلوا من لحومها واشربوا من ألبانها، وكلوا من ثمارها ورحيقها ولا تُحرِّموا شيئا منها لم يحرمه الله.

ولأنه هو الآخِر فهو المُنهي الأول لِما يجب أن يُنهى، ولذا يمسك رزقه عمن ليس له نصيب فيه مما يجعل النهاية خيراً بيد الأول والآخر لا بيد من لم يكن بأول ولا بآخِر. مصداقا لقوله تعالى: {أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه}[992]. بدون شك أنه الأول والآخر (الأول هو الثابت الأول فلم يتغير، فهو الذي في البداية أعطى وهو الذي في الناهية أمسك). وقد يتساءل البعض: لماذا هو في الأول أعطى، ولماذا هو في الآخِر أمسك؟.

بطبيعة الحال لأنه هو الذي يحيي ويميت، فإعطاؤه الرزق في البداية لأجل الحياة وإمساكه للرزق في النهاية لأجل الموت، ولذا فنحن كغيرنا من الكائنات نحيا ونموت ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام جل جلاله.

ثانيا . المصدر المخلوق: هو مصدر الرزق الذي تتعدد منه مصادر الأرزَّاق، كالسموات والأرض المخلوقات للمخلوق رزقا. مصداقا لقوله تعالى: {بديع السماوات والأرض}[993] وقوله تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين}[994] وقوله تعالى: {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض}[995] وقوله تعالى: {وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها}[996]. وقوله تعالى: {أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[997].

يتضح من هذه الآيات الكريمة أن السماوات والأرض هي المصادر الرئيسة التي أبدعها الله عز وجل للرزق فهي التي منها ينزل الماء وعليها تنمو الحياة، ومنها تُستمد الأرزَّاق وتؤخذ.

---

[992] الملك، ٢١.

[993] البقرة، ١١٧.

[994] الأنبياء، ١٦.

[995] فاطر، ٣.

[996] البقرة، ١٦٤.

[997] النمل، ٦٤.

فالأرض مصدر خَلقنا ومصدر رِزقنا {ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون}[998] فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا، (منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش).

ومع أن السماوات والأرض هما مصدرا الرزق، إلا أن ما بينهما مصادر رزق كثيرة، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي أسباب مسخرة لمصادر أرزّاق، وكذلك الماء رزق ومصدر خلق قال تعالى: {وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}[999].

ولذلك فالرياح والسحب مصادر رزق مصداقا لقوله تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه}[1000] إذن لو لم يرزق الله عباده بالرياح ما تلاقحت الأشجار وأثمرت، ولولا الرياح ما حملت المطر وأنزلت رزقا لكل كائنٍ حيٍ. وبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكان لأخر لتحيي الأرض بعد موتها مصداقا لقوله تعالى: {والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور}[1001].

وإلى جانب المصادر الرئيسة للرزق المباشر للمخلوقات هناك مصادر أخرى ذات أهمية عالية لإبقاء الرزق وبقاء الحياة، إنها الشمس والقمر والنجوم والكواكب سبحانه لم يخلق شيئا عبثا، بل كل شيء خلقه وقدَّره بحسبان موزون قال عز وجل: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين}[1002]. وقال جل جلاله: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل}[1003] وقوله تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار}[1004]. ولذلك فكما أن الأرض والسماء مصدرا رزق كبير كذلك فإن ما بينهما من الشمس والقمر

---

[998] الروم، ٢٠.

[999] البقرة، ١٦٤.

[1000] الحجر، ٢٢.

[1001] فاطر، ٩.

[1002] الأنبياء، ١٦.

[1003] يونس، ٥.

[1004] إبراهيم ٣٣.

والكواكب والنجوم والليل والنهار هي مصادر أرزَّاق كثيرة، فالحمد لله الذي خلق لنا عبر الحركة والزمان مصادر أرزَّاق دون أن تكون من أيدينا؛ فنحن لم نخلق السماوات العلا ولم نخلق الأرض ولن نبلغ الجبال طولا، ولم نخلق الشمس ولا القمر ولا الكواكب والنجوم، ولم نخلق الليل ولا النهار ولم نخلق الزمان ولا الحركة إنه الله الرزَّاق جل جلاله.

ومع أن الإنسان خُلق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنه قد خُصَّ بأحسن تقويم وخُصَّ برزق حلال، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقا للإنسان في الحياتين ليأكل لحماً مما تلذه الأنفس وتشتهيه. وهكذا جعل له رزقا من صيد البر والبحر وجعل له لحما حلال مما حوله من ذوات اللحوم، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق وله منها منافع.

وعليه أتساءل: أإله كريم يخلقك، ويخلق لك رزقا، ويغفر لك ذنبا وخطيئة، ويُبشرك بالجنة هو أولى بالعبادة أم إله يُخلق ولا يَخلق شيئا ولا يحيي ولا يميت ولا يرزق؟! {ذكر فإنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر}[١٠٠٥]

ثالثا . المصدر الذي يُخلق: هو الذي يُستمد ويشتق مما خَلق الله من أرزَّاق، فبالعلم تُكشف الأشياء ويتم التعرف عليها، ومنها يصنع الرزَّاق بالإضافة (الخليفة) رزقا يُحسِّن حياته به ويُشبع حاجاته المتنوعة والمتطور.

ولذلك نقَّب في الأرض حتى اكتشف الحديد رزقا والنحاس والذهب اصفراً واسوداً، وعبَّد الطرق وشقها وهو يطوي المسافات مثلما يطوي الحديد؛ ثم رفع رأسه من على الأرض التي منها خُلق وعليها يرتزق إلى السماء، ففكر في طي المسافة بينهما حتى اكتشف قانون الجاذبية الذي به تمكَّن من غزو الفضاء، ثم طوَّر أحواله وحياته بما تصنع يداه ولا زال يُطوِّر بيديه وبعقله العلوم المتنوعة.

[١٠٠٥] الغاشية، ٢٠، ٢١.

وكما قلنا الأرزَّاق تتعدد والرزَّاق واحد، فعلى مستوى البناء الخَلقي للإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، فقد رزقه بما يميزه عمَّا خَلق، ورزقه أيضا بما يماثله مع ما خلق، وفيما يميزه فقد رزقه بأربعة أشياء عظيمة هي:

الشيء الأول رزقه العقل: مما جعل له ذاكرة تصنع التاريخ وتحفظه ثم تنقله تراثا ومواعظ حسنة لأجل مستقبلٍ أفضل وأجود وأفيد وأنفع. ولذلك رُزِق الخلاَّق بالإضافة عقلا يميزه عن تلك الدواب التي لا تدرك شيئا صم بكم لا يتذكرون ولا يستطيعون أن يتفكروا {إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}[١٠٠٦]. ولولا العقل الذي رُزِقَ به، ما استطاع آدم عليه الصلاة والسلام أن يُنبئهم بأسمائهم، ولذلك العقل المميز أُمرت الملائكة أن تسجد له طاعة لله الذي أصدر الأمر بالسجود لآدم.

قال تعالى: {وتصريف الرياح والسحاب المسخرين بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون}[١٠٠٧] أي أن الإنسان الذي ميزه الله بالعقل هو وحده من بين المخلوقات يعقل أمر الرياح والسحاب ويدرك العلاقة بينهما وبين السماء والأرض وبين ما سيترتب على حياته وحياة المخلوقات التي لم تأت الرياح إليها بالسحب وبين حياة المخلوقات التي سيسقط المطر عليها فَتُحي الأرض بعد موتها.

الإنسان الذي ميزه الرزَّاق بالعقل يفكر ويتذكر ويستقرئ ويستنبط ويخطط ويقوِّم ويستنتج حتى يتبين ما يجب ويُقْدم على فعله أو عمله، ويتبين ما لا يجب ويحيد عنه أو يبتعد ويفكر في البديل الأنسب.

الشيء الثاني رزقه الضمير: الضمير حاسة مترتبة على حاسة العقل الذي رزق الله به العباد قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها}[١٠٠٨] ولذا فالضمير يتكون من مجموع القيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية التي تُهذِّب الأخلاق، فهو الضابط للسلوك

[١٠٠٦] الأنفال، ٢٢.

[١٠٠٧] البقرة، ١٦٤.

[١٠٠٨] الحج، ٤٦.

وفقا لما ترشد إليه الأديان والقيم الإنسانية وأعراف المجتمع، وهو الذي له علاقة بذاكرة التاريخ وما ينبغي أن يكون من أجل رضاء يستوعب الآخرين في حدود القيم والفضائل المُرضِيَة لضمير المجتمع.

هذه الحاسة المميزة للخلق الإنساني هي التي تجعله يتألم من ارتكاب الأعمال المشينة للدين والأخلاق والقيم، وهي التي تجعله يغضب من أجل الكرامة ويثأر.

الضمير بيت التقوى، فالذي يمتلك ضميرا مدركا لما يجب ولما لا يجب مع وافر التقدير لا يُخِيفَك في شيء إن كنت على الحق، وإن لم تكن على الحق فتكون له مع الشدة قوة وثبات لا يحيده حائد عنه إلا حُجَّة وتقوى قال تعالى: {فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تعقلون}[١٠٠٩] وقوله تعالى: {ولكم في القصاص حياة يا أولي اللباب لعلكم تتقون}[١٠١٠]. فأولي الألباب هم المؤمنون أصحاب الضمائر بالقلوب لا بالأفواه مصداقا لقوله تعالى: {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم}[١٠١١] وقوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}[١٠١٢]. وقوله عز وجل: {ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم}[١٠١٣].

الضمير رزق نافع من الرزَّاق الأعظم إلى الرزَّاق بالإضافة ليكون عادلا ومعتدلا مع ما يستمع إليه ومع ما يقوله أو يفعله، فالضمير هو الذي به يتمكن الخليفة من حمْل المسؤولية، وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباء. ولهذا فمن لا يرزقه الرزَّاق الأعظم بضمير نافع لن يكون قادرا على حمل المسؤولية وتحمَّل أعبائها الجسام.

[١٠٠٩] المائدة، ١٠٠.

[١٠١٠] البقرة، ١٧٩.

[١٠١١] آل عمران، ١٦٧.

[١٠١٢] الحج، ٤٦.

[١٠١٣] الحجرات، ١٤.

الشيء الثالث رزقه القامة السوية: قال تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[١٠١٤] في أحسن تقويم تعني في أحسن صنعة يمشي سويا متميزا بالقامة والبهاء ليس كمثله شيء مما خلق من المخلوقات الأخرى التي تمشي مُكبة على وجوهها أو تزحف على بطونها.

قال تعالى: {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}[١٠١٥] لماذا الغرور أيها الإنسان وأنت تعلم أن الحياة الدنيا حياة متاع وغرور {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[١٠١٦] واتقِ الله الذي خلقك فسواك فعدلك واتق الله الذي رزقك بالقامة السوية ليميزك عما خلق كما ميزك بالعقل والضمير الذين بهما تعرف وتدرك وتبحث وتتذكر وتفكر حتى تتبين الحق من الباطل.

قال تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في كبد}[١٠١٧] في تقديرنا (في كبد) أي خُلق ونحن نعلم بألم والديه ومن لهم علاقة به كلما تألم وذلك لإحساسهم بحاله وما يلم به من مرض أو حاجة إن لم تُشبع، ويقول القرطبي في كبد قائم في خلقه في وسط بطن أمه وهو مستوي القامة[١٠١٨].

الشيء الرابع رزقه الذوق الرفيع: الذي به يتذوق المعنى والدلالة وبه تُرسم الصور البلاغية وتُستمد لتتجسد في القول الحق والفعل الحق والسلوك الحق. قال تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}[١٠١٩] أي لا جزاء عظيم للإحسان إلا المكافأة عليه بالجنة وقوله تعالى: {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه}[١٠٢٠] الذين يمتلكون حاسة الذوق الرفيع يميزون بين الحسن والأحسن، والجيد والأجود وكذلك الأكثر جودة، ولذا فبذوقهم يتمكنون من الاختيار الأفضل والأروع والأكثر نفعا.

[١٠١٤] التين، ٤.

[١٠١٥] الانفطار، ٦ . ٨.

[١٠١٦] لقمان، ٣٣.

[١٠١٧] البلد، ٤.

[١٠١٨] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء العشرون، ص ٦٣.

[١٠١٩] الرحمن، ٦٠.

[١٠٢٠] الزمر، ١٨.

قال تعالى: {فإذا انشقت الأرض فكانت وردة كالدهان}[١٠٢١] صورة جمالية ترتسم في ذهن المتذوق حتى تمده بالذوق الرفيع وتجعله من الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك.

وقال عز وجل: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تُردنَّ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنَّ وأسرحكنَّ سراحا جميلا وإن كنتنَّ تردنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكنَّ أجرا عظيما}[١٠٢٢]. وقال تعالى: {فمتعوهنَّ وسرحوهن سراحا جميلا}[١٠٢٣]

فلننظر إلى البناء الذوقي للكلمة والجملة والصورة والأسلوب والمعنى والدلالة حتى نتبيِّن وندرك المقدرة الذوقية التي رزقنا وميزنا الله بها، ولنتعظ فيما نقول وما نعمل ونتقي الله ربا.

رزقنا الله تعالى بالذوق معاملة رفيعة وحسنة مثلما الدين معاملة رفيعة وحسنة، قال تعالى: {وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفَّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}[١٠٢٤]. تحتوي هذه الآية على مجموعة من الأحكام العادلة للقصاص، حتى لا يَظلم أحد أحدا. وهذا ما فرضه الله تعالى على اليهود في التوراة أي أن النفس لا تقتل إلا في مقابل نفس قتلتها، ولا تُفْقَأ عينٍ إلا في مقابل عينٍ فقأتها، وهكذا إلا إذا عفى أحد عن أحدٍ فَيُكفِّر الله عنه ذنوبه.

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ}[١٠٢٥]. إنها منظومة من القيم مبثوثة بذوق رفيع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الصور الجمالية ما يُمكِّن

[١٠٢١] الرحمن ٢٧.

[١٠٢٢] الأحزاب، ٢٨، ٢٩.

[١٠٢٣] الأحزاب، ٤٩.

[١٠٢٤] المائدة، ٤٥.

[١٠٢٥] الغاشية، ٨ ، ١٦.

المبدعين من رسم لوحة أو كتابة قصة أو رواية لتنسج علاقة صلة جمالية بين المؤمن وما بشر به في الجنة.

قال تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سُطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر}[١٠٢٦].

وعليه فبهذه الأشياء الأربعة تميَّز الإنسان بما رزقه الله من خصوصية عن غيره من الحيوانات والكائنات الأخرى، وتماثل معها في حواسه الأخر فهي تبصر كما يبصر وتسمع كما يسمع وتشم كما يشم وتذوق المحسوس بطعمه كما هو يذوقه محسوسا بطعمه وهكذا للحيوان عاطفته مثلما للطير عاطفته وللإنسان عاطفته. ولأن الإنسان قد رزقه الرزَّاق المطلق العقل والضمير والقامة السوية والذوق الرفيع فهو يختلف عن الحيوانات والكائنات الأخر في كونه يُحب ويكره، وهي لا تحب ولا تكره كما هو يحب ويكره، فهي فقط تثور وتهدأ، ولهذا فهي قابلة للترويض من قِبل المدركين لأساليب الترويض بما ميزهم به تعالى من مدركات عقلية، وبما اكتسبوه من مهارات فنية وخبرة وتجربة.

إذن مع أن الإنسان قد ميزه تعالى على جميع ما خلق إلا أنه شاركه في بعضها الآخر الذي لا يؤثر على حسن التصرف وإدراك المجردات، ولذا فهو يشاهد كغيره لِما يشاهد وفي مقابل ذلك أنه يلحظ عن عمدٍ وغيره لا يلحظ كما هو يلحظ وإن لحظ فلا يلحظ إلا مصادفة.

وتوجد علاقة ترابط بين المشاهدة والملاحظة تتمثل في أنَّ الملاحظة عميقة وواسعة، وتحتوي على الاستنتاج العقلي، أما المشاهدة فتحتوي على المعاينة بالعين للشيء، وذلك عن طريق تفحّصه ككل وكجزء بنظرة نافذة. أي أن المعاينة بالمشاهدة تتم للأشكال والصور والأجسام، وحركتها والتعرف على مكوِّنها (الأجزاء المتكونة منها) بالتعرف على كل ما يمكن تصويره أو رسمه أو أنه في حالة حركة وامتداد.

فإذا شاهدنا مباراة لكرة القدم، نشاهد أمامنا جماعتين في وسط الملعب بنوعين من الملابس الرياضية، ومرميين للتهديف، بوسطهما حارسين وجمهوراً متحمساً، ونشاهد حركة اللاعبين

[١٠٢٦] الغاشية، ١٧ . ٢١.

وحركة تسجيل الأهداف. هذه المشاهدات التي تترتب عليها الملاحظات، والتي تُمكّن الملاحظ من معرفة درجة التعاون بين اللاعبين، والمهارات الفنية لهم ولياقاتهم وقدرات تحمّلهم، وعلاقتهم بالجمهور وإصرارهم على الفوز، ويلحظ أيضا علامات الهزيمة، والفوز أو الإحباط في نهاية المباراة على أفراد الفريقين والمشجعين والمدربين حسب النتيجة لكل فريق. ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يشاهد الغضب أو الهزيمة ولا الحركة، هذه تُلحظ، أما الذي يُشَاهَد فهو الغضبان أو المهزوم أو المتحرك، ومن يخالفنا في الأمر نقول له إن كنت تشاهد الغضب أو الهزيمة أو الحركة فارسمها إن استطعت، حينها يجد نفسه أمام شيء لا يُرسم ولأنه لا يُرسم لا يشاهد ولكنه يُلحظ ملاحظة.

تعتمد المشاهدة على ما تراه العين، ولكن ليس كل ما تراه العين هو حقيقة، وذلك لأن الظاهر قد لا يكون الباطن، ولهذا فالاعتماد على المشاهدة في القضايا العلمية، مسألة غير يقينية فيصعب التسليم بمصداقيتها قال تعالى: {وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى}[١٠٢٧] فمن مشاهدة سلوكهم قد تعتقد أنهم في حالة سكر، ولكن بملاحظتهم عن قرب، قد لا يكونون سكارى مع أن حركتهم فيها شبه من هذا الأمر.

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}[١٠٢٨]. وأيضا قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}[١٠٢٩]. فمن خلال المشاهدة كان يعتقد القمر هو الرب ولما غاب لاحظ أن القمر يفتقد لصفة الرب الدائم هو كما هو سبحانه جل جلاله وهي خاصيّة البقاء دون غياب وذلك بوحدانية الثبات، واعتقد مرة أخرى بأن الشمس هي الرب فلما غابت عن المشاهدة ليلا، لاحظ أنها تغيب وهذه الصفة لم تكن من صفات الله عز وجل وذلك لانعدام خاصية البقاء، لأنه الحي الذي لا يغيب.

[١٠٢٧] الحج ، ٢ .

[١٠٢٨] الأنعام، ٧٧.

[١٠٢٩] الأنعام، ٧٨.

وعليه تكون الملاحظة أكثر أداة لإثبات الحقائق والمصادق، وتتكون الملاحظة من عمليات عقلية متداخلة إلى جانب توليد المشاهدات، فالعمليات العقلية هي: تلك التساؤلات والافتراضات أو الانتقادات والتوقعات، وكيفية تفادي المواقف، وكيفية إدراكها واختيار الأساليب ومراعاة الظروف المناسبة.

أما توليد المشاهدات فهو: الانتقال من المشاهد إلى الأسرار التي وراءه والعلاقات المكونة لعناصره، قال الله تعالى: {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض}[١٠٣٠]. إنه أمر لمشاهدة آياته في السماء وهي النجوم والكواكب من خلال النظر إليها، يمكن مشاهدة حركتها وضوئها الجميل، وبالمشاهدة يلحظ أن هناك علاقة، وأن هناك قدرة وراءها، وأنها علامات يمكن الاهتداء بها في تحديد الاتجاهات ليلا ونهارا وفي البر والبحر، وهذه مشاهدات تولَّدت من خلال الملاحظة والمشاهدة، وهكذا تتولد المشاهدة من المشاهدة، وتتولد الملاحظة من الملاحظة، فمن مشاهدة الشمس يشاهد الشروق والغروب، ومن مشاهدة القمر يشاهد الشمال والجنوب، ومن مشاهدة الجبال والمخلوقات يلحظ أن من ورائها خالق، وهكذا تتولد الفكرة من الفكرة لنلحظ أو نشاهد ما يترتب على الفكرة وتوليدها.

ولذا فالفرق كبير بين المشاهدة التي تقتصر على البصر والرؤية العينية، وبين الملاحظة التي تعتمد على المدركات العقلية الواعية قال تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر}[١٠٣١]. النظر هو المشاهدة بالعينين أي فلينظروا إلى الصفة التي عليها الإبل من حيث المظهر التي خُلقت عليه، أما الكيفية التي بها خلقت فهذه لا يمكن مشاهدتها فهي تدرك إدراكا وتُلحظ ملاحظة، ولذا فأمر النظر إلى الكيفية التي عليها خُلقت الإبل أمر إعجازي مثلها مثل الكيفية التي بها رُفعت السماء بغير عمد ونصبت الجبال وسطحت الأرض، فمع أن الإبل تشاهد والسماء تشاهد والجبال تشاهد والأرض تشاهد إلا أن الكيفية التي عليها أو

[١٠٣٠] يونس، ١٠١.

[١٠٣١] الغاشية، ١٧ ـ ٢١.

الحالة التي عليها خلقت لا يمكن أن تشاهد بالمطلق، ولكن المتمعن فيها يلحظ الإعجاز الخلقي فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهكذا مصادر الرزق المباشرة تشاهد أولا وتلحظ ثانيا، فالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحب والغيوم تشاهد أولا ثم تلحظ ثانيا إن كان هناك أثر على الرؤية سالبا أو موجبا، أو أنَّ هناك خسوفاً أو كسوفا.

أما العلاقات فلا يمكن مشاهدتها فهي التي تُلحظ دون أن تشاهد، فالأبوة والأخوة والعمومة والجيرة والزواج والطلاق والحب والكره والتعاون والصدام والتكيف والتوافق. كل هذه القيم لا يمكن مشاهدتها وإلا هل هناك من يشاهد الأبوة والتعاون والتكيف؟. هذه لا يمكن مشاهدتها فالتي تُشاهد هي العناصر ذات العلاقة بها فالأب إنسان يشاهد كمفردة مستقلة بذاته والأم كذلك والأبناء أيضا، ولكن العلاقة التي بينهم هي التي جعلتنا نلحظ سلوكا أبويا أو أموميا أو أخويا بين العناصر المكونة للأسرة، ولهذا فالأسرة لا يمكن مشاهدتها ويمكن ملاحظتها فالذي يشاهد هم الأفراد المكونين لها، وهؤلاء يشاهدون بشرا فقط. ولهذا فالعلاقات لا تُرى بالعينين السليمتين مثل حال التعاون الذي لا يمكن أن يشاهد، فالتعاون جهود تُبذل ويستدلُ عليه استدلالا، وهكذا التكيف الذي هو عبارة عن تقديم تنازلات من أجل التأقلم مع الظروف وفي هذا الأمر مثل حال السجين الذي بالزمن يصبح متكيفا مع السجن، ولكنه لا يمكن أن يكون متوافقا معه فالتوافق لا يتم إلا بالرضاء وبدون تنازلات أما التكيف فلا يتم إلا بها.

وعليه فالرزَّاق الحق في الحياة الدنيا لا يمكن مشاهدته لأنه لم يكن مادة، ولذا فالمادة هي التي تشاهد أما الله تعالى يُدرك ويلحظ في خلقه وفي أرزَّاقه وفي ووحدانيته وجبروته وكبريائه وعظمته ورحمته، ولهذا فمن طبيعة الخلق أن نرى الهلال أول كل شهر ونرى الشمس كل يوم ولكننا لا يمكن أن نرى خالقها جل جلاله. قال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول

المؤمنين}[1032] الجبل مادة قابلة للمشاهدة ووجود الله قد لوحظ من القوة التي دكت الجبل دون أن تخضع للمشاهدة. وهذا الأمر هو الذي جعل موسى عليه الصلاة والسلام بعد أن أفاق من صعقه يقول: (سبحانك تُبت إليك وأنا أول المؤمنين).

وقال تعالى: {أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بضع يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أنَّ الله على كل شيء قدير}[1033].

يقال رجل عظيم وفيه نبوة ويقال على الأغلب الرجل الذي مرَّ على القرية الخاوية على عروشها هو عُزير وهو الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه وسأله: كم لبثت؟. فظن أنه لبث يوما أو بضع يوم فقط. ولما شاهد طعامه وشرابه وهو لم يفسد بالرغم من الزمن الطويل، وشاهد هيئة حماره وعظامه ولاحظ كيف تعود إليها الحياة بعد أن جُمِّعت واكتست لحما حتى أخذ الحمار هيئته وصورته التي كان عليها قبل المائة عام التي قضاها ميتا حينها أدرك أنه الحق وأن الله على كل شيء قدير.

وعليه في هذه الآية مجموعة مشاهدات ومجموعة من الملاحظات، فالمشاهدات هي التي تمت رؤيتها ماديا وهي الطعام والشراب والهيئة البالية التي كانت صورة الحمار عليها والعظام دون أن يكسوها اللحم، ثم مشاهدة الحمار حيا من جديد هو كما هو.

أما الملاحظات فهي: إدراك الزمن الذي جعل من العظام بالية وهيئة الحمار لا يمكن أن تكون هيئة الحمار الميت التي اختلفت عن هيئة وشكل الحمار وهو حي، فلو لم يمضي عليه زمن طويل ما كان على الهيئة التي كان عُزير عليه السلام شهيدا عليها. ولهذا شاهد عُزير الحمار ميتا ولا حظ في الوقت ذاته انبعاث الحياة فيه، ولذا فإنه قال: (أعلم أنَّ الله على كل

[1032] الأعراف، ١٤٣.

[1033] البقرة، ٢٥٩.

شيء قدير). فأعاد الله سبحانه وتعالى الحياة إليه وإلى رزقه وإلى حماره وذلك بسبب تقواه ويقينه بأن الله على كل شيء قدير.

قال الشاعر:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا سيأتيك بالأرزَّاق من حيث لا تدرى
فكيف تخاف الفقر والله رازق فقد رزق الطير والحوت في البحرِ
ومن ظن أن الرزق يأتي بقوة فما أكل العصفور رشفًا مع النسرِ
ترحل عن الدنيا فإنك لا تدري إذا جنَّك الليل هل تعيش إلى الفجرِ؟
فكم من صحيح مات من غير عِلةٍ وكم من سقيمٍ عاش حينا من الدهرِ
وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
يا جامع المال ما أعددت للحفر هل يغفل الزاد من أضحى على سفرِ[١٠٣٤]

أما ابن القيم فقال في نونيته:

وكذلك الرزَّاق من أسمائه والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله نوعان أيضا دان معروفانِ
رزق القلوب العلم والإيمان والرزق المعدِ لهذه الأبدانِ
هذا هو الرزق الحلال وربنا رزَّاقه والفضل للمنانِ
والثاني سوق القوت للأعضاء في تلك المجاري سوقه بِوزانِ
هذا يكون من الحلال كما يكون من الحرامِ كلاهما رزقانِ
والله رازقه بهذا فاعتبرِ ليس بالإطلاق دون بيانِ[١٠٣٥].

الرزَّاق الحق هو الذي يرزق خلقه دون أن ينقص شيء مما يرزقهم به، بل إنه للرزق يزيد، ولهذا فالله ذو القوة المتين وهو خير الرازقين مصداقا لقوله تعالى: {وذكِّر فإن الذكرى تنفع

[١٠٣٤] مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة . مكتبة العلم، ١٩٩٩، ص ٢٦٨.

[١٠٣٥] النونية، ١٤٧.

المؤمنين وما خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعِمون إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين}[١٠٣٦]. وذكِّر: جاءت مطلقة دون أي تحديد لما ينبغي أن يُذكِّرَ به، أي ذكرهم يا محمد بما يعظهم إلى ما هو خير، فبالتذكُّر لعلهم يسترجعون القصص والأمثال والمعجزات القرآنية ويتفكرون في خلق السماوات والأرض حتى يتبينوا أنها لم تخلق باطلا، ولعلهم يتذكرون الحق ويتعظون فجادلهم بالتي هي أَحْسَنُ وأَحْسِنْ كما أَحَسَنَ الله إليك، وبشرهم حتى يهتدوا ولا تُكره أحدا منهم ونبئهم بالثواب والعقاب والاستغفار والرحمة وعمل الخير، وذكرهم بأن عذابي شديد وإني غفور رحيم على من تاب، ولهذا فما عليك إلا أن تُذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

وقوله (وما خَلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) جاءت للتخصيص المطلق، أي تخص الثقلين ولا تعم غيرهما، أما كونها مطلقة فهي لم تستثنِ أحدا من الجن والإنس فهما المأموران بالعبادة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[١٠٣٧].

أمَّا قوله: (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعِمون) هذه الآية مُسلَّمة فهو الرزَّاق المطلق الذي بيده الخير، وهو خالق الأرزَّاق، وهو خير الرازقين، وهو مالك الملك، ولأنه كذلك فهو لم يكن في حاجة لأحد من الثقلين ولا لكليهما، بل هم الذين في حاجة إلى رزق منه. وما يعتقده البعض بأنهم يملكون الرزق، فليسأل نفسه هل هم السابقون على الرزق أم أن الرزق هو السابق عليهم؟. وهل يمكن أن يكون الرزق لو لم يكن الرزَّاق سابق عليه؟. أي هل هم جاءوا ثم أتى الرزق عليهم، أم أن الرزق هو الذي أتى مسبقا وهم الذين أتوا عليه؟. ولذلك قال تعالى: (إنَّ الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين) أي أنه السابق على كل سابق وهو مالك القوة التي أوجدت الرزق الذي منه يرزقون.

[١٠٣٦] الذاريات، ٥٥، ٥٨.

[١٠٣٧] التوبة، ٣١.

وقوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[١٠٣٨] الخرج هو العطاء، ولهذا فعطاء الرزَّاق أكبر من أي عطاء يمكن أن يظنه البعض بأنه عطاء كبير، ولذلك مهما أعطاك البعض من عطاء فلا تجعلهم يمنون عليك أو تطمع في غير وجه الله فعطاء ربك الرزَّاق الأعظم أكبر، إنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعزُّ من يشاء ويذلُ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولأنه هو جل جلاله كذلك فهو خير الرازقين.

وعليه فإن خير الرازقين يرزق من يشاء كيف يشاء متى ما يشاء وبدون حدود، أمَّا الرزَّاق بالإضافة فهو الذي يرزق من يشاء بإذن من شاء. ولذا فالخليفة الرزَّاق هو الذي لا يستطيع أن يرزق بدون حدود، وذلك لأن ما يملكه له بداية ونهاية أما ما يملكه الرزَّاق الأعظم يرتبط بذاته العلية التي ليس لها بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر سبحانه جل جلاله.

ولذا فإن الخليفة الرزَّاق كلما رزق أحداً مما يملك من رزقٍ نقص ما عنده إن لم يرحمه الرحمن الرحيم بالمزيد، من حيث يحتسب أو من حيث لا يحتسب، فالله يرزق من يشاء من غير حساب هذه قُدرة إلهية وخاصية ربانية لأجل أن يتم ارتزاق الآخرين منه دون منَّة، فمن يرزقه الله برزق حلال عليه أن يتذكر فضل الله عليه ليجعل فيه نصيباً للآخرين الذين هم في حاجة والأقربون أولى بأن يجود عليهم مما رزقه الله من فضله. ومن يغلق أبواب الرزق على الآخرين يغلق الله عنه أبواب الرزق والرحمة ويجعله من الخاسرين، ولهذا فالقاعدة (ارزق تُرزق، وارحم تُرحم).

وبناء على هذه القاعدة تضرَّع عيسى عليه الصلاة والسلام إلى ربه فقال في الكتاب العزيز: {قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين}[١٠٣٩] فاستجاب له خير الرازقين بالمائدة الآية التي لم تكن لمن

[١٠٣٨] المؤمنون، ٧٢.

[١٠٣٩] المائدة، ١١٤.

سبق ولن تكون لمن سيأتي من بعد عيسى وقومه الذين رزقهم الله في يوم عيدهم بها سعادة وفرحة.

وفي غير محل للمقارنة فالفرق كبير، بين من يعطي ولا يمنن ولا يندم ولا تُسوِّل له نفسه، وبين الذي يعطي ويمنن أو يعطي ووسوسة الشيطان في نفسه لم تفارقه في بعض الأحيان، وحتى إن أعطى وفارقته النفس الوسواسة فهو لم يكن في محل مقارنة.

صفات الله صفات حسان تتداخل حتى الكمال وتتعدد للاختصاص والكثرة فالرزَّاق لو لم يكن وهابا ما رزق، والوهاب لو لم يكن قهارا ما وهب، والقهار لو لم يكن غفارا ما قهر، وهكذا الغفار لو لم يكن مصورا ما غفر، والمصور لو لم يكن بارئا ما صور، والبارئ لو لم يكن خالقا ما برأ، والخالق لو لم يكن متكبرا ما خلق، والمتكبر لو لم يكن جبارا ما تكبّر، والجبار لو لم يكن عزيزا ما تجبر، والعزيز لو لم يكن مهيمنا ما عزّ، والمهيمن لو لم يكن المؤمن ما هيمن، والمؤمن لو لم يكن السلام ما كان مؤمنا، والسلام لو لم يكن القدوس ما كان سلاما، والقدوس لو لم يكن الملك ما كان قدوسا، والملك لو لم يكن رحيما ما كان ملكا، والرحيم لو لم يكن الرحمن ما كان رحيما، والرحمن لو لم يكن الله ما كان رحمنا. ولذا فمهما تعددت الصفات فالله واحد لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}[١٠٤٠]. يقصد بالدابة كل المتحركات المخلوقات ما دون الإنسان، التي لا تعقل ولا تفكر ولا تتذكر حتى ينفعها ويفيدها فيما تُفكر أو تتذكر بشأنه، ولهذا فإن خالقها خلق لها الرزق ثم خلقها لتعيش عليه، فهي تُرزق رزقا، ولا تملك مُلكا. وحتى أن ادخرت في بيوتها أو في أحشائها فهي لم تدخر إلا مما رزقها الله منه. ولأنها لا تعقل كما الخليفة يعقل فهي لم تستثمر ما تدَّخر، بل فقط لتستهلكه وهذا فارق بين الخليفة الذي ميزه الله بما ميزه به من صفات ليعقل ويتعلم ويُطوِّر ويستثمر وليدرك العلاقة بين الحاجة وأساليب مشبعاتها، ويتذكر ماضيه ويعيش حاضره ويفكر في مستقبله ويعمل من أجله.

[١٠٤٠] هود، ٦.

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكُّر مع أنه قابل للتفكُّر، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، مما يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يُحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غداً لا محالة، وغداً قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشرب، ونأكل، ونفكِّر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، وندَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل. ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمانٍي، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا.

وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نُفكّر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا نعمل، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا نحن في هذا الوقت نطرح هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم ينبغي أن يقتصر عليه؟.

إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر، نتذكر الماضي، وننتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي أننا نُعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأتِ بعد؛ فكل هذه وتلك الأسئلة تجعلنا نتذكر كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}[١٠٤١]، وكذلك يقول تعالى: {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون}[١٠٤٢].

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أن هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الزوجين في الزمن الآن يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضراً في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحاً في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى: {يوم تجد كل نفس ما عملت

[١٠٤١] الحشر، ٢١.

[١٠٤٢] الأعراف، ١٧٦.

من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}[١٠٤٣].

تؤكد هذه الآية على أن كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تُفتح بعد الفتحة النهائية، فهي في الحياة الدنيا لا تُفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيراً لكي يكون لنا مستقبلاً خيِّراً. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تمسى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، {يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوهُ واللهُ على كُل شيء شهيد}[١٠٤٤]. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وُجِد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصى من قبل الرزَّاق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضراً في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون (٩٨) حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي (٩٨) حبة، بل يكون عدد الحبات المتبقية ٩٩ حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو (٩٩) حبة عندما

[١٠٤٣] آل عمران، ٣٠.

[١٠٤٤] المجادلة، ٦.

تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضراً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة آل عمران: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[١٠٤٥]. الذين آمنوا هم الخلفاء في الأرض، وذلك لمقدرتهم على التمييز بين الحلال والحرام، ومقدرتهم على اتباع ما أحل لهم الرزَّاق من رزقٍ، ومقدرتهم على تجنب ما حرَّم عليهم من رزق في الدار الدنيا، وذلك لقياس ومعرفة درجات إيمانهم والتزامهم بما يأمر به وبما ينهى عنه ليتجاوز بهم إلى ما هو أفضل في الدار الآخرة.

قال تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[١٠٤٦]. التفضيل في الرزق جاء للتمييز بين من أُشبِعت حاجته وبين من لم تُشبع حاجته. والرزق يتعدد وله تضاد في عدم العطاء، فالسعة رزق في مقابل عوز، والحرية رزق في مقابل عبودية، والزواج رزق في مقابل وِحدة، والبنين والحفدة رزق في مقابل عقم، ونيل الطيبات رزق في مقابل الحرمان والحاجة.

قال تعالى: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يُنزِّل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير}[١٠٤٧] فلو بسط الله الرزق ونشره لازداد عدد الطاغين بغير حق ولانتشر الفساد في الأرض ولازداد عدد المُبذِّرين والعاصين الذين لا يُقدِّرون النعمة وفضائل الله عليهم، ولو

[١٠٤٥] البقرة، ١٧٢.

[١٠٤٦] النحل، ٧١ ، ٧٢.

[١٠٤٧] الشورى، ٢٧.

استووا في الرزق لأنعدم التنوع وانعدمت الطاعة، وكثرت المعاصي بين الناس ولتنازعوا واختصموا بما يتباهون به على بعضهم البعض من زينة ومظاهر لا تليق بمن يُراد له أن يكون خليفة في الأرض. ولذا فالرزَّاق هو الذي يُنزِّل بمشيئته الرزق على من يشاء ليكون غنيا أو يحجبه عمن يشاء ليكون فقيرا. ولذلك ينزِّل الرزَّاق الرزق تنزيلا على فترات من الزمن وعلى من يشاء من عباده؛ ولأن الله يعلم بأمر عباده الذين منهم من لو أفاض عليه برزق لكفر بما رُزق به، ومنهم من لو آتاه رزقا لآتاه على وجهه من أجل فعل خير وإحقاق حق.

حظ العبد: أنه خُلِق عاقلا ليدرك أن وجود الرزق الواسع سابق على وجوده وأن الحصول عليه أو نيله لا يتم إلا بالعمل فليعمل ويبحث حتى يكتشف مصادر رِزقٍ ليستمد منها رزقه سواء كانت مصادر أساسية كالأرض والسماوات العلا أو من المصادر المستمدة منهما كالنبات والمياه والكائنات والجماد على سطح الأرض أو من باطنها، أو ما بينها وما بين السماء.

أن يتقي الله ربه فيما رزقه من نعم وأن يتعظ بالموعظة الحسنة فالأرزَّاق تصان ولا يُعبث بها وأن يتصدَّق ويتزكَّى مما رزقه الله، وأن يعمل حتى يُرزق ويرتزق من ورائه آخرون.

وحظ العبد أيضا أن الرزق متاح فوجوده سابق على وجود المخلوق ولهذا فليعلم الإنسان أن الرزق متاح وهو وفرة إلا أنه يستوجب العمل من قبل القادرين فإن عملوا سيجدونه وفرة تُشبع الحاجة وتزيد بكثير. وليعلم أن الرزق نوعان:

. الرزق المباشر: من الماء والنخيل والرمان والعنب والزيتون ومن كل شجرة نافعة مثمرة، ومما تُنبت الأرض من بقول وحبوب وفاكهة، ومن الطير والحيوان الحلال ومما يُخرجه من البحار وأنهار الأرض ومحيطاتها.

. والرزق غير المباشر: هو الذي يستمده الإنسان مما أعطاه الله من رزق مباشر من الأرض وما يُستخرج منها من ذهب أسود وما يشتق منه وكذلك من المعادن والحديد والنحاس والفضة والذهب وغير ذلك كثير فليُنقب ويبحث ويُفكِّر حتى يرزقه الرزَّاق بالفكرة التي تمده بالرزق الواسع والنافع.

الخليفة هو الذي يؤمن بأن ما بين يديه من رزق هو من الرزَّاق العظيم، وهو الذي يؤمن بالإنفاق على ذوي الحاجات مما رزقه، ويعلم أن ما ينفقه من رزق فإن الله يخلفه مصداقا لقوله تعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين}[١٠٤٨].

ومن حظ الخليفة أن إخراج المال الحلال وإعطائه صدقة أو زكاة أو هبة لمن هم في حاجة ماسة له يُزكي المال والنفس ويطهرها بالرحمة من الرحمن الرحيم. ولذا فمن أراد طهارة فليتطهر فإن أبواب الرحمة واسعة فالصدقة كما يقولون رادة للبلية.

وعلى العبد أن يميز بين الاتكال الذي يجعله في حالة اعتماد على غير الله، وبين التوكل الذي لا يجعله معتمدا إلا عليه، ولهذا يعمل ويكد ويجتهد في سبيل نيل رزقه حلالا طيبا.

فالإنسان في أغلب الأحيان نجده طائعا لرب العمل وطائعا لمن قدم له إحساناً أو أعطاه صدقة أو قدَّم له طعاما لسد جوعه مؤقتا، إنها طاعة مع خوف وطمع في غير الله، يطيع ربَّ العمل ليحصل على أجرة يرتزق منها، ويطيع الحكومة لترضى عنه ولا تضايقه في أحواله، ويتملق البعض ليفوز بوظيفة أو ترقية. كل هذه الطاعات والتملقات لأجل أن لا يُقطع رزقه بالخصم أو بالفصل أو بما هو أكبر من ذلك بكثير. مثل هؤلاء ليس من الذين يراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض؛ فالخليفة هو المؤمن حقا، وهو المتوكل على الرزَّاق الأعظم الذي لا يَكلُّ ولا يَملُّ من العطاء، ولا يعطي لينال الرضا، بل يعطي حتى يجد الراضين عنه، فليؤمن العبد بالرزَّاق، ويرزق مما رزقه تعالى من هم في حاجة ولا يغلق أبواب الرزق والرحمة في وجوه من هم في حاجة، فإن غَلَّقَهَا أغلق الله عليه أبواب رزقه الواسع. وليتذكر قوله تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يُشركون}[١٠٤٩]. قال تعالى: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب}[١٠٥٠].

[١٠٤٨] سبأ، ٣٩.

[١٠٤٩] الروم، ٤٠.

[١٠٥٠] الطلاق، ٢.

والرزق فيه إجمال عام مطلق غير مقيد، فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه الله لخلقه أو ملكه لأحد منهم، أو أنه مقيد في مسمى هذا الرزق كما في قوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[1051] فالإنفاق لا يكون إلا من الطيبات والذين ينفقون جانبا مما يرزقهم الله به فى وجوه الخير والبر، وقوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أجل قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}[1052] وهنا أيضا الرزق مطلق غير مقيد بنوع، حيث يشمل الأموال والزروع والأنعام وحتى الكلمة الطيبة هي من الرزق، وقوله تعالى: {وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا}[1053]، وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك.

وبما أن الله تعالى هو الواهب الرزَّاق فقد ضمن للخلق رزقهم كما خلقهم، وإن كان الرزق من الرزَّاق ولكنه وجب على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ويعزم في التوكل، فمن روض على ذلك نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى، كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل، فتمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب آخر، فالذي خلق الخلق ضمن رزقهم، وهذا لا يأتي على موعد كان مضروبا للمرزوقين بما يرد عليهم من الأرزَّاق العجيبة التي لم تكن في ظنهم وحساباتهم، فقد قال الله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}[1054] وفى السماء أمر رزقكم وتقدير ما توعدون من جوانب عديدة، وهي أن أسباب الرزق ليست بيد أحد، وإنما هي في السماء، وسواء أكان مقصود بها الغيث والماء الذي يحيا به الخلق، أو أرزَّاق أخرى مثل العلم والهدى والرشاد والبنين، فكل ذلك من أنواع الرزق التي هي في السماء، فإن كان هذا الرزق مقدرا بالغيث الذي يحمله السحاب فلا سلطة لكم عليه، وإنما أمره إلى الرزَّاق يسقيه من يشاء من خلقه، وإن كان من الأنواع الأخرى فقد سبق به الكتاب، ومضى لكل مخلوق رزقه

[1051] – البقرة ٣

[1052] – المنافقون ١٠

[1053] – النحل ٧٥

[1054] – الذاريات ٢٢، ٢٣

وأجله، لذلك ترى العقلاء من الخلق لا يسألون الله تعالى الرزق، وإنما يسألونه تيسير هذا الرزق والبركة فيه لأنهم علموا أن الله تعالى قد كتب لكل مخلوق رزقه كما كتب عليه أجله، وهذا معنى القناعة في الرزق. ومع هذا فإن الإنسان يجب عليه أن لا يكون منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب، فترك التوكل والاهتمام بالرزق غاية الضعف والقصور، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب، ولذلك فإننا نرى أحمقا مرزوقا وعاقلا محروما، ومن هذا الأمر أراد الرزَّاق أن يدل على نفسه، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال أبو تمام:

ولو كانت الأرزَّاق تجري على الحجا ... هلكن إذن من جهلهن البهائمُ[١٠٥٥].

وليس الرزق من الرزَّاق يقتصر على جوانب مادية دون المعنوية، وليس بالضرورة أن يكون رزقا مباشرا، فالأنعام والإحسان وغير ذلك من الحفظ واللطف، فهذا من إحسانه ومن رزقه فإنه بشهوده يحفظه من الهلاك فكل حال ينتقل فيه العبد فهو من إحسان الله تعالى وهذا من أعلى مراتب الرزق، إذ هو الذي نقله تعالى ولهذا سُمَّى الأنعام إحسانا فإنه لا ينعم عليك بالقصد إلا من يعلمك ومن كان علمه عين رؤيته فهو محسن على الدوام فإنه يراك على الدوام لأنه يعلمك دائماً وليس الإحسان في الرزق موقوفا على الطعام والشراب والمال والمتاع الذي هو زينة الحياة الدنيا مما فطر عليه البشر من حب هذه الأشياء التي كثيرا من الناس ما يحصرون الرزق فيها وقد قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعام وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[١٠٥٦] لذلك نرى البشر جبلوا على حب الشهوات التي تتمثل في النساء والبنين والكثرة من الذهب والفضة، والخيل الحسان المعلمة، والأنعام التي منها الإبل والبقر والغنم، وتتمثل أيضا فى الزرع الكثير. لكن ذلك كله متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية، وهو لا

[١٠٥٥] – ديوان أبي تمام، ص ٢٤٣.

[١٠٥٦] – آل عمران ١٤

يعد شيئا إذا قيس بإحسان الله إلى عباده فيما أسبغ عليهم من نعم رزقهم بها وهم عنها لاهون لا يدركون قيمتها، ولا يعلمون أنها من الرزق في شيء، فكل ذلك لا يقاس بشيء مما عند الله الذي أعدّه لعباده في الحياة الآخرة من الرزق. فلا ينبغي للناس أن يجعلوا همّهم في هذا المتاع العاجل بحيث يشغلهم عن باقي الأرزّاق التي هي خير من الذهب والفضة مثل الصحة والعافية وهذا الماء الذي ينزله الرزّاق من السماء ليكون رزقا للبشر والشجر والدواب حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٠٥٧] هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وفي هذا الشجر ترسلون أنعامكم لتأكل منه، وتمدكم باللبن واللحوم والأصواف والأوبار والأشعار، وينبت لكم بالماء الذي ينزل من السماء الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي تأكلونها، فبعد أن ذكر الله نعمة رزقه على الناس بتسخير الدواب والأنعام، شرع يذكّر بنعمته عليهم بإنزال المطر وتسخير الكون كله لهذا الإنسان، إن الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو الذي أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون الشجر والنبات، وهذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم بما ذكر من أبواب، ثم إن هذا الماء الذي ينزله الله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات ويجعله رزقا لكم ونعمة منه عليكم، وفيما ذكر من الآيات الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى لأدلة وحججا لقوم لهم عقول تفكر بالرزّاق، وبها يدركون حكمة الله، ويفهمونها حق الفهم ذلك أنه أيضا رزقهم العقل والفهم والحكمة، فالسعيد من استخدم هذا النوع من الرزق في الشكر للرزّاق على أنواع أخرى من الأرزّاق المادية التي يعاش وينتفع بها. ففي إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون فى الرزق الذي أوجده الرزّاق، ولذلك أوجب الله الإنفاق من هذا الرزق الذي هو من خزائن رحمته حتى لا يكون حكرا على أحد فقال تعالى:

[١٠٥٧] – النحل ١٠، ١١

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[١٠٥٨] فالله سبحانه وتعالى جعل الكسب رزقا، وإن بذل الإنسان الكد والجهد والعمل في تحصيله، ذلك أنه رزق أولا الصحة والعافية التي كانت مدعاة لتحصيل الكسب، فجعل كونها رزقا بالأسباب التي أدت إليها، والله الذي يرزقكم من السماء بما ينزل منها من أرزَّاق الأرواح ومن الأرض بما يخرج منها من أرزَّاق الأجسام فهو الرازق الذي بيده هذا الرزق، غير أن الحجب التي يرسلها الله على بعض أبصار عباده، جعلهم لا يدركون إلا مسمى الرزق، ولم يدركوا مسمى الرزَّاق، لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق ثم أمر بالإنفاق مما رزق وقرنه بالإيمان وأخبر أنه استخلفنا في ملكه اختبارا لنا فقال تعالى: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[١٠٥٩] فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كل الكلام فآمنوا وأنفقوا وما يعقلها إلا العالمون المستخلفون فيها بالحق.

ومن أنواع الرزق الذي منحه الرزَّاق لبعض خلقه دون البعض، والذي لا يلتفت إليه إلا أصحاب البصائر، ولا ينتبه له إلا أولوا الألباب، ولا يعلم قيمته إلا من ملك عقلا رشيدا ورأيا سديدا، ألا وهو الصبر حيث قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[١٠٦٠] فالذي رُزِقَ الصبرُ فإن الله تعالى قد اختصه بنوع من الرزق له من المكانة والقيمة ما ليس لغيره من بقية الأنواع الأخرى وما يُرزَق هذه السجايا إلا الذين عندهم خُلق الصبر، وما يُرزقها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس، فضلا عن ذلك فإن هؤلاء الذين اختصهم الله بأن رزقهم الصبر في الدنيا كان لهم جزاء عظيم في الآخرة على صبرهم هذا حيث قال تعالى في جزاء الصابرين: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٠٦١] أي أنهم لا يحاسبون كما يحاسب بقية الخلق والمفهوم من ذلك أن الصبر أشق

[١٠٥٨] – البقرة ٢٦٧

[١٠٥٩] – الحديد ٧

[١٠٦٠] – فصلت ٣٥

[١٠٦١] – الزمر ١٠

شيء على النفس وأكرهه وأمره على الطبع وأصعبه، لما فيه من الألم والتحمل والتجمل والحلم، ومنه التواضع والكتم وفيه الأدب وحسن الخلق وهو رزق مخصوص، فبه يكون كف الأذى عن الخلق واحتمال الأذى من الخلق، وهذه من عزائم الأمور التي تضيق منها أكثر الصدور وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس، وقد جاء أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس، ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر في الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال برهم فقال تعالى: {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[١٠٦٢]، فمعنى الصبر حبس النفس عن السعي في هواها وحبسها أيضا عن مجاهدتها لمرضاة مولاها بمثل ما يوجب المجاهدة على قدر ما يبتلي به العبد لأن المجاهدة على قدر البلاء، والامتناع عن الشرود وحبسها على دوام الطاعة، وصبرها عن شره الطبع الذي يظهر سوء الأدب بين يدي الله سبحانه وتعالى، وصبرها على حسن الأدب في المعاملة، ثم يتفرع الصبر إلى معان شتى، فمنها الصبر عن تفاوت الأهواء والصبر على الثبات، فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عن الهوى، وتطهير القلب من خطرات الهوى ونزعات الأعداء وتزيين الدنيا، ومن الآفات ما يوجب الصبر كف الجوارح عنها وحبس النفس عن المشي فيها، ومن الصبر حبس النفس على الحق وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم، وبذلك وصف الله تعالى عباده الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر وأخبر أن الناس كلهم في خسران إلا من كان من أهل الحق والصبر، وعظّم الصبر فأفرده بإعادة التواصي به ولما كان ذلك كذلك فإن الصبر يكون رزقاً مخصوصاً لأناس مخصوصين لا يدخل فيه العموم، وإن الخلق كلهم مرزوقون ولكن بدرجات متفاوتة، ومن الصبر حبس النفس على القناعة بما قسمه سبحانه وتعالى، وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق، ومن الصبر كف الأذى عن الخلق الذي يدخل في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}[١٠٦٣] فالأمر بالإحسان هو

[١٠٦٢] – البقرة ١٧٧

[١٠٦٣] – النحل ٩٠

أمر بالأخذ من أفضل أنواع الرزق الذي يهبه الرزَّاق لمن يشاء من الخلق، حيث أن الإحسان هو الأنعام الذي ينعمه الرزَّاق على عباده، ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المحسنين الذين ينفقون مما رزقهم الرزَّاق من الإحسان، ومن الصبر، الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب، ومن كان كذلك فقد أدى حق ما رزقه الله لقوله تعالى: {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ومنه الصبر على الفحشاء وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان، ومن كان بعيدا عن الفحشاء فقد رزق الحياء، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء وأهل العقل، ومن صبر على المنكر فقد رزق المعروف، والصبر عن البغي وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا، فمن ابتعد عن البغي فقد رزق العدل، فمن كان من الصابرين فقد رزق العدل والإحسان والأنفاق، فأخذ بأفضل ثلاث خصال، وابتعد عن أسوأ ثلاث خصال وهي الفحشاء والمنكر والبغي، ومن يكون كذلك فقد رزق مكارم الأخلاق، فالذين صبروا، ما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقهم ووصفهم حتى مدحهم بالصبر، والصبر يُحتاج إليه قبل العلم، ومعه وبعده، غير أن كثيرا من الخلق لا يدركون هذه المعاني من دلالات الرزَّاق التي تفضل بها على بعض خلقه دون البعض الآخر لعلمه تعالى ولمشيئته حيث قدَّر ذلك علام الغيوب فقد قال تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[١٠٦٤] لأنه أراد سبحانه أن يفيدنا فضل بيان ويعلمنا اقتران الرزق بالخلقة، وأنهما مسببان عن القدرة، فالمتوكل قد أيقن أنه لم يكن على الله أن يخلقه، فلما خلقه كان عليه أن يرزقه، وهذا الذي ذكرناه من أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع الضار النافع حيث كان هو الخالق الرازق كيف شاء، ومتى شاء، ولمن شاء، بما شاء، ومن تذمر من رزقه فقد تذمر من الرزَّاق جل شأنه، وأوكل نفسه إلى الحسد، وهؤلاء إنما فيهم جهلا بالحكمة وغفلة عن الحاكم، وجهلا بالرزق وجحودا بالرزَّاق، حيث يحيلون ذلك إلى عاداتهم وحظوظهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث ما اعتادوا عليه، أو من حيث معقولهم باختيارهم، ومعقولهم بالعز والفخر والتطاول، لا على الذل والتواضع

[١٠٦٤] – الأنبياء ٢٣

والفقر والمسكنة، ولا يكلون أمورهم إلى الله ويرضون بتدبيره وتقديره أن يرزقهم كيف شاء وبيد من شاء فيؤثرون أخلاق المسرفين على أخلاق المتواضعين، لبعدهم من مشاهدة اليقين ولاستيلاء أخلاق النفس الأمارة بالسوء عليهم، ثم إن نفوسهم مع علمهم أن الخلق والأرض كله لله عز وجل، وأن الحمد والملك له، قد تطمع في غير الله وترجو سواه، وقد تضطرب بجبلتها عن أثقال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالق على استبطاء الرزق الذي هو مكتوب من الرزَّاق فقد قال صلى الله عليه وسلم: "ما تركت شيئا يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم، وإن روح القدس نفث في روعي، وأخبرني أنها لا تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، وإن أبطأ عنها، فيا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء رزقه أن يخرج إلى ما حرَّم الله عليه"[١٠٦٥].

أن الله تعالى يعطي ما شاء لمن شاء فيزيد وينقص كما يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي يوسع ويضيق على خلقه بما جرى عليهم القلم، فإن الإنسان لو هرب من رزقه لأدركه كما لو هرب من الموت لأدركه الموت، وأن رزق الدنيا لا ينقطع عن العبد حتى يأتيه أجله، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل في رزق الآخرة، فيكون أول رزق الآخرة آخر رزق الدنيا ولا آخر لهذا الرزق، لو أن إنسانا سأل الله أن لا يرزقه لم يستجب له، فالله سبحانه وتعالى خلقه وضمن له رزقه إلى أجله المعلوم بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية فهو خلقه ولا بد من أن يرزقه أبدا، ولو أن إنسانا آخر سأل الله أن يكون له مثل ما أوتي غيره من الناس في الرزق من زينة الحياة الدنيا لما استجاب الله له أيضا لأن ذلك مخالف لما قضاه الله تعالى وقدره، حيث نقف على مثل ذلك في قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}[١٠٦٦] فالتكسب والأسباب

[١٠٦٥] – مصنف عبد الرزاق ١١،١٢٥

[١٠٦٦] – القصص ٧٩– ٨٠

طرق أودعها الله العطاء، والأرزَّاق لا هي تعطى وترزق بمنزلة الأشياء من الأشخاص حيث تكون في متناول يده متى أراد، ولا يستطيع أحد أن يؤجلها لوقت حاجته، فالمتوكل موقن أن الله سبحانه هو المعطي والمانع، وأنه هو المسبب الرازق، وأنه هو الأول في التصريف والآخر في التقليب.

ونحن نعلم أن الرزَّاق لا يتوقف رزقه على ما يعتاش به المخلوق من الطعام والشراب، ولكن هناك أرزَّاق مخصوصة للإنسان الذي رزقه الله العقل، لذلك ترتب على هذه الهبة الإلهية أرزَّاقا أخرى تتناسب مع طبيعة هذا المخلوق، وكذلك الأمر بالنسبة للمخلوقات غير العاقلة فقد رزقت أشياء أخرى غير التي تعتاش بها من الطعام والشراب، وهذه الأرزَّاق متفاوتة ومتباينة بين المخلوق العاقل وبين غيره من المخلوقات، ومتفاوتة ومتباينة بين كل نوع من المخلوقات، فأما الذي يشترك به جميع المخلوقات هو ما يعم الجميع من الرزق المحسوس الذي يشترك جميع الحيوانات وجميع الناس من طائع وعاص وسعيد وشقيّ حيث قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[١٠٦٧] فمن هنا نتبين أن قدرة الله ونعمه وعلمه ورزقه شامل لكل شيء، فلا توجد دابة تتحرك فى الأرض إلا وقد تكفَّل الله سبحانه برزقها المناسب لها فى مختلف البيئات تفضلا منه لأن الذي خلق الخلق ضمن لهم الرزق، وهو يعلم مكان استقرارها فى حال حياتها، والمكان الذي تودع فيه بعد موتها، وكل شيء من ذلك مسجل عنده سبحانه فى كتاب موضح لأحوال ما فيه، وهذا النوع من الرزق الذي وهبه الرزَّاق لخلقه هو رزق العموم المطلق الذي ليس فيه استثناء، وهو الغذاء الضروري لحياة جميع الأحياء من إنسان وحيوان ونبات، بما يتناسب مع طبيعة خلقه، ثم يأتي التفاوت والاختلاف في الكم والنوع حسب طبيعة الخلق، وأول هذه المخلوقات المرزوقة – غير الغذاء– هو الإنسان، فالله تعالى رزق جميع البشر عقلا يتساوون به، إلا في حالتين استثنائيتين هما العبقري والمجنون، وبين هذا وذاك درجات ولكل خصوصية سبحانه إنه على كل شيء قدير، وكل ذلك لحكمة أرادها الرزَّاق جل جلاله، وسنتكلم عنهما بشكل

[١٠٦٧] – هود ٦

مقتضب والحكمة الإلهية من ذلك، ثم نبسط القول في أرزَّاق العقول الطبيعية وتنوع تلك الأرزَّاق واختلافاتها.

أما المجنون الذي لم يرزق العقل، فإن الحكمة التي أرادها الرزَّاق هي أن يتفكر أصحاب العقول بأي نوع من الرزق أكرمهم الرزَّاق به في تصريف أمورهم والمحافظة على هيبتهم وما إلى ذلك مما يمتاز به العاقل عن المجنون، فيعلم قدر النعمة وقيمتها التي أكرمه الرزَّاق بها، فيحمده ويشكره ويتوب إليه، وأما العبقري الذي خصه الله بعقل امتاز به عن جميع العقلاء فهي حاجة إنسانية لا تعني الشخص نفسه لأننا نجد النتاج العقلي لأمثال هؤلاء يتعدى الخاص إلى العام، وهذا يعني أنه من خصوص العموم، لذلك لم نجد أحدا من هؤلاء على الرغم من انتمائهم لأمم مختلفة، أنهم يكنون العداء لأمة أخرى وهذا من حكمة الرزَّاق الذي جعل عقولهم رزقا للبشرية التي أساءت استخدام هذا الرزق فيما بعد، فمن هؤلاء اينشتاين في النظرية النسبية، وأديسون الذي أخترع المصباح الكهربائي، ونوبل الذي اخترع المتفجرات، ومدام كوري التي اكتشفت اليورانيوم، وغيرهم كثير، فلم يكن أحد من هؤلاء يفكر في جانب الشر الذي يكمن في هذا النوع من الرزق، وما كان همهم وانشغالهم إلا بما يقدمون من الخير للإنسانية التي أساء بعض أفرادها التصرف بهذا الرزق، لذلك وجدنا ردة الفعل عظيمة عند نوبل عندما رأى اكتشافه يستخدم للقتل والدمار، فما كان منه إلا أن نذر جميع ثروته على شكل جوائز لمن يقدم خدمة تفيد الإنسانية في وجوه الخير شعورا منه أن هذا النوع من الرزق استخدم في غير مجاله. وأما بقية بني البشر فهم متساوون في دائرة التوسط في أن رزقوا هذا العقل، وهو تساوٍ فطري في الارتزاق به، وإن كان للذكاء بينهم درجات، ولهذا يكون التفاوت فيما بينهم يعود إلى الذكاء المكتسب من مجالات الحياة في العلوم والآداب والفنون على اختلاف أنواعها، وكل ذلك ينطوي تحت راية الرزق من الرزَّاق في هبته تعالى لهذا الوجه من الخير، وأول أرزَّاق العقل هو العلم والمعرفة على اختلاف أنواعها دون تحديد أو استثناء لأي نوع من أنواع هذه العلوم الشرعية أو الوضعية، ونحن لا نفاضل بين أنواع الرزق العقلي لأن الرزَّاق هو الذي قدَّر المقادير والحاجات لهذا العلم أو ذاك، على أننا نجد الغالبية العظمى من

بني البشر لا يطلقون اسم عالم إلا لمن كان له باع طويل في الطب أو الهندسة أو الجينات الوراثية أو في عوالم الأحياء المائية إلى آخر ما هنالك من أنواع هذه العلوم الوضعية، ولا يطلقون هذه التسمية على الذين يشتغلون بالعلوم الشرعية والإلهيات التي هي من أرفع أنواع العلوم وأشرفها، حتى أن الفلاسفة الذين هم وضعوا أسس المعرفة جعلوا الميتافيزيقا والإلهيات أعلى درجات المعرفة، ذلك أن أمر العلوم التي رزقها الرزَّاق للخلق إنما تتدرج من الأدنى إلى الأعلى، فكان أول العلوم وأدناها هو علم التشريح بصرف النظر عن توجيهه سواء إلى الإنسان أو الحيوان أو النبات، فلو أخذنا قطعة من الخشب وشرحنا هذه القطعة فنكون بدأنا بأول العلوم التي سوف تظهر لنا عددا من القطع من خلال التشريح، فإذا أحصينا هذه القطع نكون قد انتقلنا من التشريح إلى الحساب الذي هو أرفع درجة لأنه اشترك بين الواقع والذهن، وبعد ذلك سوف نجد الدوائر والزوايا والمستقيمات في هذه القطعة أو تلك فيظهر لنا علم الهندسة الذي هو أرفع من الحساب، وكلما تقدمنا مرحلة تبدأ عملية التسامي من الواقع إلى الذهن، فكلما ترفعت العلوم عن الواقع زادت رتبة في الشرف، وهكذا فالجبر أعلى من الهندسة لأنه يتجرد من الواقع إلى الفرضيات التي تثبت النظريات بحيث تؤسس علم الفلك، ولذلك كانت الموسيقى والشعر والفنون بشكل عام هي أرفع من العلوم لتجردها عن الواقع، فكلما ازداد التسامي والتجريد في علم من العلوم كانت درجته أشرف من سابقه، ولذلك كانت الميتافيزيقا وما وراء الطبيعة والبحث في علم الإلهيات من أشرف العلوم لأنها تبحث في الغيبيات لذلك كانت العلوم الشرعية أشرف العلوم من هذا الباب، وهذا لا يعني أن العلوم الطبيعية منقوصة الشرف بل العاملين في مجالاتها هم شرفاء بالبحث والتجريب والتطوير الذي هو في حركة دائمة لأجل تحسين أحوال العيش وتطوير مصادر الأرزَّاق للعباد، وعليه لا شرف في العلم مهما كان إن لم يكن عائدا بالنفع على العباد. قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[١٠٦٨] ولذا فمن رُزِقَ هذا العلم المنتج والمبدع والمؤدي للإصلاح في الأرض

[١٠٦٨] – الأنعام ٣٨

وإعمارها فقد أوتي خيرا كثيرا، ولا يتوقف هذا النوع من الرزق على العلم فقط، وإنما يحتاج من يشتغل بهذا النوع من الرزق إلى أن يرزق الفهم.

وعليه كل هذه الأرزَّاق إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث أنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا"[١٠٦٩].

وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما وأنهما رزق من الرزَّاق، إذ قال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء، المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته"[١٠٧٠] فهذا خير من رزق الذهب والفضة والمتاع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، من صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له"[١٠٧١].

وعليه فالرزق من الرزَّاق الكريم لا يقتصر على الأقوات والمعاش كما يفهمه البعض قال الله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}[١٠٧٢] حيث يدخل في ذلك كل أنواع الرزق وأدناها الرزق المادي وأعلاها الرزق العقلي وما اجتمع بينها كالسمع والبصر والتذوق والشم وما تختص به الجوارح التي يملكها المرزوق وصفوة القول وخيره ما قاله الله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[١٠٧٣].

اللهم يا الرزاق ارزقنا الطاعة التامة لك، ولا تجعلنا طائعين لوسوسة الشياطين من الجنة والناس، وارزقنا العلم والحكمة وارزقنا بحلالك عن حرامك، وجنِّبنا عمَّا نهيت عنه وأنزل علينا الحفظة الكرام يحفظوننا من كل شر وضيق وظلم، وارزقنا رضاك ورحمتك لنكون على ما تحبه وترضاه. اللهم يا الرزَّاق لا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم من الدنيا ولا تفتنا فيها،

[١٠٦٩] – سنن ابن ماجة، ج ١٢ ، ص ١٧١

[١٠٧٠] – المستدرك للحاكم، ج ٧ ، ص ٤١٨

[١٠٧١] – سنن النسائي ، ج١١ ، ص ٤٢٤

[١٠٧٢] – النحل ٣٥

[١٠٧٣] – إبراهيم ٣٤

وارزقنا نعيم الجنة ولا تحرمنا منها، اللهم إنك قلت وقولك الحق: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرزَّاق ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) اللهم يا الرزَّاق إن رزقنا عليك فاجعلنا من الأغنياء الوارثين ولا تجعلنا من الفقراء لغيرك ولا تجعلنا محتاجين، اللهم ارزقنا يا الرزاق بالأبناء الصالحين واجعلنا في مرضاتك لآبائنا محسنين، اللهم إنك ترزق من تشاء بغير حساب ارزقنا يا الرزَّاق كما تشاء بغير حساب عليك توكلنا فأنت نعم المولى ونعم النصير.

اللهم أنت الرزاق تهب لمن تشاء ما تشاء، اللهم ارزقنا نصراً كبيراً وعلماً مفيداً وصبراً جميلاً.

اللهم ارزقنا السن شاكرة وقلوب ذاكرة وعقول تتذكر ما كان وتفكر فيما يكون، وارزقنا حبك وحب رسولك الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم- وارزقنا محبة الصحابة والصالحين، اللهم ارزق أسرانا فرجاً ميسرا ومرضانا شفاءاً عاجلا وطلابنا علماً نافعاً ومظلومينا نصراً قريباً.

الفتَّاح

الفتَّاح اسم من أسماء الله الحسنى مصداقا لقوله تعالى: {وهو الفتَّاح العليم}[١٠٧٤].

يقول الحلمي: "الفتاح هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ليبصروا الحق، والفاتح هو الناصر"[١٠٧٥].

"فهو سبحانه وتعالى يفتح الخير على عباده ويسهل عليهم ما كان صعبا، ثم يفتح عليهم في أمور الدين وهو العلم، وفي أمور الدنيا فيغني فقيرا وينصر مظلوما ويزيل كربة"[١٠٧٦].

وقال الزجاج: "الفتاح هو الله تعالى الذي فتح بين الحق والباطل، فأوضح الحق فبينه، وأدحض الباطل وأبطله"[١٠٧٧].

وقال ابن الأثير: "هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده"[١٠٧٨].

قال الإمام الغزالي: "الفتاح هو الذي بعنايته ينفتح كل مغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه، ويخرجها من أيدي أعدائه، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه"[١٠٧٩].

[١٠٧٤] سبأ، ٢٦.

[١٠٧٥] حامد أحمد الطاهر، الجامع لأسماء الله الحسنى ابن القيم الجوزية. القاهرة . دار الفجر للتراث، ٢٠٠٢ن ص ٢٢٣.

[١٠٧٦] المرجع السابق، ص ٢٢٣.

[١٠٧٧] مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة . مكتبة العلم، ١٩٩٩، ص ٢٤١.

[١٠٧٨] يوسف المرعشلي، ولله السماء الحسنى. مرجع سابق، ص ١٧٢.

[١٠٧٩] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى ي شرح أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتاب العلمية، ص ٦١.

وقال ابن القيم في نونيته:

وكذلك الفتاح من أسمائه   والفتح في أوصافه أمران

فتح بحكم وهو شرع إلهنا   والفتح بالأقدار فتح ثاني

والربُّ فتَّاح بذين كليهما   عدلا وإحسانا من الرحمن[١٠٨٠]

الفتَّاح أسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة التي خص بها ذاته العلية، مصداق لقوله تعالى: {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتَّاح العليم}[١٠٨١]. لا فتح إلا بوجود طرفين يكون أحدهما أقوى حُجَّة من الآخر حتى يُذعِنَ من لا حُجَّة له للذي يمتلك الحُجَّة الحق، وبالتقاء الطرفين أو اجتماعهما تُبثَ المعلومة الحُجَّة لدحض المعلومة الخاطئة، وإن لم يتم ذلك موضوعيا ستكون المناصرة من قبل المؤمنين للمعلومة الصائبة ويكون التضاد من القوة المناصرة للمعلومة الخاطئة. والذين يؤمنون بالحق ويعملون على إحقاقه يُسمَّون الفاتحون أي الذين يزيلون الصعاب من الطريق حتى يتم عبور المناصرين والمؤيدين والمؤمنين بالحق.

وقوله (ثم يفتح بيننا بالحق) أي أن يُمكِّن الله بعضنا من بعض بالحُجَّة حيث لا إكراه في الدين، وبالقوة حيث كسر الاعتداء ومغالبة المعتدين. وفي كل الحالات هو فتح.

في الحالة الأولى: تتم مغالبة الحُجَّة بالحجَّة، حتى يؤمن الناس. وإن أمنوا فقد اهتدوا.

وفي الحالة الثانية: إن لم يؤمنوا بالحجة ولم يناصبوا المؤمنين العداء فهم أخوة في ظل نظام الدولة المسلمة ولا عدوان عليهم.

وفي الحالة الثالثة: إن أشركوا وأعلنوا العداء لمن أسلم واهتدى للحق فقتالهم حق حتى يستسلموا للقوة ويعم السلام بدين السلام.

وقوله: (وهو الفتَّاح العليم) تعني: أن الله تعالى هو الفتَّاح الذي لا يصعب عليه شيء فهو الفعَّال لما يُريد.

[١٠٨٠] النونية، ٢، ص ٢٣٤.

[١٠٨١] سبأ، ٢٦.

والفتاح العليم: تدل على أنَّ خالق كل شيء قادر على أن يفتح كل ما ينبغي أن يُفتح مما خلق، فهو عليم بأمره وهو يمتلك مفاتحيه ولذا سيكون الفتح دون معاناة فهو القادر لأن يفعل.

وعليه فالفتَّاح هو:

. الذي يمتلك القدرة على الفعل متى شاء دون أن تواجهه مغالبة.

. الفتَّاح هو الغلاَّب الذي لا يغلبه غالب.

. هو مذلل الصعاب وقاهرها بالقوة.

. هو فاتح أبواب الرحمة على عباده.

. هو حاق الحق وزاهق الباطل.

. هو القادر بدون تردد على أن يفعل فيفعل.

. هو من يمتلك مفاتيح العلم ومفاتيح الغيب معا.

. هو الله عز وجل الذي بيده مفاتيح الجنة فيعطها لمن آمن وتاب، ومفاتيح النار فيعطها لمن كفر وأشرك.

والفتح: فعل خير، والفتاح فاعل الخيرات الكثيرة والحسان. ولذا فإن الفتح تيسير وتذليل للصعاب والعوائق التي تعترض سبيل الخيِّرين من عباده، والفتاح هو الميسِّر للأمر في حالة استعصائه.

والفاتح: هو القائم بالفعل مباشرة دون إنابة عن أحد، وهو أيضا الذي تَصدُر له الأوامر فيقوم بفعل الفتح تنفيذا للأمر الذي يُطاع. ولهذا فالفتح جهد يُبذل من أجل غاية.

أما الفتوح: فهو ذاتي، وهو الذي يهب هبة، دون وسائط أو معاناة أو جهد يُبذل، وهو القابل لأن يتجسد في الأعمال والأفعال حتى يُحدث النقلة إلى ما هو أفضل وأنفع وأجود.

والفاتحة: هي الوسيلة المستخدمة والمدخلة في أبواب الخير والرحمة، ولهذا فإن البسملة هي فاتحة الفاتحة، والفاتحة هي فاتحة الكتاب وهي المدخلة الرئيسية المُمكِّنة من دخول الآيات العظام. وهي أيضا المدخلة بأدبها ورقيها الذوقي لمخاطبة الله تعالى مباشرة في أي دعاء كريم. وهكذا شهادة أن لا إله إلا الله هي الفاتحة لدخول الإسلام، وهكذا أيضا يُذكر اسم الله

على الذبيحة ليدخل لحمها حلالا على من أسلم فالحمد لله ربِّ العالمين الذي بيده مفاتيح الحياة والممات فلا يظلم ربّنا أحدا.

ولأن الفتح تمهيد لعمل عظيم. فإن الفتّاح هو الفاعل للعمل العظيم، ولذلك كانت الفتوحات الإسلامية تمهيدا لنشر الإسلام الذي به يُحق الحق ويُزهق الباطل.

وعليه أن أردت أن تكون الخليفة فعليك بفعل الآتي:

. أغلق أبواب الشرك تُفتح لك أبواب التوحيد.

. أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصدق.

. أغلق أبواب العبودية لغير الله تُفتح لك أبواب الحرية.

. أغلق أبواب الظلم تفتح لك أبواب التسامح.

. أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال.

. أغلق أبواب الاتكال على غير الله تُفتح لك أبواب التوكل عليه.

. أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبة.

. أغلق أبواب الظن تُفتح لك أبواب اليقين.

. أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير.

. أغلق أبواب التكبُّر تفتح لك أبواب التواضع.

. أغلق أبواب الذل تفتح لك أبواب العزة.

. أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثقة.

. أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطمأنينة.

. أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطاعة.

. أغلق أبواب الشقاء تفتح لك أبواب السعادة.

. أغلق أبواب الشح تُفتح لك أبواب المكارم.

. أغلق أبواب الشر تُفتح لك أبواب الخير.

. أغلق أبواب الرذيلة تُفتح لك أبواب الطهارة.

. أغلق أبواب الحقد تُفتح لك أبواب الرحمة.

. افتح أبواب الرحمة تفتح لك أبواب الجنة.

قال تعالى: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا}[١٠٨٢]. قال الشعبي: المقصود بالفتح هو الحديبية حيث أصاب بها ما لم يُصب في غزوة. ووردت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي وفي تفسير الجلالين: أنها تدل على أن مكة فُتحت عنوة بدون قتال وهذه الآية وعد بفتحها[١٠٨٣]. والذي يهمنا من قوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) هو ما تحتويه هذه الآية من تيسير وتمهيد لانتشار الإسلام، ويقصد بفتح مبين: فتحا لا شك فيه في الزمنين الحاضر بفتح الحديبية، والمستقبل بفتح مكة وغيرها من المدن والأمصار في المعمورة. ولذلك فمن ينظر إلى ما نحن عليه في زماننا، يتيقن بأنه قول الحق فقد كان فتحا مبينا على العالمين.

وقوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) في اعتقادنا أن الذنب الذي تقدم هو الذنب الذي تأخر، حيث لا ذنب للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الاصطفاء والتكليف بالرسالة، والذنب الذي تقدم هو ما كان عليه قبل الرسالة، وما تأخر هو ذلك الذنب الذي لم يبق بعد الرسالة، وفي هذا القول تماثل مع ما ينطبق على قوله هو (الأول والآخِر)، أي هو الله لا شريك له فهو هو واحد أحد لا ثاني معه (الأول والآخِر) هكذا يكون الحال مع قوله (ما تقدم من ذنبك وما تأخر). أي لا ذنب لمحمد عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة فأول الذنب هو آخره.

وقوله (ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) تدل على أن بالإسلام تتم النعمة حيث لا ذنب لك يا محمد من بعده وهذه نعمة وهداية حق على الصراط المستقيم الذي بالسير على نهجه يتحقق لك النصر المعزز بقوة العزيز الحكيم جل جلاله.

[١٠٨٢] الفتح، ١ . ٣.

[١٠٨٣] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس عشر، ص ٢٦٠.

وعليه فكان الفتح على محمد بالرسالة والفتح على الرسالة بالفتح المبين الذي هو دليل إثبات تشهد عليه الحديبية ومكة وكل مصر من الأمصار التي فُتحت والتي ستُفتح لا محالة.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب}[١٠٨٤]. ما يقصده بالتجارة هو الآتي:

. الإيمان بالله تعالى.

. الإيمان برسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

. الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل.

. أن يكون الجهاد بالأموال ثم بالأنفس. والمترتب على هذه التجارة هو:

. مغفرة الذنوب.

. دخول الجنة التي تجري الأنهار المتنوعة والمتعددة بخيرات كثار من تحتها، والتي فيها مساكن طيبة في جنات عدنٍ. وهذه الخيرات والجنان هي نتاج الفوز العظيم الذي تحقق للرسول صلى الله عليه وسلم والذين أمنوا معه بما التزموا به من إيمان وطاعة لله وللرسول.

أما قوله (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) تدل على أن الذين لا يزالون على قيد الحياة سينالون من تجارتهم وهي الإيمان والطاعة مكاسب ومغانم كثيرة في حياتهم الدنيا وسيعيشون انتصارات متعددة وكثيرة وفتوحات، تعود عليهم بالفوائد والمنافع الكثيرة، وبهذا فهم كمن يعيش جنتين الأولى في الحياة الأولى، والثانية في الحياة الآخرة.

قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}[١٠٨٥]. الإيمان ليس سهلا كما يظن البعض أنه يتعلق باليقين، ورؤية اليقين ليست سهلة فهي تحتاج للمعلومة الصائبة والدليل والبرهان الثابتين

[١٠٨٤] الصف، ١١ . ١٣.

[١٠٨٥] الأعراف، ٩٦.

والحُجَّة المطلقة التي تتوحد في الزمن حيث الصلاحية الدائمة، فالعدل على سبيل المثال هو العدل، والظلم هو الظلم سواء في الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولذا فمن يؤمن بالعدل حق والظلم باطل ستكون حُجَّته باقية عبر الزمن وهذا هو الدليل الإيماني المتضمن للثبات والاستمرارية على الحق الدائم. وعليه لو آمن أهل القرى بالحق الدائم عبر الزمن لكانوا القوة التي لا تُقهر ولا تظلم أحدا مما يجعل قلوب الناس تتطلع وتتفتح للحق الذي يمتد بالإيمان قوة.

وقوله (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) هذه الآية مثوبة ورحمة تعود على الذين آمنوا، وهم الذين ينالون الأجر في الدارين: رضاء الله عليهم بتيسير معاشهم وأرزَّاقهم في حياتهم، ورضاهم عن أنفسهم المطمئنة في الدار الدنيا، ولأجل ذلك فهم يكافؤون بالجنة في الدار الآخرة. ولكن لو راجعنا ما تدل عليه كلمة (لفتحنا) للاحظنا المعنى الاشتراطي الذي تتضمنه والذي يعود على قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) وذلك لأن كلمة (لو) كلمة احتمالية المعنى وليس يقينية المعنى فهي لا تثبت إلا بالجواب أو الفعل المترتب عليها. ولقد تبن الأمر بالجواب (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أي أن أهل القرى لم يُصدقوا الحق الذي جاء به رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، فظلموا أنفسهم، فأخذهم الله تعالى بما كانوا يكسبون.

وكانت نتيجة الأخذ إزالة المعوقين الذين بإزالتهم ذللت الصعاب أمام الفاتحين بالحق بالدعاية والتبشير والهداية للتي هي خير. ولهذا فمن يتمسك بالحق يفتح الله عليه خيرا ومن يتمسك بالباطل ليس له إلا أن يُزهق. مصداقا لقوله تعالى: {إنما يُريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم}[١٠٨٦]، وقوله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[١٠٨٧].

[١٠٨٦] التوبة، ٥٥.

[١٠٨٧] الأنبياء، ١٨.

قال تعالى: {وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين}[١٠٨٨] هذه الآية جاءت على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام، وهو يدعو ربه بأن يفتح بينه ومن آمن معه وبين قومهم الذين هم منهم، ويقال حسب ما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "أن شعيب عليه الصلاة والسلام بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين وأصحاب الأيكة"[١٠٨٩]. والأمتان الاثنتان هما قومه أي من بني دمه وأصله. ولذلك فللفتح أبعاد أبعاد محلية وقومية وله أبعاد إنسانية:

البعد المحلي والقومي: أن يُبعث الرُسُل والأنبياء إلى قراهم ومدنهم وشعوبهم وأهلهم فكانت جميع الرسالات السماوية لا تخرج عن هذا البعد المحلي إلا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قد جاءت بقضايا جامعة لا مانعة. أما الرسالات التي سبقتها فجميع قضاياها جامعة مانعة، جامعة للقوم أو أهل القرية أو القرى ذات العلاقة، وذلك لأنها تخصهم ولا تعم الآخرين، فهي جاءت لمعالجة قضية معينة أو بعض من القضايا المحلية أو الخاصة. فنوح عليه الصلاة والسلام بُعث ليُنذر قومه مصداقا لقوله تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم}[١٠٩٠]، قال: (قومك) ولم يقل (الناس كافة) وقومك هم الذين تربطك بهم علاقة. ويونس عليه الصلاة والسلام بُعث لمائة ألف أو يزيدون هذه قضية جامعة مانعة تجمع القوم الذين بُعث إليهم عددا فقط مصداقا لقوله تعالى: {وإنَّ يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مُليم فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين}[١٠٩١]. ومثل لوط عليه الصلاة والسلام الذي بعث لقومه ولقضية الفساد الأخلاقي التي تفشت بينهم. وكذلك شعيب عليه الصلاة والسلام الذي بُعث لمعالجة قضية الفساد الاقتصادي التي تفشت

[١٠٨٨] الأعراف، ٨٩.

[١٠٨٩] القرطبي، الجزء العاشر، ص ٢٥٠.

[١٠٩٠] نوح، ١.

[١٠٩١] الصافات، ١٣٩ ـ ١٤٨.

بين قومه. وقضية موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وملئه الذي طغى في أرض مصر وأكثر فيها الفساد قال تعالى: {اذهب إلى فرعون إنه طغى}[١٠٩٢].

أمَّا البعد الإنساني: أن تكون الرسالة غير مقتصرة أو خاصة بقومٍ واحد أو قرية أو مصر من الأمصار بذاته. وهذا الاشتراط جاءت به رسالة الإسلام الخاتمة مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذير}[١٠٩٣] تحتوي هذه الآية الكريمة القضية الجامعة لا المانعة التي ذكرناها في الأسطر السابقة، فهذه القضية لم تكن مقتصرة على قوم أو شعب بعينه ولا تقفل أبوابها في وجه الآخر من يكون فهي المستوعبة للجميع وذلك بفتحها أبوابها أمامهم بدون استثناء. وسميت بالجامعة لا المانعة ذلك لانعدام التخصيص فيها ولا تمنع أحدا من الدخول فيها من يكون ذكرا أو أنثى يهوديا أو مسيحيا أو منتميا لأي دين من الأديان غير السماوية فهي للجميع دون ممانعة.

ولهذا أرسل الله تعالى رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه إلى الناس كافة. (بشيراً ونذيراً) تعني التبشير بالقول الحق ونشره بين الناس حتى يُدركوا الجنة التي جاء الرسول ليبشر بها كافة الناس إن آمنوا. والنذير: هو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بدين الحق ليُنذر بالقرآن عن ارتكاب المظالم والشرك بالله تعالى حيث من أشرك وكفر واقترف ذنبا ولم يتب فستكون النار هي مثواه في الآخرة إن لم يؤمن. ولهذا جاء قوله تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله}[١٠٩٤].

وعليه كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا فاتحين لا لقضايا سياسية بل لقضايا أخلاقية واجتماعية واقتصادية وروحية حيث لا طمع لهم في مصلحة أو منفعة خاصة سواء الذين بعثوا إلى الخاصة أو الذي بُعث للكافة. وهؤلاء هم الأنموذج الأمثل للخليفة في الأرض، لذا فمن يُرد أن يكون خليفة في الأرض فعليه بالإقتداء بما قالوا وبما فعلوا وسلكوا وعليه

[١٠٩٢] طه، ٢٤.

[١٠٩٣] سبأ، ٢٨.

[١٠٩٤] الصف، ٩.

بالهداية للتي هي أحسن وأقوم. أمَّا أولئك الذين لا علاقة لهم بذلك فهم المعرَّضون للمساءلة والعقاب.

والفتاح بالإضافة هو الخليفة في الأرض الذي اتخذ رسول الله الكريم صلوات الله وسلامه عليه الأسوة فيما يقول وفيما يعمل ويفعل ويسلك. ولذا فلم ينته التبشير والإنذار بانتهاء الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم بل المعمورة لم تهتدِ بعد مما يستوجب على المؤمنين التبشير بالحق قولا وعملا وفعلا وسلوكا لا سياسة ومخادعة وطمعا شخصانيا في غير مرضاة الله تعالى.

فالفتاح بالإضافة هو المؤمن الذي مثلما يعمل من أجل نفسه يعمل من أجل الآخرين الذين في حاجة للعلم والهداية من أجل القضاء على الجهل، والذين في حاجة للدواء من أجل المعافاة والشفاء، والذين في حاجة للماء من أجل الارتواء، ومن أجل المحرومين من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم. وأن يعمل ذلك لا لبلوغ غاية خاصة في نفسه كأن يفوز بمكانة اجتماعية أو سلطة أو ثروة، بل من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل حتى تعم العدالة والتسامح والإخاء بالحق في الدار الدنيا، وينجو من النار ويفوز بالجنة في الدار الآخرة. ولذلك فبطبيعة الحال من ينجو ويفوز في الدار الدنيا يفوز بالجنة في الدار الآخرة، وهذه لا يُلقَّاها إلا خليفة في الأرض.

وعليه فمن أراد أن يفوز بالجنة فعليه بالخليفة ولكي يكون خليفة عليه بالحق واتباع القدوة الحسنة حتى تكون القدوة في نفسه وفي روحه إيمانا راسخا وفي قوله عملا وفعلا وسلوكا نافعا. وبهذه يصبح الخليفة الذي لا يقول إلا الحق صادقا، ولا يعمل إلا مفيدا نافعا، فلا يشرب مُحرَّما، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا يزني، ولا يوقد نار الفتنة، ولا يُحلِّل ما حرَّم الله، ولا يعتدي ظلما وبهتانا، ولا يركع أو يسجد إلا لله تعالى. يتطهر بالصدقة والزكاة وبالعمل الصالح يؤدي جميع الفرائض إيمانا تاما بالله تعالى، يتقدم لأعمال الإحسان وإذا ما اخطأ يُكفِّر عن سيئاته، ويتوب إلى الله ربه ولا يشرك به شيئا.

ولأن الفتح يُستمد من الفتّاح الأعظم، فعلى العباد أن لا يتأخروا عن استمداد هذه الصفة الحسنة منه تعالى، وهذه ليست بمستحيلة فبما أنها صفة فهي قابلة لأن تستمد حتى تتجسد في السلوك والفعل، ولأنها كذلك فالذي خلقه الله عز وجل في أحسن تقويم هو القادر على استمدادها من مصادرها المكتوبة في الكتاب (اللوح المحفوظ) ومن السنة العملية التي تجسدت في أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله الحسان.

وحتى لا يعم اللبس والغموض بعض معاني الكلمات وما تدل عليه من مفاهيم، علينا أن نميز بين الفتح وبين الحرب.

. فالفتح يؤسس على معطيات إنسانية من أجل الهداية والمساواة لا من أجل المغالبة، وهذه المعطيات هي:

. التبشير بالحق الذي يقضي على الفساد في الأرض وذلك لأجل البقاء والاستخلاف فيها حتى النهاية. قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب}[١٠٩٥].

. التبشير بالجنة للذين رضوا بأن يكونوا خلفاء في الأرض ولم يرضوا أن يكونوا مع الخوالف عندما تدق ساعات الفتح المبين. قال تعالى: {رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون}[١٠٩٦]. وقال جل جلاله: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار}[١٠٩٧].

. الإنذار بالعيوب والتحريض والعمل على إصلاحها بالتي هي أحسن. قال تعالى: {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين}[١٠٩٨].

[١٠٩٥] الأعراف، ١٦٩.

[١٠٩٦] التوبة، ٨٧، ٨٨.

[١٠٩٧] البقرة، ٢٥.

[١٠٩٨] القصص، ٧٧.

. الإنذار بالنار في الحياة الآخرة لكل من كذَّب وتولى أو أقترف ذنبا أو سفك دما أو أكل مالا حراما أو شهد شهادة زور بهتان بغير حق. قال تعالى: {إن علينا للهدى وإنَّ لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى}[١٠٩٩]. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شُهداء بالقسط ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون}[١١٠٠] وقال تعالى {من قتل نفسا بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا}[١١٠١].

. إعلان المحبة في الله تعالى والعمل بها لأجل تقوية اللحمة والقضاء على التفرقة. قال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون}[١١٠٢].

وفي حالة ما إذا أحسَّ المسلمون بخطر على دينهم من أي مصر من الأمصار المحيطة بهم كانوا لا يعلنون الحرب ولا يدخلونها إلا إذا كتبت عليهم، ولذا فالإحساس بالخطر هو الذي كان يُحفِّزهم للفتح الذي من معطياته الآتي:

. القضاء على الكفر والشرك بالله تعالى. قال عز وجل: {فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون}[١١٠٣].

. إنذار المستهدفين بالفتح وإبلاغهم بموضوعه. قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[١١٠٤].

[١٠٩٩] الليل، ١٢ . ١٧.

[١١٠٠] المائدة، ٨.

[١١٠١] المائدة، ٣٣.

[١١٠٢] آل عمران، ١٠٣.

[١١٠٣] التوبة، ١٢.

. تبشيرهم بالرسالة مصداقا لقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[١١٠٥].

. تقديم الحُجَّة التي دعتهم إلى التداعي لمستوجبات الفتح. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة}[١١٠٦]. وقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولىَّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}[١١٠٧].

. التأكيد على الغاية وهي تحقيق السلام بين الناس ليعيشوا إخوة متحابين في الله تعالى. قال عز وجل: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا}[١١٠٨]

. استيعاب الأقوام المفتوحة قراهم وأمصارهم دون إكراه في الدين. قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض}[١١٠٩]. يُفهم من هذه الآية الكريمة أنه لا غاية شخصانية أو طمعا في سلطة أو ثروة من وراء الفتح، بل الغاية من ورائه هي الإيمان والتقوى لله تعالى.

. إعداد القوة وإظهارها مع الميل إلى التفاوض الذي يُمكِّن من دخول الأمصار بدون قتال. قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين}[١١١٠].

[١١٠٤] آل عمران، ٦٣.

[١١٠٥] آل عمران، ٨٤.

[١١٠٦] البقرة، ٢٠٨.

[١١٠٧] البقرة، ٢٥٦، ٢٥٧.

[١١٠٨] النساء، ٩٤.

[١١٠٩] الأعراف، ٩٦.

[١١١٠] الأنفال، ٦٠ . ٦٢.

. عندما تكون الشعوب تعبد الأصنام شركا بالله تعالى يتخذ المؤمنون قرار الفتح ويُقْدمون عليه فعلا وسلوكا. قال تعالى: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم}[١١١١].

أمَّا الحرب فتؤسس على معطيات المغالبة، والمخادعة والدهاء وتقليب الأمور فتعلن الحروب وتشب نيرانها مما يجعلها تؤسس على الآتي:

. السيطرة على مقاليد القوة من ثروة ومنجزات مادية.

. التوسع الجغرافي من أجل مستقبل بعيد.

. القضاء على ما يُخيف أو يُنذر بخطر.

. اختلافات فكرية أو ثقافية أو عرقية أو دينية.

. بسط سيادة القوي على الضعيف وجعله في حالة تبعية وقهره بالمغالبة.

. الخوف من التحكم في مصادر الحياة كمنابع المياه ومنابع النفط.

. الحيلولة بين أصحاب القضايا وامتلاكهم لمقاليد القوة.

وعليه فالفرق كبير بين الفتح الذي تكمن غايات السلم فيه وبين الحرب الذي تظهر غايات الاضطهاد والاستعباد والاستعمار فيه، ولذا فإن الفتح وضوح بالمصادق والحرب غموض بلا حُجَّة، والفتح لا تترتب الأضرار عليه، والحرب والاقتتال نيرانها لا تقف إلا بمغالبة وضرر شديد وخسائر مؤلمة وموجعة، وخير مثال على ذلك للمقارنة فتح مكة الذي تم بسلم دونما أضرار أو خسائر حيث لم توجَّه ضربة واحدة لإنسان فالضربات التي وجهت يوم فتح مكة هي تلك التي بها هُدِّمت الأصنام وجعلتها دكا تتهاوى بين أيدي الفاتحين وهم يعلنون أن الله واحد أحد لا شريك له وأن المسلمين أخوة وأنه لا إكراه في الدين. أما الحرب فنيرانها تأكل الأخضر واليابس تضر ولا تبقي كما هو الحال في العراق وفلسطين والحرب في جنوب لبنان وفي أفغانستان. أناس يقتلون وتدمر مساكنهم وتهتك أعراضهم، وتسفك دماءهم بغير حق ويهجرون كرها حتى أنهم فقدوا كل شيء فلا حول ولا قوة إلا بالله.

[١١١١] الأنفال، ١٩.

قال تعالى: {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم}[١١١٢]. تُثبت هذه الآية بأن فاتح الرحمة هو الذي بيده مفاتيحها وهو الله عز وجل، وهو الذي إن فتح رحمته (أي رحمة منه) فلا احد قادر على منع وصولها لمن يُراد لها أن تصله بإرادته تعالى. وإن أراد أن يحجب رحمته عن أحد فلا راحم له غيره، ولذا فهو العزيز الذي إن فتح رحمته على من يشاء يعزه بها كيف يشاء وإن أراد إذلاله فيمسك رحمته عنه فيظل في فاقة إلى أن يرحمه الله العزيز الحكيم، والحكيم: هو الذي يعلم الأسرار من وراء عطائه بفتح أبواب رحمته على من يشاء، وإغلاقها عمن يشاء. فهذه أسرار والأسرار هي التي تكمن فيها الحكمة والعلل المفسرة لأسباب العطاء والرحمة ولأسباب الإمساك والمنع.

وفي الحديث الذي أسنده الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر بن العاص، قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمُوَدِّع فقال: (أنا محمد النبي الأمي ثلاثة مرات، ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتُجُوِّزَ بي، وعُوفيتُ، وعُوفِيَتْ أمتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذُهِب بي فعليكم بكتاب الله، أحلُّوا حلاله وحرموا حرامه"[١١١٣].

قال تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين}[١١١٤].

علم الغيب سر نحن لا نعلمه، أبوابه مقفلة ومفاتيحه بيد من يعلم أسراره سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله، يعلم ما في البر والبحر، ويعلم متى تسقط الورقة من نبتتها قبل أن تسقط ويعلم الحبة في مكمنها كيف تنموا وكيف تمتص غذائها، ومتى تنضج ومتى تجف ومتى تؤكل، ومن الذي سيأكلها بالتحديد، ومتى سيأكلها بالتحديد وأين يأكلها؟ ولذلك فهو علاَّم الغيوب

[١١١٢] فاطر، ٢.

[١١١٣] مسند أحمد ، ج ١٥، ص ١٩٨.

[١١١٤] الأنعام، ٥٩.

فكل شيء أحصاه وعده عدا، رطب أو يابس أو غيره مما خلق هو الذي يعلمه ويعلم مواقيت نهاياتها مثلما يعلم مواقيت بداياته وإلى ما يصير إليه قبل أن يصير على ما سيصير عليه.

فالغيب أسرار من ورائها حِكم، ومع أننا لا نعلم الغيب إلا أننا نعلم به ونؤمن، وللغيب ثلاث معطيات:

الأولى المعطية المطلقة: وهي لا يعلم الغيب بالمطلق إلا الله جل جلاله، ولذلك كل شيء أحصاه وعده عدا وكل آتيه يوم القيامة فردا. قال تعالى: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا}[١١١٥]. ومن علم الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا هو:

. **قيام الساعة:** قال تعالى: {يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربِّي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة}[١١١٦].

. علم الموت: الموت نهاية مجهولة لبداية معلومة، ومع أن كل العباد يؤمنون بالموت نهاية لبداية، إلا أنهم جميعا لا يعلمون متى يموتون بالتحديد الدقيق، ولا يعلمون أين سيموتون بالتحديد، ولا يعلمون كيف سيموتون بالتحديد، ولذا فالجميع ترك هذا الأمر لمن يعلمه ولن ينشغل به إلا إذا ضاقت الدنيا به واشتد عليه الألم قد نجده في حالة انتظار لمتى؟ وأين؟ وكيف؟. قال تعالى: {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير}[١١١٧].

. **العلم الخَلقي:** فالله وحده يعلم متى تحمل الأنثى، وممن ستحمل، وبما تحمل، وهل ما ستحمله سيكون ذكرا أم أنثى؟ أمَّا نحن بني الإنسان فلا نعلم إلا بالحمل إذا ما تم بإذن من الله تعالى، فبعدها تكون المتابعة والرعاية والعناية. قال تعالى: {الله يعلم ما تحمل كل أنثى

[١١١٥] مريم، ٩٣ . ٩٥.

[١١١٦] الأعراف، ١٨٧.

[١١١٧] لقمان، ٣٤.

وما تغيض الأرحام وما تزداد}[1118] وقال عز وجل: {ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى}[1119].

. **أمر الروح:** الروح التي تنبعث في جسم الكائن الحي أمرها مجهول بالنسبة للبشر الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، أما بالنسبة له فأمرها معلوم قال تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[1120].

. **أمر الرحمة:** فمع أننا نعلم أن الرحمة توهب هبةً، إلا أننا لا نعلم على من ستكون الرحمة؟ ومتى ستكون؟ وأين تكون؟ فهذه جميعها تقع في دائرة علم الغيب الذي لا يعلم أمره إلا الله تعالى. ولذا فأمور الغيب يُبشر بها الله عز وجل عباده المؤمنين تبشيرا قال تعالى: {يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم}[1121]. وقال تعالى: {كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه}[1122]. وقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[1123].

. **أمر العقاب:** مع أن أمر العقاب أمر معلوم وأنه حدث ويحدث وسيحدث، إلا أننا لا نعلم كيفيته حتى وإن وقع مصداقا لقوله تعالى: {فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين}[1124] هذا الأمر هو حال قوم عاد وثمود، وكذلك أصحاب الأيكة من بعدهم الذين كذبوا شعيب فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ وهكذا فالعقاب الذي لم يحدث بعد فإننا لن نعلمه ولا نعلم على من سيكون حتى وإن ظننا فإن بعض الظن إثمُ. ولذلك قال تعالى: {يعلم ما تكتب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار}[1125].

[1118] الرعد، ٨.

[1119] الحج، ٥.

[1120] الإسراء، ٨٥.

[1121] التوبة، ٢١.

[1122] الأنعام، ١٢.

[1123] الأنبياء، ١٠٧.

[1124] النحل، ٣٦.

[1125] الرعد، ٤٢.

. أمر التواب: بما أن من الناس من يعمل شرا فيعاقب عليه فكذلك من الناس من يعمل خيرا فيثاب عليه بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}[١١٢٦]. وقال عز وجل: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب}[١١٢٧] وقال جل جلاله: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه}[١١٢٨].

. أمر السماء: المؤمنون يعلمون بأن السماء سيأتي عليها يوم تكون فيه وردة كالدهان، وردة لم تكن حمراء ولا صفراء ولا خضراء بل ستكون بلون الدهان في جماله وروعته. قال تعالى: {فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأي آلاء ربكما تكذبان}[١١٢٩]. ولأن المؤمنين يعلمون من علم الغيب يقينا بأن السماء ستنشق وتصبح وردة كالدهان إلا أنهم لا يعلمون ساعته ولا كيفيته ولا روعته وحسنه.

. الأمر الآتي: كل مفكر عاقل يعلم علم المستقبل وفقا لانتظامه في الزمان والحركة، ولكن لا أحد يعلم أن ما يتوقعه للمستقبل قد يقع، فبدون شك إن لم يحدث أمر الغيب سيكون غدا الجمعة بما أن اليوم هو الخميس، وسيسقط المطر غدا بما أن للسحب تكاثف وتلبد بالماء، ولأننا نعلم علم المستقبل فإننا نعلم أننا سنتعلم ونعمل ونتزوج فنبني مسكنا ونسعى دون كلل ولا ملل للحصول على العيش الرغيد ومع ذلك نعلم إننا سنموت يقينا وأننا سنجازى على أعمالنا ثوابا أو عقابا ونعلم أن الله غفور رحيم ودود، ولكننا لا نملك مقاليد الأمور ومفاتيح الغيب حتى نضمن بأننا سنتعلم ونعمل ونبني مساكنا لأسرنا المتوقعة وأن الخميس سيأتي غدا ممطرا، وأننا سنجازى كما نحن نتمنى.

. أمر البعث: المؤمنون يعلمون بالبعث كما هم يؤمنون به، ولذا فلو لم يعلموا بأمره ما كانوا مؤمنين به. أمَّا المنكرون فلا يعلمون بأمره حتى يفاجؤا به مصداقا لقوله تعالى: {ويوم تقوم

[١١٢٦] الأعراف، ١٢٨.

[١١٢٧] النساء، ١٧.

[١١٢٨] هود، ٦١.

[١١٢٩] الرحمن، ٣٧.

الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون}[١١٣٠].

الثانية المعطية الخاصة: إنها معطية الرسل والأنبياء الذين يُوحى لهم ويُنبؤون بما لم يُنبَّأ الآخرون به، قال تعالى: {وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله وَرُسُلِهِ}[١١٣١]. وقال تعالى: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}[١١٣٢]. أي ما أطلعتك عليه بالوحي يا محمد هو من أنباء الغيب، وإلا هل كنت تعلم بأمر زكريا ومريم لو لم أوحي إليك أمر كل منهما؟. ولذا فقوله (نوحيه إليك) تعني نُطلِعُك عليه مسلمات وبراهين وحُجج مثبتة ذات دلالة حتى لا يأتيك الظن ولتكون على اليقين بالبينة. ولأن الوحي هو إظهار على علمٍ من علم الغيب فأوحى الله إلى نوح عليه الصلاة والسلام أن يصنع الفلك فصنع، وهكذا أوحى إلى يوسف وهود عليهما الصلاة والسلام، وأوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا به وبرسله فآمنوا، كما أوحى ربُّك للنحل أن يتخذ من الجبال بيوتا.

قال تعالى: {عالم الغيب والشهادة فلا يُظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك ما بين يديه وخلفه رصدا}[١١٣٣] هكذا في حدود التخصيص أوحى الله عز وجل لمن شاء من خلقه ما شاء.

الثالثة المعطية النسبية: الساعة معطية ومسلمة لا شك في وقوعها بالنسبة للمؤمنين وهؤلاء هم القلة الذين يعلمون بأمرها أما الكفرة والمشركون فلا علم لهم بها، فهم يعلمون بالموت الذي يشاهدونه ولا يؤمنون بالبعث من بعده هؤلاء هم الكثرة، {قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون}[١١٣٤] تدل هذه الآية على أن بعض الناس وهم ليسوا بأكثرية يعلمون بالساعة مع إنهم لا يعلمون العلم المطلق الذي يُمكنهم من معرفة الزمان الذي ستقوم فيه. قال تعالى:

[١١٣٠] الروم، ٥٥، ٥٦.

[١١٣١] آل عمران ١٧٩.

[١١٣٢] آل عمران، ٤٤.

[١١٣٣] الجن، ٢٦، ٢٧.

[١١٣٤] الأعراف، ١٨٧.

{ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}[١١٣٥] ترشد هذه الآية إلى أن أمر الإحاطة بعلم الله المطلق مقصور عليه جل جلاله، أما ما هو نسبي منه فمنقوص وهو بيد عباده مع درجات التفاوت النسبي بين من أوحي إليهم ومن وهب لهم رحمة العلم وأنبأهم بما لا يعلم البعض وبين علم المؤمنين وغير المؤمنين، فقد مكَّن الله من يشاء من عباده مما يشاء علما ولم يُمكِّن الجميع من علمه ولهذا قال تعالى: {نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم}[١١٣٦].

وعلى سبيل المثال: أمر انشقاق القمر الذي أنبأنا به الله تعالى في مُنزل كتابه الحكيم فآمنا به بالمطلق قد شهده غزاة الفضاء بأمهات عيونهم ولذا فهو علم غيب بالنسبة لغير المؤمنين إلى أن تم اكتشافه حقيقة بين أيدي العلماء والبحاثة في علوم الفضاء.

وهناك أمر آخر لم يقع بعد والمؤمنون يعلمونه ويؤمنون به يقينا وسيأتي لا محالة إنه اليوم الذي ستكون فيه السماء وردة كالدهان، ومع أننا نعلم هذا اليوم سيأتي يقينا إلا أننا لا نعلم متى سيأتي فهذا الأمر من علم ربِّي ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلا. فزدنا من علمك علما يا الله حتى نعلم ونحن مؤمنون من علمك الواسع.

وحظ العبد من اسمه الفتاح أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عله وسلم وفقا لما رواه أنس ابن مالك أنه قال: "إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن كانت مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه"[١١٣٧].

ولأن الله يريد للإنسان أن يكون خليفة له في إحقاق الحق وإزهاق الباطل فلذا ينبغي على العباد أن يفتحوا أبواب العلم للجميع حتى يُسهموا في نقل الناس من الظلمة إلى النور، ونقلهم من الفقر إلى الغنى وذلك بغنى النفس حتى تطمئن بعد خوف من فاقة وحاجة، وأن يعملوا على تمكين الفرد والجماعة والمجتمع بكامله من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل

[١١٣٥] البقرة، ٢٥٥.

[١١٣٦] يوسف، ٧٦.

[١١٣٧] شعب الأيمان للبيهقي، ج ٢، ص ٢٦٠.

مسؤولياتهم، والسعي إلى تحويل الأفراد إلى الإنتاج الذي به يُحقق لهم الوفرة الحلال، وليفتحوا أبواب الزكاة وأبواب الصدقات، وأن يفتحوا أبواب الصحة والمعافاة، وأن يفتحوا أبواب الدين وتيسيره للعباد برأفة ومحبة ومؤاخاة وباسلوب يشوق المتعطشين إليه وبحجة تلجم أفواه المزايدين والمشركين والجهلة دون إكراه، وأن يفتحوا أبواب الاستغفار والتوبة والرحمة والهداية على العباد حتى تنعم البشرية بقيم السماء وفضائله وتزداد الرحمة على المستخلفين في الأرض من أبواب الله الواسعة جل جلاله.

الفتَّاح هو مالك القدرة والقوة المطلقة المُمكنة للفتح متى شاء وكيف شاء، وأينما شاء، فالقادر المطلق هو الذي يفتح ويغلق ما يشاء من أبواب الخير والشر، فلا يمكن أن يتدخل أيٍ كان من الخلق مهما وصلت درجة قربه من الله سبحانه وتعالى في أن يغيّر ما أراد الخالق تعالى، فإذا أراد أن يفتح باب العذاب أو العقاب على قومٍ وفي وقتٍ معين لا يمكن أن يقدر أحد على غلق هذا الباب، قال تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}[١١٣٨]، وإذا أراد القادر على أن يفتح باب الرحمة على قومٍ ما فلن يستطيع أي مخلوق أن يغلقه، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١١٣٩]، فالعقاب والرحمة يتطلبان قدرة مطلقة لكي تسع كل الخلق وكل زمان ومكان، لذلك فالفتَّاح لابد أن يكون قادراً مقتدراً.

وهو القادر أيضاً على فتح أبواب العلم لمن يطلبه ويسعى إليه، هذا العلم النافع المفيد الذي يصل بصاحبه إلى أرقى الدرجات، فلا يمكن أن يصل أي إنسان إلى درجة معينة من العلم والمعرفة دون أن يفتح الله له هذا الباب، لأن العلم بحد ذاته نعمة عظيمة من نعم الله علينا ولا يملك النعم إلا خالقها عز وجل، فلا يأخذ الإنسان الغرور والكبرياء إذا وصل إلى درجات رفيعة من العلم، بل يجب أن يتذكر أن الذي فتح عليه هذه النعمة هو نفسه القادر على

[١١٣٨] الأنعام ٦٥.

[١١٣٩] فاطر ٢.

إمساكها ومنعها عنه، والعلم الحقيقي هو الذي يصل بصاحبه إلى أقصى درجات التواضع والعطاء.

فعلى الخليفة أن يكون فاتحاً لأبواب العلم والخير أمام الآخرين على قدر استطاعته وإمكانياته، فلا يبخل بعلمه وعمله على مسلم بل يجب أن يجعل من علمه وعمله رادعاً لكل جاهل في أمور دينه ودنياه، فيغلق بذلك أبوبا التخلف والجهل المؤديان لفتح أبواب الكفر والعصيان واتباع العادات التي من شأنها إبعاد الإنسان عن خالقه بالخرافات والأباطيل والمزاعم الكاذبة، وأن يعمل صالحا يرضاه الفتاح جل جلاله ليكون خليفة مصلحا وفاعلا للخيرات الحسان.

فخليفة الله في الأرض لابد أن يملك القدرة على فتح كل منافذ الخير والرحمة والعلم في الأرض، وأن يسعى فيها مصلحا بين الناس، فلا يجعل الجهل والكفر يسودان الأمة وتتفشى الأمراض النفسية والاجتماعية بين المسلمين بذلك، من هنا نستطيع أن ندرك أهمية القدرة على نشر الفضائل وفتح أبواب الخير بكل أنواعه، هذه هي الأمة التي أرادها الله للمؤمنين أن تكون، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[١١٤٠]، فلا يمكن أن نكون فتَّاحين للخير مبشرين به إلا إذا كان المعروف هو السائد بيننا، ولا يمكن أن نكون مغلقين لكل أبواب الفساد والشر إلا إذا انتهينا عن المنكرات والشرور، لتخرج الأمة سليمة ومعافاة من كل مرض فاسدٍ، وتكون بمثابة درع أمام الكفر والجحود.

الفتَّاح ودود، والود من المشاعر التي قد تكون خافية على البعض منا فلا نشعر به إلا متأخراً، وقد لا نستطيع أن نتفهَّمه بسهولة ونصل إلى عمقه وخفاياه، فالود من الأحاسيس الراقية التي تتطلب رداً راقياً وسامياً عليه، فمن الصعب أن نقابل الود بالجفاء والقسوة والنفور، ولكن للأسف فإننا نجد أن الكثير من الخلق يقابل ود الخالق المطلق بالجفاء والعصيان، مع أنه الغني عن ودهم لكنه يطلبه منهم، قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ

[١١٤٠] آل عمران ١١٠.

يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}[١١٤١]، من الآية الكريمة السابقة ندرك أن الخالق فتَّاحاً لباب الود الذي يأتي على هيئة رحمة بالعباد، فالله تعالى يفيض على عباده بالود المتمثل برحمته بهم أجمعين، سواء كان هذا العبد مؤمناً أو عاصياً أو مذنباً، فإذا أراد الودود أن يفتح باب رحمته في وجه أي عبد فلا يملك أحد أن يغلق هذا الباب، لأن الفتَّاح بعلمه المطلق يدرك متى وأين وكيف ينزّل رحمته بخلقه، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[١١٤٢]، وقال تعالى أيضاً: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[١١٤٣]، فالفتَّاح المطلق هو الودود المطلق الذي يوزّع وده ورحمته وحبه كيفما يشاء عز وجل.

والخليفة من صفاته أن يكون ودوداً بل أن يكون مفتاحاً للود والمحبة بين نفسه وخالقها وبين نفسه وبين الناس، فلا يغلق باب الحوار والتسامح مع غيره ممن أخطأ في حقه، بل هو من ترك بابه مشرّعاً أمام غيره ليدخلوا عن طريقه إلى ربوع الخير والمحبة والأخوة.

ولابد لكي ينجح بكسب محبة من حوله أن يكسب محبة وود نفسه أولاً، وهذا لا يستطيع الخليفة الحصول عليه والشعور به إلا إذا وجد طريقه إلى الله تعالى بحبه ووده وطاعته وخضوعه له عز وجل، فيصل بذلك لأن يجعل من قلبه مفتاحاً للخير والإيثار والتضحية، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١١٤٤].

وللخليفة العليم بالإضافة دور كبير يستوجب القيام به قولا وعملا وفعلا وفي كل ذلك عليه مسؤوليات من شأنها أن ترفع درجاته عالياً عند خالقه جل جلاله، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى

[١١٤١] الأنعام ١٣٣.

[١١٤٢] البقرة ١٦٠.

[١١٤٣] البروج ١٤ . ١٦.

[١١٤٤] الحشر ٩.

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[١١٤٥]، فما خصص الله تعالى هذه المكانة للعلماء إلا لأهمية دورهم في فتح أبواب الهداية والدعوة للحق بين الناس، فما من خير أو معروف يسود بين الناس إلا ويكون العلم دافعاً له ومحرضاً عليه، وما من طريقة لنشر فضيلة إلا وكان العلم أساسه، ولكن العلم ليس سواءً في الخير والشر، لأن العقل البشري مثلما يكون مفتاحاً للعلم أحياناً يكون بعلمه مفتاحاً للشر والجحود، يقود فيه العلماء الناس إلى الباطل والضلال، كالذين قال فيهم الله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آَيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ}[١١٤٦]، فهؤلاء علماء بني إسرائيل جلبوا بعلمهم الهلاك والكفر لشعبهم بالرغم من علمهم بالحق والهدى، فالعلم بدون الإيمان والخشوع لا يمكن أن يكون مفتاحاً للتقدم والرقي بل يكون قفلاً على كل حضارة وفوزا وانتصارا.

فطوبى لمن كان علمه فاتحاً للخير والحق في وجوه العباد، مغلقاً أبواب الضلال والفساد والهلاك، هذا العلم الذي أمرنا بالسعي عليه الفتاح جل جلاله.

وعليه على الخليفة أن يكون قلبه فتّاحاً للآتي:

أولاً: للأمل:

الأمل بذرة إذا غُرست في الأرض الصالحة أنبتت نفساً صلبة وقوية لا تنحني مع الهموم والأحزان، لأنه بوجود الأمل بقدرة الله ورحمته ووده وحلمه لا يمكن أن تنغلق أمامنا أبواب الفرج والفرح بنصر الله لنا على أنفسنا وعلى من كاد لنا وظلمنا، فالأمل يجعل من القلب مفتاحاً للقوة والصبر اللذان يرفعان من درجة المؤمن عند الله تعالى.

[١١٤٥] فاطر ٢٨.

[١١٤٦] الشعراء ١٩٢ . ٢٠٦.

فإذا تغلغل الأمل في النفس نزع اليأس من هذه النفس، لأنه لا يمكن أن يجتمع الأمل واليأس في نفسٍ واحدة، وهناك الكثير من الأمور لا تأتي إلا بوجود القوة التي تنبعث في النفس المملوءة بالأمل، فمثلاً النصر لا يمكن أن يأتي إلا بفتح باب الأمل في الله وفي نصره وتأييده عز وجل في القلب، قال سبحانه وتعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}[١١٤٧]، فالآيات الكريمة السابقة تدعونا بشكل مضمون إلى إحياء الثقة بالله والأمل بنصره، الذي من شأنه أن يلغي الفرق في القوة والعدد بين الفئتين، ولكي نكون على هذا النحو لابد من فتح باب حب الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام في قلوبنا، هذا الحب الذي هو أساس فتح الله لنا باب النصر والفوز على من يعادينا، والذي نراه اليوم من هزيمة للمسلمين وتصنيفهم من العالم الثالث فمرجعه كله لعدم فتح باب المحبة والثقة بالله عز وجل، لذلك فعلى خليفة الله في الأرض أن يكون مليئاً بالأمل بقدرة الله ونصره للحق دائماً عندها فلن تُغْلق في وجهه أبواب النجاح والنصر والرقي، فمن فتح باباً مع الله فتح الله أبواباً من الخير عليه.

ثانياً: فتَّاحاً للحب:

لا يمكن للمؤمن أن يصل إلى درجة رفيعة عند الله تعالى بدون أن يكون داعياً وفتَّاحاً لكل باب يأتي منه الحب والود، وهذا الحب إذا أردناه أن يكون في الطريق الحق لابد أن يكون منبعه هو حب الله عز وجل ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم قبل أي حبٍ آخر، لأن من شأن هذا الحب أن يفتح بابا من أبواب الجنة له، فيكون بذلك الحب من الفائزين، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[١١٤٨].

[١١٤٧] آل عمران ١٣.

[١١٤٨] صحيح مسلم ، ج١٣، ص٩١.

وبالتالي فإن فتح المؤمن الحقيقي باب الحب الصادق لله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يجعله محباً لنفسه ولمن حوله، فينغلق قلبه بهذا الحب عن أي شعور بالعدوانية والبغض والحسد لمن حوله، فينأى بذلك عن أي مرض اجتماعي من الممكن أن يصيب الإنسان الفاقد للحب والمودة.

وبالحب الصادق للحياة والخير والأرض والسماء يكون القلب البشري مفتاحاً لكثير من المشاعر النبيلة مثل:

الرحمة: التي طالما كانت مطلب الإسلام والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وكانت الرحمة بمثابة دعوة للمشاركة في الإحساس والتعاطف فيما بي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى" [١١٤٩].

التواضع: من المستحيل أن يسكن الكِبْر قلباً يفيض بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجميع المسلمين، فالكِبْر علامة جحود ومرض يجعل من الإنسان مغلقاً على حب ذاته لا يعترف بالحقيقة ويرفض التعايش مع غيره ممن هم أقل منه في المستوى طبعاً كما يراهم بغروره، وهذا ما نهانا الله تعالى عن التخلق به لما فيه من خلقٍ ذميم، قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}[١١٥٠]، وقال تعالى أيضاً: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[١١٥١]، من الآيتين السابقتين نستنبط مبدأً رائعاً إذا سار عليه المسلمون فلن نجد معه أي مسلم ذليل مهان ضعيف وهذا المبدأ هو الاعتدال الذي يتمثل في التواضع في الحياة فلا يكون الإنسان ذليلاً ولا يكون مغروراً بل واثقاً قوياً بالحق، لأن من مضار الغرور هو فتح باب الجحود ونكران النعم وغلق العقل عن تقبل الحقيقة.

[١١٤٩] صحيح مسلم ، ج ١٢، ص٤٦٨.

[١١٥٠] الإسراء ٣٧.

[١١٥١] لقمان ١٨.

أما التواضع فيجعل من الإنسان مرآة للحق تنعكس فيها الصورة الحقيقة دون تشويه أو تزوير فيها، فيكون بذلك قريباً من خالقه عز وجل ومن نفسه ومع من حوله.

ثالثاً: فتَّاحاً لسبل التضحية الحقة:

من أروع صور الإنسانية التي يتجسد فيها الحب الصادق هي التضحية والإيثار، وهي من الأمور التي لا تسهل على أي إنسان، من السهل الدعوة والمناداة بالتضحية كشعور فاضل ونبيل ويجب على المسلم التحلي به، إلا أن تنفيذه يبقى أمر صعب على الكثيرين ممن يواجهون مواقف تتطلب التضحية في سبيل الأحبة، ولكنها تسهل إذا كان القلب فتَّاحاً لحب الله جل جلاله وحب رسوله الكريم وحب الصالحين، فمن كان حب الخالق مهيمناً على فؤاده كان حب الخالق له مفتاحاً للسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١١٥٢]، والتاريخ الإسلامي مليء بالقصص والمواقف التي تتجسد فيها أروع وأنبل صور الإيثار والتضحية، لذلك فقد فتح المستخلفون فيها مشارق الأرض ومغاربها بهذه الأخلاق النبيلة التي تمكنوا بها من فتح القلوب قبل المدن والحصون، فكانوا فاتحين الأبواب الحصينة وفتَّاحين للقلوب العاصية والعقول الجاحدة بإذنه تعالى.

وإذا أراد الخليفة أن يكون مستحقاً للتحلي بصفات الخالق عز وجل فلابد أن يكون أولاً فاتحاً لباب الحوار مع الخالق ومع نفسه ومع من حوله:

أولاً: مع الخالق:

من المعروف أن الحوار يكون بين اثنين يتشاركان الحديث والسؤال والإجابة، وتبادل الآراء بينهما، وهذا من الممكن حدوثه من الفتّاح جل جلاله إذ يخلو الخليفة بنفسه ويتكلم إلى الله يشكو همه ويشكر نعمته ويطلب فرجه وستره ويسأله الحل والجواب الشافي من كل تعب وحيرة وبالتأكيد فإن الله عز وجل سيفتح قلبه وعقله وسيهديه لما فيه خير، فالخالق قريب من

[١١٥٢] الحشر ٩.

الإنسان يسمعه ويعلم ما به، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[١١٥٣]، وقال تعالى أيضاً: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[١١٥٤]، فاليقين بقرب الله منا هو بحد ذاته من شأنه أن يفتح باب الحوار واللجوء إليه لقربه منا.

وقد قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[١١٥٥] أن لقربه علامات تفتح باب الحوار معه ومن هذه العلامات نزول رحمته بالمستغيث به، فتكون بمثابة رداً شافياً ومرضياً للمؤمن الذي لا يمكن أن يطلبها من غيره، إذن فرحمة الله تعالى بعبده تكون مفتاحاً لأن يتابع المؤمن حواره ومناجاته مع الرحيم المطلق.

وكذلك فإنه جل جلاله يحاور المؤمن التائب بقبول توبته، فيفتح له باب الاستغفار والعودة عما كان فيه، بذلك يمكن أن يستشعر المؤمن برد الخالق على خوفه من عقابه وطلب السماح والمغفرة منه عز وجل، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}[١١٥٦] .

وكذلك أيضاً الدعم المعنوي للإنسان، قال تعالى في كتابه الكريم: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[١١٥٧]، فالسكينة إذا حلت بالنفس البشرية فإنها تفتح أبواب الطمأنينة والثقة والمحبة فيها، ولا يستطيع منحها لها إلا الفتاح عز وجل.

[١١٥٣] البقرة ١٨٦.

[١١٥٤] سبأ ٥٠.

[١١٥٥] الأعراف ٥٥، ٥٦.

[١١٥٦] هود ٦١.

[١١٥٧] التوبة ٤٠.

ثانياً: مع نفسه:

لابد أن يترك خليفة الله تعالى باب الحوار مفتوحاً دائماً مع نفسه، التي قد تحتاج إلي الطمأنينة أحياناً، وإلى العقاب والتوبيخ أحياناً أخرى لما ارتكبته من ذنوب وأخطاء، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[١١٥٨]، فالإسراف الذي جاء ذكره في الآية الكريمة السابقة إنما هو الشدة في عقاب النفس ولومها على ما اقترفته من ذنوب وخطايا، لذلك جاءت رحمة الله تعالى بهذه النفس التي تحاورت مع نفسها ووصلت إلى حد التوبيخ والعتاب والندم، هذه النفس البشرية التي تتعرض دائماً للزلات والأخطاء بسبب وسوسات الشيطان الرجيم الذي حذّرنا منه الله تعالى، وفتح لنا باب العلم بما يضمره لنا هذا الشيطان من عداوة وبغضاء في قوله سبحانه وتعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[١١٥٩]، فالشيطان الرجيم توعد الإنسان بالإغواء وزحزحته عن الصراط المستقيم، لذلك انقسم البشر ثلاثة أقسام:

أ- القسم الأول: من ليس له سلطة عليهم لقوة إيمانهم وحبهم لله تعالى، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}[١١٦٠]، فهؤلاء خلفاء الله تعالى في الأرض فتّاحين للخير داعين لحب الله.

[١١٥٨] الزمر ٥٣.

[١١٥٩] الأعراف ١٦، ١٧.

[١١٦٠] الحجر ٣٢. ٤٣.

ب- الخطاءون: الذين يخضعون لوسوسات الشيطان في أوقات معينة ثم لا يلبثوا أن يندموا على خطئهم ويرجعوا إلى الحق، فيتوبوا إلى الله ويستغفروه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٦١]، وكذلك قوله تعالى : {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٦٢]. وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[١١٦٣].

ج – أتباع الشيطان: وهم من يطيعونه ويتبعون خطواته، فيملك بذلك الشيطان السلطة عليهم فيأمرهم بالسوء والفساد، قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[١١٦٤]، وكذلك قوله تعالى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[١١٦٥].

ثالثاً: مع من حوله:

الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يبقى لوحده في هذه الدنيا، ولذلك تطلَّب وجوده ضمن مجتمع أن يكون هذا الإنسان محاوراً لمن حوله وإلا لأصبح وحيداً رغم كثافة البشر حوله، فلا يستشعر المرء بمن حوله إلا بفتح باب الحوار معهم فيأخذ منهم ويعطي لهم، فيكون بذلك إنساناً إيجابياً ذو قيمة في مجتمعه، لأن من شأن الحوار أن يفتح مئات الأبواب للتفاهم والحلول الصائبة لأصعب المشاكل التي تواجهنا، بالإضافة إلى اتساع ثقافة المرء وإدراكه من هذا التحاور البنّاء، ومن شأن هذا الأسلوب إذا اتبعه كافة فئات المجتمع أن يفتح أبواب الفائدة والمنفعة لجميع المسلمين، فالأب مثلاً عليه أن يكون محاوراً جيداً متفهماً لطلبات

[١١٦١] الأعراف ١٥٣.

[١١٦٢] النور ٥.

[١١٦٣] آل عمران ١٥٥.

[١١٦٤] القصص ٥٠.

[١١٦٥] النحل ٦٣

زوجته وأبنائه أيضاً، فيكون بذلك فتّاحاً للثقة بينه وبينهم والمودة والارتباط القوي الذي يجب أن يكون، ويغلق بهذا الأسلوب جميع الطرق المؤدية للانحراف والفساد وغيرهما، وكذلك على المعلم أن يكون محاوراً لطلبته ورب العمل لموظفيه وهكذا، ليصبح المجتمع بأكمله متفاهماً مترابطاً لا ينقصه العلم بفائدة الحوار.

فكم من الأمور الدنيوية من السهل حلها بواسطة الحوار والمناقشة، لأن كل مشكلة من الممكن أن تُحل أو على الأقل تصغر بوجود أسلوب التفاهم والمشاورة والأخذ بالرأي الآخر، ولا يمكن أن نخسر أو نضيع طالما أننا متكاتفون في الرأي ومتفاهمون، فبذلك نفتح أبواب التبادل النافع بيننا في الرأي والتفكير.

والفتّاح عز وجل يفتح علينا أبواب الخير لكي نفتح بدورنا أبواب المنفعة والخير لغيرنا، وذلك مثل:

١- في نزول الأمطار المحيية للأرض فتح لباب الخيرات على البشر، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١١٦٦]، فمن الآية الكريمة السابقة يفتح الله بابين للخير وهما:

أ . الباب الأول: هو باب سد حاجة الإنسان من الطعام،لأن في نزول المطر وخروج الزرع فائدة عظيمة تسد حاجة الإنسان من طعام ومن أموال، بالتالي فعلى هذا الإنسان الذي فتح الله عليه هذا الخير أن يفتح هو بدوره هذا الباب على المحتاجين ممن حوله، فلا يبخل بطعامه ولا بماله على الفقراء والمساكين، بل يجب أن يكون فاتحاً لباب الصدقات والعطايا، فيعطي مما أعطاه الفتّاح، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [١١٦٧]، وكذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ

[١١٦٦] الأعراف ٥٧.

[١١٦٧] البقرة ٢٥٤.

يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[١١٦٨]، فيكون بذلك قد فتح باب الخير على نفسه أولا بإتباع أوامر الله عز وجل ونيل رضاه، وبفتح باب الخير على غيره ممن هم في حاجة وعوز.

والباب الثاني: هو فتح باب التذكرة والعبرة والإدراك لأصحاب العقول التي تبحث عن الحق، وفي ذلك الخير الكثير، فالإنسان بدون عقل مفتوح على الحق والهداية فهو أقرب للدواب كما أخبرنا بذلك رب العالمين في قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [١١٦٩]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[١١٧٠]، فالمتأمل في قول الله تعالى والمدرك لحقيقة رحمته بالعباد وحبه لهم فإنه بذلك يفتح باباً للجنة والنعيم الخالد، أما من أغلق باب عقله وقلبه عن أوامره جل جلاله وترك نفسه للشيطان يقودها للباطل والهلاك فإنه يفتح بذلك باباً للوصول إلى النار.

ونحن ندرك أن مصير الإنسان في الآخرة محصور بين مكانين يوم القيامة، وهما إما الجنة وإما النار، ولكن كيف يكون الإنسان فتَّاحاً لأحدى هذه الأبواب؟.

يكون كذلك بالعمل الذي يسعى في الدنيا به، والذي يحكمه تغلب الخير أو الشر في النفس البشرية المسؤولة عن هذا العمل، فيختلف البشر بذلك في اختيارهم لفتح أي البابين منهما، قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

[١١٦٨] البقرة ٢٦١ ـ ٢٦٤.

[١١٦٩] الأنفال ٢١ ـ ٢٣.

[١١٧٠] الأنفال ٥٥.

مُخْلِصُونَ}[1171]، وقال تعالى أيضاً: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[1172]، فالخالق عز وجل بهداه ورحمته يفتح للعباد باب الجنة والنعيم لهم، ولكن منهم من يتبع الشيطان معرضاً بذلك عن أوامره عز وجل.

٢- فتح باب العلم لنا:

ليكون هذا الباب بمثابة نور من الله علينا نهتدي به إذا ضللنا الطريق، فالفتَّاح إذا فتح على المؤمن باب العلم النافع والمعرفة الصحيحة فذلك لكي يكون هذا الإنسان بدوره داعياً لنبذ الجهل الذي يؤدي للضلال، فيحارب كل ما هو بدع وخرافات ويعمل على نشر الحق وسيادة العلم في العقول والقلوب، إذن فالخالق بفتحه هذا الباب فإنه يأمرنا بأن لا نغلقه في وجه أحد، فكل أمور وتفاصيل حياتنا بحاجة إلى المعرفة والعلم لكي نكون على دراية كاملة ببواطن الأمور قبل ظواهرها.

إذن فالفتَّاح المطلق هو من يريد بنا الرحمة والنجاح في الدنيا والآخرة بفتح باب العلم لنا والإدراك والخير والنعم التي لا تعد ولا تحصى وكذلك بفتح باب التوبة والاستغفار والرجوع عن الخطيئة، لذلك على الخليفة أن يتصف بهذه الصفة الكريمة بأن يكون فتَّاحاً للخير والمعروف في الأرض ومع من حوله ومع نفسه، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[1173]، وقال تعالى جل جلاله: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ

[1171] البقرة ١٣٩.

[1172] القصص ٥١ . ٥٦.

[1173] آل عمران ١١٠.

قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}[١١٧٤]، فلا خير أبداً في عبدٍ يكون مفتاحاً للشر والفساد والرذيلة، لأنه بذلك يفتح أبواب جهنم له بإتباعه خطوات الشيطان الذي يأمر بالباطل وبالمفاسد، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}[١١٧٥]، فكيف يكون باب الجنة مفتوحاً لمثل أولئك المفسدين؟.

فعلى الخليفة أن يكون معيناً ومساعداً لنفسه أولا ولغيره ثانياً بأن لا يتوانى عن أن يكون فاتحاً ومفتاحاً للحقيقة التي تصل بالمرء للهداية وإدراك رحمة وحب وعظمة الخالق عز وجل، وأن يكون فاتحاً لأبواب الجنة التي لا تفتح إلا بالصبر على الحق والخير والعمل بهما:

أولاً: الصبر:

فلا تغلبه الدنيا بل هو الذي يغلبها بفتح الباب بينه وبين الرحمن الرحيم، بذلك فلن تُغلق في وجهه أبواب الجنة، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ والأنفس وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[١١٧٦]، وكذلك قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[١١٧٧]، إذن الصبر أحد مفاتيح الجنة التي تجعل من الإنسان على الأرض مستحقاً لأن يكون خليفةً لله جل جلاله، وأن يكون في الآخرة مستحقاً لجنان الخلد. قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١١٧٨].

ثانياً: العمل الصالح:

[١١٧٤] آل عمران ١١٣ . ١١٥.

[١١٧٥] النور ١٩.

[١١٧٦] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

[١١٧٧] آل عمران ١٤٢.

[١١٧٨] النحل ٩٦.

الإنسان في الحياة الدنيا حياته كلها أعمال منذ أول النهار إلى آخره، لأنه يتعرض للتعامل مع غيره فيعطي ويأخذ وهكذا، فالمجتمع قائم على تبادل الأعمال والمنافع بين الناس، ولكن اختلف البشر في نوعية الأعمال التي يتبعونها منهجاً ومسلكاً لحياتهم، فليست كل الأعمال صالحة وليست كلها فاسدة وهذا ما يحدده إيمان المرء وإخلاصه لله، فكلما زاد الإيمان نتج عن ذلك العمل الصالح الطيب الذي يرضاه الله تعالى، قال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[١١٧٩]، وأيضاً قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١١٨٠]، أما من كان عمله سيئاً ومفسداً فهو الذي يفتح بيده باب جهنم وبئس المصير، بما عملت أنفسهم وبابتعادهم عن الحق الذي أظهره الله لهم، قال تعالى: {إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[١١٨١].

فالعمل الصالح هو أحد مفاتيح الجنة التي أعدها الله تعالى لهم بعد أن فتح عليهم باب العلم بكيفية الوصول إليه والتمتع بنعيمها الدائم، والأعمال الصالحة التي من الممكن أن تُنجي العبد من الهلاك لا تحصى ولا تعد، مثل بر الوالدين والأنفاق في وجوه الخير، والجهاد في سبيل الله، والقيام بالعبادات على أكمل وجه، وغيرها من الأعمال التي يمكن للمرء أن يقوم بها في الحياة الدنيا فيكسب بها رضا الله ورضا نفسه ورضا الناس، فيفتح الله عليه الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ثالثاً: حب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام:

[١١٧٩] البقرة ٦٢.

[١١٨٠] النحل ٩٧.

[١١٨١] البقرة ٩٤ . ٩٦.

هذا الحب هو أساس الفتح الصحيح لكل أبواب الجنة، ولا يمكن أن يُفتح أي باب من أبوابها في وجه إنسان إلا بهذا الحب النبيل، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[١١٨٢]، فسر جميع مفاتيح الجنة هو إذن كامن في هذا الحب الذي لابد أن يتجسد في الأقوال والأفعال التي تصدر من الإنسان نفسه، فلا يمكن أن يدخل الجنة من كان فاقداً لهذا الحب الكبير.

رابعاً: إدراك حقيقة الشيطان الرجيم ولعنه:

ومن الممكن أن نصل لهذه الحقيقة بالتأمل في الآية الكريمة الآتية، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[١١٨٣]، فرد الشيطان على الخالق عز وجل عندما أمره أن يسجد لآدم عليه السلام بقوله: (أنا خير منه) من هذه الجملة ندرك مدى حقد الشيطان على بني آدم وتكبره عليه، وحب الانتقام منه، فإذا أدرك الإنسان حقيقة هذا الشعور ووصل إلى الإحساس بدرجة بغض وحسد الشيطان الرجيم للإنسان الذي كرّمه الله تعالى عليه فإنه بذلك يكون قد امتلك أحد مفاتيح الجنة الأساسية، لأنه من أدرك هذه الحقيقة نأى بنفسه وحماها من وسوساته، بل وغلب الشيطان وقهره بحب الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لأنه من رضي بأن يكون تابعاً لعدوه لا يستحق جنان الخلد التي أعدها الله وفتحها أمام كل راغبٍ بها ساعٍ إليها، قال تعالى: {يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا

[١١٨٢] صحيح مسلم ، ج ١٣، ص٩١.

[١١٨٣] الأعراف ١١ . ١٨.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[١١٨٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا}[١١٨٥]، فحقيقة الشيطان أوضحها لنا الخالق ليفتح لنا باب إدراك نيته ورغبته في إلحاق الأذى والضياع والهلاك بنا، ومن أجل ذلك يجب أن يكون الخليفة دائم التذكر لهذه الحقيقة المنجية له من العذاب وسوء المصير، فلا يكون فاتحاً لذلك الشيطان باباً من الاستماع له واتباع أوامره بل عليه أن يغلق كل باب يمكن أن يدخل منه ذلك الشيطان ولا سبيل لذلك إلا باللجوء لله جل جلاله، والإخلاص له في العبادة، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[١١٨٦]، فالذي يغلق باب جهنم هو الإخلاص لله في الحب والعمل.

خامساً: العلم النافع:

العلم المفيد النافع هو الذي يجعل من الإنسان فاتحاً لأبواب إدراك الخالق في كل شيء، والعلم المقصود هنا ليس هو الوصول إلى أعظم الاختراعات والاكتشافات فقط، بل هو المقرون بالبحث والسعي وراء حقيقة هذا الكون وهذا الخلق، فلا يكتفي بالمعلومات يحشو بها

[١١٨٤] البقرة ١٦٨.

[١١٨٥] الكهف ٥٠. ٥٣.

[١١٨٦] ص ٧١. ٨٣.

عقله دون تنوير ولكن لابد أن يمعن نظره فيما وراء كل شيء، فكم من عالِم وصل إلى أرقى الدرجات في العلم الحديث لكنه بالرغم من ذلك مازال جاهلاً بأمور نفسه وما ينفعها، ولأن على عاتق العلماء رسالة عظيمة يجب عليهم أن يؤدوا ما فيها على أحسن فهم مكلفون بها، إذ أنهم بالعلم يكونوا فاتحين لباب المعرفة والحقيقة أمام الكثير من العباد الذين ما يزالون يجهلون ما لهم وما عليهم من أمور دينهم ودنياهم، فبالعلم النافع لا يمكن أن يبقى أي باب مغلق في وجه الإنسان فلا يتخبط هنا وهناك ليس يدري أي الطرق هي الأصح، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا" [١١٨٧]، فمن شأن العلماء أن يكونوا فاتحين أو مضلين، إذ أن العالِم الحق يجب أن يكون خليفة الله في الأرض يسعى بالإصلاح والإعمار ولا يمكن أن يتمكن من ذلك ومن حوله يغرقون في ظلمات الجهل والضلال، بل عليه أن يبدأ بفتح الأبواب واحداً تلو الآخر حسب إمكانياته، لكي يرقى بمجتمعه إلى أعلى درجات الإيمان الصادق الصحيح الخالي من الخرافات والأباطيل التي أدخلها الجهلة في ديننا، فأغلقت الباب بينهم وبين الوصول للحق واليقين.

ولكي يفتح العلماء هذه الأبواب لابد أن يفتح الله عليهم أولاً السبل لذلك، ولكن كيف يفتح الله عليهم هذه السبل؟.

بتقرب العلماء إلى الله أولاً، فلا يأخذهم الكِبْر والغرور عن ذلك، فلا خير في علمٍ لا يرويه الإيمان، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[١١٨٨]، فلا يقف على حدود هذه الخشية إلا من امتلك العلم الكافي بما يستحقه هذا الخالق من خشية وحب، ففتح له الفتّاح المطلق باباً للهداية والنجاح، ولا يدخل مع خلفاء الله في الأرض من كان جاهلاً بأمور دينه ودنياه، فقد فرّق الله بين من يعلم وبين من لا يعلم في كثير من الآيات

[١١٨٧] صحيح بخاري ، ج١، ص١٧٦.

[١١٨٨] فاطر ٢٨.

القرآنية الكريمة، حيث كان العلم الفيصل بين من يستحقون فتح باب الجنة لهم وبين من يستحقون فتح باب جهنم لهم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[١١٨٩]، فمن الآيات السابقة نصل إلى نتائج مهمة وحقائق عديدة لأصحاب العقول الصحيحة منها:

أ – إن الله تعالى بعلمه المطلق والمسبق بعباده أدرك أنه من عباده من أغلق على نفسه باب الجهل والكفر، ويرفض أي إشارة للهداية والصلاح.

ب – بعث الرسل والأنبياء أكبر دليل على أن الخالق عز وجل هو الفتَّاح المطلق لعباده، فهو ببعثه لهم فإنه يفتح لعباده أبواباً من الهداية والنصح والرشاد، ويبقى بعد ذلك اختيار الإنسان نفسه لأي باب سوف يتجه.

ج – هناك بعض الأمراض التي تصيب الروح فتغلق باب العلاج في وجه المصلحين، كالكفر والنفاق والعصيان والجحود والغرور وغيرها، وكلها أمراض تصيب النفس البشرية بيد صاحبها، لأنه لا حجَّة لأي إنسان على الله بعد أن أرسل الرُسُل وبعث الأنبياء والمصلحين، ولكن هناك من البشر من رفض الطاعة والهداية ففتح بذلك باب العذاب وسوء المصير بيده،

١١٨٩ البقرة ٦ ـ ١٦.

قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[١١٩٠].

د- في سرد هذه القصص والحقائق عِبَر ومواعظ لمن أرادها، فمن شأن النصح والمواعظ أن تفتح باباً للتراجع والعودة للحق.

هـ- نستطيع من هذه الآيات أن نلمس رحمة الفتَّاح بعباده أجمعين، ذلك من خلال فتح باب النصح والموعظة وإرسال الرسل وترك باب العودة والرجوع له مفتوحاً.

فعلى الخليفة أن يكون ناصحاً ومرشداً بعلمه وبصبره، فلكل إنسان أسلوبه الخاص والمميز له في الصبر والتعامل مع الآخرين، ولابد أن يكون له الأثر الكبير في تغيير النفوس المغلقة بأن يفتح أمامها أبواب المعرفة والحب والأخوة، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فكان هو المعلم الذي فتح الله له باب العلم الحقيقي ليعلمه للعالم أجمعين، قال تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[١١٩١]، فطوبى لمن تلقى هذا العلم عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ولمن علّمه لغيره من البشر مؤدياً بذلك أروع رسالة للبشرية وهي فتح باب المعرفة والمودة والنصر، فالمعرفة لا تأتي إلا بالسعي ورائها والجهد في الحصول عليها وفتح العقل أمام الحقيقة الماثلة أمامنا، والمودة لا تسكن النفس البشرية إلا بفتح باب التسامح والرحمة اللذان نستمدهما من رحمة الخالق وتسامحه، وكذلك النصر فلا يمكن أن ننتصر في أي شيء مهما صغر دون أن نفتح أبواب القرب من الله تعالى فنكون بذلك خلفاء الله في الأرض كما أرادنا عز وجل، نعمّرها ونصلحها وننشر الفضيلة والحب فيها.

لذلك فمن أدرك أن الفتاح المطلق هو الذي يفتح خزائن الرزق بفتح باب العمل الجاد الصحيح، وهو الذي يفتح باب الهداية والحق لمن طلبها، وهو الذي يفتح باب الراحة النفسية

[١١٩٠] النساء ١٦٥.

[١١٩١] النجم ١ . ٥.

بفتح باب الرضا عليه، وهو الذي يفتح باب الاستجابة بفتح باب الدعاء واللجوء إليه، فلا يستعصى عليه شيء وكيف ذلك وهو القادر والمهيمن على كل شيء؟.

قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[١١٩٢]، فالإجابة للدعاء هو بحد ذاته فتح لأوسع الأبواب وأكثرها طلباً من العبد، لحاجته لله ولفتحه عليه أبواب الحياة المختلفة والتي يهيمن عليها الخالق عز وجل.

اللهم إنك الفتَّاح فأنر عقولنا بالعلم النافع وأنر نفوسنا بما تطمئن به، وافتح علينا أبواب السماء رحمة، وافتح علينا بالحكمة التي بها نُعمِّر الأرض ونستخلف فيها ونرث الجنة، قلت يا الفتَّاح وقولك الحق: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) اللهم يا الفتَّاح افتح علينا رحمة لا ممسك لها إلا أنت وأنت خير الفاتحين، اللهم افتح صدورنا للإيمان، واجعلنا من الذين يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ولَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا وآَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، اللهم اجعلنا من الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، ولا تجعلنا من الضالين وأرضى عنا إنك أنت الفتَّاح العليم عليك توكلنا والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الفتّاح افتح أبواب الأمل والرجاء في حبك وقربك، اللهم إننا ندعوك يا الفتّاح أن تفتح لنا من العلم واليقين ما يكفينا لأن نصل إلى جنتك فترضى عنا ونرضى عن أنفسنا، يا الفتّاح اجعلنا فاتحين لعمل الخير فلا نغلق أبوابه في وجه عبدٍ من عبادك، وفاتحين للكلمة الطيبة التي تسعد النفوس، وفاتحين للعلم النافع الذي يرقى بالعقول.

اللهم يا الفتّاح افتح بيننا وبين من ظلمنا بالحق كما فتحت على عبادك المؤمنين في قولك: {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}[١١٩٣].

[١١٩٢] النمل ٦٢.

[١١٩٣] الأعراف ٨٩.

العليم

العليم اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته الكريمة قال تعالى: {والله عليم حليم}[1194] وقال تعالى: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}[1195] وقال عز وجل: {والله هو السميع العليم}[1196].

في لسان العرب: "العليم هو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه"[1197].

قال الخطابي: "العليم هو العالم بالسر والخفايا التي لا يدركها علم الخلق"[1198].

قال الإمام الغزالي: "العليم هو المحيط علما بكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته"[1199].

وفي أسم العليم قال ابن القيم في نونيته:

وهو الذي أحاط علما بالذي ... في الكون من سرٍ ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيانِ

وكذلك يعلم ما يكون غدا ... وما قد كان والموجود في ذا الآن

وكذلك أمر لم يكن لو كان ... كيف يكون ذاك الأمر ذا إمكانِ[1200]

العليم: "الذي خلق الخلق هو أعلم به، وهو القوَّام عليه والمدبر له بعلمه المحيط، وإرادته النافذة وقدرته المنفذة"[1201] وفي ذلك يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "إن الله عز وجل يفتح أبواب العلم لمن يشاء من عباده، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر، إلا أن الكافر قد يفتح الله

[1194] النساء، ١٢.

[1195] البقرة، ١٢٧.

[1196] المائدة، ٧٦.

[1197] لسان العرب المحيط، ج الثاني، ص ٨٧٠.

[1198] محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص ٤١.

[1199] أبي حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. مصدر سابق، ص ٦١.

[1200] حصة بنت عبد العزيز، شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. الرياض . دار القاسم للنشر، ص ١٨٠.

[1201] محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص ٨٤.

عليه أبواب العلم بالدنيا، ولا يفتح عليه من العلوم الأخروية شيئا، ولو فتح له بابا منها لأسلم"[١٢٠٢].

العليم: صفة يمكن استمدادها من قِبل المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُهب لهم هبة من العليم المطلق مما يجعلهم علماء في دائرة النسبية.

العليم: هو المُدرِك لِما يَخلق قبل خلقه، والمُدرك لأمره أثناء خلقه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو المُذكِّر لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحق الذي به هو أعلم. إنه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلى النور. العلم الذي لا يقتصر على الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيدرك إدراكا. العلم الذي تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحُجَّة والبرهان والآية الدالة على الإثبات بالمطلق.

العليم المطلق: هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه جل جلاله، ولذا لا يستمد العلم إلا من عليم. فالعليم هو السابق على كل سابق ولا سابق عليه. فهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي يَنهي ولا يُنهى.

أما العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما ألمَّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة).

والعالم: هو المدرك لأمر الغيب والشهادة، وهو الذي يحيط بكل شيء علما، والمحتوي للكل والجزء والمتجزئ منه، فيسع كل شيء ولا شيء يسعه.

والعالم بالإضافة: هو المتمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشره كما هو حال الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرسل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

والعلاَّم: هو الباقي الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

ويتساءل الشيخ الشعراوي عن علم الغيب بقوله: "ما الغيب الذي أراد الله أن نؤمن به؟. ويجيب على ذلك بقوله: إنه الغيب الذي لا يكون مصدره إلا الله سبحانه وتعالى، ذلك أن

[١٢٠٢] المرجع السابق، ص ٨٦.

الإيمان لا يمكن أن يتعلق بشيء محسوس أبدا. فلا يقال على سبيل المثال: أنا أؤمن بأن الشمس ساطعة، أو أنا أؤمن بأن القمر يكون بدرا في منتصف الشهر العربي. فهذه حقائق ماثلة وليس بغيب. ويقول في رواية عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال ما معناه: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، وشديد سواد الشعر، ووضع ركبتيه على ركبتي رسول الله ووضع يديه على فخذي رسول الله، وسأل السائل رسول الله: ما الإيمان؟ أجاب رسول الله: أن تؤمن بالله (وهو غيب)، وملائكته (وهو غيب)، ورسله (وهو غيب)، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره (وهو غيب) وأضاف السائل سؤلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ومتى تقوم الساعة؟ أجاب الرسول: (ما المسؤول بأعلم من السائل) وأنصرف الرجل، فقال الرسول: أتعلمون من كان هذا الرجل؟ قلنا: لا نعلم يا رسول الله. أجاب الرسول: (إنه جبريل جاء ليعلمكم أمر دينكم)"[١٢٠٣].

وعلم الغيب: هو العلم الذي لا تدري به عقول وأذهان من يُسألون أو يتساءلون. وهو العلم المتعلق بالزمن وفقا للآتي:

. ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن المستقبل: من حيث أنه العلم الذي لم يأتِ زمن ظهوره بعد، ولا شواهد له في الزمن الآن. إنه العلم الذي سيحدث وتظهر معطياته وبراهينه بقوة علاَّم الغيوب في الزمن المستقبل دون أن يعلم بها أحد، قال تعالى: {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علاَّم الغيوب}[١٢٠٤]. بطبيعة الحال بما أن يوم الجمع لم يأتِ بعد فهو يُعدُ علم غيب إلى أن يُنفى بعلمه يوم يأتي في الزمن الآتي.

. ما يتعلق بعلم الغيب بالزمن الماضي: فعلى سبيل المثال: زمن بداية الخلق مع أنه وقع في الزمن الماضي إلا انه غير معلوم بالنسبة لمن خُلق، ولذا فأمره أمر علم غيب الذي لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جل جلاله؛ وكذلك ما وقع في الزمن الماضي مع أن الخالق أحصاه وعده

[١٢٠٣] محمد متولي الشعراوي، أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص٢٤٠. ونص الحديث في صحيح مسلم، ج ١، ص ٢٨.

[١٢٠٤] المائدة، ١٠٩.

عدا إلا أن العقل البشري لا يُدرك منه إلا القليل، ولذلك فهو يجهل الكثير منه، مما يجعل المجهول منه في عِداد علم الغيب الذي لا تُخفى عليه خافية. قال تعالى: {وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني اعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}[١٢٠٥]. لقد علّم العليم جل جلاله آدم الأسماء كلها، أي الأسرار كلها، ثم طلب من الملائكة التي لم تعلم بها أن تتنبأ بها فعجزت عن ذلك. فالذي يتضح من هذه الآية أن الأسماء لم تعد من علم الغيب بالنسبة لآدم بعد أن علَّمه وأعلمه الله بها، ولكنها علم غيب بالنسبة للملائكة التي لم تعلم بها بعد مثلما علم بها آدم صلوات الله وسلامه عليه. ولذا فعلم الغيب أصبح بالنسبة لآدم علماً ظاهراً، ويعده كما نحن نعده من علم الماضي. ولكن الملائكة الكرام في الزمن الذي طلب الله فيه منهم أن ينبئوه بالأسماء التي سبق أن علَّمها لآدم يعد الأمر بالنسبة لهم علم غيب، وظل العلم الذي أنبائهم به آدم علم غيب خلال الفترة الممتدة من علم آدم به إلى زمن ما قبل إنبائهم وإظهارهم عليه.

. ما يتعلق بعلم الغيب في الزمن الآن الحاضرة: إنه العلم الذي يحتوي الآتي:

١ . ما لا نتذكره من أحداث وقصص وآيات قد وقعت في الزمن الماضي.

٢ . ما لا نفكر فيه وسيحدث لا محالة في الزمن المستقبل.

ولذا فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم الإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكراتنا ولا نحيط به شيء. وهو العلم الذي إن سؤلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل.

والأصل في العلم هو الغيب، والاستثناء منه هو الظهور، وإلا ما معنى أن الله خلق الشيء من لا شيء؟ أنه يعني قد خلق الله مما لا نعلم شيئا نعلمه، أي أننا عُلِمنا مما لا نعلم علما. ووسيلة الإطلاع على علم الغيب هي الرسالات التي نزلت على الرسل صلوات الله وسلامه

[١٢٠٥] القيامة، ٣١ . ٣٣.

عليهم، الذين بُعثوا لأممهم وقراهم وشعوبهم ومن بعث للكافة جميعهم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر الله عليه أبونا آدم عليه الصلاة والسلام الذي اصطفاه الله بالعلم مما خلق وخصَّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر الله في الاصطفاء. وهكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلومها على بقية الرسل الذين منهم نوح وآل إبراهيم وآل يعقوب وإسحاق وإسماعيل ويوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

وبما أن علم الغيب هو الأصل، والظهور هو الاستثناء، إذن من حق الجميع أن يقولوا صدق الله العظيم فيما قال: (وما أتيتم من العلم إلا قليلا)، وصدق الله العظيم فيما قال: (وقل ربي زدني علما). وبناء على هاتين الآتين الكريمتين، تتأكد المعطية التي تقول: (إن الاستثناء جزاء قليل من كل كثير) ولهذا فالاستثناء هو ما أُتينا من العلم إلا القليل، وهذا يدل على أن العلم الوفير هو علم غيب وهو القاعدة، مما يستوجب على المؤمن أن يسعى والأمل معه وهو ويقول: ربي زدني علما من علمك الواسع يا عالم بأسرار الغيب يا مجيب.

وعلاَّم الغيوب: هو المدرك لِما لا تدركه العقول إلا بعلمٍ منه. وعلاَّم صفة مبالغة في العلم بالدليل والحجة والبرهان والآية. والعلاَّم: هو الذي تسبق معرفته بالشيء قبل أن يكون شيئا.

والعلم: محتوى ومضمون لكامن وظاهر، يُعلَّم من عالمٍ ويُستمد من عليم حكيم.

وللعلم علاقة مباشرة بالحكمة، والسمع والخلق والعزة والقدرة والفتح والخبرة وفقا لما جاء في قوله تعالى في الآيات التالية:

١ . علاقته بالحكمة مصداقا لقوله تعالى: {قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}[١٢٠٦].

٢ . علاقته بالسمع كما قال تعالى: {وتوكل على الله انه هو السميع العليم}[١٢٠٧].

٣ . علاقته بالخلق كما قال تعالى: {إنَّ ربك هو الخلاق العليم}[١٢٠٨].

[١٢٠٦] البقرة، ٣٢.

[١٢٠٧] الأنفال، ٦١.

٤ . علاقته بالعزة، مصداقا لقوله تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهم العزيز العليم}[١٢٠٩].

٥ . علاقته بالقدرة، قال تعالى: {يخلق ما يشاء وهو العليم القدير}[١٢١٠].

٦ . علاقته بالفتح، قال تعالى: {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم}[١٢١١].

٧ . علاقته بالخبرة، قال تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}[١٢١٢].

والعليم بالإضافة هو المُلِم إلماماً بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، مما يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {وكذلك يجتبيك ربك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنَّ ربك عليم حكيم}[١٢١٣]. ولأن أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هيناً فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف عليه الصلاة والسلام خير مُفسر للأحاديث، التي علمه العليم تأويلها. وقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يقصد بالنعمة النبوة التي

[١٢٠٨] الحجر. ٨٦.

[١٢٠٩] الزخرف ٩.

[١٢١٠] الروم ٥٤.

[١٢١١] سبأ، ٢٦.

[١٢١٢] التحريم، ٣.

[١٢١٣] يوسف، ٦.

أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وفي قوله (إنَّ ربك عليم حكيم) فهي تدل على علمه وحكمته من وراء العلم الذي أظهره الله ليوسف والنبوة التي أتمها عليه كما أتمها من قبل على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

وفي آية أخرى يقول تعالى: {وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض ولِنُعلِمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون}[١٢١٤]. فإذا نظرنا لخاتمة هذه الآية (ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون) نلاحظ أن العلم الذي علَّمه الله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصَّ الله به يوسف ليظهره للمستهدفين به من قومه، وليبقى من بعده آية تروى مع قصص الأنبياء كما نحن في هذه الموسوعة نحلل ونفسِّر ونروي.

ولنعود لقوله (وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض) أي بعد ما رماه أخوته في الجب لا لذنب إلا لأن محبته في حالة تميُّز عند أبيه صلوات الله وسلامه عليهما أصبح في محبة الملك، الذي اشتراه حتى تمكَّن من بيت التخطيط والمال، مما جعل سمعته قدوة حسنة لدى الملك وفي محيطه الاجتماعي القريب والبعيد. وإلى يومنا هذا بين أيادينا آية.

وقوله (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) ولنمكنه من معرفتها وكشف أسرارها وتفسيرها لمن يتعلق الأمر بهم أو ذوي العلاقة، وهذه حكمة خصَّ بها الله تعالى يوسف عليه الصلاة والسلام.

وتأويل الأحاديث: التمكن من التعرف على عللها وتفسيرها وفقا للأحداث المتعلق الأمر بها، وهي أيضا كما يقول القرطبي: تأويل الرؤيا والكلام وأحاديث الأمم ودلائل التوحيد[١٢١٥].

وقال تعالى: {ولما بلغ أشده أتيناه حُكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين}[١٢١٦]. بلوغ الأشد، بلوغ النضج والاكتمال العقلي والبدني والاستعداد لحمل المهمة التي ستناط به من ربِّ العالمين.

[١٢١٤] يوسف، ٢١.

[١٢١٥] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص ١٩٠.

[١٢١٦] يوسف، ٢٢.

حينها آتاه العليم سرا فقضى له بالحكم في سلطان الملك وآتاه النبوة، ثم آتاه علما نافعا به تمكّن من تأويل الأحاديث. وهكذا ربنا يُكرِم الذين يتولاهم بإحسان، ولذا فالمحسنون هم الذين يكثرون من أفعال الخيرات الحسان ويتمسكون بصفات الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم، وهكذا كان يوسف عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض ليصلح فيها ويعمر.

وقال تعالى: {ربي قد آتيتني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليِّ في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين}[١٢١٧]. يوسف عليه الصلاة والسلام قد عرف أنه لم يؤت المُلك وتأويل الأحاديث بالمطلق، بل أوتي شيء من الملك ومن تأويل الأحاديث مصداقا لقوله تعالى {وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[١٢١٨] أي أن الكمال لله وحده ولهذا لا يمكن أن يكون أحد مماثلا له جل جلاله في شيء، ومع ذلك فالذي يُراد له أن يكون خليفةً في الأرض يُراد له أن يسعى ويبحث ليزداد علما من علم العليم الذي بيده مفاتيح العلم، ولذا قال تعالى: {وقل ربِّ زدني علما}[١٢١٩] أي زدني إلماما وفهما ومعرفة بما أحطتُ به علما.

وقوله (فاطر السماوات والأرض) خالقهنَّ من لا شيء نعرفه سبحانه على كل شيء قدير، ومن هذا الأمر كانت الفطرة التي خلق الله عليها طبيعة الأشياء كما هي عليه في الوجود، والفطرة ترتبط بخالقها ولا ترتبط بمن سواه، ولذلك خلق السماوات والأرض على الفطرة رحمة للعباد.

وقوله (أنت وليِّ في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين) تحتوي هذه الآية الكريمة على أمر التسليم المطلق لله تعالى في الدارين، والمراد من وراء ذلك طلب المناصرة والعون على مغالبة النفس وأهوائها ومغالبة الصعاب، وطلب الرحمة والمغفرة حيث الكمال لله وحده.

[١٢١٧] يوسف، ١٠١.

[١٢١٨] الإسراء، ٨٥.

[١٢١٩] طه، ١١٤.

وتُظهر هذه الآية رغبة يوسف في الالتحاق بمن سبقه من الصالحين رضوان الله وسلامه عليهم.

وعليه فالعليم هو مصدر العلم من الأدق إلى الأدق منه والأشمل، وهو الذي لا تخفى عليه خافية فأينما تكون لا تخفى عليه فهو خالقها وخافيها حتى يظهرها على من يشاء من عباده متى ما شاء. قال تعالى: {وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}[١٢٢٠]. علَّم آدم الأسماء كلها: أظهره على الأسرار وعرَّفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ حتى أنه المَّ بها إلماما وإدراكا تاما غير منقوص، ولإظهار عدم معرفتها خُضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها، فقالوا: سبحانك، وفي هذا القول كما قال القرطبي تنزيه الله تعالى عن أن يعلم الغيب أحد سواه[١٢٢١]. وقوله (لا علم لنا إلا ما علمتنا) أي لا علم لنا بشيء لم تُظهرنا أو تطلعنا عليه، فأنت سبحانك العليم بكل اسم ومسمى.

وقوله (إنك أنت العليم الحكيم) في هذه الآية تحديد لأسم الله الذي لا يحده حد ولا تحوطه نهاية بأنه هو العليم الحكيم، أي أن العلم والحكمة أسمين من أسمائه الحسنى وصفتين من صفاته الكريمة.

قال تعالى: {فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم}[١٢٢٢]. لقد كان إبراهيم خائفا من الملائكة الذين لم يعلم بأمرهم وهم على هيئة بني آدم وليؤمنهم أعد لهم طعاما يليق بضيافتهم.

وفي هذا الشأن قال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بثمن. قال: كلوا وأدوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟. قال: تسمون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض

[١٢٢٠] البقرة، ٣٢.

[١٢٢١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول. ص ٢٨٧.

[١٢٢٢] الذاريات٢٨.

وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلا. وبشروه بغلام عليم هو إسحاق الذي سيولد له من زوجته سارة، وله من العلم ما يجعله عليما من علم الله عليه[١٢٢٣].

قال تعالى: {قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[١٢٢٤]. بعد أن علَّم العليم جل جلاله آدم بأسمائهم قال له أنبئهم بها فأنبئهم، وذلك ليُثبت لهم بأن آدم هو اعلم من علمه منهم، وفي هذا الأمر تفضيل كبير لآدم على بقية من خلق، وبهذا التفضيل أصبح بنو آدم هم المستخلفون في الأرض. مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون}[١٢٢٥].

وعليه فبأسباب العلم التي ميَّز بها العليم آدم جعله بها خليفة في الأرض ليعمرها ولا يفسد فيها ولا يسفك الدماء وبهذه الحُجَّة (حُجَّة العلم) كان الاستخلاف في الأرض، وعلينا أن نقول العلم الذي وهبه الله وعلَّمه لآدم هو سبب الاستخلاف، ولذا فمن كان على علمه تعالى كان خليفة، ومن لم يكن على علمه تعالى فليس له علاقة بالاستخلاف في الأرض ولكنه من المخلَّفين عليها. ولأن الملائكة مؤمنون فكان حال قلوبهم يقول وهم ينفذون أمر السجود لآدم: سبحانك جل جلالك ما فعلت هذا باطلا، وذلك ليستغفروا على قولهم (أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك). وبسجودهم هذا كانوا يظهرون إيمانهم وتسليمهم لقوله (إني اعلم ما لا تعلمون). والعلم الذي يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة هو أن الله يعلم أن آدم وحده هو القادر على الأنباء بالأسرار التي علمه إياها. ولذا فإن الذين يفسدون في الأرض من بني آدم ويسفكون الدماء فيها بغير حق هم ليسوا بخلفاء، وذلك لأن الخلفاء في الأرض هم المصلحون فيها. مصداقا لقوله تعالى: {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين

[١٢٢٣] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الجزء السابع عشر، ص ٤٦.

[١٢٢٤] البقرة، ٣٣.

[١٢٢٥] البقرة، ٣٠.

يفسدون في الأرض ولا يصلحون}[١٢٢٦]. وقوله تعالى: {وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين}[١٢٢٧] من الآيتين السابقتين يبرز وضوح العلاقة بين الأرض والاستخلاف فيها على الإصلاح، ويتضح في الوقت ذاته أنه لا علاقة للاستخلاف مع من يفسد فيها.

وقوله (إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون) تحتوي هذه الآية على أربع قضايا من علم الغيب:

. القضية الأولى علم غيب السماوات: السماوات مليئة بالأسرار ولم يكشف أمرها بالتمام، فنحن بنو آدم من المستخلفين في الأرض تمكنًّا من أن نلم بشيء من علوم الأرض ولم نتمكن إلا بالقليل القليل من علوم السماوات التي لا نعلم إلا بعددها (سبع سماوات) وما يحيط بها من كواكب ومدارات فلكية ولكن أين بداياتها ونهاياتها بالتحديد الدقيق وعلى ماذا تحتوي وأين الحياة فيها فهذه في مُعظمها علم غيب لا يعلمه إلا العليم بأمر خلقها سبحانه عز وجل. فأمر السماوات أمر علو طبقي من السماء الدنيا التي تحيط بكوكبنا وهي تحمل في مداراتها مالا يستطيع بشر إحصاءه من المصابيح العاكسة للضوء ليلا حتى يتمكّن الإنسان من مشاهدتها وملاحظة حركتها وهي تتلألأ من اتجاه إلى اتجاه وذلك ليرينا بعض من آياته العظام.

إذا كان أمر السماء الدنيا هكذا فما بالنا بأمر السماوات التي لم يتم كشفها بعد، وكما سبق أن قلنا لا علم لنا إلا بعددها إبلاغا خبريا، أمَّا ما هي عليه وكيف هي بالتمام فهذا الأمر لا زال علم غيب، والحكمة من وراء إبلاغنا بالعدد دون أن يظهرنا على مكوناته هو لكي نفكر ونسعى ونبحث ونتعرف ونتطلع إلى ما خلق الخالق العظيم لنجله ونعبده ولا نشرك به أحدا. وإلى أن يظهرنا الله عليها أو على بعض منها سيظل علمها علم غيب.

[١٢٢٦] الشعراء، ١٥١، ١٥٢.

[١٢٢٧] الأعراف، ١٤٢.

قال تعالى: {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهنَّ نورا وجعل الشمس سراج}[١٢٢٨]. يا الله سبحانك ما أعظم شأنك أشهد أنك لم تكن في حاجة لمن يعبدك، وأشهد أن من يعبدك هو في حاجة إليك، لقد خلقت كل هذا ولا زلت تخلق فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر لا إله إلا أنت. أنت الذي خلقتنا وأنت الذي تعلم بحالنا، وأنت الذي يُتَوَدَّدُ إليه فنستغفره ونؤمن به ونفوز برحمته، ونحن منَّا من يعتقد بأنه لا ضرورة لذلك ويطغى، هؤلاء حالهم يا الله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن يخرج منها، فهم يظنون كما هو يظن، أنه لا عالم أكبر وأوسع وأعظم من العالم الذي يحوطه بجدار البيضة.

ولأجل أهمية التوضيح بالمقارنة بين من يدرك وبين من لا يدرك على مستوى ما خلقت يا واحد يا أحد يا من لا يقارن بأحد، أعيد على القراء الكرام كتابة جزءٍ من قصة عالم الكتكوت التي اقتبستها من كتابنا المعنون بـ(البستان الحلم) والتي تطرقنا إليها في الكتابة عن اسم المهيمن جل جلاله.

قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهارا وينامون على أغصانها ليلا، فسأل أحد الكتاكيت أمه: هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه؟.

فأجابته بنعم.

وما هو يا أمي؟.

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدَّم لكم الخدمة من أياد البشر المفضلين عليكم في الخلق.

أنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدِّمون لنا الخدمة.

[١٢٢٨] نوح، ١٥ ،٦١.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء.

ولكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم.

إنكم سترون غدا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويا ومن يمشي مُكِبّا على وجهه، وستميزون بين الطائر والزاحف كما تميزون بين اليابسة والماء، بعدها تعرفون أن ما قلته لكم هو الحق.

نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه.

أنتم وعالمكم الذي تدَّعون باتساعه كلكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم نشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أن الأمر هكذا، إذن يبدو أنكِ مُصرة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي ولكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكل أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية، ونحن على يقين أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه.

غدا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن.

وما هو سر لن هذه؟

أن تموتوا داخل البيض أو أن غدا لن يأتي عليّ وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمرا.

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلى صوته فتساءلت: وما هذا الصوت المدوي يا أماه؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة الطبيعية ليراكم بأم عينيه تأكلون الحب وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

أنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلى المستقبل).

صُراخ . . . صُراخ . . . يُكسَّر البيض من شدة الصراخ، ما هذا النور؟ وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يُقدِّم لنا الخدمة ويسهر على راحتنا؟ .

بكاء . . . بكاء وفرحة . . . فرحة . . . صدقتِ يا أمنا صدقت، ولكن أين الغذاء ؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربوا مناقيركم في الأرض فأنا لا ارضع.

إنَّ ما نستنتجه من هذه القصة اللطيفة هو أن الذي يجهل الأمر لا يدرك عاقبته فحاله كحال الكتكوت في البيضة قبل أن ينضج للخروج، وهؤلاء هم الذين لا يدركون ما يُلحظ وذلك لقصر عقولهم على ما يُحس به أو يُبصر. وهكذا حال الذين يظنون بأن ما على الأرض لا يساويه شيء آخر، ولا يوجد ما هو أعظم منه، بل أن بعضهم يظن لا وجود لشيء خارج الأرض والسماء الدنيا، فلا خالق ولا جنة ولا سماوات سبع ولا حساب ولا عقاب إلى أن يفاجئوا كما فوجئ الكتكوت يوم أن خرج بالقوة من البيضة. والفرق بين أمرهم والكتكوت هو أن الكتكوت وجد العالم الواسع بمقارنة عالمه داخل البيضة مع العالم الذي تمتد الأرض فيه حتى تلامس السماء، أما أولئك البعض الذين عرفوا وأنكروا أو أنهم ظنوا ولم يدركوا أو أنهم عرفوا وأشركوا

هؤلاء ومن هم على مثلهم ليس لهم مناقير ليضربوا بها الأرض؛ فيوم أن تُطوى السماوات وتُنقص الأرض من أطرافها سيجدون كل ما فعلوه محضرا ولا تظلم نفس بذنب لم تقترفه.

ويومها يصبح الحق للذين آمنوا بأن يعيدوا على الذين أشركوا وكفروا ما قاله الله تعالى في كتابه العزيز: (الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهنَّ نورا وجعل الشمس سراج)؟. يومها لا تنفعهم الإجابة وهم بما عملوا حطب في نار جهنم.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[١٢٢٩] بطبيعة الحال خالق الأشياء لا تُخفى عليه خافية، ولهذا تُعد عملية الخلق معلومة للخالق ومجهولة لِمن سواه، مما يجعل أمر علمها أمر غيب على من لم يكن بخالق. قال تعالى: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين}[١٢٣٠].

علم الغيب مع انه حقيقة إلا أن المشركين ناكرون له، وللمغالبة جاء بقوله: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا) أي لو جئنا بهم صعودا مع أبواب السماء المفتَّحة لصعودهم ورأوا بأمهات عيونهم الحقيقة لأنكروها وكأن عيونهم فاقدة للبصر الذي به رأوا ملائكة السماء وشاهدوا معجزاته العظام لأنكروا وهم يصرون على الكفر. ومع أن في السماء علماً معلوماً ظاهراً كالكواكب والنجوم ومنازلها الواسعة التي تحتوي الشمس والقمر ومدارتها الفلكية، إلا أن معظم ما في السماء هو علم غيب ولم يؤتِ الخليفة منه إلا قليلا. قال تعالى: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب}[١٢٣١] بناء على هذه الآية نحن بنو آدم المؤمنون حقا نعتقد بأن لكل بداية نهاية، مصداقا لقوله تعالى: {كما بدأنا أول خلق نعيده}[١٢٣٢] ولذا فالأمر الطبيعي كما بُسطت الأرض وسُطحت في البداية فهي ستعود إلى الحالة التي كانت عليها قبل أن تبسط وتُسطح مطوية حالها كحال الصحيفة المطوية في

[١٢٢٩] آل عمران، ٥.

[١٢٣٠] الحجر، ١٤. ١٦ .

[١٢٣١] الأنبياء، ١٠٤.

[١٢٣٢] الأنبياء، ١٠٤.

اليدِ الواحدة مصداقا لقوله تعالى: {والسماوات مطويات بيمينه}[١٢٣٣] والغيب في هذا الأمر هو متى ستطوى؟ لا احد يجيب. وكيف تطوي في يمينه مع التشبيه بطي السجل للكتاب؟ وكيف حال يمينه هذا الأمر لا يعلمه إلا الله عالم الغيب والشهادة الذي لا نراه ولا نتخيله في أي صورة فهو المصور المطلق الذي لا يُصوَّر بالمطلق.

. القضية الثانية علم غيب الأرض: الأرض هي الكنز الكبير وبيت الكسب الممتلئ بالوفرة لِمن أراد أن يكسب منها حلالا، وعلى أديمها نعيش فنحرث ونزرع ونحصد ثم نأكل، ومن باطنها نستمد الكنوز المتنوعة من ماء وذهب أسود واصفر وجميع أنواع المعادن النفيسة، ومع ذلك وُزِّعت الأرزَّاق على العباد في سهولها وجبالها وصحاريها وبحيراتها وبحارها ومحيطاتها وينابيعها ووديانها وأنهارها، وإذا ما غضبت وتزلزلت قذفت بقوتها الحجارة والصخور الصماء ونيران البراكين على رؤوس الذين يُسدوا فيها ولم يحسنوا إصلاحها.

قال تعالى: {إذا زُلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذٍ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم}[١٢٣٤]. علم الزلزلة من علم الغيب من حيث متى ستهتز الأرض وتتزلزل، وفي أي مكان بالتحديد، ومدى قوة زلزلتها؟. وما هي الخسائر المترتبة على ما تُلحِقهُ الزلزلة من دمار؟. فالذي يعلمها قبل أن تُظهر مؤشراتها هو العليم المطلق. أمَّا العليم بالإضافة لا يعلم أمرها إلا بعد أن يصدر لها صاحب الأمر أمر الزلزلة حينها تبدأ في حالة امتداد وثوران قابلان للقياس والرصد بالعلم الذي تَمكَّن العليم بالإضافة من معرفته من العليم المطلق. فالذي لا يعلم بأمر الزلزلة يفاجئ بزلزلتها وهي تخرج أثقالها وتقذفها مع براكينها بعيدا مما يجعله يتساءل: مالها؟ أي ما الأمر؟ وما الذي يحدث؟. أسئلة استغرابية حتى يعلم أنها الزلزلة أو يُخبر بأمرها في يوم من الأيام ليجاب على استفساراته الإستغرابيه عن حالة الأرض وما المَّ بها بقول الذين يعلمون بأن ربَّك هو الذي أوحي بأمره للأرض بأن تتزلزل، يومها يعلم الناس إنَّ زلزلة الأرض من علم الغيب.

[١٢٣٣] الزمر، ١٧.

[١٢٣٤] الزلزلة، ١ . ٦ .

أمَّا المؤمنون المستخلفون فيها فهم يدركون يقينا إن أمرها من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقال تعالى: {ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض}[١٢٣٥]. أهواء المشركين تظن أن في الأرض آلهة متعددة وليس إلها واحدا، ولأنه لا إله إلا الله فلا وجود لآلهة إلا قولا وشركا وكفرا، فلو كانت في الأرض آلهة لكان الاختصام والمواجهة بينهم على من يصدر الأمر، ولمن يُصدر؟، ومن الذي يطيعه؟؛ ولو كان الأمر كذلك لفسدت السماوات والأرض بالأوامر المختلفة للآلهة، فالحمد لله الواحد الأحد الذي لم يكن له والد ولا والدة ولا ولد، ولا صاحبة ولم يشاركه في الملك أحد سبحانه جل جلاله.

. القضية الثالثة علم غيب الظاهر (ما تبدون): ما تبدون تعني ما تُظهِرُون وتُعلنون وهي أيضا تعني ما يبدو لكم ظاهرا؛ فالله يعلم أمره قبل إعلانه وبعد، حيث لا سر عن علاَّم الأسرار والحِكم التي من ورائها. قال تعالى: {إن تُبدو شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما}[١٢٣٦] وكان بكل شيء عليما: تدل على أسبقية علمه بالأشياء بالمطلق.

قال تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}[١٢٣٧] مع أننا نؤمن به يقينا ونعرف صفاته الحسان يقينا إلا أننا لا نراه بأمهات أعيننا، وذلك لأنه لم يكن مادة مجردة ولا روح مجردة بل هو الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو الذي نَعلمه ونُدركه ونَخافه ونتقيه ونسجد له ونركع، ولا نسجد ولا نركع لسواه، هو الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وهو الحي الباقي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، خلق كل شيء ويحيط بكل شيء علما سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار.

وفي علم الظاهر قال تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر}[١٢٣٨] جاء في هذه

[١٢٣٥] المؤمنون، ٧١.

[١٢٣٦] الأحزاب، ٥٤.

[١٢٣٧] الحديد، ٣.

[١٢٣٨] الغاشية، ١٧ . ٢١.

الآيات شواهد للظاهر مع استفسار عن الكامن الذي من ورائه وهو أننا نظرنا إلى الإبل والسماء والجبال والأرض ولمسنا منها ما لمسنا وعرفنا منها ما عرفنا ونظرنا ومشينا وشربنا ولبسنا وبنينا، ولكن هل نستطيع أن ننظر إلى الكيفية التي بها وعليها خُلقت لأجل أن نعرف؟. إنه من حقنا أن نسعى لنعرف، ولكن كلما عرفنا منها شيئا آمنَّا بأن أمر الكيفية التي عليها وبها خلقت هو أمر غيب؛ ولأنه أمر غيب، لذا فنحن لأمر الغيب ليس بناظرين. وهكذا حال المخلوقات وفقا لما تنص عليه القاعدة: (المخلوق لا يرى خالقه في الدنيا والخالق يرى ما خلق).

القضية الرابعة علم غيب الباطن (ما تكتمون): الكتمان الإخفاء وعدم الإباحة بالسرِّ الذي ليس بسرٍ على من يعلمه، قال تعالى: {فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم}[١٢٣٩] أي أنه أخفاها ولم يظهرها لهم مع أنه شعر بذنبهم نحوه بما رموه به من سرقة، وهو لم يكن من السارقين، إلا رميا بغير حق يوم أن أخذ الصنم من جدِّه أبي أمه وكسره[١٢٤٠]. ومع أن أخذ الصنم وكسره ليس بعمل باطل إلا أن إخوته كانوا من الظانين به، لا لشيء إلا لحب أبيه له وكأنه المُفضَّل عليهم، فما قام به يوسف عليه الصلاة والسلام هو عمل حق وفعل حق، وليس بفعل سرقة. فالسرقة سِرُّها أن تُخفى ويتم الاحتفاظ بالمسروق للفائدة الشخصانية غير المشروعة، وهذا ما لم يحصل مع يوسف والصنم الذي أقدم على تكسيره. إنه عمل خير من قبل من كانت النبوة فيهم.

قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}[١٢٤١] ما يخفونه في أنفسهم هو الذي يعلمه العليم الحكيم، فهم يعلنون الإيمان ويخفون في صدورهم حقيقة أمرهم وهو الشرك والكفر والتكذيب، وهم على هذه الحالة يظهرون للرسول بأنهم من الذين آمنوا ويخفون له في أنفسهم ما لا يظهرونه وهو الشرك بالله تعالى.

[١٢٣٩] يوسف، ٧٧.

[١٢٤٠] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص ٢٣٩.

[١٢٤١] آل عمران، ١٥٤.

وعلم الغيب هو العلم المُدرَك لِما لا يُدرَك، وهو ينقسم على جزأين:

الجزء الأول: كل ما خلقه الخالق هو يعلمه، وهو العلم الذي لم يطَّلع مخلوق عليه، فهذا الجزء علمه يقع في دائرة الغيب المحاطة بالاستحالة. فمع أنه علم كامل بالانجاز الخلقي، إلا أنه بالنسبة لبني آدم هو خارج دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، وسيظل أمره مستحيلا إلى أن يخرج أو يخرج شيء منه من دائرة المستحيل ويدخل في دائرة الممكن، التي من بعدها يتم التعرف عليه أو التعرف على شيء منه. وهذا الأمر لن يتم إلا إذا أراد العليم المُدرك لما خلق أن يظهرنا عليه أو يظهرنا على شيء منه.

الجزء الثاني: هو الذي لم يُخلق بعد وسيخلق لا محالة هو الآخر علم غيب لا يعرفه إلا الذي سيخلقه حيث لا مستحيل أمامه، فهو الذي إذا أراد شيء أن يكون، يقول له كن فيكون، سبحانه أنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم. وعليه لا ينبغي الاستغراب لأن الله على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وعليم.

الاستغراب حدوده محيط دائرة الممكن، التي هي في حدود العلم البشري، الذي يمتد ويتقيد بالقدرة والاستعداد، إما دائرة المستحيل فهي الدائرة التي لا يمكن أن يدخلها العلم البشري، وذلك لأن أمر علمها أمر غيب، والغيب لا يعلمه إلا علاَّم الغيوب جل جلاله. ولذا فمحيط دائرة الممكن أبعاده نسبية. أما محيط دائرة المستحيل فأبعاده مطلقية.

قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسولٍ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}[١٢٤٢]. ولتبيان ما تضمنه هذه الآية الكريمة علينا أنْ نعرف دلالة المعنى لكل من العالم، والغيب حتى نُدرك دلالة عالم الغيب جل جلاله:

العالم: هو المدرك للزمان والحركة وما يُحتوى فيهما.

والغيب: على وجه الاختصاص هو ما يعلمه الخالق ولا يعلمه المخلوق.

[١٢٤٢] الجن، ٢٦ . ٢٨ .

وعالم الغيب: هو الذي بيده المشيئة، وهو الذي لا يتمكن مخلوق من الاطلاع على علمه مهما سعى، إلا من ارتضى بمشيئته من يشاء من الرسل، وفي هذا الأمر كان الاستثناء في قوله (إلا من ارتضى من الرسل) وهم الذين تهيئوا بمشيئته للإطلاع على ما يؤتيهم من علم الغيب بعد أن يحيطهم تعالى بحفظه يرعونهم برعايته من كل وسوسة وخوف، فأمر الأنبياء والرسالات ليس بهين إنه الأمر الذي تهتز له السماوات والأرض وتخشع، ولذلك يحاط الأنبياء والرسل بملائكة كرام يفعلون ما يؤمرون، لا يكلُّون ولا يملُّون يعملون طاعة لله وهم يروننا ونحن لا نراهم.

وقوله (ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) إنَّ إحاطة الملائكة الحفظة الكرام بالأنبياء ليُمكَّنوا من إتمام رسالاتهم للناس رحمة. مصداقا لقوله تعالى: {وإنَّ عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون}[١٢٤٣]. وقال قتادة ومقاتل: "ليعلم محمد أن الرسل قبله قد ابلغوا رسالات ربهم كما هو يفعل. وقيل ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل إليه الرسالة. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة بلَّغوا رسالات ربهم. وقال ابن جبير: المعنى، ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته"[١٢٤٤].

قال تعالى: {قل إنَّ ربي يقذف بالحق علام الغيوب}[١٢٤٥] يقذف يرمي فيُصيب، أي أن الله تعالى يُظهر الحُجَّة وهي البيان الحق ليرمي به الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

والحُجَّة دائما بيد من يعلم، ولا يمكن أن تكون الحجة بيد من يجهل. وعلاَّم الغيوب هو الذي لا تُخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض سبحانه انه بكل شيء محيط وعلى كل أمرٍ قدير.

قال تعالى: {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب}[١٢٤٦]. اليوم الذي يجمع فيه الله تعالى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هو يوم الغيب

[١٢٤٣] الانفطار، ١٠. ١٢.

[١٢٤٤] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع عشر، ص ٢٩.

[١٢٤٥] سبأ، ٤٨.

[١٢٤٦] المائدة، ١٠٩.

الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، وفي ذلك اليوم سيُسألون بقوله (ماذا أجبتم)؟ فستكون إجابتهم واحدة لأنهم رسل: سيقولون ليس لنا إجابة إلا التي تعلمها أنت. أي أنهم لا يجيبون إلا بما سجله عنهم المكلفون بهم من الملائكة الكرام الذين لا يظلمون أحداً، ولأنهم يؤمنون بالمطلق إنَّ ما سجله الحفظة هو الحق الذي يعلمه عنهم فكانت إجابة التسليم بعلمه أصدق مما لو أجابوا بغيرها اجتهادا مع شيء من النسيان، فكانت إجابة الأيمان المطلق هي: (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب). ولا علم لنا لا تعني الإنكار، بل تعني الاعتراف بأن ما يعلمه عنهم هو الحق، وهم في هذا الأمر ليس لهم إلا الطاعة والتصديق.

قال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد}[١٢٤٧]. هاتان الآتان تؤكدان على ما جاء في الآية (١٠٩ من سورة المائدة) التي سبق الاستشهاد بها، حيث تماثل إجابة عيسى عليه الصلاة والسلام مع إجابة الرسل بما فيهم عيسى صلوات الله وسلامه عليهم حين أجابوا بقولهم: (لا علم لنا إنك أنت علاَّم الغيوب). ولذلك كان التماثل بإجابة عيسى حين سأله الله تعالى: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)؟ فكانت الإجابة: (قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ إن كنت قلته فقد علمته) وهذا الأمر يدل على ثبات أقوال الرسل مع أفعاعلهم، ولهذا كانت إجاباتهم الصادقة بما فعلوا وليس بما سيقولون أو يجيبون، وما فعلوه هو بين يدي الله تعالى في سجلات الصادقين المكلفين بهم من السائل جل جلاله.

وللتأكيد قال عيسى: (تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب) تتضمن هذه الآية الطاعة والتسليم المطلق لعلم الله الذي لا يكون مجالاً للمقارنة بعلم البشر حيث لا كمال إلا لله تعالى، ولهذا أكد عيسى عليه الصلاة والسلام على علم الله المطلق ودرايته بما

[١٢٤٧] المائدة،١١٦، ١١٧.

في نفسه وهو الأدق والأوضح مما يعلمه عيسى عن نفسه. ولزيادة التأكيد تأكيد عيسى على قصوره عن معرفة ما في نفس علام الغيوب جل جلاله.

وفي التفاسير لقوله: (تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك) تعلم ما في غيبي ولا نعلم ما في غيبك، وقيل: المعنى، تعلم ما أعلم ولا اعلم ما تعلم. وقيل: تعلم ما أريد ولا نعلم ما تريد. وقيل تعلم ما في سري ولا أعلم ما في سرك[١٢٤٨].

ولزيادة التأكيد قال: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) بما أنه قال لهم ما قاله الله فالله الأعلم بما قال، ولذا فهو يعلم بأن عيسى لم يقل لهم إلا ما قاله تعالى جل جلاله، وهو أن يعبدوا الله ربهم وربه مخلصين له الدين. وكما أكد عيسى عليه الصلاة والسلام على علم الله المطلق بكل أمر، أكد على انه كان شهيدا عليهم أثناء فترة تكليفه بالرسالة، ولم يكن بشهيدٍ عليهم بعد وفاته، حيث أن فترة ما بعد وفاته تُعد بالنسبة له في علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. ولذلك قال: (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد).

قال تعالى: {إن الله عنده علم الساعة ويُنزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير}[١٢٤٩] تحتوي هذه الآية الكريمة على ثمانية علوم هي:

١ . علم الساعة الذي لا يعلمه إلا هو جل جلاله. (إن الله عنده علم الساعة).

٢ . علم الغيث الذي لا ينزله إلا هو سبحانه وتعالى.(ويُنزل الغيث).

٣ . علم الأرحام لا يعلم تمامه وكماله إلا هو. (ويعلم ما في الأرحام).

٤ . علم النفس وما تخفي في باطنها لا يعلمه إلا هو. (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت).

٥ . علم الاكتساب والجزاء ثوابا أو عقاب في الآخرة لا يعلمه إلا هو. (ماذا تكسب غدا).

[١٢٤٨] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس، ص ٣٧٦.

[١٢٤٩] لقمان، ٣٤.

٦ . علم الزمن المطلق الذي سينقلنا إلى يوم غدٍ علم غيب. وهو الزمن المستنبط مما تحتويه الآية بداية من الساعة إلى ما ستكسبه النفس غدا).

٧ . علم الموت ومكانه الذي يعرفه الجميع ويؤمنون به لا يعلمه إلا هو. (بأي أرض تموت).

٨ . علم الخبرة والدراية التامة لا يعلمه إلا هو: (إن الله عليم خبير).

ومع أن الله هو عالم الغيب والشهادة، إلا انه يُظهر على علمه من يشاء من رسول، وما يظهره من علم لرسول يشاءه يظهره على يديه للآخرين ليعلموا أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وليعلموا أن وراء العلم عليم يعلم ما في السماوات وما في الأرض فإن أرادوا علما فعليهم بالتوجه إلى عالم الغيب الذي بيده مالا يعلمون، مصداقا لقوله: {عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا إلا من أرتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا}[١٢٥٠].

قال تعالى: {هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ انتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تُزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}[١٢٥١] بطبيعة الحال الذي أنشأنا من الأرض هو اعلم منا وذلك وفقا للقاعدة التي تقول: (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، ولذلك لا يُعقل أن يكون الشيء المنشئ أدرى بأمره من الذي أنشأه. وللتوضيح الذي أنشاء الجنين في بطن أمه هو أعلم بالجنين من الجنين نفسه، فالجنين هو المنشئ بالقوة، حيث لا رأي له في نشأته ولا صورته ولا نوعه، فهذا الأمر بيد من أنشأه إنشاء. ولأن أمر الخلق بالمطلق هكذا وفقا لقاعدة: (مُنشئ الأشياء أعلم من الأشياء ذاتها)، إذن فمن أين لنا أن نزكي أنفسنا. والتزكية: الظهور، أي أظهار ومدح النفس وإعطائها صبغة ليس لها، وهذه لا تعد من القيم المفضلة عند الله تعالى ولا من القيم المفضلة في أخلاق المؤمنين. فهي تحمل العيب على حساب الاستقامة بعلم الله تعالى.

[١٢٥٠] الجن، ٢٧، ٢٨.

[١٢٥١] النجم ٣٢.

ولذا فمن يتوجه بالإيمان إلى عالم الغيب ليزيده علما من علمه يزده حتى يرفعه درجة، ومن يطلب المزيد يزيده ليرفعه إلى درجة من العلم أكبر، وهكذا ينبغي أن يكون الخليفة في الأرض دائما يطلب المزيد العلمي الذي يظهره على الآيات العظام ويُمكِّنه من العمل الذي به تُصلح الأرض ولا تُفسد. قال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}[١٢٥٢]. الدرجات مراتب من العلم لا يتمكن منها إلا من يطلع عليها ويدركها لأجل أن ينقلها للآخرين ليتمكنوا من المزيد العلمي الذي يفيدهم في حياتهم ومماتهم ويوم بعثهم.

ولذا فمن مهمة الخليفة أن يسعى بكل جهده وأساليبه الأخلاقية إلى إظهار علم الله الذي أظهره عليه ليكون بين الناس ألفة ومحبة وعملا صالحا يرضاه. ولذلك لا ينبغي أن يُحجب العلم الذي هو من عند الله عن عباد الله، ومن يحجب علمه عن عباده مهما أُوتي من درجات العلم فلن يبقى على درجته إن لم يسع لتعميمه، فالذي يُسقِط العالم من درجات علمه هو أن يحجب ما ظهر عليه من علم منه تعالى عن الذين يُراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض، وليتخذوا الرُسُل قدوة حسنة لهم في ذلك، فهم الذين ظلوا على أعلى الدرجات بما بذلوه من جهد في سبيل التبشير والدعاية والإنذار والتحريض على القول الحق والفعل الحق والسلوك الحق طاعة لأمر الله تعالى، {قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين}[١٢٥٣]. ولذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالذين يعلمون يُظهرون ما أظهرهم الله عليه للعباد حتى يؤمنوا ويهتدوا إلى الحق والسبيل السليم. والذين لا يعلمون هم يجهلون وهم في حاجة لمن يظهرهم من الظلمات إلى النور ليروا الحق ويتبينوه من الباطل. قال تعالى: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب}[١٢٥٤].

ومع أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إلا أن العبد المؤمن هو الذي دائما يذكر ربه بإيمانه فيما يقول وفيما يعمل، ولذا فالعلم الذي به يكسب العباد يجب أن يُدرك ويُبلغ

[١٢٥٢] المجادلة، ١١.

[١٢٥٣] الملك، ٢٦.

[١٢٥٤] الزمر، ٩.

بالحلال لا بالحرام، ولا ينبغي أن يغش المؤمن بعلمه أي إنسان في مشربه ومأكله ومركوبه، وفي الحديث: (فمن غشنا ليس منا) أي لا ينبغي أن تغش بما عرفت من علم المكاسب والطعام الذي منه يتغذى البشر، ولا تغش الدواء الذي به يعالجون أمراضهم ومرضاهم، ولا تسهم بعلمك فيما يُدمر الخلق والخلائق، فالعلم النافع هو الذي ينفع الناس ولا يضرهم، فإن كان الناتج من وراء العلم ضرر، فإن هذا العلم لا يعد بالعلم الحق، إنه العلم الباطل الذي يستوجب أن يُبطل بعلم الحق النافع.

ومع أن الخليفة يسعى دائما لأن يستمد صفة العلم من العليم الحكيم، إلا انه يعلم ويؤمن بأنَّ ما أُتيه أو سيؤتيه من علم لم يكن إلا قليلا، مصداقا لقوله تعالى: {قل الروح من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[١٢٥٥].

العليم اسم من أسماء الله الحسنى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، العلم الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً سواء ما يتعلق بأفعاله أو أقواله[١٢٥٦].

قال تعالى: {علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}[١٢٥٧]، فعُلم العليم محيط بكل شيء لأنه خالق كل شيء فهو أعلم به، ولأنه حي قيوم انتفت عنه صفات النقص من سهو ونسيان وغير ذلك، ومن انتفت عنه هذه الصفات امتلك العلم التام المطلق، فعلى الخليفة أن يكون عارفاً عالما يحيط من حوله يعرف عنهم دقائق الأمور، يسعى للذكرى وعدم النسيان والانتباه وعدم السهو لأن هذه الصفات هي ما تجعله عليماً بالإضافة.

والعليم الواسع العلم المحيط قدّر المقادير بعلمه الواسع فكانت بأمره كاملة تامة في فعلها وأثرها على الناس، فالأجرام السماوية دقيقة الحركة وشديدة التأثير في حياة الناس قدرها العليم بعلمه مقادير نافعة فقال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

[١٢٥٥] الإسراء، ٨٥.

[١٢٥٦] المجلي شرح القواعد المثلي، شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسني،لابن عثيمين

[١٢٥٧] طه ٥٢.

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[1258]، فتصور أن الشمس كانت أقرب إلى الأرض أو أبعد لاشك سيحدث ما لا يحمد عقباه من حر شديد بسبب القرب ومن برد شديد بسبب البعد، وسيكون هذا ضد إرادة العليم في الاستخلاف وإعمار الأرض وحاشاه أن يكون التناقض في أفعاله. ثم تصور أن تكون حركة الشمس والقمر في غير هذه الأفلاك، لاشك أن المتغيرات الحاصلة بناءً على ذلك ستكون كثيرة ومن أهمها ضياع واختلاف المواقيت التي جعلها العليم لتنظم حياة الناس، ولأن العليم سابق علمه على كل علم وهو علام الغيوب، فخلق كل شيء بحسبان وبمقدار من الدقة والنظام، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ}[1259] .

وقد وردت إضافة حركة الأفلاك والأجرام إلى العليم سبحانه في عدة مواضع في القرآن الكريم، وما تضمنه من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية[1260].

وهو العليم الكامل في علمه، فهو "العليم المحيط علمه بكل شيء : بالواجبات، والممتنعات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة، ونعوته المقدسة، وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت. كما قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[1261]، وقال تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}[1262]، فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها وإخباره بما ينشأ عنها لوجدت على وجه الفرض والتقدير ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي

[1258] يس ٣٨-٤٠.

[1259] القرة ١٨٩.

[1260] المجلي، مرجع سابق ، ٤،١٣.

[1261] الأنبياء ٢٢.

[1262] الأنبياء ٩١.

يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان ويعلم الغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، والجلي والخفي، قال الله تعالى: {إن الله بكل شيء عليم}[١٢٦٣]، والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت،كما أن قدرتهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين . وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي، وما فيه من المخلوقات ذواتها، وأوصافها، وأفعالها، وجميع أمورها، فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يميتهم وبعد ما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار، فالله تعالى هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء"[١٢٦٤].

العليم معناه ظاهر وكماله أن يحيط بكل شيء علما، ظاهره وباطنه دقيقه وجليله أوله وآخره عاقبته وفاتحته وهذا من حيث كثرة المعلومات وهي لا نهاية لها ثم يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه[١٢٦٥]، ويكمن للخليفة أن يكون عليماً مع انتباهه إلى النقص الحاصل في علميته، فالخليفة مهما حرص على إحصاء

[١٢٦٣] التوبة ١١٥.

[١٢٦٤] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١ ، ص ٤٧.

[١٢٦٥] المقصد الأسنى٨٦،١..

المعلومات وحصرها فلن يمكنه الإتيان بها جميعا لا من حيث النوع ولا من حيث الكم، فمن حيث النوع فالخليفة يستطيع الحصول على الظاهر أو المعلن أما المخفي المكنون فلا يمكنه ذلك بينما العليم يعلم أكثر منه، فهو الذي يقول عن نفسه جل شأنه: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}[١٢٦٦]، أما من حيث الكم فلا يمكن للخليفة أن يحيط بكل المعلومات لأن قدرته محدودة على الحفظ وعلى الاستيعاب، لكن ذلك لا يثني الخليفة عن القيام بدوره فيعمل على قدر استطاعته ويترك الباقي للعليم وله في ذلك عذر لأن العليم يقول سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مولانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[١٢٦٧] .

ومن وجوه النقص عند الخليفة التي تمنعه من أن يكون عليماً بالمطلق أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية في معرفتها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تتكرن درجات الكشف فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر، كما أن علم العليم سبحانه وتعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة منه وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها[١٢٦٨].

العليم هو الذي يَعلم علماً مطلقاً، ويقوم بتعليم من يشاء من خلقه، ولكن يجب أن نعرف أن العليم لا يهب العلم مطلقاً وهذه إرادته سبحانه نص عليها بقوله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[١٢٦٩]، وهي حقيقة يعرفها الأنبياء قبل غيرهم من العباد، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}[١٢٧٠].

وتعليم العليم ينقسم على قسمين:

[١٢٦٦] طه ٧.

[١٢٦٧] البقرة ٢٨٦.

[١٢٦٨] المقصد الأسنى ١،٨٦.

[١٢٦٩] الإسراء ٨٥.

[١٢٧٠] الملك ٢٦.

القسم الأول: علم عام غير مخصوص وهو لكل العباد كما يقول الخالق سبحانه: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القرآن خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}[١٢٧١]، والمراد من الإنسان هو الجنس.

والقسم الثاني: هناك العلم المخصوص، والمخصوص يحتمل خصوصية الاختيار للمُعَلم، والعلم المخصوص، فالعليم سبحانه يختار من يشاء من خلقه فيخصهم بالعلم كسيدنا الخضر، {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}[١٢٧٢]، وداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}[١٢٧٣]، فقد علّم داود صناعة الدروع، {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}[١٢٧٤]، وهو علم تطور فيما بعد ليصل إلى مراتب دقيقة ومتطورة وصلت الآن إلى ما يسمى بالدرع الصاروخي وسيستمر الإنسان بتطوير علم داود إلى أن يشاء الله.

وعلّم سليمان منطق الطير بكل أصنافه وأممه، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}[١٢٧٥]، وعلم لغة النمل مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[١٢٧٦]، وإذا كان العليم قد ذكر الطير والنمل فإن في ذلك آية لذوي الألباب لفهم أن العلم المخصوص هنا (منطق الحيوان) شامل لما موجود في السماء من الكائنات يمثلها الطير، والنملة.

[١٢٧١] الرحمن ١-٤.

[١٢٧٢] الكهف ٦٥.

[١٢٧٣] النمل ١٥.

[١٢٧٤] الأنبياء ٨٠.

[١٢٧٥] النمل ١٦.

[١٢٧٦] النمل ١٨-١٩.

وعلّم يعقوب علماً يعمل به فقال سبحانه من قائل: {ويعقوب وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[١٢٧٧]، ثم علّم ابنه يوسف عليهم الصلاة والسلام علمين الأول تأويل الأحاديث: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[١٢٧٨]، والثاني المحاسبة والإدارة، {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}[١٢٧٩].

وأشار العليم سبحانه إلى تعليمه طالوت فقال: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٢٨٠] .

أما سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام فقد علمه كل العلوم التي خص بها بشرا من خلقه، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[١٢٨١]، لكنه منع عليه علما مخصوصا هو علم الشعر، فهو من العلم الممتنع على المصطفى كما يخبر العليم سبحانه: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ}[١٢٨٢]، ولذلك تفسير مفاده أن ادعاء الكفار كان ينصب على وصف قرآن محمد بالشعر، ومحمد بالشاعر، {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}[١٢٨٣]، وهو ما أراد العليم أن ينزهه منه.

[١٢٧٧] يوسف ٦٨.

[١٢٧٨] يوسف ٢١

[١٢٧٩] يوسف ٥٥.

[١٢٨٠] البقرة ٢٤٧.

[١٢٨١] النجم ١–٥.

[١٢٨٢] يس ٦٩.

[١٢٨٣] الأنبياء ٥.

العليم عليم بالمطلق وهو من معاني اسمه الحَسن، العليم ومعناه تعميم جميع المعلومات[١٢٨٤]، فهو العليم بالكليات والجزئيات؛ وقد وصف تعالى نفسه بعالم وعليم وعلام .

وعلمه تعالى واحد لا تكثير فيه، فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كلية وجزئية دقيقة، وجليلة معدومة وموجودة، وصف نفسه تعالى بالصفة التي دلت على ذلك فقال سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٢٨٥]، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء .

وعلم الله تعالى يتميز على علم عباده بكونه واحداً يعلم به جميع المعلومات، وبأنه لا يتغير بتغيرها، وبأنه غير مستفاد من حاسة ولا فكر، وبأنه ضروري لثبوت امتناع زواله، وبأنه تعالى لا يشغله علم عن علم، وبأن معلوماته تعالى غير متناهية[١٢٨٦].

ويمكن أن ندرك سعة علم العليم بالبحث في دقائق علمه، فهو يعلم الظاهر من الأشياء بالمطلق، وهو واضح لأن الإنسان يمكن له أن يعلم الظاهر من الأشياء من دون إطلاق، لكن الذي لا يمكن لكل إنسان أن يدركه فهو علم السرائر والمخفيات، فهو علم اختص به العليم سبحانه وتعالى وعدد قليل من خلقه اصطفاهم، ومن هذه الدقائق علم الأسرار، فهوْ عَلِيمُ بِالسَّرَائِرِ وَالْخَفِيَّاتِ الَّتِي لا يُدْرِكُهَا عِلْمُ الْخَلْقِ[١٢٨٧]، فهو الذي يعلم السر، {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[١٢٨٨]، وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار

[١٢٨٤] الأسماء والصفات للبيقهي، ج ١ ، ص ٢٩٤.

[١٢٨٥] البقرة ٢٩.

[١٢٨٦] تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن حيّان ، ج١ ، ص ١٦٨.

[١٢٨٧] الأسماء والصفات للبيقهي ، ج١، ص ١٢٤.

[١٢٨٨] الفرقان ٦.

مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى[١٢٨٩].

والسر علم اختص به العليم سبحانه، وهو يعلمه بعلمه المطلق الذي لا ينقصه شيء ولا يحجبه شيء، وهو بعد ذلك يعلم المخفي في صدور وعقول عباده لأنه خالقهم، {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}[١٢٩٠]، ويلاحظ في الآية تقديم المخفي على المعلن دلالة على القدرة المطلقة للعليم في كشف المخفي قبل المعلن لينتبه العبد إلى أن أفعاله كلها إنما هي معلومة، فعليه أن يعمل في الخفاء كعلمه في الظاهر عملا صالحا يرضاه رب العرش العظيم، لأن العليم مطلع، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[١٢٩١].

ولأن السر يتيح للعبد أن يتخذ باطناً غير الظاهر، نبهنا العليم إلى بعض حقائق الإسرار، فنبها إلى موقف المنافقين فقال جل من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}[١٢٩٢].

ثم نبهنا العليم أن سرائرنا ستكون حكماً علينا في يوم القيامة، فما من سر مخفي إلا ويظهره العليم للعبد ليعرف ويطلع على ما كان يعمل في الخفاء، {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[١٢٩٣].

وهو عليم بالنوايا، والنية هي من عمل النفس، والعليم وحده قادر على معرفة النية الصادقة من غيرها لأنه مطلع على دواخل الإنسان.

وقد ارتبط عمل الصالحين باسمه العليم، فقد قال العليم سبحانه عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لحظة بناء البيت: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ

[١٢٨٩] تفسير الالوسي، ج ١٤ ، ص ٣٧.
[١٢٩٠] النمل ٢٥.
[١٢٩١] غافر ١٩.
[١٢٩٢] آل عمران ١٢٠
[١٢٩٣] الطارق ٩.

أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}١٢٩٤، لأن العمل لا يُعرف المراد منه حقيقة إلا من خلال علم المطلع العليم فقد يكون العمل رياءً وقد يكون خالصاً لله، والعليم هو الذي يعرف خالصه من زائفة لذلك، ولهذا قالت امرأة عمران، {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}١٢٩٥. وهنا تناجي امرأة عمران ربها السميع لدعائها، والعليم بصدق نيتها.

والنية صادقة كانت أم كاذبة يعلمها العليم كما يعلمنا سبحانه وتعالى في آياته إذ يقول جل شأنه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[١٢٩٦]،

وَتَوَكَّلْ عَلَى الله أي فوض أمرك إليه سبحانه ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد أَنَّهُ جل شأنه هُوَ السميع فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع، والعليم فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم في نحرهم[١٢٩٧].

ويشع اسمه العليم ببعض الدلالات اللغوية ومنها:

إن العليم من الأسماء الحاصلة بسبب العلم، وفيه وجوه:

الأول: إثبات العلم لله تعالى، قال تعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ}[١٢٩٨]، وقال تعالى: {قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[١٢٩٩] .

الاسم الثاني: العالم، قال تعالى: {عالم الغيب والشهادة}[١٣٠٠] .

[١٢٩٤] البقرة ١٢٧.

[١٢٩٥] آل عمران ٣٥.

[١٢٩٦] الأنفال ٦١.

[١٢٩٧] تفسير الالوسي، ج ٧ ، ص ١٢٤.

[١٢٩٨] البقرة ٢٥٥.

[١٢٩٩] الطلاق ١٢.

[١٣٠٠] الزمر ٤٦.

الثالث: العليم، وهو كثير في القرآن، فقد ورد الاسم معرفاً (٣٢) مرة، ومن غير التعريف (١٢٨) مرة ولذا فهو صفة، ومجموع ما ورد في القرآن (١٦٠) مرة، ويأتي بعد اسم الجلالة الأعظم من حيث الذكر في القرآن الكريم، ولذلك تعليل هو أن كل شأن من شؤون الخلق إنما يسير بعلم الله وما من أمر يدبر في السماء والأرض إلا بعلم الله سبحانه وكل شيء من صغير وكبير هو من علم الله وبعلم الله وللعلم فضيلته، لأنه مفتاح تحقيق إرادة الله في اعمار الأرض وإقرار العدل عليها فعلى الخليفة أن يُعنى عناية خاصة بالعلم والعلماء، حتى يكون عليماً ويتمثل صفات العليم المطلق في أرضه التي استخلفه فيها.

الرابع: العلام، قال تعالى: {إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب}[١٣٠١] .

الخامس: الأعلم، قال تعالى: {الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[١٣٠٢] .

السادس: صيغة الماضي، قال تعالى: {عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ}[١٣٠٣].

السابع: صيغة المستقبل، قال تعالى: {وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله}[١٣٠٤]

الثامن: لفظ علم من باب التفعيل، قال تعالى: {وَعَلَّمَ ادَمَ الأسماء كُلَّهَا}[١٣٠٥] .

واعلم أنه لا يجوز أن يقال إن الله معلم مع كثرة هذه الألفاظ لأن لفظ المعلم مشعر بنوع نقيصة، كما لا يجوز إطلاق لفظ العلامة على الله تعالى؛ لأنها وإن أفادت المبالغة لكنها تفيد أن هذه المبالغة إنما حصلت بالكد والعناء، وذلك في حق الله تعالى محال[١٣٠٦].

أما قوله: {وفوق كل ذي علم عليم}[١٣٠٧]، فعليم يصح أن يكون إشارة إلى الإنسان الذي فوق آخر.

[١٣٠١] المائدة ١١٦.

[١٣٠٢] الأنعام ١٢٤.

[١٣٠٣] البقرة ١٨٧.

[١٣٠٤] البقرة١٩٧.

[١٣٠٥] البقرة ٣١.

[١٣٠٦] الرازي ، ج١ ، ص ١٢٧.

[١٣٠٧] يوسف ٧٦.

كما وصف العليم نفسه بأنه يعلّم خلقه فقال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ}[١٣٠٨]، وقال سبحانه: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}[١٣٠٩].

وقد اقترن اسم العليم بعدد من الأسماء الحسنى لكنه أكثر ما اقترن باسم السميع، فقد اقترن العليم بالحكيم في أربع آيات؛ وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لأن الحكمة لا تبعد عن العلم[١٣١٠].

والعزيز بالعليم في ست آيات، ذكر الله هذين الاسمين مقترنين بعد بيان قدرته في تسيير الأجرام الفضائية والكواكب الدرية وترتيب مواقيتها الزمنية كما ورد في قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[١٣١١]، وذلك ليعلم الجميع أن كل شيء موجود إنما هو بعلم ومشيئة وليس أمرا تلقائيا عفويا دون عزة وحكمة، فهذا التقدير لمسير الشمس والقمر والليل والنهار وحركات النجوم في مطالعها ومغاربها تقدير ناشئ عن عزته وعلمه، وذلك متضمن وقوعه على وجه حكمته وأمره، والغاية التي وجدت من أجلها، وأنها مهما عظمت أجرامها واتسعت أرجاؤها فلا يعز إيجادها وتدبير أمورها على العزيز العليم[١٣١٢]، فقال جل شأنه: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ}[١٣١٣] .

والخلاق بالعليم في آيتين، ولذلك لبيان أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هذا التفاوت، ومع العلم بذلك التفاوت فلأجل المصلحة والحكمة[١٣١٤].

[١٣٠٨] العلق ٣.

[١٣٠٩] النساء ١١٣.

[١٣١٠] تفسير الالوسي ، ج١ ، ص ٢٦٦.

[١٣١١] يس ٣٨.

[١٣١٢] مرجع سابق، أسماء الله الحسنى، ج ٣٣ ، ص ٦٩.

[١٣١٣] فصلت ١٢.

[١٣١٤] تفسير الرازي، ج ٦ ، ص ٣٣٠.

والسميع بالعليم في خمس عشرة آية لبيان أنه السميع لجميع المسموعات، والعليم أي بجميع المعلومات، وقيل أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ويدخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم دخولاً أولياً اعتراض تذييلي مقدر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد بمجازاتهم على ما صدر منهم[١٣١٥]، وتأخرت صفة العليم في وقوله سبحانه (السميع العليم) لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات[١٣١٦].

وقد اقترن الواسع بالعليم لكي لا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها فكره، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه[١٣١٧].

وما من اسم اقترن باسم من الأسماء الحسنى إلا لفضيلة الموافقة بينهما لزيادة الدلالة وقوة المعنى وبيان الغاية، فيشرق الرجاء بالرحمة للعبد الصالح، وترتعد فرائض الكافر خوفاً من المنتقم العليم، وهذا أعظم درس للخليفة يعلمه أن يكون في نهج حياته مؤثراً إيجابا وسلباً، فلا ينقطع فيه الرجاء إيجابا، ولا تغيب عنه الصولة في الحق على المستحق سلباً.

اللهم إنك العليم بأمر الغيب والشهادة فاجعلنا في الأمرين من المحسنين الوارثين، اللهم إنك قلت وقولك الحق (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) فزدنا يا العليم علما من علمك الواسع به نكسب ولا نخسر وننفع ولا نضر ونخافك ونتقيك ولا نغتر، اللهم يا العليم اجعلنا وأبنائنا على علم من علمك، اللهم إنك العليم السميع المجيب فنمد أيادينا إليك ونشد قلوبنا إليك وعقولنا إليك وأنفسنا إليك فأجبنا بعلمك حتى لا تكون لنا حاجة إلا إليك سبحانك لا إله إلا أنت جل جلالك لا عزة لنا إلا بك، اللهم يا العليم اجعلنا من أولي الألباب الذين يستمعون القول

[١٣١٥] تفسير الالوسي، ج ١٢ ، ص ٣٢٦.

[١٣١٦] البحر المحيط ، ج٢ ، ص ٨.

[١٣١٧] المجلي، ج ٤ ، ص ١٦.

فيتبعون أحسنه، والذين يعلمون الحق فلا يشركون فيه الباطل، وإذا ما علموا بالباطل دمغوه فإذا هو زاهق سبحانك جل جلالك أنت العليم العظيم.

موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء الثاني

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

دار الزكية

دمشق - بيروت